

منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات أدمي

دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



منصف المرزوقي

الرحلة

مذكرات آدمي

صدر للمؤلف

لكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المنمنج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-
- دليل المرّبي في التثقيف الصحّي: الدار الجزائرية للنشر 1986
- سلسلة كتب التثقيف الصحي -الدار العربية-تونس 1984
- تاريخ الطب للأطفال -دار الألف للنشر-تونس 1982

لكتابات السياسية

- لماذا استعّأ الأقدام العربية أرض المرّبخ: دار الرائي تونس 1982
- دوع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي تونس سنة 1986
- الاستقلال الثاني: دار الكنوز الأدبية: بيروت 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهلي دمشق 2001
- من الخراب إلى التلمس -المركز المغربي -لندن 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهلي -دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهلي دمشق -2006
- إنها الثورة يا مولاي - دار المتوسطة -تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
- ننتصر أو ننتصر -من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطة -تونس 2014
- المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية -الدوحة 2022

لكتابات الفكرية و الأدبية

- في سجن العقل -قواس -تونس 1990-
- حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان -دمشق 2003
- الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- الرحلة-طبيعة دار الأهلي -دمشق 2002- 2010، طبعة الدار المتوسطة تونس سنة 2015
- شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018
- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort appri voisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** Ed paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت www.moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، أمنة
وكل الأطفال المشاعين

شكر وامتنان

جزيل لشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.

جزيل لشكر أيضا لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.

أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر لكل قارئ يشرفني بقراءة هذا العمل وأملني أن يكون قد وجد فيه بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الإحرام

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: الغريب

الكتاب السادس: الملحمة

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم

في شهر يوليو 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طب سوسة التي كنت أدرس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000. قلت في نفسي رب ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرفقتي كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أراسه وأشرف فيه على أبحاث طلّبي ومساعدتي؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسبني لحظة هموم السيلسة وتروّح عن النفس كربيها.

قلت لنفسي لم لا أجب الرواية، تحديدا رواية من الخيال العلمي والسبب نهم قديم لهذا النوع من الأدب أمننته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لرأيتي هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرة العنقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمرها البشر وافترضوا؟

فكرة مبتدئين استُفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان. إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهرية لتزيين حدائقهم الفاخرة؟

لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي غبّرت، ولم لا لبعثي معه حيا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل لخطوط الحمر للعلم والدين؟

المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-العلماء بأمنّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذبوا في النموذج الأصلي.

لكن، لكي تكون لمعطياتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعياً وقرانين العالم المراد بعثه والحال أنني كلما زيت بها علما إلا وداهمني الحوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

ثم من أين لي جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبه داخل ذاكرة مثل مكتبة تكثرت فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبداً لتنظيمها؟
شينا فشيناً تراجعت فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتم التخلي عنها نهائياً في هذه الطبيعة والطموح ينحصر في تخصص ما تراكم داخل هذه الذاكرة من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شينا من المعنى ينبثق منها ليفسر قلّ ليبرّ سبب وجودي.
النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

لكن لسير الذاتية تدعي دوماً أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلاً وهو ما لا أدعي البتة. أذكر حقاً أنني كنت عاكفاً على لوح في الكُتّاب وأنا لم أتجاوز الخمسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلمها فصرخ في وجهي المؤيّب بشدة لأنّتم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنتُ فعلاً أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت أعب لعبة المعلم مع والدي القنفا الحروف التي اتعلمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم يطلب منها لتتعلم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوماً مدرسة؟ أذكر جيداً أنها قالت لي يوماً ضاحكة إنني كدت أصنّف متخلفاً ذهنياً عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضعف بصري وأن والدي غضب غضباً شديداً لما علم بالقصة. لكن هل صحيح أن المعلم نصح والدي بأخذني لتعلم رعي الخرفان عند أخوالي أوعري البعير عند أعمامي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة برمتها؟

لم لا، فالذاكرة ليست جزأنة تتراكم فيها ملفات يجمدها الزمن ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يصقل فيها الحاضر ملفات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاء معانٍ جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإلّا تواريخ تتشكّل من تضارب الملفات، ومما أضيف إليها وحذف منها عمداً أو بلا وعي.

أليست هذه حال كل السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضاً تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص هدفه التمتع في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية سلسلة أحداث تنطلق من الطفولة إلى الشيخوخة. أضف لكل هذا أنه لا يعرف في أي سيرة ذاتية وصف الراوي كيف كانت غرغرة الموت ولا ما الذي حدث له عند عبور الخطّ الفاصل بين الدنيا والآخرة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟

حقا توجد فيه جلّ العناصر المطلوبة في كل رواية أكانت اسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.

كما هو الأمر في كل رواية هناك بطل وهو مزيج من الأنا ومن شخص خيالي. هناك عدة أشخاص يلعبون دورا ما في تسلسل الأحداث. لرسم صورهم عرفت كما يفعل كل الروائيين من بعض من عرفتُ وعاشرتُ من البشر، لكنني عرفت أيضا من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعنتي بطبع لا يمحو. كما هو الأمر في أغلب الروايات هناك بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من آلام وعرف من مصاعب خاتمة بل وسعيدة أيضا منها تواصل رحلته في كم من عوالم مبهمة.

يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما استقرأ رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أن الراوي يحكي في الصنف الأول قصة حياته وفي الصنف الثاني قصة شخص ثانٍ، ولو أنه عادة هو لا غير تحت قناع آخر... وأيضا أنه من النادر أن يكون هاجس الكاتب المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دستوفسكي الأسئلة اللعينة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبة تماما أو يقع التعرض إليها عرضا وتلميحا. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة (الموقوفة كتابية وقراءة على النخب) أو من مشمولات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه الفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد.

حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية كان يحترم هذه القاعدة.

العكس تماما هو ما يفعله أو جالسيبة إلى البعض ما يرتكبه النص.

هو من البداية إلى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها لياليا أبو ماضي في طلامه للشهيرة. بل ويمكن لنقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن النص بمجمله تأمل في هذه الطلام وكل الأحداث التي يرويها الراوي سواء استمدتها من ذاكرته أو من خياله مجرد أمثلة وحالات للتدليل على آرائه بخصوصها.

"الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟

نعم بما أن الأسئلة التي ارهقت دسٲوفسكي وأبو ماضي وقيلهما وبعدهما كم من شاعر وأديب لا تغيب لحظة.

ومع هذا النص ليس أطروحة فلسفية لسبببببب.

شكلا، هو حافظ في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض مكونات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجدية".

مضمونا هو ليس رداً على آراء فلسفية لهذا الفيلسوف أو ذاك وليس محاولة للتسويق لنظرية جديدة استنادا لكم هائل من الاستشهادات والمراجع. هو فقط جملة من التصورات لما يمكن تسميته بفيلسوف عصامي هو نفسه لا يحمل دوماً على محمل الجد كل ما يتوصل إليه من قناعات لا تتوقف عن التغيير.

إن ما هذا النص الذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد السيرة الذاتية والرواية والتصورات الفلسفية؟

ما هذا النص الذي يرفض وضع الحواجز بين الواقع والخيال، بين الذاتي والموضوعي، بين الجد والهزل، بين سفاسف المشاغل الفردية والتفكير في القوانين العامة التي تسيّر الكون؟

لنقل إن الكتابة هي التي فرضت شكله الهجين هذا والكاتب يستعمل كل المداخل الفكرية الممكنة لتفحص أهم مراحل حياته بل وتخيل نهايتها للرد على السؤال الوحيد الذي يهمه: هل حققت رحلتي في هذا العالم مراميها وهل تستأهل ما كلفت من تضحيات ومعاناة أم كانت ولا تزال كما يقول المسعدي "عبث أشر ما فيه جهله أنه عبث"؟

بديهى أنه سؤال لا يطرح بمعزل عن إطاره العلم والسؤال فيه: هل حققت نحن البشر رحلتنا في هذا العلم مراميها الخ، الخ.

خاصية أخيرة لهذا النص المستعصي على التصنيف. هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن.

كنت أعتنم حتى وأنا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين لملاخلاء به ولا موعين إلا القهوة وموسيقى باخ.

الأسباب؟ هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والكتاب في المطبعة.

لا شك أن سهولة الإضافة والحذف وإعادة تركيب الفصول التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهل ومغر لم يكن في متناول طه حسين وهو يملئ "الأيام" وليس للمستكتب إلا الورق والقلم والمحبرة.

وأيا أن الحياة بتجاربها المتلاحقة ما زالت متواصلة ومن ثم ضرورة مواكبة النص لموضوعه، مما يعني أن "الرحلة" لن تكتسب شكلها النهائي إلا عندما أضغ على الموقع آخر مراجعة عشية الرحيل النهائي.

نتيجة الانقلاب الشعوي في " مهذ الربيع العربي " صيف 2021 والحكم علي بأربع سنوات سجن غيابيا، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبعات السابقة التي صدرت ورقيا سنة 2002 و2010 ثم سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرآت في الصبغ الالكترونية منذ انطلاق المشروع.

صراحة أية أهمية لتصنيف هذا النصّ المسترسل في هذه الخانة الأكاديمية أو تلك؟ أليست متعة الكتلة بالنسبة إلى الكاتب أهم شيء ومتعة القراءة بالنسبة إلى القارئ كل المطلوب؟

ما أتمناه أن يجد القارئ في قراءة " الرحلة " بعض المتعة التي وجدتها في كتابتها وخاصة أن يجد نفسه في نصّ طموحه أن يروي في التفاصيل والمتغيرات رحلة ذات وفي العموميات والثوابت رحلة كل ذات.

الكتاب الأول

الاحرام

جَنِّتْ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَكَيْفَ أَتَيْتْ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتْ
وَسَأَلْتِي مَاثِبِيًّا إِنْ شِئْتُ هَذَا أُمُّ أَبِييْ
كَيْفَ جَنِّتْ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
أَسْتُ أَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدمة الكتاب الأول

"اللهم أتم هذه الرحلة على خير."

همس المريض بالجملة ساهماً كأنه يناجي نفسه، ثم تنهد مواصلاً ارتداء أسماه على مهل وقد انتهى الفحص.

اللهم أتم هذه الرحلة على خير!

أذكر أنني توقفت عن كتابة الوصفة، أنني نظرت إليه بانتباه متجدد، أن بعض أبيات للمعري تدافعت من أعماق الذاكرة منها قوله:

وهوّن ما تلقى من اليأس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر
وقوله

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما تنفك في دأب سفر
وقوله:

أنا بالبلبي والحوادث أخير سفر يجذبنا وجسر يعبر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثرة التكرار تشارك فيها الأميون وكبار المفكرين والشعراء. ألم يقل عمر الخيام؟

"هيا لندع عم غد يا صاح

ولنعتم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء"

ألم يقل ابن عربي هو أيضا في نفس المعنى "لواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر في الحياة الدنيا مبنى على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام" الحياة رحلة مجالها العالم بكل اتساعه؟! لم لا؟

ثمة في هذه الصورة الشائعة المغرية شيء لا يستسيغه فكري. ففي الرحلة بمفهوم ابن بطوطة ليس المطلوب من بني سفر التوقف كل كيلومتر لزرع ما تحتاجهم أبدانهم من خضروات وفواكه وانتظار موسم الحصاد لمواصلة السفر وقد تزودوا بما يكفي من الطاقة للمرحلة الآتية. لا حاجة لهم أيضا لحفر الآبار على طول الطريق حتى لا يموتوا عطشا أو للانطلاق دوريا وراء الغزال الشارد بحثا عن صيد والجوع يعصر امعاءهم. إنه وضع أغلب المرتحلين في الرحلة بمفهوم المعري ومشكل ضمان الأكل والشرب والماوى والأمن تحتل جل زمن رحلتهم.

صحيح أن هناك قاسم المشترك بين الرحلتين أي ضرورة الدليل. إلا أن هناك فرقا جوهريا في طبيعته. فالدليل في رحلة ابن بطوطة شخص لا تربطك به أي صلة عدا عقد ظرفي. يجبره هذا العقد على قيادتك على طريق محفوف بالمخاطر وعلى مكافأة هذا الذي خدمك نقدا وشكرا عند وصول الهدف. بعد ذلك يذهب كل واحد في سبيله تنساه بأسرع ما ينسالك. أما بمفهوم المعري فالدليل جزء لا يتجزأ من ذاتك سواء اتخذ شكل الأب والأم أو القوة والمثال في الفكر والعمل.

وأيضاً: رحلة الحياة تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مثيراً على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها المهد ونقطة نهاية اسمها اللحد. حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف تنفلا بالأقدام، لكن جَلَّ استكشافه له كان لقمع الفن والفكر والموسيقى والأناة الذهن لا غير.

أضف لهذا أن رحلة الحياة استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال في طبقات الذاكرة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها. ما المتبقي إذن من شرعية استعمال الصورة؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها. ليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصور العالم سلحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطرهما بدلا من تصوّره منفي ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم لم نقرّفه إلا في خيال مهوسين؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والاميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعصافها، يذرعونه في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أي من العصور السابقة.

هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة. كل الكائنات الحية في حلّ وترحال أزليين أكان رحيل قطعان الحيوانات البرية على سطح الأرض أو قطعان الحوت في أعماق المحيطات أو أسراب الفرائس و الطيور في السماء. بل تكتشف وأنت تتطلع بالبصر والبصيرة لما فوق هذه السماء أن أجرام الفضاء من كواكب وكويكبات وشموس ومجرات تتدافع هي الأخرى في كل اتجاه وكأن القانون لا ثبت لشيء أو أحد على مكان أو على حال.

وراء الوضع ظروف وأسباب قاهرة تفرض ارادتها على كل الكائنات وكل الكائنات وعلى رأسها الكائنات الأسمية.

هكذا تدافع الأوائل مئات الآلاف السنين في الأرض ذات العرض والطول في البداية جريا وراء طريدة أو هربا من صياد.

وأيضاً بدافع من أهم عامل عند الأسميين: الفضول.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض:

يقال إن هناك وراء هذا المكان الذي ولدنا فيه جبال تلامس قممها السحاب!

يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا تعرف له ضفاف!

يقال إن هناك في قارة أخرى غابيت لا تدخلها أشعة الشمس!
يقال إن هناك داخل هذه الغابيت الخائفة كانتات أغرب من كل ما ينسج الخيال!
يقال إن هناك على ضفاف نهر أبله الزمان جبل من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف
آية آلهة علمتهم صنع الجبال!
يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتد آلاف الكيلومترات بناه قوم لا
يضاهيهم بشر في التوحش والتحصن!
يقال إن هناك وراء هذه الصحاري أو تلك بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في
هذا العلم الغريب!

لا أحد يعرف ما الذي يوجد وراء هذا الأفق ولا بد أن نرى ما الذي يخفي!
للرحيل وازع هام آخر هو الحجّ لأماكن اصطفاها الأميون لموعد مع المقدّس ناهيك عن
كونها الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقل طيلة أناة الطقوس.
أخيرا لا أخرا التبادل: تبادل الجينات والبضائع والأفكار والعادات والتقاليد وكل ما
نتشارك فيه ويجعل منا بشرا بالخصال وبالعيوب التي نعرف.
لا غرابة أن اقضي العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.
هكذا تدافعت مع المتدافعين، مغامرا، طالب علم، سائحا، حلجا، لاجئا، أشدّ الرحل إلى
كلّ فج عميق اسمع عنه أو تدفعني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر دوما في
الوجدان:

سفر تجد عوضا عن تفارقه	واتعب فإن لنيز العيش في التعب (الشاعري)
إني رأيت وقوف الماء يفسده	إن ساح طاب وإن لم يجر لم يظب
والشمس لو وقفت في الجود دائمة	لملها الناس من عرب ومن عجم
والأسد لو لا فراق الغاب ما اقتربت	والسهم لو لا فراق القوس لم يصب
والتبر كالتبر ملقى في معانده	والعود في أرضه نوع من الحطب

*

تسلم يوما أنك مهما سقرت بالجسد فلن تكفيك حياة واحدة لاستكشاف ما يحفل به العالم
من روائع.
هنا نتقّم القراءة كحلّ لشعور الغيب وكبديل لعجزنا أمام اتساع المكان وضيق الزمان
الذي خصص لنا لاستكشافه.

أليست بديلا عن السفرات التي لم يمكنا حسن الطالع التمتع بها؟
ألا توفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي والراوي هو الذي تكفل بكل المخاطر
والمتاب؟ ألا تفتح لنا ذوات من لا نعرف من الأميون فستكشفهم عبر نصوص الشعر
والأدب واليتميز الذاتية، لا تُهم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار
الناس؟ ألا تتأكد إبان هذا التجوال في الذوات الأخرى أننا نختلف عنها ولا نختلف كثيرا،

فنطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا مَنْفَذ لأحد، وأنا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعاً من بقية البشر؟
داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغممر امتطى مطهم النصوص استكشف المستكشفين بقدر ما أستكشف ما يستكشفون.
هكذا ارتحلت مع بحارة حنثيسوت نستكشف بلاد كوش وبونت، مع حنون نستكشف الشواطئ الغربية لإفريقيا... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمًا وجهه نحو الشرق مع ابن جبير إلى ذلك المرفأ التنن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام، مع التاجر سليمان السيراقي البصري في رحلته إلى الصين ، مع الشيخ الأكبر والشريف الانريسي والكناني البنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزري وابن الخطيب وهم يلمتسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو النيل المقدسة، ومعهم لكشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مَر القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وحجافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.
ارتحلت مع الاميرال الصيني المسلم تشنغ خه من مقاطعة شانشي بحثًا عن طريق يوصل الاسطول الضخم إلى مرفأئ شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر و شرق إفريقيا .

ارتحلت مع ابن فضلان لتأمل معه مشدوها أراضٍ بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف.. مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة.. مع ابن البيطار من مالقة إلى دمشق عبر القيروان منقبا في أسرار النباتات.. مع البيروني ابحت معه عبر ربوع الهند في معتقدات آدميها المقبولة منها والمرذولة... مع المجريطي أنقَب في بغداد والبصرة عن رسائل اخوان الصفا أعود بها أثنى غزيمة .
ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كويلاي خان...
ارتحلت مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحت عن العلماء .

ارتحلت مع كولومب شعاره شعاري: أروع السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقوننا.. مع فزبوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس دراك وجون سميث وكوك وبانكس ويوقنفيل ولايروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها العنبر سماها الأوائل دمعة الآلهة.
ارتحلت على متن "البيجل" اراقب ما يخطه بعصية رجل اسمه "داروين" ومع بيرري وامندوسن ونوبلي وشلكتون أستكشف معهم القطبين.
ارتحلت مع مارجريت ميد وجلمس فرازر وكلود ليفي شتراوس، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات" البدائيين"

والمُتوحشين” ومعقداتهم هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تقسد بما نسميه التحضّر.

للسفر بالوكالة لنا اليوم وسائل أخرى تضيف عطائها لعطاء الكتب. هكذا وصلت أبعد نقطة على الطريق منذ خروج الأوائل من إفريقيا قبل مئات الآلاف من السنين وأنا أتابع لحظة بلحظة على شاشة التلفزيون نايل ارمسترونج يضع ببطء قدمه على سطح القمر ناطقا بجملة الشهيرة.

آخر رحلة لي بالوكالة -والمطوية فيلم وثائقي - كنت مع أغرب قفلة اخترقت الصحراء في قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا نساء قبائل التبوّء يتلجرن في الماعز والتمر والرسلة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل. يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلى إلا عبر عيون الذكور !

*

يواصل العالم، مهما سافرت بالجسد، بالقرءة أو بمشاهدة الأفلام الوثائقية، تحثيك باتساعه الأخرق.

تسلّم يوما أنك لم ترتحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول. كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأملأ العينين منها وهي تتلاطم في أشواق البراكين! كم من أعاصير وصحارٍ وجبال وغابات وسهول لم يكحل جمالها عيني! كم من كانئت مدهشة جانبها وجانبتي لا التفت إليها ولا تعيرني أدنى اهتمام! كم من آثار رائعة كدسها الأعميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها! كم من جزيرة ساحرة تختبئ في أعماق المحيط لم ألجأ إليها ولم أغادرها مودعا بكاء السكان ومن يبتلعه الموج بحسب في عداد الأموات! كم من روائع لم يقبض لي تأملها فما بالك بالتمتّع بها، كم من مغامرات مثيرة لم يقبض لي الحظّ أن أعيشها وحتى أن أسمع بها!

يا إلهي كم من روائع مرّت أمامي تهيني عطاءها ولا أنتبه لها، كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى!

أه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن لأتفحص أجنحة الفراش. اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله ولم أرى منه إلا النزر القليل القليل من نماجه.

ومع هذا... يا للحصاد!

يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، شعر الحبيبة، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!...يا للوليمة والعالم روائح الحبق والتعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسئل عن عطر النساء!...يا للوليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن للجوع والماء الزلال للعطش!...يا للوليمة والعالم خزير ماء السواقي، صفيح

الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرد، الرقيق للنائي، نداء عشق حسون اعلى
شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجدة تغزل، أذان الفجر بصوت
رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!

عجبي ممن يتدافعون إلى المتلحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها،
والفنان الأعظم يضع على نمتهم، مجانا، في كل لحظة، النماذج التي يقلدها فبيع
الرسامين: قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام،
يختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلبل... هضاب متموجة من الصحاري الصفر
والبييض... أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد... نهر جبار يشق طريقه بحذر بين
الأدغال والرمل... بحيرة صافية تكشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور... ورقة
خريف ركبت ظهر الريح جاءت شهوة السفر... سهول شاسعة ملتحة بالأيض أيام
وصالها مع الثلج، أو بالخضرة أيام موعدها مع الربيع، وبصفرة الذهب حين تأتيها
حرارة الصيف بالثيق... جبال متكبرة توجت قممها بلسحاب وبالثلج... أدغال كثيفة
تتصيب عرقا تحت سماء بلون الرماد... بدر يرسم على صفحة البحر نهرا برقا موجه
من ساطع النور... سماء تتلألأ بجواهرها ليلا.

وأيضاً من كائنات تنبارى في الغرابة والإعجاز تزحف على البطن، تطير في السماء،
تغوص في أعماق الماء، تمشي على أربعة أو على طرفين، وأغربها على الإطلاق
الكائنات التي تسمى البشر.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتاهي صغرا
واللامتناهي كبرا واللامتناهي تعقيدا... أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح
على ما لا يعد من الألغاز وكأن صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف
عليك من الملل.

كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي جرت، كل هذه التصورات للعالم التي آمنت بها في
تفاعل متواصل صعب وخطير مع بني جنسي وبني جلدتي!

كل هذه الأفكار التي تلاطمت داخل ذهني أمام حيوية فائقة تغير، تضيف، تحسن، تعيد
باستمرار ترتيب شؤون هذا العالم!

كل هذا التعجب والاعجاب والذات تنتقل من مفاجأة إلى مفاجأة، تنتقل بين الرهبة
والخشوع، بين الحيرة واليقين!

نعم، إنه حصد تعجز عن وصفه أكمل لغة يطوِّعها أفصح لسان لأنبيغ مفكر أو شاعر.
ومع هذا...

*

تأتيني يوما فكرة التدوين لهذا الحصاد... للرحلة بمفهوم المعزي لا بمفهوم ابن بطوطة.

أهزّ الكفّين استهزئ من نفسي وأشق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرّد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يجنّد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رُويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟

من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفده وصف؟

من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أسارع الى رمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالمفاتيح المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والأثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفّلت ظروف الحياة بؤاده بلkra بعد انضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنيّنا ثم تعود الى السطح مدجّجة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

ليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بنكرها الركبان وتنتقلها الأجيال؟

اليسم أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر؟

ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحالة الماضي ما أبعد عني أخطارا كثيرة ووفر عليّ كم من مشقات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلا رحالة الأجيال القادمة؟

وأیضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي توزّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

ألم أجعل شعاري في الحياة قول الشاعر: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"؟
يتواصل الشّد والجذب بين الرغبة والرّغبة.

يصمت النقاش سنوت، ويوم لا أتوقع يعود السجال بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزاف طاقاتني طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمنّن فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لتصالح ذاتي مع ذاتها قبل آخر منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربّما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أذرق ألقية على نفسي، ربما لتزايد حدة الشّعور بأقرب الأجل المحتومة وضرورة استجماع شئت ذات مهدّدة بالتفكك، أو لسبب تحرّكه قرة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحلجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحص ملفات تراكت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تثبتق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفت بي من كل حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جيدا.
اليوم 600 14 من الرحلة

**

أترتحل في علم أم في علمين؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة...أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟

الا نقتصي جزءا هلمنا من رحلتنا في هذا العالم ونحن نيام؟
كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نساferها كلنا كل ليلة دون استثناء!

ربما لأحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها تثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهناها فيه من غرائب وعجائب؟!

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن رحلة الليل، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرد على كل استقراز معرضا عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبيه والسؤال بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يظبيهما النوم؟

تتملص حتى "م" من الرد عليه. لما تقضت يوما "ب" بالرد، تفاقمت حيرة الطفل بل انتلعت فيه أولى المخاوف وأعقها.

ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحنث عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟

ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أم غير التي رضي بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمل الرهيب بتصوّر حبل شفائف متين تربط "م" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطع الحبل وبقيت النفس سجيبة العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

في بعض هذه الملفات الحاضرة بقوة في الوعي رغم قنمها، ينزرنني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، دون مزيد من التسويف والمماطلة.

أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدة مقصودة.

يتصاعد منه الإلحاح ومئي المشاكسة. أشعر به قد غير اللهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام.

يسقط الرأس-المرة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كل مرة كئني أرفع
صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهاى لا تكلف نفسها شرح الأسباب.
يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة
على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد
رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ القور وتغلق
الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأم ابتسامة مشففة أمام طفل مغلق راحته على حجرة
هيبات أن تتفع في صد الكوابيس.
نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع؟! لمانا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين...
بين ماذا وماذا؟!!

*

توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه.
أنت لا تمثّل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأً لمانا تستودع بكل ثقة جسدا
فقد تأهبه للكّر والفرّ دفاعا عن وجود على الدوام مهذّب.
من هذه الطقوس أيضا التخفّف من جل لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء"
الغريب الذي سترحل قل الذي سترحل-إليه أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو
ملايس سهرة أو حتى درعا وسيفا.
حقًا، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم
الصيادون في عالم اليقظة لا تحسبًا لما سيلقونه من أعداء في عالم المنام.
ثمّة بالأساس ضرورة التخفّف من صدق هموم هنا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة
التي نوّد.

وفي ملف ما زال حافلا بكل التفاصيل، يتصاعد من الشرع المظلم عويل امرأة تخرج
منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تنزع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نانمين
ومستبقيطين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني
مبتهلا لكل آلهة الأماميين وشياطينهم أن تكف المرأة عن تعذيب نفسها وتعذبي.
لقد تعطلّ المصعد الذي يرفعها ويرفعني عادة دون جهد إلى الأعالي المجهولة.
مصعد؟ تغزو الخيال صورة أكثر حادثة.

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداء الأحوال
النفسية وراكب نقد الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع لأحد من سكان
العملة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبني.
يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟
- كل المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور اليلسية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي ... شعر كالحرير يداعب خذي...تَنفَس بطيء يبعث في هدوء... كلمات خاقئة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلّل تفاحة أو تفاحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعاقبين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل الممتشج. تتحرّك شفاه بحثا عن الراحة المقطوعة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفي بقي الجمر الملهب داخل الروح. تأتي الرجل المتزايد الارتخاء قشعريرة برد لذيدة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤثرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض يؤر توتّر.

- استحضار آخر وسائلا.

يرفع الأب يده يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت. تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محسورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسّط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمتصّ منها يبلغ الحذر شيئا ليس للغة مصطلح عنه ولا للقصة حاليا فكرة عن طبيعته. يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

نعم لكن أين نصل بعد نجاح عملية الإفلات من قبضة "الواقع"؟

*

أغرب ما في هذا الذي "نحطّ" عليه ونعيش فيه جزءا هاما من رحلتنا أنه ليس له علامت قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثائية بأربعة شمس وأحيانا بنصف شمس خضراء تسيح في سماء بلون الورد. كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الغاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشالجال وماجريت.

هل الفنّ صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهزّب من فضاء الحلم أيضا فكرة الأخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

أهمّ ما نعيش غرابية المسافر الذي يضع رحله في مثل هذا الفضاء. قل واحد من أبنه الرحالة "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟"

لسؤال داخل لسؤال ماذا لو كان الحالم -أكان لاوتسو أو الفراشة- هو نفسه حلم يحلمه حالم قد يكون هذا الذي تسميه بعض الرؤى الله... حالم يحلمنا نحن جميعا مما يجعل منا مخلوقات حلم تحلم بدورها مخلوقاتنا.

المهمّ أنّ الذات، أصبحت "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له... شكلا تخفّف من خصائص الشكل... فكرة مبهمّة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن... شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.

الذات الآن وسط حشود من النمي في بعض المتاجر الضخمة. تحقّق في دمية تلبس حلّة العرس ثم تغزني وهي تبتسم. تصرخ في دمية أخرى مخصّبة الشفتين بالأحمر القاني أن اغتتم موسم التخفيضات. أية تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه النمي؟ تتدافع من كل الاتجاهات بلونات صغيرة شبيهة بقطرات لضباب أو بفقاع الصلبن. داخل كل فقاعة أنمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخ الصامت يدوي في أرجاء العدم.

الديكور هذه المرة نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتر عن فيضان المرلض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني أيها الغبي ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تطلق يا سيدي-ستاتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تطلق، لسانق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثقّ به.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطة ليحييه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الأشهر في شكل وجه معوج لأدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي... النرويغ! أين يوجد هذا البلد؟ تتعالى من اللأمحدّد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس أدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء تبتّ في أشداق الحوت. بصرخ في البحر أن أرهب غضبا غير محدّد السبب. ترعبي قهقهة تتصاعد من حجرة كلب أعرج. أنحني لالتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لته من العش. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثم أرميها في الفضاء فتفتجر بالضحك.

تحضر الذات مجدداً أنها أخفقت وأن عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبداً. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرة يجب أن أعيد هذا الفرض للعين؟ يأتي الردّ صمتاً ساخراً ومهتداً من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرات. المهمة! أية مهمة؟ لنذهب المهمة إلى ألف جحيم. يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر تبتنا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه بّ يجلّ وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى للوجهان مُعلّقين في الفراغ. يتصاعد من المسجي على الفراش أنين من يرفع أثقالاً لا قبل لإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: كم أنت مروجع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأثيب جبينه مستكراً ضعفاً مشيناً، ينزاح النقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقاً، أنه يركض خبياً، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلاً والهدف قريباً.

يتجّه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائته. يركض هرباً والكلب وراءه وكذلك البئر.

تنتصب العسارة البيضاء التي تتأطح النجوم، أمشي على سقفا متجهاً الى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكة في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القتل. أنحني لالتقاط نظارات سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحقون فينا بصمت، أدعوهم للدخول فيتدافعون حولنا، تحتج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فناجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟

كم من أنمي دخل فراشه هرباً من "الواقع" ونهض منه هرباً من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بلنار!

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من نلما وحلموا واستيقظوا.

نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم خاص بكل تغير كل ليلة يتلاشى بلسرعة التي ظهر بها.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الإبهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحداً فيه ولا تدخل حلم حالم.

اللهم إله!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صنفه، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعنا على اللقاء في عالم أوضح معلم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوماً من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحل أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوفاً ومعتدراً وهي لا ترتمي بين ذراعي؟

لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقتي بحيرة كأنها تعصر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوماً من الأماكن التي ترتاد؟

*

ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة نهاراً معروفة ولو نسبياً إلى ديار أخرى مجهولة تماماً... أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجدداً والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ... وتلك إلى آخر منعطفات الطريق.

وأيضاً أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعته أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحياناً إلى تطلّع المنع إلى نهاية الحياة نفسها.

ويبقى أهم سؤال: ما هذه التجربة التي نكررها كل ليلة التي نسميها الأحلام؟ ثمة الأقاويل القديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وأخرى عن مخاوف وشهوات مكتوبة تفوح الأحلام بنيتها.

لا شيء مقنع فيما تدعي بخصوص هذه التجارب الغريبة وخاصة لا شيء عن طبيعة المكان الذي نشد إليه الرحل كل ليلة.

ماذا لو جعلنا منه "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا يدّ من العودة إليه نورياً للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية.

تصوّر أباد خفية تسلم الذات حال نخولنا الغيبوبة لنترك هنا أوساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الرحيل والعودة للصراع.

فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه بنمّ فيها. كل ليلة صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبل وفرض الراحة على الكائنات لنجد كل صباح عالماً جديداً معافى جاهزاً لأحسن استعمال؟

ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأساً على عقب هي التي تجعل من ليقظة قاعة الانتظار والمنام العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية أي هي التي نحقق فيها مهمتنا السرية التي جننا من أجلها العلم.

لكن من أين لي اثبات رأي كهذا؟

إغلاقاً لملف شائك سأعتبر دون أدنى حُجة مقنعة أو برهان متين-أن ما نسميه “العلم” هو عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشتُ من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلص من عبءٍ ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير.

أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّي لي أتصوره دُشيء من الشماتة-مُنهمكا في كتابة رحلته لقراء من الأشباح، ليس فيها إلا أشلاء جمل عن أشلاء أحدث لا يربط بينها رابط وقد لا تعني شيئا... وشكيا مثلي من صعوبة مهمة عبثية لم يكلفه بها أحد.

**

عن مسألة كيف ومتى انطلق الطريق

أين نضع نقطة انطلاق رحلتنا في هذا العالم؟ الولادة إكيفية نقرر أنها بداية الطريق وكل بداية لا تتبثق من فراغ؟ لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟... ربما إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية... إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفاهيم ربما همّامع كم من مفاهيم أخرى-سراب من صنع الخيال والفكر؟

إنها إشكالية ضخمة لكن مهلا ما زلنا في بداية تشكل تصور البداية، "الحقيقية"، في ذهن الطفل.

أولى المعطيات حسب ما بقي مترسّخا في الذاكرة هذا الحوار بينه وهو في الرابعة أو الخامسة من العمر وبين دليله الأول.

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مزّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميّز دوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه "ح" يوما: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بقصبي ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر، ثم هناك أشياء لا نقولها أم لابنها.

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القش:

- لا أحبّ شيئا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، "حدثيني عن "با"، متى عرفته، كيف أصبحت له ابنا؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن "با"...؟

العهد على الرواية ثم على خيال الطفل والكهل لتجميع أهمّ المعطيات عما قد يكون منعظا هاما من البداية المبحوث عنها.

تحرك العم إبراهيم ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قريبة لم يسمع بها أحد غير سكاتها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات حاجته.

العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "يا".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قبايعا في زنزانة رطبية ولا حتى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديدا. لم يكن يتمرن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هاربا من الجيش والشرطة. نعم، كان الرجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفته كأن الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحق في نسيانه على شدة استخفه بالمواعيد.

ترى هل تردّد العم إبراهيم في اختياره للمهمة التي كلفه بها شيوخ القرية؟ ربما انتبه للواقحة التي تنضح بها كل قسماث الشاب الغريب. هل أرهبت جرأة كانت تطبع حركات الطلّاب الطموح وسكاته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوفّاد الذي كلن يستهوي حتى ألد أعدائه؟ أم هل اختاره رغم حدّة طبع واضحة -لأنه كان وسيما؟

يأخذ الشيخ قراره باختياره هو لا غير وحسنا فعل. مهلا. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قيل أن تأخذ القصة طريقها الموعود.

كلّ الأدمي الذي سأسميه "ب"؟ يتردّد.

أول مشادة بيننا ولو أنها لن تقع إلا بعد عقود وفي مستوى من العالم غير الذي نسميه لواقع.

- سنذهب مع الشيخ، وإلا كيف أكون؟

- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...

- قلنا: كفى من أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في فم غيرهم.

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنتصوري مؤذّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أبنا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستشرف بانتسابك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية بلحقتها التاريخي للمائتين وراء أذناب البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "ب".

ثمة أيضا سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "ب" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطا في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي... عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجانب تقتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية... عن انتصر الغزاة القدامي على الغزاة

الجند وبحثهم عن ساعدوا أعدائهم... عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان.

هكذا وجد الشلب المتهوّر نفسه رغم أنه مؤنّباً لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلّم في الجامع الأعظم وهو سألخ على الأقدار الظالمة التي ما انفكّت تضحك منه، جاهلاً أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعاً.

هو الآن وجها لوجه مع امرأة قررت تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب.

لا ترقص طرباً أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللاممكن ممكناً.

أيرضى الشلب المتعرج بفلأحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زئوبيا أنها أنت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنها لو عرفته لقلت فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء.

المهم في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الآخر الذي بدونه هو أيضاً لن أكون.

هل تردّدت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجره توقّر لبعليها أيضاً متعة عبّرة؟

يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذب أخيراً ربغ ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟

أم هل اكتشف وراء عيني للمها نكاء حدّاً بهره ولو أنه كان من قوم لا يبحثون عن النكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبئها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلّم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صدّقت، ومع تلك قررت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قررت مشيئة سلطة عليا لا يعصى لها أمر.

كانت "م" تتحرك داخل روبا لا يحصل فيها إلا ما أراده كائن لا مردّ لإرادته.

كيف لا تؤمن بلمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث.

أنصّورها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تتاجي نفسها للتغلب على قلق ميهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتاتاً، لكنّ ذلك لم يحصل... كان بوسع أن يولد مشوهاً، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصابة العينية ذلك الصيف المشؤم، لكن ذلك لم يحصل... كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصيف الآخر المشؤم، لكن ذلك لم يحصل... إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيشب على رجليه مجدداً كالغريت الذي أحبّ.

بقدر ما كانت " ما " تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا " مكتوب " أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار بقدر ما أمنت دوماً أن العكس هو الأقرب إلى الحقيقة.

في رؤياها هناك قوة قاهرة فرضت على قطرة الماء النازلة من أعلى شلال الزمان اتجاهاً أوصلها إلى شفتيها بالرغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية.

أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تدحرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يميناً بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل.

نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوماً. ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي ولد الفتح أن يتخذ له مساراً آخر؟ أليس المصطفى هو سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القمص اتخذت الاتجاه الذي حدده بوعي وبدون وعي؟

ماذا لو وجدوه في الغار وقتلوه؟

سلى عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضوء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كلغاب والحانمات الزغب كلرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمن.

لكن كم من تقاطع آخر كان بوسع أن يوجه الأحداث في اتجاه آخر يمنع وجودك ووجودي!

كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجدة، أو ذلك الجد، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل الشقاء والشر، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهقا وكربا.

ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمي "عام القطرة" بذلك الجد أو تلك الجدة؟

أغض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذه قصتي وقد انتصر أمي اسمه هتلر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

ربما كانت قصتي مع "ح" تتخذ أغرب المسارات.

تختار الساحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفنها. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة نخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية.

تفتح عينها على الأقصى، تحقّق باندهاش في النادل الأسمر المقرب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم الموزّدين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبا واقرا من السوط وهو لسبب يجله منّهم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعّن فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حيننا غريزيا لهذه الجداول الشقر. يتوقّف في نصف الطريق وقد دامه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأنب المهنيين:

- عفوا يا دكتور، هل ضايقتك هذا العبد السلمي في شيء؟
- لا أبدا، أبدا.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطبنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئا!
تطّلب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لانّدة بالفرار وفي عينها غلالة النعم، والنص وحده العليم بأنّها نسيت ولم تتس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنانستها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفلدي".

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرّجا وهي تخترق ساحة سان ماركو ركضة نحو القتال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هنتر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقياسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطن وبركات الربّة فريكا.
يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محشّد خمسة أسلاك؟ حرك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

لا بدّ رحمة بالملايين من ضحايا حبيب الرب ووطن ومصطفى الربّة فريكا من دفع مسار القصة الجماعية في الاتجاه السليم... أو هكذا تتصور.
يتعالى الصراخ من مرضلت عنبر الرضّع:
- النجدة، النجدة!

تدافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى ليتسمرن مدهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!
- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!
- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسور الحائط لاثنا بالفرار!

فجأة يدوي عويل بصم الأذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بلسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفتش حضر لتوه لمعابنة الجريمة:

- كفى هستيريا، أينها المرأة الغيبة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعية هتلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أديلفة، أه يا صغيري!

تنقياً الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغشى عليها. كان الرضيع المفضل لديها في كل المحضنة، بل وكنت تنوي تبني اللقطة.

بالمناسبة، كم رضيعاً لم يمتم كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم ملت لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريباً جداً من ضفة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة نيه لها كل هواة الارتحال في الزمن.

من البيهبي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت "با" يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها "ما"، ومن ثم لما وجدت أصلاً. بغض النظر عن تناقضاتها، السبب الرئيسي لرفض مثل هذا المنعطف في قصتنا الجماعية أن أدين بوجودي لأكثر سفاح في تاريخ هذا العالم.

ماذا لو وضعنا مقرقات الطريق الذي تتحرك عليه قصتنا الجماعية هذه قرونا عديدة قبل ولادة السفاح الكبير لآتمتع برحلة مشروقة ومن موقع المنتصرين..مثلاً عند دخول حنيعل روما واحراقه المدينة وذرّ الملح على ترابها حتى لا ينبت فيها شجر ولا يرتفع فوقها حجر. ها قد اتخذ مجرى الأحداث الوجهة التي أفضل.

يتوجه العجوز الأصلع البدين بأطب المهنيين للشباب الأسمر المتعرج:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكك لم تأكل منها شيئاً! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجلسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسباننا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي لوفاض. إنها حريفة تأتي دوما مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! تفاعلة وتفيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سببا، مخترقاً سلحة القديس حاثون في اتجاه معبد يعل إليه أكبر آلهة امبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف

لسنين. ثم يدبر الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفلجاً ولا يفلجاً أن يراها تحذق فيه فاغرة فاها.

هراء كل هذا؟ طبعاً في عالم صنعته رؤى بالغة البساطة بالغة التبسيط. بديهى أن رحلتنا لم تبدأ بالولادة وإنما بأحداث مهنت لها ، منها حتى لا نذهب بعيداً - ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وفي ما يخصني ترتد حنبلعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غرباً بلل التوجه شرقاً، ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من أحداث أخرى لا تخطر لي على بال.

كلنا ننتيق من تسلسل أحداث لم تكن يوماً لا مبرمجة ولا حتمية أو قابلة للتوقع. كل القصص، حتى قصة العالم، ارتطام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بالضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقدر ولا شيء مكتوب إلا اللامكتوب.

كم مثير أن تسير الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا الشكل، أية قيمة للعيش في عالم ليست للمفاجأة أروع هداياه؟!

**

سكوت الذاكرة عن تفاصيل الاحرام ودور الخيال في ملئ الثغرات

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوقّر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدعي اكتشاف تصميم البناية المجهولة. هذا ما يضطره لتصور قطع ربما لم توجد يوماً لكنها تملأ الثغرات المزججة.

أكبر ثغرة في ذاكرتنا كيفية وصولنا هذا العالم.

لا خيار لك إن ألحّ عليك السؤال غير تفحص وصول أقرب الأعميين إليك والفرضية اننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تبينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي ساكن له الدليل الذكر والذي سيناديني بأجمل ما أسند إلى من ألقاب: "با".

نعم كيف بدأت رحلة هذا الأعمى الذي سيعرفه النصّ تحت اسم تفاعلة؟

انتبه ذات يوم أن داخل فكري شبح كالفار في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركاً وراءه ما يستطيع من الأثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو لجبره على الرحيل.

أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علماً تؤنّي إلى لختفائه أو حثّه على البحث عن قطرة أخرى يعبرها.

هل أقول للشبح ألا يجرب معي حيله، وأني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أم جميلة فخورة.

هل تدخّل لديها لتتبعني؟ هل تدخّل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدموم، وليس هو الذي يترجّانا استقباله؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد.

وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هواء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسلرّع نقات قلبي النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتمس على الوجنتين ابتسامة عابرة. تأتي هذا الذي لم يعد مجرد فكرة في ذهنين من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح هذه الفكرة فعلاً... لضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

أمام أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حق أن أولد

وأنت يا أبته، يوم أولد

امنحني حق أن أحييا

أعنياني على أن أعيش أحلامي

وأهوانني لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح

تبتسم الممرضة وهي تمدني بتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محيا المارة وعبونهم على بطن امرأة تمشي متسائلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب وأحيانا نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من جديد في نسق مننظم كلهث الراكض...

عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

ها أنا منذ تلك اللحظة التي وضعت فيها نتيجة الفحص في جيبي والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يقودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة، أنك لا تخطيء فهم ما يلزم به وما ينهي عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بقفاز من حرير، توجهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرّمة سعيدة؟

مثلي لا يكتفي بالقيل والقال. تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

من حوار منقطع أنا فيها السائل والمجيب إلى مناخاة لن تتوقف.

ربما تستفرد بك وتفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهورّة! سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معك. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي أذان صاغية. تكلم لأسجل لقراني كيف انطلق الطريق.

أمام صمتك ثمة كتنبي الطيبة... وخوف مبهم مما فيها من إمكانيات الفشل.

تبتّ في فكري المشوّش أنه لا خوف فلصانع مجزّب أخذ كل الزمن. كأنه طوال هذه للشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عالية: اصنعوا، قيسوا، شذبوا، لا تغفلوا، قفوا، واصلوا، هنا جندوا، أحر المسات هناك. فعلا كئلك أمام مهندس عبقرى صامت ومخفي ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة

الحمد والشكر لكل هذا الاقن، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصلت جميع شتلك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظر بك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة ومن الصياد.

في محطة الوصول ويتصادف أنها غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بكل أدب أن أنزح إلى الخلف حتى انتهاء مراسيم استقبال الوافد الجديد.

تأخذ الأيدي البلرزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيدي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكور دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخطب خطب عشواء. نتعثر ضربت قلبي هي الأخرى. يتصبب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الألام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق البيضاء وأعضن على نواجذني لأمنع الصراخ الذي في داخلي، فتتهزّ لصداه الصلمت كل أصقاع الروح. كآئك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرًا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزا أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاطم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتبكا.

ترتفع حدة الحوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظنّ أنه أنا.

هل تتلّكأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتحوّل داخل ذاكرة "ما"؟ ربما أنت محق في تردّدك... أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول لك عد من حيث أتيت لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سدّدك أياها تجربة الحياة؟

تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصبّب الوالدة الأزلية عرقا. تصرخ والألم يعصر أحشاءها إنني لميئة.

تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيدي الخفية قد أساعت الطرز قتأتي مسخا مشوها.

آه، صدقتني وقررت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره.

هل يمثل هذه الحجج أفتعتك بلمواصلة؟ أهكذا زال آخر تردّدك؟ يبدو كذلك وبقات القلوب تنتظم والأيدي المحمومة تتبليطاً والابتسامة تعود لشفتي القابلة.

كأني بك تتحرّك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقووم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين هذا العلم والعممة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحكك مبتهلا مشجعا ناسيا قرارا بأن أتشمت فيك في أول مناسبة.

تطلق الوالدة الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه. تنفصل كالثمرة الطازجة، كنفاحة لنيدة، قطفت من غصن أقدس شجرة.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور

وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزرود القابلة الأزلية احقافا بمجيبك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.

صرختك الأولى.

هل هي حقًا مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية؟
ليدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة... ألم القطف من فرط حسرتك
على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن بلب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك
إلى الأبد؟ ... هل أروعك أنك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبه؟
... أدامك الوعي أنك لن تكون نذيرا وإنما أغلب الظن قربانا؟ ... ربما رفعت عقيرتك
لتنذر وترهب... كم مضحك أن تتوجه بالتهديد لعالم مدجج بلسلاح، وأنت الأعزل من
كل سلاح! ربما هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة التي تنتظرك؟ أو أن الأمر
مجرد لغت انتباه تقول للعالم بكل بساطة وإيجاز: ها أنا.

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه، المؤكد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم
ثثار نزق عصبي المزاج، يتميز فيها صراخ كائنات لا تحصى بدوي الرعد، بانفجار
البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح.
لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا عليك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدس: مرحبا
بك في عالم الانهيار والرعب.

أه، يا تفاعلة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية
ولم يسعها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعدا وكأنه ورق
قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلة المهملات. ولم تكن هناك أية هالة من نور
حول رأسك الأصلع.

تطلب القابلة مني وهي تصرخ ضاحكة. أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القدم الجديد إلى
من تنظر إليّ باسمة نافذة الصبر لاحتضانه. أمذك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب
الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها: أعز من أنذر، والدليل لا يقلل الشكاوى،
البيشيش فقط.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب
التي يبثلي بها البعض لأن الأيدي الخفية لأخطأت في شيء ما. براقو، هي لم تبد قصورا
في شيء، لم تتس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي علي؟
أنا! كل الباقي!!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لأخر سيوجه نفة
رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي لوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بلندم وبفوات
أوان الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كل هذه المسؤولية!
أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ أه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في
قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قافلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على
أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسع ليشمل به كل
الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليات المخيفة؟ هل أخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجره إليه مشيا وركضاً؟ سأدعه إلى مطعم، نتبادل الأخبار؛ هو يحدث عما ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بد أنه ما زال يتنكر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى... كل ما أحتاج للنصّ.

تلك الليلة القسرية رجعت إلى المستشفى متعللاً بحجج واهية فطر دوني بيتسمون. أنكر أنّ النوم كان مضطرباً، أنني أفتت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن أخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأول. أنكر أنني وضعته بكثير من الرقة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنني كنت أسترّق النظر إليه طول الوقت، ألقى عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة. ربما هو بصدد فسخ الملفات التي تعنيني!

أذكر أن الأم الأزلية نهرتني كي أبقى منتبها لأخطار السياقة وأنتي افتعلت سببا للتوقف لا صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذت القادم الجديد بين ذراعي لأفاجئ بعينين بالعتي الاتساع مسمرتين على عيني المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتخلّ في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجرب فلا أكثر ابتداءً من المعجزات

- مرحباً.

لا أحظى برّد وأكاد أغضب لقلّة الأدب.

- قلت: مرحباً.

كأني بصمته تكذّف بل مع شيء خفيف من التقرّيع ونكهة من التهكم.

لم أعرف من كل القادمين الجدد من أتى مسلماً معانقا ومصافحاً... لم أعرف منهم من حدّث عما شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال ولحلام... لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العالم بقايط بها شيئا ثمينا... وهذا الأدمي الذي سقوده في مجاهل العالم لا يشدّ عن القاعدة... كل الأجوبة مضمّنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز الموجع... ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين. مواصلة العبث مع الكائن المجهول المتعالي عليّ بصمته.

عفوا، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح السمج؟ أنا ألخّ! أرددش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. أه، لا تقبل تهديداً. مرحى، من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنّي. هل هذا حقاً أول أيام رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية؟ هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنّت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا البعض في تسامح عوالم لا حصر لها؟ هل

تواعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ بلختصار هل أنت حقا مولود جديد أم أنك والد كل قديم وكل جديد؟

يحدث في الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستقراري فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحديق السافر لأبيك، سأطّقتك في نصي بما أريد وما أنا بأمس الحاجة إلى سماعه. ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكدا أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قيس من شعور قد يكون جُزّب في عالم آخر. محكوم عليك أن تنخل هذا العالم غير محتمل بالأم قديمة وعدّات لا فائدة منها ... أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة... أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص.

**

الإفافة

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟
قبل عن الردى أنه يغيب لما نكون حاضرين ويحضر عندما نغيب. كذلك عن بداية
الرحلة.

لتمثل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية.

مثلا تبلورك كقطرة الندى على عشب الفجر.

أو تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل
من الأعراب ليسوا أقل ضياعا. تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع
دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "تعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن
الاستقبال في البهو رقم 1".

يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاذ صبر: "الرجاء من الراطين التوجه
حالا إلى قاعة الرحيل رقم 5". لا أحد يعيا بذهولك أو يبدو مستعدا للرد على أولى
الأسئلة. فجأة تسلم عليك امرأة بحرارة مهتنة بحسن القدوم. يدفعك غريب من الخلف
للتقدم نحو باب الخروج. تُفحم في صفوف مترابطة تدفع بعضها البعض قدما إلى الأمام.
تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل ولا فعل أهم من البقاء طافيا على سطحه.
ثمة أيضا صورة الإفافة.

تستيقظ إن أنت البخار المبحر على أمواج الوجود شيئا فشيئا على صرير الشراع، على
دوي الموج، على صفع رياح أرسيت بك في ميناء مجهول ولا حدود واضحة بينك وبين
الزورق والسماء والبحر.

عند شط الحياة ألقيت مرسى زورقي (تارك الملائكة)

في الضباب تحنّ الظلام

إنها أفضل الصور عندي ولو أنها لا تعني هي الأخرى بالغرض.

بالمعنى المتداول، الإفافة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم
اليقظة. لذلك لا نفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا نفيق لذاتك
تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخبط داخله أو يتخبط داخلي. أضف لهذا أن يقظة ما بعد
النوم تتم وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف دخلناه أكثر من مرة.

مما نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل
الرحلة؟ كل الصور في الواقع عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية التي ستبقى إلى
الأبد جزءا من سرّ رحلة محكوم علينا أن نحضر وألا نحضر بدايتها ونهايتها.

كل ما بقي منقوشا في أولى ملفات الذاكرة أن ما يتبع الإفافة، أو التبلور، أو الوصول، أو
سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرّم بحدود غير مفهومة.

إبان هذه الافاقه، يتشكّل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها... كجملة من المظاهر الموضوعية حولنا وأملنا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة، دوماً بالغة الجدة. تفتاحاً كل مرة بالروائح، بالألوان، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أوج مرح، يدهمك بكل حيويته، من كل المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج.

أنت الآن داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمنى بمنتهى البهت والحذر. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه! لا شك أنني كنت ككل من شاهدت من الرضع لا أكف عن الصراخ في أوج تجدد مغص محكوم عليك أن تجربته طوال الرحلة وأنت تنخل العالم جانعا وتغادره على جوعك الأول.

يدرك العالم المنكب فوقك أنك ما زلت هشاً غضناً قبل لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتنقذ داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلاً. يتجدد مغص الفراغ وكان لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة لذة الرواء والشبع. تشعر أنه لم يعد لك من طقعة على تحل ما يعمل داخلك. لا حل غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى النوم لتبرأ من صدمة الوصول. أنظر إلى بني سفر وقد وصلوا لتوهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبا الذي فارقه كأنهم يتمرنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحبوان الوجل الذي يعنجه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا ويترجع داخلها وقد فاجأه البرق والرعد.

عدة لن تغادرك إذ لا تأتي مكانا جديداً إلا ويشدك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمنن إلى ما أتيت إلا إذا كنت واثقاً أن ما غادرت تحت الطلب توجب إليه متى تشاء. شيئاً فشيئاً تتضح الحدود وتتفصل الأشكال عن بعضها البعض ويصبح لك تدريجياً أنك شيء قائم الذات يواجه كانتك مبهمة تفعل فيك أفعالها. أولها الكائن الذي كان المغارة لسحرية وهو الآن الحارس والخدم الأمين. قريبا المرأة التي تعكس لك أول صورك.

يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سبق التعرف عليها لاحقاً بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الأماميين تفهم تلقائياً منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشغ الملامح بالنور وهو منكب عليك، تبحث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تخفي الابتسامة، وتفهم تلقائياً معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف ترتبك، ثم تعود إلى الصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن ترتب بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح

وهي دوماً على نفس الشكل لتنتقش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرك يديين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلا برفق فيه خشية الإيذاء... وكل الوجود مرتبط بوجوده.

تتعلم باكراً الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر المسائل الدافئ الذي يطفئ دوماً لهيب المغص المتجدد.

ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأبدية، والشئ المنقذ من لورطة التي تتخبط فيها مُصر على غيابه المرعب.

قد يكون أهم انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرم ما هو بأمس الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب الضروري لمواصلة الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم. آنذاك لا بد من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكل باكراً في أعماق الذات، في أحاسيسها وصورها الأولى، دعمة الأساطير والأديان وما تفرع منها وضدها من فلسفات.

ما أعجب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرضع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

**

الخطوات الأولى

ثم تأتي مرحلة الخروج من وضع المتلقي السلبي للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات.

المعلومات عن هذه المرحلة من الرحلة ناقصة في ذاكرة الطفل، لكنها متوفرة الآن وقد أصبح الجد الذي يرصد بأقصى الانتباه عند حفيته أولى خطوات الأدمي على الطريق.

تفلت مني الصرخة:
- حذار، البنت، البنت!

تضحك تفاحة:

- تظنني كنت سأدوس على يدها.

- لو فعلت لخنتك.

لا تنتبه رضية لم تغلق بعدها سنتها الأولى للخناقة الضاحكة. تواصل زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجتها من الفضاء المطوق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه -لأسباب يطول شرحها- "جرانتامو".

تنتهد تفاحة:

- يا أخشى أن تجننك هذه البنت إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سأحتاجه لموعد هام.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وهي اللعبة الجديدة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تنسحب تفاحة مسلطة علي نظرة فيها إشفاق وشك في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البيع".

والآن وجها لوجه مع من ستعرف في النص تحت اسم حزة.

عودة إلى تقنيات القديمة في جمع المعطيات حول بداية استكشاف عالم الرحلة. لا شيء يُعتمد عليه في ذاكرتي حول كيف كانت الأمور في السنوات الثلاث الأولى، لكن تفاحة

وتقيحة كانتا قبل عقدين أو أكثر تحت الطلب كمصدر موثوق لمواصلة تجميع قطع

"البازل". لا شيء في ذاكرتي عما كيف كانت الرحلة في التسعة أشهر الأولى بعد الأفاق، لكن حزة الآن وهنا. هي على أهبة الاستعداد لمدي بكل ما ينقصني من

معطيات. يكفي أن أكون منتبها.

أتوجه إلى رضية تحقّق في صالمة بفضول واستغراب.

- ها قد أخرجتك من "جوانتانامو". أنت الآن حرة يا حرة. أرنى كيف تكون بداية استكشاف العلم في عمرك هذا.

تجلس الرضيعة على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق في مطولا. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب.

ترمي بيديها البضنتين على الأرض لتنتقل كلسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة. تنتصب واقفة مترنحة ثم تدير وجهها بحثا عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف عالم سيرهيا يوما اتساعه.

تدفع بأصابعها المرنكة نحو الرفوف تتحسس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بلدويّ تسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها بلحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

يفترّغها عن ابتسامه أول صبح لأول عالم.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تغلّبه ببالغ التركيز. تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تنزعج إلى أن يأتيها الصراخ الضلحك بالتوقف.

تغيّر الرضيعة اتجاهها وتقصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها شيء لا أتعرّف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تنوّق لعالم؛ فاللسان بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

تنثبه حرة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني.

ترمي الرضيعة براحتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها لتبدأ العيث بفتجان القهوة. - ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني.

تلاحظ البنت تغير النبرة فتتوقف لحظة. انطلق داخلها الوعي بأن هناك موانع ما لأسباب ماء، لكن من الأفضل التوقف عندها. تترك الفنجان لتستولي على الملحقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنثبه للمعجزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية.

حقاً إنها معلومات مهمة. سأستعملها لاحقاً في بلورة تصوري لعالم الرحلة. وفي الانتظار، لرجاء إيقاف الاعتداء على هذا الحاسوب المسكين.

قف ، وراء هذه السطور التي لا تعني شيئاً ظاهرة بالغة الأهمية.

العالم الذي يعيشه داخله الأدمي في هذه المرحلة من رحلته بجانب كونه تجارب حسية شعورية لا تتوقف منظومة من العلامات المتلاصقة دون معنى مثل هذه الذي ترتسم الآن على شاشة الحاسوب... لكن حرة تستطيع شيئاً فشيئاً وضع الحدود وتمييز الأشكال وإضفاء المعنى على العلامات... كل هذا لن يحصل إلا عبر إعطاء كل ما تستطيع رصده اسماً... الاسم ما ادراك ما الاسم!.. في أي عالم كنا نعيش لو لم تكن لنا القدرة على تسمية الأشياء والكائنات؟

تأثني من الرضيعة علامات نفاذ صبر وأوامر ضمنية بفعل شيء جديد. لكن ماذا؟ ما يهمني الآن الاحتفاظ بخريشتها وبما وضعت من ملاحظات قد تستعمل يوماً في كتابة "الرحلة"

اللجنة على هذه الطابعة الغبية. لا تتعطل إلا عندما تحتاجها. قد تكون غير مرتبطة بالحواسيب. يجب أن أبحث عن السلك في هذا التشابك الفوضوي المخيف حول قلمي. انتظري، سنعود للإستجاب لاحقاً. أه، يا ظهري!

فجأة أسمع نقاحة تصرخ ضاحكة: ماذا تفعلان تحت الطاولة؟

تفعلان! ألتفت خلفي لأكتشف حرة ورائتي، وهي على أطرافها الأربعة تحقّق في شخص مجهول يفعل أشياء مجهولة في مكان مجهول أفاققت فيه لا تعلم لأي سبب. تسحب البنت التي أصبحت "ما" طفلتنا من بين ذراعي جدّها ثم تهمس كأنها تحادث نفسها.

- "يا"، البنت تكبر بسرعة. هل فكرت بالقصص التي سنطلبها منك قريباً. تنكّر أن تقيحة حدّرتك في آخر عشاء لنا من إعادة استعمال القصص التي كنت ترويها لنا. نعم لا خيار لك غير تجديد مخزونك القديم.

- تفاحة، ما زال أمامي بضعة سنوات وفي الإثناء انتبهني لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى منك أنت لما كنت في عمرها.

- أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنّها الأولى وأذاك يا ويلي من هذه الفأرة!
الفأرة!

وفي أقدم ملفات ذاكرة الطفل والكهل تنتهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:

- يوم وقفت على رجلك وأنت لم تبلغ سنّك الأولى زغرنت ثم قلت يا ويلي من هذا الطفل الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأرة.

يوم يقف الأدمي أول مرة على رجليه!

إنه يوم أعزّ حقاً، فلماذا لا يؤرّخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتطلق الزغاريد وتتصّب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

ها أنت تحرك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من النار.

ها أنت تواصل تحسس سطح البسيطة بحذر في محله، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ينزاح عنك الخوف تدريجيا فهمت سر العملية وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركه.

كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعا ومطمئنا! والآن تقدم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشة التي تقصم ظهر البعير.

**

أو كيف تتضح تدريجيا كبرى ملامح العالم

لو تابعنا القادم الجديد وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهننا وهو لا يكف عن الركض والرقص والنط والتسلق والهرولة والقاء السؤال وراء السؤال. تلك لأن أهم ما يميز هذه المرحلة من الرحلة دخول الطفل عالم اللغة وتمكنه التدرجي من أهم مقومات وجودنا كأدميين : الكلام .

هل ثمة شيء يميزنا عن بقية الكائنات التي تقاسمنا هذا الكوكب أكثر من الكلام ؟ نحن نتكلم منذ ولادة جنسنا البشري نقل خبرتنا بهذا العالم جيلا بعد جيل عبر بما نخط من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، عبر ما نكتب على صفحات الكتب، عبر ما نسجل في هذا العصر على الأقراص المضغوطة وغدا على شوارذ الذرات. نحن نتكلم للتعلم من بعضنا البعض. نحن نتكلم لكي نقول لرفاق الرحلة لا أمثل خطرا عليكم فبالنبي التطمين بأحسن منه نحن نتكلم لتنسيق جهودنا حتى نسرع بالوصول لنفس الأهداف نحن نتكلم لتبادل الأحاسيس والمشاعر والأفكار نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائنا وأحبائنا إلى طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عمه. نحن نتكلم أيضا لمجرد المتعة عندما نتكشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية غير مألوفة فنسمي ذلك شعرا...نحن نتكلم لنضحك ولنضحك لآنا ننتبه فجأة لغرابية ما نقول وما نفعل. نحن نتكلم مع الآخرين لكن الحوار الصامت مع أنفسنا لا يتوقف أبد. نحن نتكلم ، بنبرة الأم الحنون تمارح طفلها، بنبرة العاشق الولهان يتغزل بحبيبته، بنبرة الشرطي الناهي، بنبرة العسكري الأمر، بنبرة المتضرع عند الصلاة، بنبرة الحزين الهامس إبان مراسم العزاء كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد هو الذي يقربنا وينبعنا، هو الذي يجمعنا ويفرقنا، هو الذي يغيرنا ويضلنا، هو من يجعل من حياتنا نعيمًا أو جحيمًا لا يطاق.

الطفل قادر الآن على تسمية الأشياء التي تتراحم داخل الغرفة الصغيرة التي ينام فيها مع أمه. ثمة الحصير على الأرض، القرية على الحائط القلة أمام الباب، كانون لشاي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الوائنة التي فوقها قسعة الأكل في ركن من الأركان. بخصوص الكائنات الأولى التي تم رصدتها خارج وداخل هذه الغرفة ثمة العنزة والنجاجة والديك والقط والحمار والجمال. ثمة الذباب الأسود بأسرايه الكثيفة وطنينته المزعج خاصة أيام جني الثمر. ثمة نوع ثالث من الكائنات لا مبرر مقنع لوجودها اسمها الأفاعي ومن بين عاداتها المقيئة الدالة على سوء نيتها وقلة تربيته، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طيبت الأمتعة بنية القتل وليس فقط كالذباب لمجرد الإزعاج. ثمة أيضا الكم الهائل من الكلمات التي تمكنه من تمييز مكونات العالم البالغة الحضور والتأثير : الريح ، الرمل، النخيل ، الشمس، لنجوم والقمر . كل العلامات القارة لأول ديكور للعالم سيعرفه الطفل.

المهم أيضا أن يقدرته تبادل المعلومات وحتى الرأي مع البشر الذين يحيطون به وكلهم يتشاركون في اتفاق ضمنى على أن اسم المعزة هو لذلك الحيوان اللطيف الذي يعيش في الركن الغربي من الحوش وليس للحيوان الذي يركبه جده عندما ينطلق كل صباح لمكان مبهم اسمه الغوط لا بد أن يكون فيه كائنات وأشياء أخرى لا يعرف لحد الآن أسمائها. ترى أين هو هذا الحفل الذي يذهب إليه هو وحماره الذي قرر الطفل إطلاق اسم عنتر .

تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدة غير معهودة فيها:

- أدخل الغرفة بسرعة. ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبداً وحذك عند هبوب الريح!
يقلت الطفل من بين ذراعيها هاربا من جديد لوسط الحوش، برؤض خوفا لا ولن يقبل
بوجوده داخله أبدا. ثم كيف يضنيع فرصة تَلْمُلُ شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟ هو الآن
مختبئ وراء نخلة يجبل البصر مبهورا في اكفهارار وجه السماء والموجات الخلطفة من
الضياء تتتالي بعصبية متزايدة كلُّ إليها يقدرح ولأعة تعاكسه، أو كلُّ غريتا أشعل في كبد
السماء مصباحا من "النئون" يرفض العمل.
تتزايد سرعة ومضت المصباح الخفي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في
التعالي، تنذر بما لا يحمد عيابه. يتصيب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حسلبته
بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جدّه يساعده في سقي النخل. تعبّره لحظة
فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال خاصة هو من حماقات.
تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا هذه المرّة وراء أطول نخلة الحوش يمسح
الرمال عن وجهه. تنفعه بقوّة إلى الغرفة الصغيرة، تحميه من جنون الريح تطمئننه
وتطمئن نفسها:

- هل تشعر بحرقّة في عينيك؟

- اتركنيني، أريد أن أذهب للغوط. جدي هناك ينتظرني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

- جدي سيجدني. هو أحسن من يقفي الأثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح والرمل يصفع الباب الخشبي للغرفة كأنه
يريد الإجهاز على صيد طال ترصده: كفى الآن، لا خروج قبل نهاية العاصفة.
زأرت العاصفة أم لم تزار يجب أن يخرج الطفل لأحبّ أملك الواحة الى قلبه حيث له
موعد متجدد مع أهم معلم من معالم العلم.

يصرخ في أمه محتجا، مهددا، مبتزا ومتوسلا

- أريد أن أذهب للعين حالا... حالا... الآن... الآن أريد السباحة في العين مع اصحابي.

- نعم ستذهب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعدي أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى
بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقبل الماء كما تفعلين عندما تلتمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ريع الابتسامة.

- حقا أنت؟ حلوف؟ كبير، لا يفوتك شيء. لا، ليس عليك أن تقبل الماء، أكرمه فقط بعدم
تذييره. انظر ما يتكلف جدك حمد وحماره عنتر من عنتر ليكون هناك دوما في القرية
والجرة ما تشرب.

يقولون إنه بلا طعم ولا أطييب من مذاقه عندما يجفت الحلق ويصل أوجه عذاب
العطش... يقولون إنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون إنه بلا شكل،
هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه

قريحة السحاب من لوحات السماء... يقولون إنه بلا راحة لعجز اللغة وقصور حاسة
الشم... وهو في كل الحالات والأشكال القدرة التي لا تضاهيها قوة.

وشاهدت كيف النهر يبذل مائه فلا بيتغي شكرا ولا يدعي فضلا (إيليا أبو ماضي)
وكيف يزين الطلّ وردا وعوسجا وكيف يرقّي العارض الوعر والسهلا
تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزرجر الإبلا
ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلى

لا خيار للطفل غير الانتظار إلى أن تنتهي هذه العاصفة ومواصلة سماع أم تواصل
رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق
والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام
ميتة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق.

تنتهد الأم ثم تنطلق منها الصرخة التي لن ينساها الطفل أبدا:

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله
يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

ثم تعود للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل.

- لطف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي
سيضحكني ويخفف من أحزاني؟

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا
أصلا لغير متعة الضياع!

وفي ملف آخر يؤكد "يا" ما روتته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثرت عن
الأنياب: لما هبت الريح، ففنت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد.
ركضت وراءهم يوما كمللا والريح تمحو الأثار. ولما بدأت الشمس ترميني بأشعتها
كلاصيد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلني عليه إنس أو جن، أيقنت
أنني هلك. ثم تنكرت كيف يكون المشي عندما يضع الطريق. حفرت لي في الرمل
حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم
وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهرا وأمشي
ليلا إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يفرئك يا بني من الصحراء
جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجد تجهمها وويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.
تعود الأم لدورها الأزلي تفسر وتحذر.

- يا بني، نعم هذات العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات
بضربة شمس.

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في العالم.

- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.

هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فحسب وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

"ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار ردّه وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها بهوت من عليائها كالطير الجريح. ها هو في فضاء خياله يمدّ يده بحذر نحوها ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلُّ أن يريق على الجمرّة الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ثم ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاة الشمس، لاعنا ما سببت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران.

الطفل الآن حبيب الحوش. ممنوع عليه العودة للهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها اللاعم يتأمل تواج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. ليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكثبان؟

يغمض الطفل عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيقي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع.

تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أن فيها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة، تبتّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تباللنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تلهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

الظلام أخيرا بعد طول الترجّي ونفاد آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نفاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.
يستبطن الطفل الشّد والجنب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار حب ابيه
للصحراء وبغض أمه لها خاصة وقد جاءتها هي وطفلها مرغمة وديعة عند عتلة الزوج
الغائب بانتظار رجوع لا أحد يعرف مواعده.
أفتح هنا القوسين لأعرب عن اختلافي التام مع "ما" رغم احترامي لرأيها وشرعية حبها
لأراضي خضراء على مدار السنة تحمل أجمل بساتين الزيتون والعنب.
صحيح أننا كنا نكتشف العالم في زمن لم نستشر فيه ندخله ومن مكان لم نختاره ، لكن
العالم يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان نتخله وفي أي زمن تتلبور فيه.
نعم، نعم لا أجادل في بدها كعده ، لكنني أقولها متحلا كامل مسؤولياتي أنه لا يوجد
مكان أحسن لدخول العالم من بوابة الصحراء... شريطة أن يكون الدخول ليلا.
نعم الصحراء جهّم في عزّ الظهيرة وأروع مكان على سطح الأرض عندما ترحل
الشمس عنها .
تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحب قحها في الصحراء وتهجمها على شمس
الأب والجد:

- لا أجمل من شروقها حتى هنا... لكن... لماذا تتقلب فيما بعد إلى...
تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث
يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع نغاء الجدي المولود الجديد.
ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.
- أه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي لطف وأرحم!
- "ما" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟
- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.
يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها
الناس جميعا وينشأركون فيها منها أنه لا توجد إلا شمس واحدة.
كلّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية
مرهفة وخجلا دقينا. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا
الفلاحون والفقراء.
- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش
"البخونق" الذي تليس؟ هل كان ثوبا سحريا تختفي دخله فلا يراها أحد؟
تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.
هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من
العالم السحري ولتقل "ما" ما تشاء.

¹ نسيج من القطن يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين إلى مستوى الخصرة تعتمره النساء البدويك
خارج بيوتهن (لنانشر)

- أنا و"با" وجديّ نحبّ القمر. أعرّف أنك أيضا تحبّينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخرا هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهني إذا حلالك النوم.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّ، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المكثّرة التي يتخذها عندما يتسرّبل بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف اللصوص والعشاق.

هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق والأنبياء .

من أوحى للشعراء بأرقّ وأجمل الأشعار؟

"كم عمر القمر؟ (ايسا)

ثلاث عشرة سنة.

تقريبا"

من علم الأدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعرّف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟ ثم أكنّا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟ أهمّ من كل هذه المشاكل الضخمة في هذا الموضوع من النص فرضيات الطفل عن الصلة بين القمر وبين الهلال.

- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتعبه الهلال.

تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه القمر.

- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه شيء آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال للشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجا. أليكون للشمس هلال لم يتقطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس لسبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد ملك، كل ثمين يا حبيبي فريد.

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهمّ الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.

أولى النظريات أن القمر كوّنة كبيرة قد تمكّن جسمه لنحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكافنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمسك به الكائن العطوف الذي

تصلي له أمه، يهش به على العفاريث التي تملأ أحلامه، وبغايه تعود الأثباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، نترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحور بكيفية جذرية-وظيفية في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الأئمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح الليل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعو في قصص قومه "إبليس".

لم تكن رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مر العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كل طريق يتبعه، واكبوا بتغير ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا وأتبعوه إلى أن حطّوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعداء وهم يشاهدون بأعينهم ولحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترجح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

يعود الطفل لأسئلته الغريبة التي لا تتوقف أبدا.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من فضة كالتي حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صكفتي، يا بني، لا أدري.

- سأقول لـ "با" عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنعت الشمس ومن أي شيء خلق الله القمر. سيكون متفقا معي في كل ما أقول.

- أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هو.

- "ما" أريد أن تروي لي أطططططط طول قصة في الدنيا، أنا أحب القصص لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جنتك التي...

- لا، لا، تعرفين لكك لا تريد...

تضحك "ما" بجرج.

- صحيح أنني لا أحب القصص... قد يكون لأن جُلّها للتخويف أو لتزيين الواقع.

هل نطقك "ما" حقا هذه بهذه الجملة أم أن النصّ يقولها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئا من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعادت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. أليست هذه هي القاعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الأدميين؟

يعود الطفل للكلام وهو مصرّ على ألا يتوقف عنه ما زال تحت وطأة اكتشاف كل ما يزخر به من إمكانيات لأشباع فضوله وخاصة لمنع التواصل مع أمه من أي انقطاع. تقاطعه الأم تضع اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

- أنصت لأي شيء؟

- للصمت... لكل هذا الصمت.

الصمت الذي سجلم به الكهل طيلة الرحلة وهو دوما محاصر، مهتد، معتدى عليه بكل ما يصدره الأنميون من صراخ وتأوه ونواح وتَضَرَع وشخير وتسابب وهتاف... لا خوف أن تتجاسر أي من الكائنات التي تسكن الصحراء على رفع عقيرتها بأي ضجيج منكر ووقارها ليلا يثني عن كل ضجيج بذيء وعن كل جنل عقيم... حتى أرقّ الموسيقى خطأ نوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا... في ذلك المكان الذي لا يشبهه مكان، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، يتضوّع الجوّ إحياء ووحيا لمن يعرف التقاط الإشارات فيتجدد التواصل بين السماء والأرض... ولأنه لا الجبل ولا السهل ولا البحر قادر على استخراج ما تستخرجه الصحراء ليلا من أعماق الذات، حكم عليها وعليها وحدها بانجاب الأنبياء... هكذا وقف كم من آدمي في حضرة أبهى صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: نعم تنكرت الآن من أنا، تنكرت من نحن وماذا نفعل كلنا هنا!

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو.

لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع ذوي انفجار شמוש أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظ أو من سونه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعلس ليريق ما يتلألا في حالك السواد الصامت.

يرفع رأسه يجبل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته

ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنتور.

سؤال آخر يرهق به ذهنه مشغولا في أن ولحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة الليل عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟

إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون تقويا في ستر داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو أمه والنجاج والماعز والبعات والأعصم والجدة، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "م". الله. ألا تتردد دوما أنه نور يوجد

في السماء؟ كان وثاقاً أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لراه جالسا على عرشه.
أه، لو استطاع التسلسل عبرها ليلاهي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!
كم استقرّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتاجيه أمه في الجهر وفي
السرّ، فضولا جارفا! كم صوراً مشوّشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها
حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته
في فكر الطفل أنه أسمى بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام
بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مرددة أنه لا سند غيره يرجي في هذه الدنيا. لا
مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البعد ولا
يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، بوضع على سلم، بوضع
بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لممرور جسمه.
ربما يجب المرور من ثقوب أوسع.

الحلّ بالطبع: استعمال فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العنيفة. يبدأ الطفل
التسلق وكل درجة يعتليها تزيده خفة وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها
كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام.
تنصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند
النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته لصغيرة إلى أعلى محاولا التمعن في ملامح
وجه مشرق بالنور.

يتنسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر -وهو جالس على ركبتيه- بانفاسه الهادئة
على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حب! تتزاحم المطالب عن أب يريد عاد من الغربية
ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أم يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا
تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من
النجوم لجيد "ما"، وعن مساحة جديدة للجدّ، وعن أتان جميلة يزوجها لعنتر لتخفف عنه
وحدثه، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلالل أسئلته ليفهم كلالل شيء. تتسع
ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشعب روحه بالطمأنينة وتصره
سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

- "ما"، لقد كلمت الله وقلت له ...

ترتسم على وجه الأم علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلغها.

- "اما"، ولكنه قال لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الاخلاص للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق. إنها آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه.

تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض إبه الفجر

تهزّ طفليها برقة متزايدة الحزم فينهرها صارخا:

- اتركيني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلون ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحول إلى بحر فان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصقّى لم يتجمد بعد في سبائكها.

ما من شك في فضل بناء معابد ملثوثيبتشام على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كيف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الوند. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أنتا ربما ندين لهم بثباتها على الشروق بعد كل غروب رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات.

تستغرق "م" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتبع وجهه الله يبتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنتظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمر الطفل أمام معجزة جديدة. القمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء.

إنها حالة يتخذها العالم الطاوس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مآبدة الحياة. بداهة لم يتخر داعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النقفات لتزيين دار الضيافة. أليبهزنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوضنا عما سنلحق من غناء في دار ضيافته هذه؟

**

معلم الزمان وكيف أنه نغم ايقاعه رقص الفصول

شينا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي فُلق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله.

تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لما يخرج بحثا عن "با".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حل. فلشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتضمتم ومغص الجوع يرحل ثم يعود. يكتشف الطفل يوما أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداثا تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الكل بل حتى هو. أية دهشة كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟

ثمة يوم أدرك بلكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب وهي تسارع لإعداد طعام لا تطبخه إلا في هذه المناسبة: عصيدة بالسكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به وترجي حمايته من أخطار مبهمة. ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيبها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما يأمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكّد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحبّ هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبوب والحبّ والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوما أن عليه مواجهة القَرّ بعد طول المعاناة من الحرّ.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجمّهم. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

"ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الموضوع ويواصل الكهل العمل عليها بالفكر والخيال في بحث لم يتوقف يوما.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي لفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا عندما نعود لأرض جنتك، بعيدا عن هذه الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنم أغلب الوقت ولبليالي الصقيع ما بقي من الزمان. ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دولي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تتنسم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟ بتقدمه في رحلته ستضح للطفل كل ما تزرخ به هذه التغيرات من رسائل ومعاني.

- "ما"، أي فصل هو الأول؟ أيهم المفضل عند الله؟ أنا متأكد أنه الفصل الذي خلق فيه كلالل شيء.

تخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابت به طفلها وينسبها همومها.

- الأجل طبعاً... الربيع.

يتقدم الطفل لأول أيام الخلق مرحبا ومهنتا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهتس نافذ الصبر بعصاه وبيعض الربيع على بقايا سحب عذسة بلون الرماد فتتصرف متأقفة متوعدة برجوع قريب. ثم يمرر خرقا لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على نكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجددا عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباهه جل المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلى بها وما يزال. هل عرقتم نهارا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوفر على الدوام، صحيح أنه كان بوسع الفنان الأعظم أن يظهر مزيدا من الكرم أي مزيدا من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات بغيرها طول الوقت، حتى نتسارع كل صباح للنافذة لصرخ مرة: ما

أروع هذه السماء الوردية، وتلوة أخرى: أفت، ما هذه الصفرة الغيبية التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنه سيكون يوماً بطعم القرع.
تقول كفى دلالة يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يلمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحلبي والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتندافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أول فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بعنق. تتبعتها أول نحلة يدل اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أول نملة غلرها، تترك عينيتها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينتته، أول عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركع إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

هذا الربيع "إيسا"

حتى ظلي

مفعم حيوية

أن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبيغ الحشائش والأزهار من رسائل الحب. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنها نحلة تريد دس رأسها في أزهار البرتقال. تؤكد أنها تعتبر نفسها صلحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلاً الاستنشاق النهم. تكئني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعاً بأذف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها-عبر مختلف الفضاءات- بصورة أنف عتياً فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع للنحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتتمان صفقة لا تريداني-ظلماطرفاً فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهم. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كل ما يمشي وينط ويطيير ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهز. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ كذبة الجماع.

نعم، ما من شك أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغير الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدم مرحباً بالصيف ومهنناً بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطبق له فراقاً.

يطرد القادم الجديد بفضاظة ما بقي متردداً من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها فتت من سباتك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيراً ذراعيه فيدخله الطفل سعيداً بقاء موج عاد مضيافاً بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأميين من شيق. ترتخي الأعصاب بطول ليل يصل كالمقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانها الكائنات ترخّب وتمنى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تنوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تسمح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حل وقت الجد والكذ.

يجمع الصيف حوائجه متأففاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدم الطفل لأول أيام الخريف مرحباً ومهتماً بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمثلت للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تنترت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يلبق بأشجار محقطة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيبها دوماً حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصغير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصه الموت. تمتلئ لسماء بأشلاء بقاياها وبقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأغصانها المحقطة ووروداً حمراء كأنها أنزع إخطبوط تضرب في الهواء لتنفع عنها عدوان الريح. تتمكن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتئني. يشتد لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيراً مسترسلاً ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلم الأبكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخلمر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الأذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الريح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟
نعم ما من شك أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي اقتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأول أيام الشتاء مرحباً ومهنناً بحسن الوصول.

يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدة البرد. تنلّكأ حبكت الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تججم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفددة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالثخمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضاً يوماً قصيراً مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والذفاء. ينقر المطر على سطح النيوت وزجاج النوافذ بضربتك خفيفة تأتي بنوم تتخلله أحلام هانئة.

نعم، ما من شك أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي اقتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

حتى لا يتعطل الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما"، طبعاً الفصول الأربعة إخوة، من أحبهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوماً فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي ويوسان تقادا اتخاذ أي موقف، الأول مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كلّه أجزء من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّاً في أذن الربيع: أنت الأول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الصيف: اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيدّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم وراءك.

إنها الدائرة التي حكم علينا أن نرتحل داخلها أكل التغيير الذي يفرضه سيلان الزمان تتابع الفصول أو تتابع الحياة والموت.

قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرر نفسها بثبات عبثي ممل... وقد تكون لشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهائية أن تكون نقطة بداية ولكل نقطة بداية أن تكون نقطة نهائية وذلك لتواصل مشروع عنيد بالغ القدم على الدوام جديد.

**

الدليلان

من الأوهام الكثيرة التي تصحبنا طوال الرحلة أن تغيير المكان يمكن أن يخلصنا من الهموم والحال أنه لا يفعل إلا تغيير طبيعتها.

في بعض أقدم مفاتيح الطفولة ينكبّ شيخ جليل على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- الحصباء وصيف الصحراء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال وعلى مسئوليتي سأبلغُ ابني بقراري وسبقه وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

ينتبه الطفل للفرق الهائل بين الصحراء والسهل وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرًا.

ها هو يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيل.

ثم ها هو يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات مئت الطفوليين أمثاله.

يتقطن سريعا لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكنزة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد الثأني يدفعه باتجاهها على ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بذيابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجرح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفضه كما رأى الخرفان والبقر تفعل لبيصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بقضيلها الحشيش على الخبز والتمر.

يأتيه أخيرا ألدّ إرهاب فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور البقائيق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاض بالخوارق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تتساقب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حفل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

شينا قنبينا يتسلسل الهدوء إليه فتثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أم وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

تتسارع نسوة من الأقارب والأباعد لمعانية بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعدت مكسوفة من الصحراء بطفلين لا معيل لهما.
ينصت الطفل الذي يفتعل النوم لهمس مسموم يعلمه باكرا أن بوسع الكلمات أن تكون أحيانا أكثر إبلاما من للكلمات.

- أه، هذا هو الطفل الكبير! "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحمت به على عبد وقانا الله من شرّ العباد وشرّ العبيد. ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسماننا... أه، والده هو الذي سمّاه تيمنا بملكنا الطيب! ...

أي مسار كانت تتخذه رحلتي لو كانت "مأ؟ هي التي أطلقت عليّ اسما محملا بتعليمات وأمان صامتة غير التي يحملها اسم ملك مقاوم سيموت مسموماً ومنغيا لختاره الأب لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار!... أهم ما في هذا الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جحافل الخلق وإنما إملجك في مشروع مبهم، في أمل واسع، في مهمة غامضة عليك الانتباه لها... لكن من أين لكل عمر أن يصبح الفاروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخلصا والها!

تنتهد احداهن بصوت عال تفتعل أقصى التعاطف والأسى :

مسكين حقا هذا الطفل . يقال في كل القرية أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس... أرجو الله أنه ما زال على قيد ...

لا تجد أخرى لإظهار فطنتها غير الاستشهاد بإحدى حكم الفلاحين.

- يتيم الأب يتوسد الركبة ويتيم الأم يتوسد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا في امه :

- لا أريد أن تموتي أنت أيضا، أسمعين؟ إذا متّ لن أكلمك أبدا!

تحكم الأم ذراعيها، تمسح دمعا يتهاطل من عينيها ومن عينيها:

- اطمئن. لن أموت، هدئي من روعك.

- و"ب؟ ... هل... هل ملت؟

- يا حبيبي، أبوك حي يرزق.

تجمع النساء حواشيهن يتلعثن ببعض عبارات الاعتذار لانذات بالفرار.

من قال أنه إذا كان بقدرة الأحداث أن تسوء إلى أكثر مما هي عليه من سوء فإنها لا تتردّد أبدا؟

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمت كأثما التصقت بحلقها:

- لُوك في مكان لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء... هذه الليلة فقط.. جدتك سنزورنا قريبا... ربما غدا... سنأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها... ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما" لست جانعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا، أبدا.

تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كلن بها تردّد بين ربع الابتسامة أو تفجر الضحك. تضع تقفها على رأس ابنها ثم الخد المبتلّ على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخا وقد جاعته فكرة عبقريّة أخرى: - "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ المغص الذي في بطني.

تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشريحة المصنور وصغير اللعبان راميا بأخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش.

تتخلل أحلام الطفل ليجوز تضع عجبنا داخل فرن الطين تتفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جلع. فجأة يشعر بأمه تهزّه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. جدتك أتت لنا بقفّة فيها ما يكفينا لأسبوع، وبعدها يفتح الله.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثارة، مرحة تبرز من قربتها دوريا لتتقدّ أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها لصارخة، بجوّ الفرح والحنن الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها ، بالخيرات التي كانت تحملها في قفها الثقيلة.

يجلس الطفل بين امرأتين تتهلّسان لفظور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما فطور. تلتحق بهما بعض نسوة الحيّ. جنن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط المدينة الصغيرة وقد أفلقت على حصار دبابات الاستعمار.

تصرخ الجدة في الطفل الهانج وقد نفذ صبرها من ضجيجه.

- إن لم تكفّ هرجك فإنّ العبيّنة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما ستري.

العبيّنة! اسم الغولة في هذه الربوع.

يا ما ستهبّده الجدة بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.

يغمض الطفل عينيه، يترصدّ قلعا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يتعمّق صمت الصمت ويغوص العلم في ظلمة لا قرار لها. يغرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاء؟

يصدر الباب صريرا ويتحرك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هزتها معه إلى الفراش ملء راحته والنزاع على أهية الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم أم هل وجد وحده القاتون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجاتك دوما في الجيب؟

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ أه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنا. أمك ساهرة على الباب.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جنأ أو إيسا وأنه سيشرح رأس العبيثة بحجراته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجنا لفراش أم تقرر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

يتوسع عالم الطفل تدريجيا ليكتشف كم فيه من روائح وأبصار كم هو زاخر بأخطار غير التي رصد لحد الآن .

- "ما؟ من أخطر؟ العبيثة هنا أم الأفعى في حوش جدتي؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام!؟

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبيثة؟

هو يعلم أن أمه تخفي عنه سراً له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهاوس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنأ أو عفاريت، إنما من البشر لكنهم، لسبب يجعله، يريدون الشر به وخاصة ب "با".

يا للطفل المسكين لو علم موعده معهم تلك الليلة!

يتعالى القرح مرعبا ككل قرع فظ في آخر هزيع من الليل. تتسنج بدا الليل الذي لا ينام إلا متحفظاً حول ذراع طفل متحفظ هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. بصرخ صوت لجش من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لناثيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلمكم إياها.

يتردد زوار الليل. يتقرر من قبل لا تدري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تتشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق نابجها، أن جئة الطفل لن ترمي في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفع أرباء ثمن أفعال الأثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أياما عند الجيران.

هذا عالم أولى وأقدم العلاقات به الخوف فلا شيء متوقر فيه قدر الأخطار أكانت أخطر الطبيعة أو الحيوانات لكن أخطر ما يتهددك البشر. لذلك كان وسيبقى البحث عن الأمان أولى الأولويات تترجاه من حماية الأقربين، من البيوت المغلقة، من الشرطة في الشوارع ومن الجيش على الحدود.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها أفضعها أن يبقى دون أب ككل الأطفال .

ترى أين هو وماذا يفعل ولماذا هو غائب دوماً ومتى سيعود كما تمنيه بذلك أم تبدو هي الأخرى جاهلة بما يريد معرفته؟! !

ذات يوم تدخل علينا امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "بأ".

تجلس المرأة اليبينة، الغارقة في ثيلب فضفاضة ملونة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي ويقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يداً متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خففي عنك يا عزيزة. ما ثمة إلا الخير.

تنتطق "الذقازة" في خطاب لا يهيم منه الطفل المقنوع العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.

- وهذا الطفل؟

- انتبهني، إني أرى عينا شريرة ترصده وإني أرى كارثة قريبة تتهدده!

تعود الأسارير إلى تجهّمها.

تندارك "الذقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كل يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة لا تتسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبي.

ضعيها في كيس صغير واربطيه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبداً حتى وهو في الحمام.

إنهم يريدون به وبوالده شراً عظيماً، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيراً... خاصة هذه الأيام العصبية.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا قتي حركك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبداً، واسم الله دوماً عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني بعض ما أتمنى وأعطيها بعض ما تحتاج.

توقّف على الصورة... صورة هذا الدليل الأول الذي يضطلع في كل القصص بنفس المهمة: حماية القادم الجديد من عالم يعجّ بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من ألبان رأيت النور تعبدًا له وتبرّكا!

كم لنا من أساطير عن قتل الأب ولا واحدة عن قتل الأم!

أي غرابية في الأمر هو الجسر الذي يصلك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود... وهو السفينة وأول مرفأ تنزل به.. وهو مدير التشريعات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات...

وهو من يقود أولى خطاك في العالم... وهو أول امرأة تكتشف فيها ذاتك.

ثم من أين لك خادم كهذا لا يستقبل ولا يطالبك يوما بخلاص الساعات الإضافية الطويلة التي يحزمها قانون الشغل! أي آدمي لا يدين بأجمل تجارب الحياة لدليله الأول؟ لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحه إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟ آخر ما سخروا به مني لاقته قاعة الاجتماع: "اغسل فتجان قهونك يا هذا! فلنك لم تعد تسكن هنا من زمان".

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتذالا.

ترى ما المخفي بمهارة في بلطن أقدم الملفات، ما المحرم، ما "الطابو"؟
يا ما تعلمت عن الأسميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقدمون كأطهار وقيسين وهم أقدر المخدعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة! أمر جد طبيعي وعدم الكمال أهم خاصية في الأسميين وهي محرهم الأساسي نحو هذا الكمال الذي لا يجرون ورائه ولا يدركونه أبدا.

لا لكره لدي من أن أكون متعبدا أو أن يصوغ ذاتي صنم حتى ولو كان صنم "ما".
تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد، بالغة الغموض، بالغة الحرج، فيها غير باهتة وحرج متوارٍ وإنكار ساذج أن يكون هذا الأسمى ضالعا في أمور فيها سوانل لزجة ودماء متدفقة وجلد ولحم وآتات لذة وآتات ألم، وأن تكون الذات نتيجة كل هذا.
ماذا أيضا عن بعض أحداث صغيرة أخرى لا تتماشى مع صورة القديسة؟
تتردد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعز أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجاف.

- كنت... كانت رحمها الله تقسو علي... وأحيانا... تضربني.
ما العيب في أن تفضل أم أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتز إناؤ الخزف الجميل. يوشك على السقوط من علوه والتشتم إلى ألف قطعة.
ليبتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كأننا آدميا بنواقصه على التعلق بنصم طلي بالذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تنازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتلمها من جهة فترى وجه 'كوماري' ربة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت 'كالي' تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمرى تحت قدميها، قلادة الجمال حول عنقها، ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.
إنها قاعدة أساسية لفهم الأسمى: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن واجهك بوجهه المظلم ابحث عن النور المطمور وراء السحنة البشعة. حتى الأم الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفي عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن!
عقوق؟ الحقيقة المخيفة.

كم من دليل أول ما ان استلم القادم الجديد نازلا من ألسانه، إلا وبادر بلفه في خرق قدره ورميه في أول صندوق قمامة وفي أحسن الأحوال تركه يصرخ طالبا النجدة على اعتاب مسجد او كنيسة!

كم من دليل أول منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق! شواذ تحصى ولا يقلس عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من صورة أم أو اب يتحول جلادا.

إنه طيف المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد وهو ينطلق من أقصى القول الذي تمثله كوماري إلى أقصى الرفض الذي ترمز له كالي... وبين النقطتين كل الممكن من الحالات والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها من حلاوة أو مرارة واغلب الوقت من مزيج من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أن يكون دليلي الأول إلى نهاية الرحلة من النوع الذي تكتب بخصوصه رسالة شكر للإدارة العامة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى وإن كان لي تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سأعرض لتفسيره لاحقا)

*

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جده وأم وخالات وجارات وكلين يردن تقبيله واللعب معه. إنه بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخلوة، من رقة ونعومة وليونة وطراوة علم انثوي بامتياز.

تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفت كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البيطء، ليحتد ما هو خفت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حادة.

لا تتعجل الزمان يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشد الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمنى النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحوار العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجهها؟

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا.

ها هو مرابط أمام المحطة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسود كثيفا. كم كان يحب رائحته الخافتة تعدّه براحة عطرة لطرشوش أحمر بذواشب سوداء! ألم تقل له "م؟" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفل الأحميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمز الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقض عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلا. يتعلم الطفل تصرفا جديدا وهو ينقض عن شعوره برشق الثعبان الأسود المعرض عنه بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه. يعود إلى البيت كلّ مساء كبير النفس داعم العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير نذب. من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يؤكد هذا الشعور عنده قلعا دفينا لن يفارقه يوما.

تري، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العلمة عند الأحميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟ لا ينفع توسّل "م1" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم. تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عشا. لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأن في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم محدد. ثم تغلبه حيويته. لا بد أن هناك حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقدر أنه وجد. يعود للتحقق المعتادة للرجال وهو هذه المرة عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ها هو ينتقي من بين المتدافعين بالمنكذب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات. ألم نصنع أسلطينا وأدينا بهذه الطريقة، ننتمي أمام أصعب المشاكل الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلى... وآخر ما يهمنا صحتها؟ ثم يعاوده الغم. لا أحد من آياته الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلتقي منه إلا الصدّ والزجر. ينتهي الطفل بالإقرار بعيبه طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له.. لكن صدّ من؟

يجلس على عتبة بلب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل وما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البتّ في القضية.

نحن أمام طفل في مواجهة أولى محن وامتحانات الرحلة وهي في هذه القصة غياب الدليل الثاني. هو غير واع الآن بأن الأقدار رلفت به كثيرا هي التي واجهت أطفالا آخرين بمشاكل كأنها تفتقت عن مخيلة شيطان كالولادة مشوها أو أبا من مجاعة أو حرب وحتى مصابا بلّم تقشّر في حبّها أو تبالغ فيه.. ما يفترق بين قصص الأحميين نوع للصعوبات التي سيواجهون ومدى نجاح الاستراتيجيات التي يتخذون لمواجهتها. كأنّ العالم الذي تستكشف هو الذي يستكشفك بلاحكك بالمحن والامتحانات من لحظة النحول

إلى لحظة الخروج ولسان حاله يقول أرني براعتك في الخروج من هذه الورطة وإلا
الويل والثبور لك.

تقترب الأم من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف
ثيابها فيفتعل قلة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الأدمي الذي يتحرك دوماً
وكأنه مصنوع من الضباب. ترتفع يد الأم ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقةً
في الفضاء، أنها تتردد، أنها قد لا توضع أبداً على شعره الأشعث. تزعجه الفكرة أشدّ
إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلا واليد الرقيقة موضوعة فوق
رأس ناشف كأنه على صغر سنه صنع من خشب جفت قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة
أخيراً الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تقرر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنو. يرتفع
من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليطنونا ما شاءوا، أريد "با" حالاً، لا يحبني، لهذا لا يأت أبداً. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاماً كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد
يطير فرحاً عند مجيئك؟

مؤكد أنه طار فرحاً ثم طار مباشرة لأغراضه الأهم.

ما من شك أنه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثاً،
متقطع الأفلس، أخذ القادم الجديد بين ذراعيه وكله فخر بما أتى من معجزة، ناسياً أنه لم
يتكأف من العملية إلا أسهلها. كأنني به يتنفس الصعداء وهو يتأكد أنّ القادم الجديد ذكر
هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه
ولو كان من صلبه. قد تكون طلقت غيبرتي بالصراخ أول مرة انكبت فيها على مهدي
وقد تملكي قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة
أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العائمة وأن حديثاً بشفرة "المورس"
أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخول باستراق المكالمات السرية.

- ما هذا الدليل؟ لن أراقبه خطوة واحدة.

يأتي بصوت العالم العجوز، بارداً على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد
من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظراً لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيرتكني غالب الوقت وحيداً ويوم يرجع سيمسوقني إلى
المقاهي كما لو كنت قرداً عالماً يفاخر بي رفاقاً يستهزئون بي وبه. الرحمة!

- لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون لك
الدليل الثاني وتدبر أمرك معه.

توقّف على صورة هذا الدليل كما حفظتها الذاكرة وكما لم يكفّ الخيال عن تغييرها إلى يوم الرحمان هذا.

سمعتة مرة يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلاً. المغنية كوكب الشرق، وكلمات الأغنية لأمير الشعراء، والمستمع عبدكم المتواضع! ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتكم من نرجسية رجل حفّظني باكراً قصيدة تفوح بكبرياء سخيّف لأحفظ منها مقطعاً واحداً:

قومي استولوا على الدهر فتى ومثوا فوق رؤوس الحقب (مهيار الديلمي)
وأبي كسرى علا إخوانه أين في الناس أب مثل أبي

هكذا لم أنكر "أبي" في حديث إلا وقتلت السيد "أينفاس"، فيضحك الإخوة وتقلب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعاً ولا نراه عيباً إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأعمى وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء الفناع وهم يراوغون بلفتعال التواضع والزهّد والتجرد وباقي فضائلهم التعيسة. كل "أبي" من النوع الذي يحمل خصاله وعبوبه واضحة لا لبس فيها ولا غشّ، تماماً كما يحمل العسكر على صدورهم المنفرشة نياشينهم الحقيقية والمزيفة. كان مبالغاً في عبوبه ومبالغاً في خصاله إلى أن تتقارب فتتمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثين. كانت صرلحته سلاطة لسان. كل احتقاره ناراً حارقة، وعنفه لا يطاق. كل غروره، كتكائه، كوسلمته، كآفاقته، كجرائته، كهصاحته، كوقلحته، شيئاً خارجاً عن المألوف.

كم من مرة سبجمننا قل سيفرقنا في لواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار للصمّ وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

- "يا!": لو تزح جنايك قليلاً لأبصر شيئاً من هذا العالم، لا أرى إلا ظهركم الموقر.
- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتح الفتح المبين ولا تضيع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أما. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين. لا أسمعك تشد: "أين في الناس أب مثل أبي!"

- "يا" أريد أن أسالك

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوماً مشهوراً في وجه من يعضّ باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعاً في وجه من ينجح. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف، سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظ أن أكون له أباً.

- "يا" اسمعني أنت ولو مرة.

- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيادا حتى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الأدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يقودونك إلى صحار بلا واحات وأتهار بلا ماء وبرار بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأثني ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضربة حظ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبر أمرك وكن جديرا بي.

كيف لا تطيعني من أين أعني ولا أعني نظرتة للعالم وطريقة تعامله معه ونحن لا نصنع ذواتنا إلا بما نأخذ من الذوات الأخرى؟ ... ترى كم أحمل داخلي من فضائل وعيوب هذا الأسمي الذي اصطفته طاولة القمار ليكون دليلي الثاني... هل هو الذي تعلمت منه قاعدة القواعد التي حكمت مسيرتي طول الرحلة: عندما تصل أهم مفترقات الطريق، احذر اتباع الأسرع والأسهل والأضمن ليس في نهايته إلا الطعم... أما أفخر أنواع " الطعلم فهو دوما في نهاية الأطول والأصعب والأخطر وفاز بالذلة الجسور.

في هذا الفصل من القصة يحكم على الطفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار. ينتهي به الأمر جالسا على عتبة اليبب بأمر الله والعبية والجن والعفاريت وكل من لا يهمهم الأمر يحمل مسؤوليتهم في تمكينه ككل الأطفال من حقه في دليل ذكر يفتح له جزعا من الطريق.

تهمس الأم في أنه لا تخفي قلقا متزايدا

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سنتظر سويا.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجرب الأم مخرجا آخر.

- عندي لك بقية قصة البارحة، تعال... إذن قل الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يجارب لأن...

- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبدا جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع الطفل رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصرخ:

- أريده أن يأخذني لحمام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.
- سيأتي وستذهب معه لحمام الرجال لأنك كبرت فعلا.
- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن وفورا .
تجد المرأة الذكية المخرج الذي كانت تبحث عنه من البداية ، المخرج الذي سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:
- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق في، إنني متأكدة من الأمر. سيوزرك الليلة في المنام.
يسترجع الطفل حيويته الصلخية. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفر وحش أسود صغير الرحيل. تبصر أم مطلقة بحنو فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينيْن دامتَين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تنبسان بكلمة واحدة.
هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق نهائيا ليذهب كلٌّ في حال سبيله.

**

عندما ينقشع الضباب عن الأفق

قد يكون العالم فعلا علية سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة.

يشعر الطفل النائم بوجه جافت التصق بوجهه. تداومه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبغ وعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحقن فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- لك لا تحب واحتنا وشيعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يلمر بالرحيل ويأمر بلبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل القتي وبنفس الشعور البيخض إن لم يرحل تسر "ما" في ذن الطفل أنها لا بد أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "ب" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجده ويرده لأمه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدي من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع مما كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت تعدّه لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدق تفاصيل الملبس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تتس وأنه رسول حب صامت للشيوخ الذي اعتقها من الأسر. يسر الدليل الهادي في أذن الدليل الصاحب بلخر التوصيات ويأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يقتعل "ب" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، تركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار. كان "ب" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بلأ وفتنا جد محدود، يضئعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لتضيق وقتك أنت نفق منه ونيدر، أما وقتي أنا فتمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر:

سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بعداً ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تنفتح أخيراً قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلت نموذج كل ما تبعها من السفرات. يصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظاً.

- "يا هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟
يجيل "يا" البصر حوله بعصبية مشيراً للطفل بعلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينقذ وصول القطار "بأ" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غيّر موضوعاً كان سيغيّره بطق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل وهو لأول مرة في جوف الوحش الأسود ضرورة قتل الأعداء أو يرحل الأمر إلى ما بعد احتلال مكاتبه. يهرع تلقائياً للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنه فوق الزجاج.

يتحرك القطار على وقع الصغير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلل من النوافذ المقووحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهم أمام أنوفهن ضاحكات متاففات بتتسع حنقته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريباً يوماً ألا يعجب أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوماً ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربة المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظن، ترى كم هم؟ سيسأل "بأ"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبداً.

كان "بأ" لا يستقر في مكان إلا مكرها كله تحفز لاستئناف الطريق. كان الحل والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوماً على سفر. ربما قرأ واستيقظن أبياتاً وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكتبها لم تكتب إلا له وحده.

"تعزّب عن الأوطان في طلب العلا
(الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم واداب وصحبة ماجد

كان على الشاعر الحكيم إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرقهم عن البشر الآخرين؟

يواصل الطفل التقاط مقاطع من نقاش هامس بين المسافرين حول الوطن ومحنته في مواجهة المستعمر الأجنبي والمساكين يعلمون ما ينتظرهم يوم يستبدلون سيداً أجنبياً بسيد محلي وغاشم من وراء البحار بغاشم من وراء الجدران .

ثم يعود للتركيز على نافذته متعجباً من إعراض الناس عما يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوماً كل المسافرين... أنه سيجلس يوماً مثلهم غير مبال بغروب شمس أو بطول قمر.

ينتبه فجأة للتغير البطيء في ما يرى خلف زجاج النافذة والتعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراضٍ موحشة عبراء اللون تميل كلما تقدم الراكب إلى حمرة قانية.

تدرجياً تغرق المناظر العجيبة في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمراً بالجلوس أو الأكل. أخيراً يتوقف التعبان الأسود عن الصغير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يجبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار مثاقيل الخطوة، يحرك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفظ، متأهب، متشوق للمزيد من ركض القطار.

- "يا"، هذه ليست قرية جدي.

- إنها ولحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبئت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزل. أنا ممت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بلسب والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلما هوى السوط وكأن ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل المهابط بالعودة للسؤال:

- ولحنتا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القول أن يوسع التعبان الأسود الجري نهاراً كاملاً لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفتي من الصلب ممتد في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.

يجب التثبت من الأمر.

- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جداً؟

- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بني.

- وهل ستسفر إلى كلالللكللكل أمكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنني أحاول.

- سأحاول أنا أيضاً؟

- وهل أمملك خيار آخر؟

يرتمي الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله صهيل حيوان
باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطير. ينهض صارخا هاربا من
السوط بهزّ الدليل النائم جثته:

- استيقظ وإلا فانتا قطار الصحراء.

- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.

يعود إلى فراشه. ينتظر بعض دقائق. يقفز صارخا من جديد في لَدن الرجل النائم:

- استيقظ سيفوتنا القطار.

- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:

- استيقظ، فانتا قطار الصحراء.

يثب الرجل رافعا كَفّه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسلم الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم
ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدد.

- اللعنة عليك، طُرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جذنت؟

يجرّ الطفل نليله المندھش يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.

- هذه هي المحطة. لجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير
من الوقت.

- لا قطار هنا!

- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.

- هل فيها نوافذ؟

- نعم.

- هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟

- تماما.

- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.

- هكذا سأستطيع رميك منها ورتاح من أسنّتك.

- سأقول لـ "م" أنك أردت أن ترميني من النافذة.

- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من النزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنام قليلا عليك
اللعنة.

- وأنا ماذا أفعل؟

- نم.

- لقد نمت.

- لم تتم بما فيه الكفاية.

- بلى.

يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بتحسره السريع والمحطّة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.

- ماذا تريبننا أن نفعل إذن؟

- نتجوّل بما أنه ما زال أماننا وقت.

- في الثالثة صباحاً؟ في هذه المدينة الموحشة!

يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.

- تعال، عليك اللعنة.

تبدأ الزيرة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.

- لا أحبّ هذه المدينة.

- ألم أقل لك إننا لن نرى شيئاً في هذا الظلام.

- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.

- إنّه بعيد عن هنا.

- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.

- إذا ذهبنا إلى البحر فانتننا الحافلة.

اختيار صعب جديد.

- هل سنرجع من هنا؟

يتنفس الرجل الصعداء.

- أعدك أن أخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.

- أريد فطيرة.

- كلّ ما تريد.

- الآن... الآن... الآن!

- نعم الآن. الآن، لكن كفتّ عن النطّ والصراخ.

- بالعسل؟

- بالعسل والسمن والبيض المطّي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.

أخيراً الرحيل. يتكنس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثاقوية من

دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال

خاصة بعد أن أفرد له "بياً" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حدو للنفذة، تلك الموجود

مباشرة وراء السائق.

يحارّ لثمة مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا

يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.

- لست مطالباً بالوقوف طوال السفرة.

- لا أحبّ الجلوس.

- افعل ما تشاء.

- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟

تدوي قهقهة الأب.

- ستتعبنى كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.

تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبر تتكسد على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "با" عن المكان وحماماته الطبيعية العجيبة التي تبرئ بمائها الفوار كل الأمراض.

ثم تغوص الحافلة المتزيدة تعباً في مهبم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سننخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحر من الرمل بدل الماء وواحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

قل من ينتبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضاً سينمائياً وليس على الشاشة إلا صورة للعلم نطنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضباب عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعاً من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أو سماع خيال.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركّاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها البحائر تستأهل حقاً اسمها... أن الصحراء التي لم تكن دوماً بحار الرمل التي نعرف... أنها كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءاً من بحر بل من محيط اندثر كانت تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أنه كما للقلب قبض وارتخاء لهذ الأرض نسقها إلى نهاية الكوكب : كل عشرين ألف سنة غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والمركب والتمساح ، ثم لعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا الماعز الأبل والبشر من نوع قوم "با".

يجذب الطفل كم أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش وليس حصاناً.

يضجّ الجمع بلضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "با".

يلصق وجهه بالنقذة. ممنوع على أحد رؤية النموح. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكللالل غرابه.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر !

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟

- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟

ما لا يعرفه الطفل و يعرفه كل ركاب الحافلة قدرة هذه الأراضي القاحلة أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري خضراء ممتعة للناظرين. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية تحت الرمل والصخر تنتظر صابرة، عنيدة، قوية أشهرا وأحيانا سنينا رحمة الغيث لتعود الأرض ولو لفترة خاطفة من الزمن مملكة الأعشاب والأزهار.

يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

- الحرّ وضجيج المحرك وهذا الفرخ سيفضون على ما تبقى لي من عقل.

- "با" انظر. انظر!

- إلى ماذا؟

- لسافيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرك.

يضجّ الجمع مجددا بالضحك.

- إنها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ الحمد لله أنها تصل بنا.

فجأة يدخل الرجل في حديث همس عن الحفلة، وكيف توقفت أكثر من مرة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعن ماتوا من العطش لأفهم رفضوا الانتظار. يداهم الطفل خوف مبهم أن تتوقف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "با" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

- اسكت، يا مغفل.

يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمٹ متجهّم. يأتي الطفل لأول مرة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعلم.

تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي الخطيرة بسلام. تعود بعض الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى كل النفوس. أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه. إنها آخر محطة قبل الوصول يتسارع الركاب إلى الباب كلفرنان إلى سطح اليبسة بعد نجاه المركب من الغرق.

يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل متشبهاً بيد الدليل: إنها بركة هذا البريء.

يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

- أنت، تعال معي.

يتوجه الأب لابن خالي الذهن:

- انتظرني هنا حتى أكمل الإجراءات.

- أية إجراءات؟

- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة إلى أمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرّك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعيناه على البلب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "با" أخيرا، يده على خده، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حدّ ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقبوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفت خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقّف يوما عن النزيف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.

- لماذا؟

- هيّا، قبل أن تفوتنا حفلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلغ عني ولحد منهم، والباقون وكوا الأديار عندما علموا من أكون. تنكّر دوما بيا بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال!!!

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوما رجلا لا تتعدى الرجولة عندهم التبول وقوفا.

مما بقي عالقا في الذاكرة من خطبة طويلة أعادت المخيلة صياغتها وترصيعها باستشهادات شعرية ترفع من قيمتها: الخاصية الأساسية لأشباه الرجال الجين. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويقاداه "الحزّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوما جبانا وإلا تبرات منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلما بنسبي. إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقولون اليد التي تخفضهم ويعضّون التي ترفعهم.

ها هو يغلي بالتهكم المرير وبالسخط على قوم "استدججوا" و"استبقروا" و"استعجوا" وجعلوا من الخروف واستكفته للمقصّ والسكين نمونجهم الأعلى.

كان "1" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة النل أمام مستعمر أو طاغية حقير. لكن كل هذا الصخب كان أيضا حيا معكوسا وهو لا يبغي شيئا قدر التباهي بأهله على عادة البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفخر به وقد أتاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

يواصل زمجرته وهو يجذبني بكاد يطلع كنفني:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! أه وآه، أي نذب ارتكبت لأكون من هؤلاء البشر!

يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتقرّ من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض هؤلاء الجناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور يا فتى جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

- "يا"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدا جدا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضني له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مدنه، قراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة إن لم توقر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كانت الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟

هذا الرجل هو نفسه الذي سيرتد لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل يوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنّوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيا إلا لهذا الوطن مهما جفاك وظلمك... وتدبر أمرك يا فتى لتعرف أي الموقنين هو الذي يجب اتخاذه.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة "يا" وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. كيف لم يكتشف هو الباهر النكاه أن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطننا ومنفى أيا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد وأن نعيش وأن نموت فيها؟

لا بد لكل نوبة غضب أن تنتهي وإلا كان الغاضب هو الذي ينتهي مجنونا أو ميتا.

شينا قسينا يعود الهدوء. يتوقف الرجل في طريقه إلى مريض حقاقت الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولاينه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم. يتوجه للطفل:
- أسرع بليس هذا السروال الجديد حتى تبسو حسن الهدنام أمام جدك.
أحسن ما في الأدميين نزع التمرد إذ لولاها لما وجد تجديد.
- لا أريده. لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.
وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصح العالم فرضى ليس فيه طريق سلك.
- قلت لك البس.

متوجها للبائع: بكم السروال يارجل؟

يعود الطفل للصراخ ليثبت أن له رأي حتى في هذا العمر وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الإكراه.

- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه، "ب؟" بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه لسروال بالقوة.

- والآن البس بسرعة، وإلا فانتنا الحافلة.

- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

مشهد لا أكثر منه ابتذالا في علاقة الأدميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.

القئون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي

تريد... لتقويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرف الأم

مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع

الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع

الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون فالخالق يريد تطويع المخلوق

بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر وبتفضيل رب

آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط بإستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح

بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرفقة، الصد والوصول.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقف وهو

يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤذي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها.

يرمي بالسروال في وجه البائع ويجز الطفل، يكاد يخلع ذراعه.

تنباطا سرعته وقد جاءه التردد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صلمتا لأنه أقسم بكرا ألا

يبيكي أبدا كالنوسة والصغار.

- لا أريد أن تقول لجدك أنني ضربتك...

- بل سأقول له أنك ضربتني بشدة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول ل " ما".

نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!

- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جدك.

- وسأقول أيضا لله.

- لا تقمه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟ يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تندفع ببالع السرعة في ذهنه حسابات معقدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكام قرار.

- بعد المرطبات وزيرة جدي، نسفر معا إلى المدينة الكبرى والجمع الأعظم والبحر وكللال الأمان التي سافرت إليها؟

- موافق.

- كلمة رجل؟

- شريطة ألا تقول لجدك أنني ضربتك.

- كلمة رجل.

نحن هنا أمام عتبة من علاقة الأبوّة والبنوة. إنها علاقة سنتخذ ما لا يحصى ولا يعدّ من أشكال متباينة الطرافة والحدة والتعقيد والخطورة والنتائج وذلك حسب طبيعة كل أب وكل ابن والظروف التي تشكل خلفية هذه العلاقة وإطارها حدث ولا تسئل عن كل الحالات التي تتخذها علاقة الأم بابنها وعلاقة البنت بأبها وعلاقة الحبيب بحبيبته والصديق بصديقه والعدو ببعوه أي فكر قادر على استيعاب كل هذه التجارب التي يحاول الأدب جاهدا عن استكشاف بعض ملامحها انطلاقا من قصة رحلة هذا أو ذاك!

يعود الطفل إلى الصراخ :

- جدي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ الأب وقد تبخر منه مجددا كل حسن استعداد:

- لوجه لله اصمت، ووجه الشيطان تتوقف عن الركض. أرهقتني، أصبنتي بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!

وهل يوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تزيدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تنور علجة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فح الرمل. يصرخ الطفل أملا أن يطغى صوته على صراخ الريح

- "يا"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشأسته:

- إبه أمامك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "٦٤"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "٦٤" لا يتهاشم مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغيرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناقما، سلخطا، لا يحلم وهو منفي عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشي ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدث عن كئيباتها كعاشق أضناه الشوق لوصول حبيب متمتع! كم سمعته يردد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانتي أن أمدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجبل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من دھوله صارخا! وصلنا لمشرف الواحة. بعد قليل سترى جك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يذري لمن يتوجه بحب جارف تصاعد من أعماقه وبأي كلام يشبب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتحه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تتعكس في مرآة العالم أجمل حالات الألمي، وتتعكس في الألمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذاك وتحققت فيها أهداف ذاك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأثيق المتكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الزحيل نلسيا كل ما من حوله. ينفعه والده برفق فظ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح السلخنة.

يتلّف الطفل صدر عجوز ميبسم الثغر، دامع العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستيطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة ستطبعه إلى الأبد... أن الواحة محطة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وعساكر يمنعون ويمنحون الإنذن بالمرور، أنه لا بد من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهام لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه نموع الفرح.

حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

اعد لي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فرناندو بيسوا)

هب لي مرة أخرى الطفولة وخذ الله معك.

في نفس الحافلة وهي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلغ الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجذّه واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه وندويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه كما وعد إلى "طينية" ليبدرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "مما" طفلا يحبس بصعوبة نموع الأسى والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحيّه، لا أحيّه.

- يا بني، لو لم تكن معه لأوقوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "مما" تصنق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تادية واجبه ولولاه لفضل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر لكانيب الرجال على النساء.

حقا يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلّفوا معه فجاءوا لذبحة ليلا. حقاً كان له أعداء يترصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيل ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤوليّة مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هلجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث سذهب مثل والدك يوما لتتعلم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "مما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "با" وأعود به.

تبتسم "مما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هاتما على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له وتجد ما لم تبحث عنه يوما.

في ركن منزوي من خيل الذاكرة يركب بطلنا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كلللل ما يحفل به
العالم من خوارق ومعجزات.
بين أشجار الزيتون تواصل طفلة متقطعة الأنفاس الفقر بالحبل ضاحكة من سذاجة الطفل
الذي سيصبح بعلمها والمفل الذي سيصبح طفلها.
لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض: اللهم اتم هذه الرحلة على
خير، إنك السميع المجيب... أحيانا.

**

الكتاب الثاني العالم

ما إن يعود الربيع
إلا وأنا متتيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. ما الداعي إلى القلق؟ طبعاً أنا إنسان عقلائي أرفض التطير واسخر من المتطيرين، لكن من يدري؟ لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم؟ هل تتابع نفس الرقم وهو من الأرقام السحرية مجرد صدفة؟ من الممكن أنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام سيدافع فيها القامون الجدد بنفس التهور، سديغانره القدامى القدامى بنفس الصعوبة وسيواصل المرتطون فيه التخبط في المشاكل المبتذلة التي جربوها جيلاً بعد جيل.

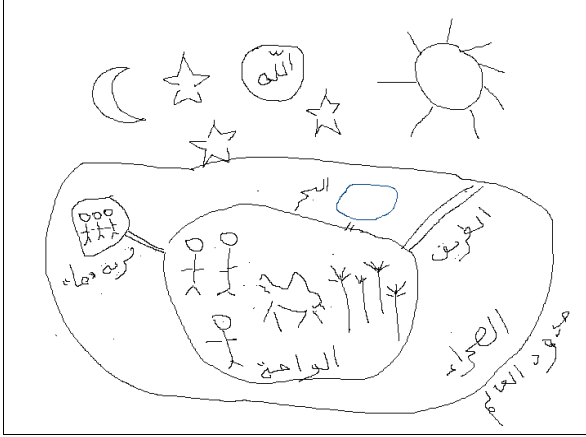
هل الأمر خدعة حتى يتم اغلاق كل هذا السيرك بأقل هرج؟ تصوّر حالة الفوضى لو أعلمتنا نشرة أخبار المنتصف أننا نعيش آخر أيامنا.

من يدري؟ ربّما حصل المحظور ممّا قد يعني أن هذا النص حلم يحلمه ميّت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجه منه أعرب من عدم انتباهي لبدائته ودخولي فيه؟

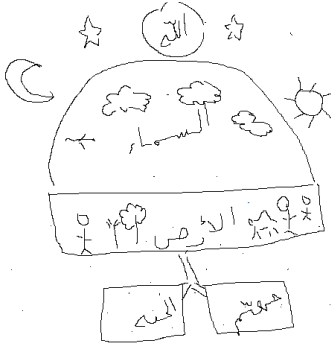
تعود للذاكرة صور طفل معاقب بالنفي في آخر القسم يداري ملله بوضع أولى نظرياته عن هذا العالم المهتدّ بالاختفاء بعد سويعات؟

هو في ذهنه بما لا يدع مجالاً للشك طَبِقَ صلب أقيّ جُلّه أصفر اللون بلسنتاء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الدليلان عن وجوده، ويُقع خضراء صغيرة متناثرة هي غابلت زيتون أرض جدّته، ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطيق الصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمه صحناً أجوف من البُور على طيق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها ويعبدا عنها يجلس على كرسيّ ضخم اسمه "العرش" شيخ كلّ الشيوخ اسمه الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسيح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم "ب" و"م" والجدّ والجدّة والعَمَلت والأخوال والجيران والكلاب والماعز والحمير والبعير. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافظته ثمة مدّن وفُرّى لا يُعرف لها عدد. أما الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما الغاريت والأشباح، من بينهم "العبيثة".

نعم ما من شك أن رسمه هو الخريطة الصحيحة للعالم.



أه الأخرة التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!
هل يُعقل أن ينسى معلّماً كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين
الله أم على يساره؟
حسب قول "مما" هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة
في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللعب معه
وسرقة لوز الجيران؟
إنّ، الأخرة موجودة تحت الأرض. ووفقاً لما سمع من "مما" التي لا تكذب أبداً، هي
مكوّنة من الجنة والنار.
لم يبق إلا إضقة مرتعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى
للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان اقامتهم الأخير. المربع الأوّل أخضر اللون لأنّ الجنة
كما تقول "مما" واحة خصيبة، ولو أنّها كبيرٌ ونخيلها أعلى ومياها أوفر وأعذب، يذهب
إليها من عملوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمرٌ بلون النار المخصّصة لشواء
لحم الكفار والمعلمات الشّيريات.



خُلت مشكلة طبيعة العالم. لم تبقَ بالنسبة لطفل في أول سنة له في المدرسة إلا حل مشكلة الزمان. ما معنى أن يكون لليوم كما يقول المعلم تاريخ هجري وأخر ميلادي؟ كيف يكون هناك زمان، والحال أنه ليس هناك شمس ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من "الهجرة النبويّة" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثم ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالم وكل الأحداث؟ الأهم من هذا كله متى ستقوم القيامة. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفّار؟ حسب زماننا طبعاً، فالهنا هو الإله الحقيقي. ولكن في أية سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً. والآن متى بدأت البداية؟ أول يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء؟ لكن أيّ يوم من أيام الأسبوع؟! الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفّار اليهود، الأحد يوم الكفّار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس ليّامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحداً منها يستحقّ أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبقَ سوى يوم الإثنين، إنه دون شك يوم الخلق، خاصةً أنّه أول أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجوداً قبل أول يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر. كم كان الطفل بعيداً عن فهم انه كان يعيّب جزء مما أنتجه خيال القوم الذين ارتحل في ركابهم لتصور العالم، وانه سيجلس يوماً لنماذج أخرى خلقها خيال أقوام أخرى لا يرضيه أي منها ولا حتى الذي جادت به مخيلته هو.

هل يعقل أن ينتهي العلم قبل أن نفهم طبيعة هذا الذي أمضينا فيه حياتنا ؟ هل سينتهي
حقا قبل أن أنتهي إلى تصور يشفي فضول لم تتراجع عنه على مرّ السنين.
أنظر إلى ساعتى يشكّ حذر بين القبية والأخرى فيطمأنني أن عرابها تتقدّم إلى الأمام لا
إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي لحدّ الآن تحت قدمي،
ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ يصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل
الحالك السواد.

حتّى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع
الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبّت من الأمر.

يسعني الآن دون أن يسعدني ذلك كثير احنودين ما يلي: مشيت على نفس الأرض الصلبة
المعتادة ولسعنتني نفس الهوام المجهولة، وتصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح
المسكرة ووثّرت أعصابي أعراس الجبران ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر مشبعة
حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها
فيصقتها. لم ألحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على
رداء الليل لا يبدو مختلفا عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى
الوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من
انتباه لفق.

كلّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقّق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكان الخشية
المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظ (أو لسونه)، فالיום جالتأكد ليس
النهائية حيث ولّى الأديار بأرقامه المثيرة للريبة منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتى،
والعالم لم ينتهي.

كأنّي بشيطان ساخر يهمس داخلي هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب. عجل
يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع! الذي قررت عند انطلاق التدوين: تفكّص حصاد الرحلة علّني أردّ أخيرا على
سؤال الطفل هل قدت الشمس حقًا من ذهب قرطي 'ما' والقمر من فضة خلخالها؟

**

عن اللبئات التي تصنع الأسس والدعامات

في بعض أقدم ملفات الذاكرة تهمس "م" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.
- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال
إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غير رأيه.

يصرخ الأب في طفل انتصب واقفا على السرير.

- يا الله يا فتى، تحرّك ما لك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيقه.

تدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "ب" خروج الجئي
من القمم.

- "ب" أين ... أين كنت؟

- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره فرحاً. ثم يعاوده القلق.

- هل ستسافر مجدداً؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

- كذلك تريد إعضابي! هيا، لا تضيق وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة العاصمة.
برنامج اليوم الحزام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. لا بدّ أن أبحث
عن كتاب قبل آخر قطار. تعال، حتّى الخطى.

يتبع طفل في السابعة أو الثامنة من عمره رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات
لا بلوي على شيء وكان له مواعيد هائلة حتى في الآخرة.

تتلقّان بعد ثلاث سنوات مرت كلمح البرق نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها
نحو الشمال.

- "يا" وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

- لا توتر أعصابي من الآن، حتّى الخطى لنصل الحمام سريعاً.

يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغيرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:

- "ب" ما هذا الشيء؟

- إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجير ي".

- لماذا يقف أمله الجنود؟

- حتّى لا ينسفهم رجالنا...

- "ب" هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟

- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتل وكفره.

يزمجر "ب" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.

- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشمامة بنا، لنفس الشامسة سموا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرة ومرة على لاجبروتنا نحن.

- أريد أن ألمس ال...
- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابت السب، سنقتلعه طال الزمان أو قصر. هيا أسرع ما لك تجرّ قدميك!
لا يريد الطفل شيئا أكثر من الركض مع اللاكضين وحتى تجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم اليه.
يصرخ فيه "يا" يكتم ضحكه وراء ملامح يجاهد لكي تبدو عابسة.
- تمهل، وإلا ففتنك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.
يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشة طافية على أمواج نهر صالحب وجدران الشارع الضيق مثل سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.
ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.
- "يا"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟
- شيخ ينسج الجبب. سأشترى لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.
- انظر "يا"، إنه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!
- هذا سوق الشواشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بلعشرات.
- "يا"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.
- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.
- "يا"، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب"سفساري" أبيض؟
- عندما تكبر، افرضنّ على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.
يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر... على سخاذ بلا رجلين يزحف على البطن، والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه?... على أنثى بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع؟... على أحدهب مضحك لأشكال؟ على شاب مقتول العضلات... على عجوز تتكى على عكاز... على وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر... على وجه كأنه حُفْز في خشب ببيّ يسكين... على وجه ثالث غطّته لحية كثيفة... على رأس شعره بلون سنابل القمح؟
هو لا يعلم أن أغرب الأنميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أبيض كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على

لجسادهم الحديد أو الحرير، المرتديات أعلى أنواع “الكيمونو” وكلّ “جليشا” لوحة فنية أجمل من الأخرى، الخلق لكل شعرة تبتت فوق الرأس، المخفون قسمايتهم داخل أدغال من الشعر، الرسامون على جلداهم رسوما أخذت أيلما طويلة من الألم، القانعون يبيعون الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكياتهم. على أقصى الطيف الذين يقدّمون الأضاحي الأدمية لألهتهم وعلى الطرف النقيض الذين يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن بيتيم!

يعود الطفل للصرخ :

- “يا، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمونه “الكسترو”. يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- “يا، ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

فجأة يُداهمه قلّب مبيهم.

- بخصوص الحّمّام والحلاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تملطل. هل رأيت هذه الغاية من الشّعْر فوق رأسك؟ لخشى -إن أهملنا قصتها-أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبّ بجر ابنا، وابنّ بجر أبا، لحّمّام اسمه “القشاشين” يقول عنه “يا، إنه أفضل وأرخص حّمّامات المدينة العتيقة.

- “يا، لماذا صيغوا عمودي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المقدّي!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهادى داخله لجسام مترهلة تحمل خول الخصر فوطه باهتة اللون من كثرة الاستعمل والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاه منه. الطفل الآن بين يدي “الطياب” كلفار بين مخلب القطر. يسلم جسمه مكرها ليدي المهنيّ الخشنة، تتركته، تتركته، تطلقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقرير.

لا يبقى له غير كتم أنينه ومحولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سفر على حرمة الجسدية. ألم يطالب أمه بأب يأخذه لحمام الرجال من حمام النساء الذي يكره دوما أنه ما زال طفلا صغيرا. ومع هذا، ليس في هذا الحمام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمل، وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة “الشلمبو”.

- عيناى تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سلّخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقل أنشفك. المرّة المقبلة سنذهب إلى الحمام مع لك ككل الصغار.

- أريد الخروج ! أريد الخروج!

- أخرج الله روحك. استلق على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة قبل العودة للشوارع . لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "م".

يأخذ الطفل الثمرة، يقربها من عينيه يطيل النظر وكأنه يرى برتقالة لأول مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنها جميلة جدًا، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضا، "ب"، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالا يمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل له هناك روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والان كلُّ برتقالك واتركني أغفو لبعض الوقت.

- "ب" لا أريدها .. إنها شديدة الحموضة.

- انن كل القشور .. ربما يعجب سيداتك طعامها.

يفضض الأب عينيه معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار استئناف الحوار وتجدد الصلة التي هو شرطها الأول .

يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متنكرا لعجته المفضلة زما طويلا، وكم كانت أمه تكرر لها لسبب غير مفهوم.

ومن الملفات المطورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحت لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يستقرّ "م" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينيها. أليست اللعبة العجبة - كما كانت تصفها أمه ظلما- بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات!؟

هو يتنكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

- "م"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعنيه على شقّ الطريق.

- مبصر؟

- يجب أن تسمّيه "مبصر" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى.. إلا الظلام.

يكشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصرًا" متى شاء، مكتشفًا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستشق" روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح. ها هو "يسمع" دبيب النمل على الأرض كأنه ركض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزرخ به الفضاء من إنس وجن.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفتر للضرب لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

- "ما" إذن، هذا الأعمى كما يقول جتي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزًا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزًا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شلخصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجه إليه كل الأعين. هو أيضا سيكون بين من أدلهم الجري وراء الأنظار. هو أيضا سيجرب مرافقًا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن يوسع النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بلطفاء الأتوار، بغلق العينين على الذات توجد أخيرا خارج سطوة النظر.

يعود للذاكرة سؤال يتذكر الطفل كم أزعج أمه.

- "ما"، هل ساكون مبصرًا يوما ما؟

- سبعة أطاف ويعيد التمر على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني. ثمة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح. كيف لا يأتيها التطير وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث الغمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعا تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنه نانما.

- هل هو الرمذ؟ إنه الرمذ... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عيني، أنا متأكدة أنه لا يرى جيدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما". تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصلح الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت ترتحل لو لم تكحل عينك خضرة الغابات والمراعي، زرقة لسماء والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح! أرتعد فرقا اليوم وأنا أتصور أن طاولة القمار كان يوسعها أن تسحب لي رحلة في مثل هذه العوالم.

ينتبه الطفل لتعالى شخير والده، يفتح عينيه على أفصاهما، يعود لاستنشاق رائحة البرتقالة متمتعاً بما تثيره من أحاسيس الرطوبة والبرد على راحته، متردداً في مواصلة القضم وطعمها بكل هذه الموضحة التي لا تجدها إلا في بواكر مقطوفة قبل نضجها.

في أيّ عالم كنت ترتحل، لو أفقت فيه دون حاسة السمع لتعرف كيف هو خرير الماء وضحك الأطفال وارتطام قطرات المطر بشباك غرفة النوم! في أيّ عالم كنا نرتحل جميعاً لو أفقنا فيه ونحن لا نملك مثل دود الأرض إلا حاسة اللمس؟!.. ثمّة إنن عالم لا يعرفه إلا المبصرون! وأخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش! وأخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشم! كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!.. أليس بنبيها أنّ البصر والسمع والشم والنوق واللمس أدواتنا لبلورة العالم كما نعرفه من مبهم سنسميه مرحلياً العتمة وأنه لولا هذه الحواسّ لتبخر في ضباب العدم ولغرقت الذات التي ترصده في ظلام اللالوجود؟

يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الأخر.

في أيّ عالم كنا نعيش لو ولدنا بحول غير الخمس الكلاسيكية التي رصدها أرسطو؟ ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفافيش، تشمّ ما تعجز عن شمّه الكلاب والقطط، أو ترى بعين أكثر فعالية من عين النسر والصقور.

تستحسّن فيّ الفكرة كل طاقات التخيل، رؤية ما وراء البقسجي؟ تحسّن الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟

قد يأتي يوم يحمل فيه أحفاندا سماعات تلتقط غزل الأزهار ونظارات عن قرب تتأمل رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا ترانا فاطين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيت التي خلقها بها؟

يفتح الطفل عينيه سعينا بعودة الألوان والأشكال والحركة. يكتشف والده يراقبه باستغراب ثمّ يهز كتفيه أمراً هياً إلى بقية يومنا.

يخرجن من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له الكمين.

- ٢٤٠، ما هذه البناية التي أملم الحمام؟

- قلت لك لن تهزّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبني، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي عنّ الحلاق المسكين يستطيع لك شيئاً.

حصّة التعذيب الثانية. أهذا هو اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟

يتفحص الطفل وجهه الذي في المرأة كأنه يراه لأول مرة.

يرجع له سطحها القذر وجها عابسُ الملامح مع مسحة من كآبة، مستديرا أسمر اللون، بأنف صغير مدبب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير فيه الوجه الغريب، قلقا غلمضا.

- "أنا؟ انظر، هذا أنا؟"

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتملك في المرأة أيضا؟

يفتل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "أنا؟ هل تدري...؟"

- لا أدري. قلت لك: لا أدري. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والان أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تغلب المزاج.

تتواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملّقت للنظر غير صورته تتأمله بالباح.

يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موسى، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر.

ثم يشدّه ثانية الوجه العابس في المرأة يغمض عينيه ثم يفتحهما أملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحذق فيه كل مرّة، يستقرّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "أنا؟ هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟"

يصرخ الأب في الحلاق:

- هيا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفض الرجل عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها "أنا". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل نكي وجميل.

- جميل، أه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل فرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال من الطفل كالرصاصة الطلّاشة من بندقية الصياد المبتدئ :

- "١٤"، هل أنت أيضا قرد وفي عيني جنتي غزال؟

تفرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كعده. يا إلهي لم يجرب مثلها على كثرة ما عرف خذ الغض من الصفح! تُرى هل ستترك - كالمرة الفائتة- آثار الأصيل الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشئج طفلا قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، أتاه الهدوء ومعها الندم. قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "١٤" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعذبه أحيانا. محاولة التكفير.

- هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...

- شيء نشتره لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك لك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أنني عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقلعة زوج "١٤" ستكون هذه المرة جذية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمام. للضروريات أحكام كما يقال خاصة أن كل من بينها الجوع؟

- المطعم! نبدأ به، المطعم! المطعم!

- إنن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلم من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطوقسه ولوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد.

ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تصمها من تسقط المطر ومن نبال الشمس الأسقف المرفوعة فوق شلح حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شاردي يجبل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "١٤". يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبة تتوجه إليها الجحافل.

لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجمع الأعظم الذي تعلمت فيه كلالل كلام الله، وحيث سنصلي
معاً.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجمع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح!

قد يكون المبنى شيئاً هاماً بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهم هو ما حوله.

- "يا"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟
لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر
يده للناس؟ لماذا قلت له "زبي يئوب" ولم تعطه شيئاً؟ هل رأيت النادل؟ إنه إنسان
ظريف حقاً، يهرول بخفة بين الطاولات، إنه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون
معهُ.

- أترك الرجل وشأنه، كل، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينه؟

- قلت لك: كل، أتريد طبقاً آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "يا" لم أكل الذمّنه من قبل، رائحته أيضاً طيبة، سأقول لـ "ما" أن تطبخه لي كل يوم.

- نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصببتي بالصداع، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست
أطرشاً!

- "يا"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكي لرجل طلب ملوخية...

- هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟

- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضاً.

يعود الطفل جرياً من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على لبقاء
لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتبه نكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه،
يواصل التمعن في مناظر أعجب ما فيها تجنّدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمي والده
موضوعتان على الأرض، بينما تتدلى قدماه في الفراغ. يشعر بشيء من نفاذ الصبر
أمام زمان يتلصق به في طفولة كأنها القمص المطبق على العصفور.
يتوقّف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء
الفم: كيف حالك؟

إنه أهمّ سؤال يلقى عليه الأعمى على بعضهم البعض وكلّ إجابة فتح... إن أنت تبخرت في
الشكوى من مصائبك أز عجت سائلاً غير معني إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في
وصف ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحاليتين إن أطلت في هذا
الاتجاه أو ذاك ضيّعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليخصّ عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى
من ضريات الدهر....

ينصرف الصديق فيتنفس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئاً غير إكمال غدانه . فجأة يجلس
لاهنأ الى نفس الطاولة شيخ بدين بئرنس أبيض وعلى رأسه كسطة المشايخ. يتحول انتباه
الطفل للقادم الجديد.

- "يا، انظر. ليس لك كسطة مثل لشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد
كسطة مثل هذه.

يضحك "يا" ضحكة صفراء، يتدسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر
الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه
ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كسطة
بدل "الكبوس" وجبة "قمرابية" مثل أبناء المن.

يهب الرجل واقفا، يجز ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة
دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بد لك من إثارة الانتباه مرة أخرى ومع هذا
الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتهكم علينا. هل تعلم كيف يسموننا أهل هذه
المدينة الكلبة الأفاقيون؟

- "يا" ما معنى أفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف الفترة، من الصحاري الموحشة، من الجبل المخيفة.
جمعونا في نفس الإهانة، لا يفزقون بين جنوبي وشمالي، لا يزون في قدومنا إلا أمواج
الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدها... أفاقيون، أفاقون، لا فرق في
أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقنع أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة إلى جذك ومركز العلم
واحنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل الأمامه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجد الذي سيفلخر
به الأخذ.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه في وهو شيخ قارب الموت، وأنا كهل قارب
اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثنا الخدم
لخدمهم واليوم بورثوننا لحرّاس الخدم! سارق فاسد يحكم البلاد وأنت تتفزع ثم تدعي أنك
ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمر الطفل شلخسا بصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكناش وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأصدة الاتصالات المكلفة ببث وتلقي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النص. هذا الأذان الذي يتعالى من المنذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صنّع الأدمي أم من صنّع "الطبيعية" إلا وله إضاءه حسّي يمتاز به، صوتا كل أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلم اكتشاف الفرق بين موسيقى أذان المدينة التي تطلّ على مضيق اسمه "البوسفور" والمطلة على نهر اسمه النيل وكيف يتلّون في هذه وفي تلك، وكيف هي رثة الأجراس، وما الذي يفزق بينها وهي تفرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه "لراين" أو نهر آخر يُدعى "السين".

آخر تحذير عديم الجدوى من اب نافذ الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه. - أنتهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تقارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الختم الطائر، الرقص، المائني، القفز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما؟ الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنها تنوسط الصحن، إنها تصل بأغصاتها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -والى الأبد- من الشائعات وأنصف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وألا فقتك في هذه الزحمة. يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتلّى من سقفها الشاهق! ها هو وقف جنب أبيه والصفوف مترابطة وراه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدر الجري للوصول إلى الصف الأول حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيد أنملة

وهو ككافأر بين أرجل الغيلة، لماذا هذا الفلق لمباغت والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظرأته تقول: لا تخش شينا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبية وتأخذ من الوقت ما لا يتحمله طفل صغير وهو يقعد الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسمر بصره على قنمي للساجد أمله. لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزق يبرز منه كعب القدم كأته تفاحة حمراء تطل من ثقب كيس أبيض متكل. تأتيه فكرة شد "ب" من كته ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا يندف الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيت امرأته أن ترقع جورابه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة. هيا، أسرع، اليس هذا لك، فما زال أماننا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتطبيق على آخر ما لفت انتباهه.

- "ب"، هل جوربك متقوية أيضا، أما أنا فجورابي جديدة.

ينتهد "ب":

- بعد البرتقال الأسود والكشط والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكأ وأتبلطأ، أجز القدمين لعلمي أن هذا ما سيغيظه أكثر من أي سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمشيان إلا وواحد يجز الآخر، أو يجري خلفه أو أمله؛ أما جنباً لجنب فذلك ما سيأخذ زمتنا طويلاً على فرض أن الأمر حصل يوماً.

- تحرك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل "ب" إنني صليت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.

- (بلهجة الشك والتحدي) ما أكبر جامع إذن؟

ينتهد "ب". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلاً.

- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. أذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعم بها الحقير، وسيندونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أماننا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

يأخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس باتجاه آخر محطة زيارة المدينة وأهضها بالنسبة

ل "ب".

من أين لي أن أفسى أنني رأيت الرجل يتوقف فجأة ونحن نعبّر باب المكتبة الصغيرة ثم يغمض عينيه للحظة يستشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبية يستشق آخر عطر لها.

حقاً لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتنوّع به المكتبات.

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليُدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يوماً لأسمائها وقع سحري.

مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "يا"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "يا"، أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كل اللّلال الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس "يا" في تصفّح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأنّي، ثم ينتبه لوجود الطفل.

- تعال، قل لعمك ما تريده أنت.

- أريد آخر عدد لمجّلة سنبل وقصة لجورجي زيدان وأيضاً كل اللّلال القصص الهندية.

يفتح البائع فمه محققاً في الرجل المتوتّر.

- القصص الهندية؟! كم له من العمر!

يغالب "يا" زهو:

- يبدو أن أمه توحمت على غجرية، هت له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتبتي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.

هات ما عندك، يا للرجل المتهور! يصرخ "يا" وقد امتنع لونه:

- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشياً على الأقدام؟

يتدخّل البائع بلطف:

- لا تحمّل والدك فوق طاقته، ما أخذته زائد لأشهر من القراءة.

يأخذ "يا" في تقليد لهجة البائع الحضريّة:

- ولا تحمّل والدك فوق طاقته...

يعود إلى الصراخ بلهجته البووية:

- ما دام والده حيّاً فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجوداً... إلخ.

يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتناع المتزايدة عند "يا" وعدم الانتباه لحبات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مباليّ بالبائع يخفي سروره وشماتته.

إنذار صامت أنه من الأحسن أن أتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.

توقفت ثم ركض باتجاه المحطة.

في عربة الدرجة الثالثة لأخر قطار الأحواز الغيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.

- "١٩٤" ، هذه المرة أنا الذي سأختبر معلوماًك . من هو أكبر شاعر في كلللاللّ الدنيا؟
يرسم "١٩٤" على مجيآه ابتسامة التهكم ثم يصرخ .
- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوماً أراد الحياة" . لو قل على الأقل "إذا
هذا القطيع يوماً أراد الممات" ، لكن من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...
- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر .
- هل ثمة غيره يا مغفل؟
- "١٩٤" ، أريد أن أكون مثله عندما أكبر .
يفجر الرجل ضاحكاً، ثم يستشيط غضباً كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو .
- إياك، ثم إياك . حذار أن تصبح شاعراً ولو كهذا الشاعر الذي عقّرت بعد ولادته النساء .
هذه أمة يقدر ما كثر الله فيها من شعراء يقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمنحون .
- ماذا يكون إذن؟
- مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه . فيك كل
مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلاً . كن طبيياً والآن اتركني
أقرأ جرلدي .

هكذا قرّر اللليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده .
آخر ما يهّم الطفل مستقبله الغلمض وكل ما يريد العودة مجدداً للمدينة العجيبة لمواصلة
استكشاف كلللاللّ أزقتها، جوامعها، حوانيتها، مطاعمها ومقاهيها .
هو لا يعلم أنه سيمشي كهلاً في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزاً
عاهرة تحمل من كل مخصب، ثلث القيط وراء اللقيط.. وأنه سيواصل حُبها رغم كل
شيء .

مدينتنا ... (نزار قباني)

تظل أنيرة عندي
برغم جميع ما فيها
أحب نداء باعتها
أزقتها
أغانيتها
مأذنها... كنائسها
سكراها... مُصلّيها
تسامحها، تعصّبها
عبادتها لماضيها
مدينتنا بحمد الله -
راضية بما فيها
ومن فيها

بآلاف من الأموات

تعلّكهم مفاهيمها

لقد صلّوا مع الأيام

جزءاً من كراسيها

صراصير محطّة

خيوط الشمس تعميها

فلا الأحداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيها

يومٍ يجلس الكهل لترتيب ملفّاته عن توغّله في الفضاء الحسّي سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بلّسرع ما يستطيع. كيف لا والرجل لن يعرف مكاناً على بُعده أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كنتلك التي اعتصرتها منه المدينة العتيقة وهو يجزّ أبا يتلّكاً أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام.

كيف لا وقد أصبحت تلك المدينة منذ تلك اليوم المشهود بما كانت تزخر به من ألوان، من أصوات، من روائح ومن حراك محموم العالم كله أختزل في أزقتها الضيّقة.

أو كيف أننا نتحرك طوال رحلتنا على خطوط التماس بين أسس ودعامات متباينة للعالم

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية. لم يكن من باب الصدفة أن نلتقي وأن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

تبادرنى وهي تقلد لهجة دليل سياحي أمام كل مبنى نصله:

- هذه دار لوزير سابق، أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصحي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجنود الأتراك؟ هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياماً؛ إرهاب دولة ذلك العصر.

- جئت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمام ووظيفتها التي كان "ب"؟ لا يعرف شيئاً عنها، وبعدها قد يفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها قصة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طفلة شبابه ولم يعرف يوماً ما هذه البناية! لم تثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجبل المشين؟

- بنيتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلّب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلص من مشاكسات "الفرخ" ...

- ومقسماً بأعظ الأيمان أنه لن يعيد نفس العلطة ثانية.

يرفع الكهل يده إلى حدّ ما زال ملتهباً بعد خمسة عقود.

تلحظ المرأة المنتبهة الحركة.

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها.

نواصل شقّ الطريق وسط الزحمة في صمت. تغيّر مرافقتي الموضوع أو هكذا تصور. على فكرة ما ذا تكتب حالياً؟ أنت لا تنفك عن الخريشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت.

- لست متأكداً أنك ستستخرجين منه شيئاً، هنا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحياناً قراءة ما كتبتُ.

- خطّ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحياناً وقوفاً وسط حفلة مكتظة وحتّى مشياً.

- ملّة لنصنّ جديد في الأفق؟

- شيء شبيه بالقرير النهائي الذي يكتبه شخص أكمل مهمته يضع فيه كل ما مرّ به من أحداث وكل ما استخلص وتعلم من التجربة... آه كلمة تقرير غير موقّعة لما فيها من

إجاءات بيروقراطية غير مرحب بها... إذن لنقل شهادة لكن لا عن حادثة ما وإنما عن حادثة كل الأحداث: وجوبنا في هذا العالم.

تَهَرَّ من أفقتي كتفيتها سلخرة

- وفي أي شكل سيكون هذا التقرير العظيم... عفوا هذه الشهادة الجامعة ؟

- في قالب نصّ عن أدمي - هو مزيج من الأنا وشخص خيالي يختلي بنفسه وهو في آخر مرحلة من حياته يتفحص كل ما اختزنت ذاكرته وكل ما وصل إليه من تصورات حول ذاته ، حول النوات الأخرى حول العالم الذي انبثق فيه وحول سبب وجوده فيه.

- كنت أظن رجال العلم الذين تدعي أنك منهم لا يتعلمون إلا مع مشكل بالغة النقة تاركين مثل هذا الموضوع الفضفاض للشعراء والأنبياء والفلاسفة.

-سلترك للمختصين ولعهم بالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل . لا بدّ من هذا النوع من الفكر لتكون لنا معطيات دقيقة نحن بأمس الحاجة إليها . لكن ليتركوا لي ولأمثالي وظيفة استكشاف ما وراء هذه التفاصيل وما الذي تعنيه عندما يجمعها الفكر بحثًا عن معناها المخفي .

- ألا تخشى أن تكون كتابتك هذه "هريسة" فكرية لا أكثر وذلك ما نسعى دوما لتفاديه ونحن نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

أهزّ الكتفين أتمت ببعض الكلمات كئني أحداث نفسي :

-الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر... العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة... الفلسفة في خاتمة والشعر في خاتمة أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والذنيبة خلف الستار... الجدّ حيث لا مجال للهزل والهزل حيث لا مجال للجدّ. أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! لذلك أريد لنصي كما هو الحل في الحياة العادية أن يختلط فيه الجدّ بالهزل، التفكير الموضوعي بشطحات الخيال، سفاسف الأمور بكبرى القضايا الفلسفية..مشكلي الشخصية مع مشاكل الكون..كما هي الموضة اليوم في جريدة النيويورك تايمز التي تجد فيها على نفس الصفحة آخر التوقعات عن الاقتصاد العالمي لسنة المقبلة والتحليل السياسي المعمق عن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة جنبًا لجنب مع وصفة الفاصوليا المكسيكية بالبهارات الحارقة للقم وأحسن طرق اعداد أرز البرياني الهندي.

فترة طويلة من الصمت. تعود مرافقتي لاستقرازي:

-إلى أين وصل مشروعك العبقري؟

- إلى كم هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بوّدي أن تُشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهلجسنا دُوق الزبون وخوف الرقيب. المشكلة غلب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيط ومن فوضى؟ ثم أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟

- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستقْز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم العائز تُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية. جاء دوري لأنفجر بالضحك.
- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للأدب.
- متى ستشرفني بأن أكون أولى قراء هذه القصة العصماء؟
- لا أعرف، بل لا أعرف أصلا هل سأعامر يوما بنشر النصّ.
- الخوف من الرقيب؟
- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهاراتٌ عديدة لست متأكدًا من امتلاكها.
- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موجشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات... مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصل والنقش... مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقا.. مهارة سفراط وهو يستقرّ في الأخر طاقته الذهنية ليولدا معا للنصّ معناه.

-عنوان نصك العظيم هذا يوم تنتهي من التحكم في المهارات التي لا تملك؟
-الرحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطرًا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدمية وسبب وجودنا في هذا المسيرك الذي اسمه العالم ... للإيجاز قد اكتفي بمذكرات أمني.

- إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!
- هل غلظتي أن البشر لم يتركوا عنوانا لكتاب إلا واستعملوه نكايه في، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحبيطة قرونا قبل أن أولد؟
- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسابا لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوما، سيخرجون جُملا من سباقها، سيفقّولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بالشيء ونقيضه... كل هذا تعسفا على النصّ وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.
تشرّد مرافقتي بصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحب مطربة لكيّنا:

"كتبتنا ويا ما كتبتنا
ويا خسارة ما كتبتنا
كتبتنا مئة مكتوب
ولهلّ ما جاوننا"

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا.

أقول لها أن هذا النص تصفية حسابات قديمة.

يشرد البصر وتنكفى الذات على بعض أقدم الذكريات.

يصرخ المعلم: اكتبوا موضوع الإنشاء: أفقت صباح يوم الجمعة وأخذك والدك ففسحة صف ما شاهدت وما فعلت تلك اليوم.

يَنكِبُ الطفل المتهور بحماس على الورقة البيضاء بملأها سطورا ويقع حبر يتمرّن على أولى طقوس الكتابة.

وفي أوّل نصوصه يقيق بطل قصته على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفِرط في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيّارة السوداء من الميهم الذي يعجّ بكلّ الإمكانات ليجلس المغرر الصنيد خلف مقوده، الأمّ في قَمّة الإعجاب والأب في قَمّة العجب. فسارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فلنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنتخ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنزرتك وكفى هز لا. فخاف البحر وأفسح له الطريق.

ثم تسلّقت السيّارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله ييسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت نماء للشمس هامت النخيل توقّفت السيّارة قُرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سَأصبح أكككبر طبيب وسأتيك بكلللال الأودية التي تحبّ وستروي لي كلللال قصص الجازية وأبي زيد الهاللي وعترة وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قَبِل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكين دوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا يتجاوز السابعة من عمره لم يبك رغم أنه قد فعلها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه للظوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يومها ختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيال من الكُتّاب النثنيين نصهم الأول: ورجعت إلى البيت فرحا مسرورا.

يضحك المعلم باستهزاء:

- طلبت منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبخت

لشمس تأتمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنه كُفِرَ مُبين؟! لا تُعد إلى مثل هذا الكلام أبداً.

يتنهد بصوت مسموع قائلاً: هؤلاء البؤس! كلهم شعراء بلسليقة منذ نعومة أظفارهم. يكظم الطفل غيظه واعداء نفسه أنه سيكتب يوماً إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. يقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد.

ما من شك أن هذا النص مواصلة الانشاء التي سخر منها المعلم، فالتلميذ الذي كُبر كثيراً وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية موضوع إنشائه. أفتت ذات يوم في هذا العالم صيف كل ما شاهدت وفعلت، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

أفبق من ذكريات لذيدة موجعة على صوت مراقفتي :

- المهمة أن تجد في عصر الاستهلاك السريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكاتب هذه الأيام أكثر من القراء. على فكرة، أي نوع من القراء تأمل لمثل هذه المحاولات المحكوم عليها بالفشل؟

- بصراحة كل أملي معقود على كائن أنت من أعماق الفضاء في بعثة حفريتك ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيعثر على النص ويترجمه إلى لغته وينال درجة الدكتوراه بلمتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- عدت للسخرية كعادتك للتعامل مع أي موضوع يزج سيادتك.

- لا خوف من انقراض جنس القراء الحقيقيين حتى في هذا العصر. هم أقلية في كل زمان ومكان. مشكلتي ليس عدد من سيقراً نصي وإنما هل سيجد فيه البعض شيئاً من هذا الذي نبحث عنه ونحن نفتح الكتب.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف فعلي إلا اثبات الذات في هذا الزمان وتخليدها فيما تبقى منه.

- الخلود بالكتابة مجرد طعم كالذي تلوح به الحياة للعشاق: المتعة لكم واليبون والبنات لي المهم تواصل التسلسل... في قضية الحال كأنّ القوة المبهمة التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقت الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم، ولي ما يده الفكر الذي لا يجب أن يتوقف أبداً.

- قل ما تشاء، نصك هذا ولو تحت ألف قناع سيرة ذاتية أخرى، الا يكفي من هذا النوع وطوفان النرجسية استحوذ على كل مساحات الأدب؟

يا سنّ الكلن، نسيت مقولة فيكتور هيجو " عندما أتحدث عن نفسي فإنني لا أتحدث إلا عنك".

- لا نتحدث إلا عني؟ فرصة لتقول لي أخيراً رأيك فيّ.

- رأيي في الأدميين عموماً والإثاثن خصوصاً: كائنات يستحيل العيش معها وكائنات يستحيل العيش بدونها.

- وهل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء . هي التي ستتكفل الآن بالصمت وبخيار لحظة انهائه.

- سهوٌ مجدداً ، كُلي أذان صاغية لك.

- لا أحد يصغي لأحد ، ربما الأمهات لأطفالهن . وحتى هن ! ألم تلاحظي كم من مرة أنت تبتئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة : فما بالك بالذي حصل لي أنا ! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفني منه الكلمة بدورك . كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط ، لكنه مضطرّ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكفونوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ مثل شمسٍ تدور حولها كل الأفلak ، ومثل فلك يدور حول ما لا يحصى من الشمس ؟ ... أية علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقصّي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض ههشيته؟

تبتسم مرافقتي لذكريتك تؤكد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكل .

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبداً .

- أحياناً ، أوقات الانتباه وهي جد نادرة .

حطيب والان إلى أين تريد الذهاب؟ بدأت أتعب .

- إلى المكان الذي كان " با " ينتظر بفرغ الصبر وصوله .. المكان الذي لعب هو وأمثاله دوراً أساسياً في حياته وفي حياتي .. لم أتعرف عليه لحد الآن رغم أنني واثق انه كان في هذا الشارع .

فجأة أتسمر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط أصرخ جاحظ العينين وقد تعرف الوعي الباطني في لمح البرق عما كنت أتشوق له منذ بداية الجولة في أزقة المدينة العتيقة .

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أذنني إليها "؟ . جلّ هذا الشارع كان مخصصاً للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات التقليدية الكاذبة وهذه الساعلت الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدعي الفن وتوهم بالقداسة !

- لا فائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر . لن ترى غير ما أرى . تعال وتمالك نفسك . المكتبات بالعشرات وهي أيضاً محلات تجارية تبيع مواداً للاستهلاك اسمها الكتب .

- يا امرأة تحذني باحترام عن أمكن لا تقلّ قداسة عن المساجد والكنائس والمسارح والعلب الليلية .

- استفزاز باستفزاز ، قل لي يا فهم ما الذي يفرق بين حوانيت تبيع هذه الساعات واللوحات البشعة وبين مكتبات تبيع كتباً أغلبها لا تصلح حتى لفت السمك .

أقول لها أن المكتبات في نموذج العالم الذي ابحث عنه منذ سنوات هي النقط الحدودية التي تفصل وتربط بين أهم الفضاءات التي تشكله ؟ ألا ندهشنا عند دخول أي مكتبة روائح الورق واللوان الكتب؟ ألايتينا من لمسها متعة مرهفة صعبة الوصف. مما يعني أن الكتب تنتمي كليا للفضاء الحسي للعالم. لكنها بوابات لدخول فضاء آخر إذ داخل الكتب المصنوعة من المادة تنبض بالحياة اللينات اللامادية التي يركز عليها عالمنا والتي اسميها الفكريات.

- طيب وكيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟ شعرت بك دوما غير راغب في الحديث عن نهاية الزيارة.

تلك الليلة وصل البيت أب مرهق وطفلاً متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيرا. اقتعلت سجينة البيت السرور بما جلبا لها من الحلوى.

سارع، "٩.٤" إلى كتبه ورحل داخل أهم فضاءات العالم بالنسبة إليه.

سارع الطفل إلى كتبه ورحل إليه هو الآخر.

عادت المرأة الوقور لغسل الصحون ثم للجلوس على الحصير البائس تتصفح ببطء ويتركيز كتابا أصفر رثا، تطيل النظر إليه، ثم تغلقه واجمة.

كانت مثل سجين أضيق زنزانة والمفتاح لدخول الجزء من العالم الذي رحل اليه الزوج والابن معلق في السقف لا قدره لها على الوصول إليه.

هذا المفتاح هو الذي سأروي الآن ظروف تملكه.

**

عالم للارتحال فيه ثمن باهظ أيا كان فضاء الاستكشاف

تهمس أم في أذن طفل يستيقظ بصعوبة وفي صوتها عصبية غير معهودة:

- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

- إلى أين؟

- إلى الكتاب. هيا، لا تتأقّل!

- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.

تغالب "أم"! نفسها حتى لا تتفجر ضحكا.

- سنذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنها نبرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحمام، أي أنّ الموضوع غير قابل للمساومة.

- لماذا؟ ألا تكفي مرّة واحدة؟

- لا تجدل كعادتك. هيا، لا تتلأأ!

تجرّ امرأة طفلا أقلّ ما يوصف به أنّه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه.

- تدكّر ما قلّته لك البارحة. لا تتشاجر مع الأطفال، لا تنشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده بـ "سيدي". كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمراً. استوعب ما يقوله لك، قَبّل يده عندما يدعوك لثمّل أمامه، لا تكن وقحا ولا تتكلم صارخا أمامه، أطعه في كلّ شيء ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى. لا تنس أنّه سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلّمك كلام الله.

إنها عادة الأم الأزلية المتمانية في إغراق الطفل الأزلّي بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد.

بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرة تحلّل الخيال في أكثر من موضع لإعادة صياغة ما تحاول جاهدة نسيانه وتكره.

- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جنتي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.

تجذب "أم"! يد الطفل بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:

- لا تكرر أبداً مثل هذا الكلام، خاصّة على مسامع الناس.

يصل الطفل مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركّن من جامع المدينة الصغيرة التي قدفتها على ضفافها أمواج النزوح.

تنفع الأم طفلها لتخطّي الباب وتمسك يده بيوّة كأن شيئا بداخلها بحثاً على الفراق وأخر يرفضه.

آخر توصيات إضافية بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببرش من الصوف البني وعلى رأسه شاتية حمراء يلقيها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرض كثيراً لوهج شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا فأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلهم جالسون أمامه صفوفاً مترابطة في أعجب فرضى. يوم غامر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليصره عن كُتب فوجي بنظرته الجلابية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقتر حظوظه خطأ كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين- في استعمال الأخر لمأربه.

يومها داهم الطفل شعور بلتهيب... والخوف إذ كانت للرجل عصاً طويلة يلوح بها طوال الوقت، ومن ثم قرّر البحث عن مكان آمن في لصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب آخر تسميه اللغة "اللقفة".
اللقفة! وما أدراك ما اللقفة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مر التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظفر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لمحاولة تسييره في قوافل المرؤضين.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكلّ العيون، جاهزة لكلّ الاحتمالات وغير بعيد عن ركبته اليسرى عصاً طويلة لن تبقى طويلاً دون استعمال.

على ذكر وسئلنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلم يعلم الصبيان ومعه عصاً طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر فأضربه بالطويلة، فيفر فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدم إلي الصغار كأهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم". نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيب الله ثراه وأسكنه في أفخم "سويت" في الجنة.

يعود الطفل ذلك اليوم المشووم إلى البيت بدمين منتقختين كأنه يمشي على الجمر وكلّ همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلفت الانتباه.

كيف تفادي حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما؟" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيدًا عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: “سيدي الشيخ” وهو يخاطبها، أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، أنه لم يُقبل يده بعد حصّة العقاب بل عصتها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألتها عما حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تنظّاهر “م” بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقى أيّ سؤال. تتعاقل -على غير عادتها- عن حصّة غسل القدمين الإجبارية مظهره مزيدًا من الحنان.

التجاهل! إن تعهدت هذه القدرة ستكتشف كم سهل تحمل شرّ الخصوم والأعداء وكم توفر على نفسك عبث معارك تافهة مع تافهين... وإن أصبحت بارعا في هذا الفنّ ستعي يوما كم من أصدقاء اكتسبتم لأنك تسترت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم.

يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسوية، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصا طويلة وقدمان داسيتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه بصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفورًا. وفي الغد تهز اليد الرقيقة الطفل بحزم:

- انهض، حان لوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز للكريمه بـ “سيدي”، قبلي يده، أطيعه في كلّ شيء، لا تتشّيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أما أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلت وعلّقت.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّبًا؟! كم سيكون رائعًا أن تشبّهه، وكم سيكون فخورًا بك يوم تُعلّم صبيّة قريبتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدّبًا. أنا أكره كل المؤدّبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!!

تأخذ “م” طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلًا موجهًا وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويل الطريق أممك لتصل إلى المراتب التي يريدك لك “ب”!

نعم، كم هو شاقّ طريق الأسمى، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئه منذ البداية أنه لم يأت إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع غاليا وبالمستيق.

تواصل الأم اقناع طفل معرض عن كل كلام.

- رأيتك في المنام عالماً بارعاً باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا خبلى بك مَلَك بشرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزيني؟

هل أتاه الملاك يوماً منتفخ القممين يمشي على الزجاج والجرم؟ لكنه أتاهم وأتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطفل عالماً بارعاً باللعين.

لم يعد مطلوباً منه سوى التطبيق، إذ لا حق له في إفسال مخططات سرية تتوارى داخلها أحلام وردية للام ورغبة عارمة عند الأب في النثر.

محكوم عليك دوماً أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدتها لك طاولة القمار وأن تلعب شنت أم أبيت-الدور الذي قرره لك "البخت" أو سوء الطالع.

يستمر الطفل في عناده رافضاً مواجهة تجدد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم "م"؟ وهو في البداية؟

تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تقاوم.

- تعلمت بعض الحروف من أخوي، لكنها لا تكفي لأفك رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يكتيني بالبقية. آنذاك سأستطيع قراءة كلام الله. هل ستخذلني؟

يحدق الطفل في وجه أمه وقد انتبه فجأة لما تقوله:

- أنت لا تعرفين القراءة؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بلبنات إلى الكتّاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتلطّف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إلي محملاً بالحروف التي تنقضي.

يقفز الطفل من فراشه وقد تبدلت كل المعطيات:

- سأذهب لأتيك بها. وستوقف حال حصولك على النقص منها، وفي المقابل...

- كل ما تريد، والآن اليس ثيابك بسرعة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.

تلك الصباح لم يركض صبي في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد - بمحض إرادته مكاناً كل يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد ألقت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمة لم تخطر له ببيل.

وهذا عالم نادراً ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مرّداً خلف المؤذّب كلاماً لا يفهم منه شيئاً، ولا أظنّ أن أحداً كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.

تُداهمه وهو يردد كالبيغاء-أسئلة بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الرب، ما العالمين، ما الخّاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟

يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خّاس؟ ولماذا يؤسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟

...-

أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا سنُفَرِّج بإذن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بلسكر والسمن. وأنت أيضاً لا تكن سليلب اللسان كعادتك. لا تكابر، فلستَ دوماً على حق. سأصلي الليلة كثيراً ليهديك الله.

ولأننا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصاً وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشرية جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التنظيمات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتنفّق العصيدة بالسكر والسمن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتى لا يكابر الطفل ويتخذ طريقاً قد يقوده ليصبح عالماً بلحد الرُعَيْن حسب تهديد أمه.

ربّما تحلّ الملاك طيف "مأ" بحزم والحاح لدى مكتب التنظيمات الكوثية. قد تكون علاقاته الشخصية مع ملائكة القسم هي التي مكنته من إخراج ملفّ الطفل من تحت جبال ملفات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم.

ربّما لم يحصل شيء من هذا، وكلّ ما في الأمر أن الطفل وجد أخيراً ضالّته.

ذات صباح ينتحنج الشيخ بوقار:

- والان إلى الواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتبت بها كتاب الله.

أهم متطلبات استكشاف الفضاء الحسي جسم سليم، حواس نشيطة، ثيابٌ تقي من البرد والحرّ، وحذاء مثنى يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أما عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطفل: قصبه منبّية بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتعاد.

فضاء الأفكار؟! توقف على الصورة. أي شرعية لاستعمال مفهوم الفضاء عند ما نتحدث عن الأفكار؟ فضاء الحواس هو الفراغ الممتد حولنا...الذي ترصد حواسنا ما يتكدّس داخله من كائنات مثل البشر والشجر وكيانات مثل البيوت والبراري... والذي يمكننا أن نمارس فيه أفعالاً مثل التنفس والمشي والغوص وحتى الطيران عند توقّر متطلباته. في أي امتداد وفراغ تتحرك الأفكار حتى نربطها بفضاء؟

عودة لسباق القصة.

يبدأ الطفل رسم الأشكال التي أمر بها الشيخ. لا بدّ من التحكم في تشنّج اليدين حتى لا تنطلق العصي الواقفة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محببة لما فيها من سهولة الرسم هذه الرموز التي ستصبح كلمات، فجُملاً، فصوراً، فأفكاراً تتراحم داخل عقل نهم يقظ.

من أين له وهو راكع مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه-لوعيّ بأنّه وضع أولى خطّاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم ما أنتج الفكر البشري!

كم كان بعيدًا عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، بيني وبينهم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراتهم لذاته وللعالم!

المهمّ في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفتيح السحرية التي ستفتح ألباب كم هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعدّ ابوابه ونوافذه.

يتعلم الطّفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصيّ قصيرة واقفة وأخرى راكدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشّكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها!

ها قد تعلّم من سيدي الشيخ، خمسة أحرف دفعة واحدة. أليس ألم الظقة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص، 'م'، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفل من تفحص العصيّ والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت السّيطة. تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفها طوال رحلته من قبيل القريب والبعيد، تلة بالغبوية وتارة بالاستغرابية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيّه الراكدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه 'م'؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيّه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على الفاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعاً بوجاهة الاختيار. لم يبق إلا عرض اكتشافه على المؤدّب.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيراً على 'م' حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصبّية الحمقى حماقة.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!

- لخرس يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصتي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!

المهم أن الطّفل تحصل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها كلها بذلك الشكل الذي يصرّ عليه المؤدّب.

يصرخ الطفل في أمه عند دخوله البيت راكضاً:

- 'م'، اليوم تعلمتُ كلللال الحروف! إنّها أجمل من كلام الله.

- كم مرّة قلّت لك الّا...

- اللبلة سأعلمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.
- تجلس "م؟" فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أن صديقها الملاك جدي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطفل عُود حطب رقيق بلُوح به في وجهها، إذ كيف يكون معلماً ومُهَاباً إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهديّة الهدايا.
- انظري ملياً. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.
- نعم، يا...؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- انظري جيّداً إلى هذا الحرف الذي هو عصاً واقفة، إنه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟
- هو هنا، يا سيدي الشيخ.
- حسنٌ جدّاً. والآن الحرف الثاني. انظري ملياً ولا تتبسّمي. إنه عصاً قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلاً إلى الأمام. إنه حرف الدال. قولني معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟
- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.
- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمت الفرق؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- والآن إذا وضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟
- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.
- لا بدّ من التروّي في عقاب ولو كان خفيفاً فهذه التي ستل العصا هي "م؟"، وعلى كلّ حل هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصة، علماً بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرث، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبداً؟
- حسناً، لنراجع كلّ ما علمتكَ اليوم.
- الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطفل سوى الانتظار إلى الغد، علّ "م؟" تنسى حرفاً أو حرفين وأنّذاك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنه لا ينوي الصّرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التّمع بسلطته الجديدة.
- ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟
- ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادراً.
- إيّاك أن تبوح لسيدي الشيخ أو لأحد آخر، حتى لوألدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!
- وفي المقابل أريد...
- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

ينتظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جو من التكتّم على سرّ "م"، والطفل مسكون بهاجس طبع بقية الرحلة. هو لا يتعلّم لحسابه الخاصّ وإنما لحساب الآخرين لأنه صاحب رسالة ومسؤولية.

*

ذات يوم تغتم "م" لحظة هدوء تُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.
- غداً سيكون يوماً أعزّ في حياتك يا بنيّ، سنذهب إلى المدرسة العصرية. إنها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيراً في الذهاب والإياب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكراسة وكتلّب قراءة جميل.

- لن أذهب إلّا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، عليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر مني في الكتاب!

- ليوك وأنا نأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. ستري أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والصبغ؟ كيف يتنازل عن متعة معابنة الشّيوخ والسخرية منه، خاصة عندما يرتفع شخيره في حصّة الظّهر؟ كلاً، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيداً بالزاد الذي يوفره. جُلّ خرّيجيه ليسوا سيوى رعاة قرية جدتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجز العثرة خوف مبهم أن تكون عصا الشّيوخ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعاً.

تستمع الأم إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلبها، تنظّمها، توصلها ثم تقدّمها، تخاطب في ابنها كائناً له عقل. يتسلّل إلى هذا العقل أنّ العرض قد يكون في مصلحته حقاً، خاصة أنه من "م". ثمّة أيضاً أشياء جدية بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها "م" بحرص شديد، لا تخرجها إلّا نادراً، تسمح عنها الغبار وتقلبها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سلواصل، وإلا...

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاذ صبر:

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثمّ نقلها على الكراس، وأريد أن يتمّ ذلك بنظافة تامة.

يصرخ الطفل المتهور:

- إنها كلمات سهلة، أعرّفها كلها، فسيدّي الشّيوخ علمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلمة ابتسامة صفراء.

- حسناً، كتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللوح.

ذات يوم تتوجّه المعلمة متجهمة لطفلٍ مرتبك.

- أريد أن يأتي وليّك معك غداً. وبالمنسبة، من الآن فصاعداً عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحدّق الأم في طفلها كأنها تراه للمرة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللامع الذي لطالما أحبه الطفل.

- أريدك أن تعذني بعدم مضايقة "سيدتي". إنها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظت كل الللال الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغبياء.

- لا تقل أبداً عن أقرانك أغبياء وإلا كرهوك وأدوك.

يبلع الطفل ريقه، لا يفهم تقرّيع أمه له ولا امتعاض "سيدتي" منه وهي لا تتبسم إلا للأطفال الآخرين. يزداد الوضع سوءاً والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والآن انظروا في كراساتكم الجملة المكتوبة فوق السبورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهّره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالاً باهتة لا يستطيع التعرّف عليها. يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت "سيدتي" لحظة فينهض من مكانه متوجّهاً إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطابّأ بإعادة نسخها، لا يبلي بفهومة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثم يصلّي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في غدوّ ورواح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصّيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- ياسيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجدداً دون إذن.

- لكن ياسيدتي...

- عد إلى مكانك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.

كم من آلام ومصاعب لاستكشاف فضاء الأفكار وكم فيه من مصاعب ومطبات تقاطعات طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي! يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ "سيدتي" في قمة الهيجان.

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبي أم ماذا؟!...

- سيدتي!!

- كفى، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لتذهب سيدتي نفسها إليه.

إنه سوء الفهم المزمن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي تُوفّر لها لهم اللّغة.

لمثل هذه الوضعية التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينصّص عليه عزلةً موجهةً لذيدة.

مما يزيد الطين بلة استدعاء السيد المدير ونبرته وهو يقول للطفل :

-لا يمكن أن تأتي للمدرسة بهذه الثياب ؟ على الأقل أن تكون ملابس نظيفة... وإلا

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.

تهرّ الأم طفلها من كتفيه، تجرّه إلى الثور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء لوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرّقا في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سلّخبره بأنك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دلم؟ يا الهي، متى يعود، عكّ تعود أنت إلى رشدك؟!

يرفض الطفل الاستماع إلى أمه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تقيض بها الحفائِب المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلمة وكل ما تقول.

تُطاطى "مما" رأسها، تتكفئ على حزن عميق، والطفل الغريب رافض لكل حديث فما بالك بمواصلة مدها بما يتعلّم.

- يا بني، كذت لظنّ أنّي لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفا، تمسك بيدها المبلّلة عرقا يذّ طفل يتملّص ضامّا يده الطليقة للصراع مع من، ولماذا؟

يتوجّه الرجل القطّ إلى المرأة بالحقّار لا يتكلف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- أُوّه... غائب يا سيّدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معاد للحكومة، أليس هنا المعروف عنه؟! بل ويقال إنّه إرهابيٌّ متطرّف خطير ومسلّح.

- يا سيّدي...

- اسمعي يا امرأة، ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلف ذهنيًا. يضليق المعلمة ويعطلّ القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الأفاق أو من الصحراء

تحديدا، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

أي تبرير لتعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سببا أو معنى؟ هل فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدنيا لاستقبال الزوار؟

- فُقسم يا سيدي، أنه يقرأ طول الوقت كُتبا و.

- كفى! إنه متخلف ذهنيا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهارا، إنه شبه يتيم يا سيدي.

- حسنا، حسنا، لا فائدة من البكاء. يُقال إن لإخوتك زيتونا جيّدا ينتج أحسن الزيوت! يُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبدا.

يلع الطفل غصة بكائه ويتبع أما تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمة في أقدم الملفات صيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيدي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أنّ

ابنك لا يرى جيّدا. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفلجني للقسم ينتقل من مكانه إلى

الستورة لينقل ما تطلب المعلمة كتابته. حقًا إنه طفل غريب! لماذا لم يُقل من البداية إنه لا

يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخنيه

إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستحسن نتائجها حالما يلبس نظارات.

بصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان لا أريد أن يرسب طفل واحد

لقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة - الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى

في جميع مدارس المدينة.

وفي قصتي بما فيها من حقيقة وخيال-يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لنوّه من

معركة ما:

- ابني أنا متخلف ذهنيا، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل

هكذا؟! ابني أنا يُهمل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!!

- إنه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكمني يوما في

رقابكم لترحمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تُنلّ وتُهان

ولم تدبجوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائف لا عقاب له إلا الإعدام زميا بالبصاق، وأنتم

معه كذلك. هذا بلدٌ لم يعد فيه إلا عميل أو جبن. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحزروا

المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنّيّات!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحياه بعطفه خائن وعميل هو أيضا؟

- بالتأكيد لأجنبي مُتخف فضحته لأخلاق انقرضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه

يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنيا؟ هو أم

الفاسق الذي نصبوه مديرا لأنه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنيا؟! أسأله ما تريدون.
قل لهؤلاء الجهلة أين صمد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟
- في القالوجة.

- نعم في القالوجة، أصابكم بالفالج رب التصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في
العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهتئا ومساندا؟

- قلت له جنناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلح تقهر به أعداءنا وأعداءكم.

- أسمعتم؟! والان علم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية
العاهرة العجوز.

- جومو كينياتا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الملو ماو.

- أرايتم؟ إن هذا الطفل كاد يوما يُفلسني بطليباته من الكتب. أتعرفون أنني وجدته البارحة
مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنيا يقرأ الجاحظ في السابعة من
العمر! إنه يلتهم كل ما في مكتبي ويقرأ حتى لتي لا يُقدر على فهمها ويقولون لأمه
خذيه ليرعى الابل! ابني أنا يرعى الإبل! ابني أنا! ، إلخ... إلخ...

ثم يلتفت إليّ.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعكس، وأصل معهم، إنس وجودي. هيهات، يجب
أن أدفع مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صلمتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشئته. ألا ترى أنه يغالب نموعه؟

- ليني أنا بيكي! ثم ماذا أيضا؟! تعتقدون أنه من طينة أطفالكم! ربيته على الشدة حتى لا
يشبهكم يوما، يا من إذا حكّمكم كلبٌ محتّم الكلاب وإذا حكّمكم بغلٌ تغنّم بفضل البغال
على الكلاب! سبحان من حزم عليكم التين والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ...
إلخ...

المهم إنه من يوم وضعت على غيبي الطفل نظارات أصبح كأرنب تُعرض عليه مسابرة
للسلاحف.

*

وفي ملف آخر عن تكلفة اكتساب أدوات الارتحال في أحد أهم فضاءات العالم يتوجّه
المعلم لقسم هاتج على الدوام .

- انظروا جيّدا لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللغة الأجنبية التي يجب عليكم تعلمها
ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "يا" في السجن كلما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلمها؟ أن يكون هو أيضا واحدا من الخونة الذين يتوعدهم "يا" بلؤل و الثبور؟ مبنيا، هو ليس ضد تعلم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.

يضع المجاهد الصغير القلم جثيا ليبدأ أول عصيان مدني في حياة سنكون حافلة بكثر من تمرّد عقيم.

يفغر المعلم فمه وهو يسمع تلميذا يهمهم أنه لا يريد تعلم اللغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تفلّ أذى عن فلاة سيدي الشيخ.

بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفحات محكمة كان يستحق!

الأدلاء يُقتمون لهذا الجحش على طيق من فضة كلالل حروف لغته الأم فيزعج من أهاده أغلى وأثن الهدايا.

يُقتمون له الآن على طيق من ذهب كلالل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكثرا إضافيا فيتأفف ويُعجن العصيان.

هو لن يُقتر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصر غير عصره، وبلد غير بلده عرف باكر امثلة قسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيف من جندي غزٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيا خلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعدا للعمل مجاناً-ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف.

جُن جنون الطفل همه الأوحده أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف z.

كان بداخل اليتيم إحساس أنه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلث الألوان.

ها هو متشبهت بجلباب القسن: من فضلك -يا أبناة ماذا بعد حرف z؟ فيركله الأب صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقه القسن: من فضلك -يا سيدتي ماذا يوجد بعد حرف z؟ فتركله صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى من يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف z؟ فيصفعه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقا: يا بني، اسأل القسن، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا تحكي القصة كيف وضع الطفل يده أخيراً على أصحاب الفخامة z، y، x، w، v، u، t، s، r، q، p، o، n، m، k، j، i، والحجالة m، o، n، والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z. المهم أنه تحسّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب الأمور... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوماً برسم مسار الصواريخ. يواصل بطل قصتنا الغيبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق بلكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرّفة من صراع غير مُجد وميزان القوى ليس لصالحه؟ ألم يُعد الملاك "م" أن طفلها سيكون بارعا باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقا، وكانت كفتية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقول بأن يخدع الملاك "م"؟ فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتهمه بالغش والتحايل، وحتى -لم لا تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده.

لهذا السبب، يقرر الطفل متأنفا ليقاف أول عصيان مدني له. كم من قرارات هامة نأخذها في كل المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللجنة! لماذا يكتب الكفار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغياهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ. لا بدّ في هذه اللغة اللعينة من ثلاث عصي، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصا ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللغة الأم إلا عصا واحدة منتصبة مكتفية بذاتها.

يتزايد نزاع الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأول منتفخ كالطووس بعصيه الثلاث بالغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة يَبِيل قصير كَثِيل فأر قضمته أنياب القطر.

لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلم لغة غيبية كيد، يكفي افعال الاهتمام حتى لا يُفروا عليه بلضرب والنفي إلى الركن. تنفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بتقاطعات تباري صعوبة وخطرا.

كان "مسيو فيدال" المعلم الجديد للغة الأجنبية بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجمل.

كان يردّ على السؤال المحرج تلو السؤال الغريب، تلو السؤال السقيم، تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجع على السؤال، لا يملّ، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يصبح استعمال الحروف الأجنبية معه لعبة ممتعة وهي منطوقة أو مكتوبة. تسمح بتكوين الكلمات وهذه الكلمات تسمح بدورها عندما تصفّ بكيفية معينة كما هو الأمر في لغة الأم ببلورة معاني وأحداث وأفكار تأتيه أحيانا بابتسامات التشجيع والثناء.

تأتي مرحلة فك الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من كلمات تجمعت في صفحات كتب ملأها أيضا بالصور الجميلة.

شهرًا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزيونه الصغير.

- هذه المرّة، القصة بلا صور، قل لي عندما تكملها، ماذا أحببت فيها؟

- سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجئت بك قائمتها. سيدي، سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلمات... لكك ستتلعّم الكثير منها إذ يبدو لي أنك ستكون من فنّان المكتبات.

كم كان خدس الرجل صائبا، اللهم إلا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدس وتوسّم خير، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها "مما" وهي تروي خلمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيجاء بدل الصراخ بالأوامر على طريقة "با" التي لا تولد إلا شكلا أو آخر من المقاومة والرفض.

[21] Commenté

**

أو كيف أن هناك حاسة سادسة تخلق أسسها وتعيد صياغة أسس دعامات الحواس الخمس

- "يا"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كللألها عندما أكبر؟
يحقق الطفل الذي أصبح أبا بدهشة في طفلة لم تتجاوز سننها السادس تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغريبة التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال.
الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟
- سؤال وجيه، يا نقلاحة، يستدعي أن تتكثف جهودنا للإجابة عنه. اكتب كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل نستطيع كتابة كللأل الكلمات.
تريني نقلاحة قائمتها تترصد عبارات الاعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، كتاب، دمية، عصا، طوى، شكولاتة، ماء، طفلة، أخت، قط، حديقة، شجرة.
إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنت.
تستعجلني نقلاحة.
- "يا" هيا لكتب قائمة كلماتك.
قطعا لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي واللاوعي كلمات تنبارى بشاعة ومزاجي كأحوال هذا الوطن الذي ابثبت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالعرف منه ومني.
تكشفنا تقيحة منمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض بكللأل الكلمات التي تعرفها تقيحة. تحتج بكية لا تدري إلى من ستوجه بالتقريع.
- "يا"، نقلاحة شريرة تأخذ دوما قلامي الملونة، أنت تحديها دوما لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.
وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك سلكتنا، هي التي تهمني دوما بأنني أحابي تقيحة وألعب معها جل الوقت لأنها الأصغر!
- تقيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين كتابة كل الحروف.
تصرخ نقلاحة:
- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، اكتب لها كلماتك أنت.
تتطور الخنقة بين الأختين إلى شد الشعر ولبكاء الصانق والكاذب. يجب إطلاق المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...
لم لا مواصلة اللعبة الممتعة مع البنيتين عألني اظفر بملاحظات جديدة عن التشكل التدريجي للعالم في ذهن المرتحلين.

- والآن، ماذا نفعل يا بنات بالكلمات التي رصدناها؟

تصرخ تفيحة:

- الكلمات تحب أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما أذّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها
يعود الإنسان إلى أصوله
ويبدأ كل شيء من جديد"

- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفلحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس شبع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جافّ... "با"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف...

تدخل تفيحة لاستعادة المبادرة:

- نعم، تفلحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفتعل نقاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خفت عني اللعب مع البيتين الكثير من الكرب.

لتهدئة القطنتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفلحة، تفيحة، ماذا نفعل بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تفيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

موافق، يجب أن نحرك الكلمات لكي تصنع لنا قصة، ما الذي يقصها؟

تصرخ تفلحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تضيق حتى لا تفتك أختها الكلمة.

- "با" أنا من سأكتب كلللللل الأفعال.

أترك الطفلة تخربش أفعالها. تصرخ فيّ أن اكتب أفعالي وأن أكتب عن النقل عنها.

الأفعال! نعم، لماذا لا اكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟ ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جرى، ركض، صارع، ناضل، صرخ، غضب؟

أي فعل بنبرة تفرعت عنه كل هذه الأفعال؟ ... هل هو ولد؟ ... لكن ماذا فعلت الذات قبل أن تولد؟ ... كم غريب أن تبدأ قائمة أفعالنا في هذا العالم بفعل غامض وأن تنتهي بفعل لا يقف غموضاً: مات!

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفت عن الهرج مع رجل يمّوه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار. فجأة تلخذ تقيحة في الغناء وهي تنظر للورقة التي رميت فوقها الكلمات التي أمرتني تفاحة بكتابتها:

- أنا قرأت كلماتك... أنا قرأت كلماتك كلها... إنها كلماتك قبيحة لا أحبها. تتدخل تفاحة.

نعم لنحتفظ لقصتنا هذه الليلة فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي. الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة! فسخ التي لا تروقنا؟ لعلها عسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة! ... أية كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني أليا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تقيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس أهم الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، زعيم أوحده، مجلس الداخلية العرب، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب، احتباس حراري، عواصف، حرائق، حروب أهلية، انقراض أجناس...

بربّك ليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل إنها تزيد الطين بلة.

نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تطيقه، هو الذي يشككي هذه الأيام من كل الأوقات التي خلصته منها بجزء قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يقوضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الأخر وأحيانا مع كلماته هو.

ربما أيضا لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلا وانهار الصرح بكلمه.

هذا ما يطرح علينا إشكالية ضخمة: ما الكلمات وما علاقتها بما تشير إليه وتسمي أو تصف؟

ثمة من الأنميين من يعتقد أنها مثل أوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخر الذهب الذي يغطي قيمتها والرافد في كهوف البنوك المركزية.

ما لا ينتبهون له أن هذا المبهم الغلmuş (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرفونه إلا بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بأننا حبيسو لغتنا مثلما نحن حبيسو اجسادنا.

كل ما نحن متأكدون منه حاليا أننا لا نرى العالم فقط عبر حاسة البصر وإنما عبر ما توفره لنا حاسة سادسة اسمها اللغة.

ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى لأمه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد.

يضحك مرافقي ابن تلك الغياقي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والتلج. أعليه بدوي: يوم تزور صحاري لصفير ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم تراها.

بشبكة العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة لشكل براق بالونور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان لسماء نهارا وتخفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبكة" اللغة شمس مختلفة.

كانت شمس أمي اسمه "أخنتون" إله يُتوجه إليه بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقتلة هيدروجينية بطينة الانفجار بالنسبة إلى أمي لآخر اسمه "أيشتاين".

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم لكنت تسمع -خاصة ليلا- حفيف لجنحة الجنّ والغرابيت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بلقرايين والصلوات.

الذهن إنن ليس مرآة تنعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بنفس الكيفية لكل البشر. هو آلاف المرايا الشظية التي لا تتوقف عن معالجة معطيات الحواس فتضفي عليها معاني مختلفة.

هذه المرايا هي كل أنواع الكلام البشري التي تنتجها اللغة وأهم خصائص قدرتها على خلق معطياتها الخاصة بغض النظر عما ترصده الحواس الخمس.

ألا تضيف للكائنات الحسية التي ترصدها بالاسم مثل الغابات والجبال كائنات غير حسية مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدينة الفاضلة والندسية العامة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود وكلها غير موجودة في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر؟

هناك صورة أخرى قد تقي بما في اللغة من عبقرية وقدرات عجيبة: صورة شبكة الصياد التي تظفر بكل ما تقدر عليه من أسماك... لكنها قادرة على إعادة تشكيل الأسماك التي علفت في حبالها... بل وحتى جعل خيوطها تخلق أسماكاً لم تسبح يوماً في محيط.

من أعالي هضبة وسط غابة استوائية مترامية الأطراف ها أنا أتأمل بحيرة جبلية أعبت برميها بحصاة فتابع تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلاً.

بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست إلا...بحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تملأها في كثير من أماكن الفضاء الحسي.

لكن سكان هذه الأماكن من قبائل "الميا" كانوا يرون في هذه البحيرة باب "الشيبالبا" أو المدخل إلى العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. لذلك كان أجدادهم يرمون من هذا العلو بالأطفال والعذارى قربانا للآلهة لا بالحجارة كما أفعل.

كانت لهم نفس الصور التي ترسم داخل ذهني، لكن كانت لهم تصورات للمكان جد بعيدة عن تصوراتي.

التصورات؟

هي ما تبلوره كلمات انتقيناها بعناية من داخل خزاننا من الكلمات لتعبر عن موقف وتحضر لتصرّف.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها من الثقافة التي نشأ فيها أي من نسيج الكلمات التي تشكلها.

هي طريقة فهمنا -أفراداً أو جماعات-للصور التي تنقلها لنا الحواس الخمس عن العالم ومكوناته المختلفة.

هي ما يتبلور شيئاً فشيئاً في الأذهان بحثاً عن أحسن الطول في معركة البقاء وتحسين ظروفه.

هي منطلق التفكير المجرد عندما يتقدم الذهن في تحديد معاني الكلمات بكثرة دقة.

هي كل ما نعتقد، كل ما نؤمن به، كل ما نكفر به، كل ما نبتكر من فرضيات حول طبيعة العالم وأسباب وجودنا فيه أو وجوده فينا.

إنها الفكريات هذه الكائنات الحية اللامادية التي تبني وتتعهد مكوناً أساسياً من هيكل العالم أسميه فضاء الأفكار.

كيف لا نجعل من هذا الفضاء ركيزة ثابتة لعالمنا وفيه أهم عوامل الحياة والموت.

أنت طوال الرحلة كمن يشق طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم لكن أخطر ما يترصد بك ليست هراوات قطاع الطريق الحسي وإنما فكرك التيبت في أشداقها أنيبل قاطعة.

هل سيوجد يوماً مرصد الفضاء الفكري على شاكلة التي توجد في الفضاء الحسي لإطلاق الإنذارات العاجلة بقرب بروز عاصفة دينية جديدة أو اعصار استبدادي قادم، أو طوفان عنصري آخر، أو حروب أقطع من كل التي عرفنا نظرت لها وبزرتها وحثت عليها أخطر الكلمات؟

أو كيف أننا دوماً في عالم لا حقيقة له خرج ما نتصور أنها حقيقته

تأتي لي ليلة فكرة لقصة ما قبل نوم البنيتين لم تخطر على بل قصاص.
أتوجه لتقاحة تفرك عينيها ولتفيحه تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة
والساحر.
- جاءت السلحر الخبيث فكرة مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة
مهدة بالموت، والسلحر أشبه في وجهها كلمة نار.
تفهم تقاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه لساحر الخبيث: مطر، مطر!
- أشهر الساحر كلمة مقص.
- نركب كلمة زورق لنهرب جميعاً.
تصرخ تفيحه: فتأخذنا كلمة نهر.
تأتي الأوامر من الصلون بوقف الضجيج لا أحد يحملها على حمل الجد. لا حتى
صاحبها.

تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكن بالأيدي رقصا بفعل
العراك وعراكا يقعد الرقص. تحنن لهجة أوامر نافذة الصبر فأنصح البنيتين بالحد.
تفتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبية من وراء الباب يقترب. تتمددن على لسير
لمواصله القصة وشوشة وقرصاً وتجاذبا بالأيدي.
أغض العينين أغفو وأستيقظ على همس البنيتين والزورق السحري ينسلب على نهر من
الكلمات يأخذني إلى فضاء جبلة نصوص، غابته نصوص، أنهله نصوص ومستنقعاته
نصوص.

يتصاعد التنفس البطيء من البنيتين. أغوص في الأريكة مستمعاً بتنفسهما ورافعا عن
ذهني كل القيود، فأهم الأفكار لا تأتيني إلا ماشياً أو على تخوم النوم واليقظة.
أخيراً في هذا الفضاء العابر للزمان والمكان الذي حلمت باستكشاف كلليل ما فيه.
“هنا؟ جبال من الملفات التي أودعوها الأهم نثراً وشعراً.
“هنا؟ معدلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهييز وهوكنز، زبدة
علومهم علومهم لا تدري هل هي فعلاً ملفات الله المسروقة أم قصة الإبداع الفني عند
البشر.

“هنا؟ قوانينهم المتركمة المتزايدة عدداً وتعقيداً والتي تعكس لهم صورة محتالين،
لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، معتصبين، مرتشيين، متمعشين من الاتجار بالنساء
والمخدرات والسلاح. كل هذه الجبال من التشريعات لا تعري إلا حقيقة لجرم الشعوب
وإجرام الدول وإجرام الأحزاب وإجرام البنوك وإجرام الشركات وإجرام العصابات

وإجرام الأشخاص منهم -إيه والله- رجال دين لا يرون تنقضا بين وعظ المؤمنين كل يوم أحد واغتصاب الأطفال وراء الستار . كل هذه الجبال من التشريعات لا تقضح إلا قشل الدين والسياسة والأخلاق في إصلاح البشر...أو إن أرننا أن نكون منصفين هي شهادتهم على بذل المستطاع والإصرار على مواصلة مشروع بلا أفق.

“هنا” تورايخهم، أي رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتموه، ناهيك عن الدس بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصلح مموليه، وآخرون يفككون بنكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصلح ممولين آخرين.

“هنا” رواق صور عظمتهم التي صقلتها دعوية مصومة متواصلة عبر العصور يسهر على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعشون من صيتهم.

“هنا” ما يسمونه مزيلة التاريخ حيث يتكس كل الأميمين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم وأغلب المرميين فيها ضحايا صور نمطية معاكسة روجها الأعداء ومن يتمعشون من توصل العداء.

“هنا” مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

يتعالى من حولي صراخ الباعة يتغنون بالمنتوج الجديد والكُلُّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم..تخفيض هام لدين الخلاص الحقيقي...الفلسفة الصاقية غير المعشوشة.. طازج، علم نفس طازج، لوحد الطازج الخارج لتوه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضمانتنا... من هنا الرود الجئية على الأسئلة اللعينة... لا غش عننا في الأمر مثلما يفعل الآخرون!

القاعدة أن جلّ الساهرين على تغذية الفضاء أو القائمين على حراسة ما فيه من منتوجات متوترون بصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المساكين بل وبصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والثبور.

لا غرابة في الأمر والكائنات اللامادية الحية التي أسميها الفكريات والتي تتولد من عقولهم بحاجة مثل الفطريات والنباتات والحيوانات للدفاع عن وجودها وتوسيع مجالها الحيوي وإلا فإن فكريات قاتلة تتربص بها لن ترحمها.

يقترّب أحد الباعة هامسا في أنفي: لا تتبع أي من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط المستقيم.

لم لا أتبعه؟ قد أعثر أخيرا على ما بحثت عنه منذ إفاقتي؟ مؤكّد أن الأزقة الخلفية تعجّ بمزوري النصوص وبمهربيهما لكنني قد أجد فيها أشدّ من تشوّق لهم نفسي. قد أسفط بالصدفة على طورانطوس ولوحاته التي دمّرت أياد مجهولة جُئها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان يهْدَى وتوفّي من الشيطان.

أه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم -
تلك الذي كتب الرسالة الجامعة-أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسببه وأخبره أنني
سأختم به نصتي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعني الحظ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا
إذا كان امرأة-تدبر(ت) أمر(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إملاطة اللثام عن
هويتها(ها). كُتِّبَ يركضون طيلة حياتهم لتعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون
منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام !!!

قد ألقى صاحب مخطوطة "فوينيتش". كم قضى من ليالٍ لكتابة نص يسخر من نفسه
ومن كل الذين سيستميتون ستة قرون لفك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلم بها بشر.
نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها
شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية!

هل من الممكن أن كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثروة مجرد قمة جبل الجليد، أما
المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الأنيبيون
الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ
المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

قد تكون أهم " أماكن" هذا الفضاء ورشات إنتاج الفكريات. أما المحرك فما يطرحه العالم
على الأدي من تحديات تترجم في ذهنه لسيل من الأسئلة: هل نحن حيوانات أفرزتها قوة
عمياء اسمها "الطبيعة" أم كانت نورا نورا نورا خلقها إله لم تخلقه قصصنا؟ هل رمت بنا
الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل نحن تائهون في محيط اسمه "الكون" ننتظر
بعثة إنقاذ لم نسمع بغرقنا ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأنا إليها؟ هل نحن
مستكشفون بعثتنا العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقّم في ربوع العالم ونحن كمن
يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا
نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول
صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننطقه ولا نظفر منه إلا بصدى
صوتنا؟

على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد"

من هذا الرُّجُل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر
الثور ليسلمنا أئمن الكنوز قبل الاختفاء في الضباب؟ كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان
نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المقشّرة عن أنيابها أنهما أكثر لياقة مع
الزبائن واحتراما لكتائبهم.

نعم إنها نفس البضاعة البائرة على مَرِّ العصور... كلهم يريدون من الأدمي أن يصبح خيرا والشّر جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه في صراع متواصل مع هذا الجزء من ذاته كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي وجعا... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنى للسعادة دون وجود الشقاء... يريدونه ثابتا على حالة اسمها الستوربي أو النيرفانا أو الحكمة والحال أنه لا شيء في هذا العالم يثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بلواقع العنيد لتنتهي طقوسا بتعيش منها المخادع وأوهاما يعيش بها المخنوع. فجأة أسمع البنتن تصرخان بالاحتجاج:

- "يا"، لا تتكأ، لنز لحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شار أو سمسار، يحدوك -مع هذا أمل كل المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوما فتفتح لك دكانا صغيرا ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء.

نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أحسححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهّم أن تكون فاسدة الصياغة أصلا. ها أنا أنفع عربتي الصغيرة، أصبح مغنيا أو أغني صانحا: "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة نعطيه مجانا "المدخل إلى الطلب" شرط ألا يستعمله لفت السمك.

تخرط البنتن بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "يا" ماتت غيبيا، ها هي تقالحة تغني: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو ترويهما لكم أحسن رواية، طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأملبين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. لما ما يدعونه من أثره وعمل لوجه "يا"؟ أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايضة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسب ثمّن تحريك العضلة آتفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشتري أعشّه. إن بازت البضاعة فما عطي إلا تركها للفران. فجأة أشعر بقالحة تهزني من كتفي.

- "يا" ارتفع شخبرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهائيتها.

- نعم، نعم، لكن رجاء في الحلم المقبل اهتمي أكثر بمصالحنا يا أنانية.

ماذا تقول، لا أفهم شيئا.

- لا تهتمي، كنت أمزح.

بينما أنا أفرك عيني محولا استجماع شتات ذاتي تداهمني فجأة موجة جديدة من الأسئلة: إذا كان العالم ما نعتقد أنه العالم، إذا كانت تصور اتنا له ولأنفسنا، لعلاقتنا به وبيعضنا البعض هي كل ما يحدد حالاتنا النفسية وتوجهاتنا العملية، وإذا تذكرنا أن هذه التصورات مصنوعة من الكلمات... فهل يعني هذا أننا لا نرحل في آخر المطاف إلا على طريق تبده الكلمات، أنها زائنا ودليلنا طوال الرحلة وأنه لا شيء يهددنا على طول الطريق أخطر من الكلمات؟ **

لماذا يمكن القول أننا في عالم واقعه مصنوع من الخيال وخيله مصنوع من الواقع

يصرخ "بم" في إحدى ملفات الذاكرة: ولدك هذا سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربيين أطفالتي؟!
متوجهًا إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك.
لوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكئس "م" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكئس "بم" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالتطعم لبقار.
كانت أولى محطات الإحلاع لتي وجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لقضاء سحري أصبح له الملجأ والملاذ.
يصرخ الأخ الصغير في أمه: "م"، إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأتيول في سروالي. قولني له أن يخرج حالا.
تدقّ "م" الباب بصرار، فيخرج الطفل مكرها من مكان كان يظنه أمانا بعد طرده من "الوكر".
حتى أعصاب "م" قدرة على التوتّر.
- كفي الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عهديت.
هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيدي، أطعمه... إلخ.
يستشيط المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:
- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصادر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين وادهب إلى الركن.
يخلق الطفل الكتاب مكرها، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.
تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها الهند لا يعرف عنها شيئا. ولأنه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغلبات الزيتون وأخرى بغلبات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومدّنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجن والغاريت، لا يفتحها إلا طفل وحده من يعرف كلمة السرّ.
يلوذ الطفل أخيرا بفراشه متنقّسا الصعداء تخلص من كل المنغصين عليه قراءته.
يرتفع صوت "م"، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكلب بالقوة. إلى النوم. حالا.
 عيئاً، لن تمنعه حتى "ما" من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته
 "سيئا" وأخيه "لاشكنا" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على
 نفي ربييها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي "لانكا" تبيكي "سيئا" قومها ووطنها، لا
 تخفي رُعبها من غلبة يسكنها عتاة الشياطين.

"سيئا"! "سيئا"! "خطفوا سيئا"، خطفها "رافانا" اللعين!
 إنه أول امتحان للطفل وقد تقمص النور، أو قل تقمصه الدور. نعم، هو الذي سيحزّر
 الفضيلة ويعيد المُلْك إلى صاحبه والأمورَ إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- "ما"، أرجوك. لا بدّ أن أنهى الفصل الأول على الأقل، أرجوك.
 - طيب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تغفل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمه أنّه واثق أنّ قبلاته عبرت حاجز الورق وتسللت
 بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. أه يا سيئا، يا "جانلكي"، يا ضفائر سودا على الظهر
 تلتفت، يا عيون المهام، يا بسمه الحياء والخجل، يا ركة الفجر، يا وداعة، يا طهراً، يا
 مَلاكاً على الأرض مَشي. يا أول حب.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أطلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.
 أنام وأترك سيئا في أسرها! إنّ "ما" لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير
 بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيئا ملقاة على خشبها مكئمة الفم، معصوبة العينين
 والحبل يقيّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقه وتوهم ما شئت. سأتيك
 بالخبير اليقين.

- يا بني، الكُتّاب لن يهرب وهناك بعد اليوم يوم جديد.
 كيف؟ أعلق الكتاب الآن وسيئا في خطر الموت، ربّما تتهدّدها أشياء أخرى أقطع بكثير؟
 لا تقدر "ما" كم هي خرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيّداً، ولقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.
 - إذا كان النوم عزيزاً عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟
 - لا تكن سليط للسان حتى مع لك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّاك؟
 لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن "ما" تفهم أحسن منه. هل
 كانت لتقبل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدرّجي من "واقعها":
 لا تلقى، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتاً، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب
 تعلّمه. اتركه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها
 البريء ماكرا ككل "الأبرياء"، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من

مكر وخيث. كانت تظنّه نامنا وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئّه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماء يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أنفي محلولاً إرهابي، أصرخ فيه فتصطكّ فرانسه. ينطلق هارباً نحو النجوم فسبقه إليها، أضيقّ عليه الخناق في كل مجرّة. تكثّر السماء عن أنبلها وقد توسّطتها شمسٌ بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفقيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها سهام القاتلة دون الالتفات حتى. برنّ في الفضاء البعيد صدّى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة كلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم. أن الألوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفت، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تتركنا إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ للعين: أه يا راما، قتلتنني لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يدك. يسقط للشيطان مضرباً بدمه الأخضر. أضغ رجلي على صدره مبتسماً مديراً رأسي يمينا وشمالاً أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان الناقق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة لنصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه ... أنا راما... أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة؟

يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحدث من الأحسن ألا تضع أُنْفَك فيها وإلا صدمتك رانحتها اللنتة. لم يكن الطفل واعياً تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقري اسمه فالميكي، أنه سيقضي جنّ رحلته يتجوّل في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم جنّ واقعه خيال وجنّ خياله واقع.

*

يكشف الطفل يوماً بؤابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري.

يتوجّه المعلم إلى أطفال الفصل وكلهم نكور في العاشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سذهب جميعاً لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها " الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه "العلم" لا يتفكك يُظهر عضلاته ليزداد به الألمي تعلقًا وإعجابًا؟! لا يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطي حائطًا شاهقًا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيًا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبيّة، لا ينفذ فيه صراخ المعلمين طلبًا بالهدوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصباح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحركه، يواجه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتي يقرأ في الكتب.

يالدهشته وهو يرى فجأة منظر لحقول وجبال تخرج من الأثنيّة ثم لادميين يثبون هم أيضًا من العدم. من أين برزت هذه الغاريت، وهل للخيل أيضًا أشبلحها؟ يتعالى صياح التعجب. هل ثمة أذن من الصباح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوّت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيويّة المكوّنة فيه ولأنّها الحويّة.

ثم تتوقّف الصرخة فجأة قلّق مبهّم، هل سيثب الفرسان من الحائط إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنايك الخيل؟ ترفع الفكرة ألبا ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمزّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا يثثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتائم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونهم من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم يئنّهون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رملحا وسواطير. ينطلق من فوهة المستسّ ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بالأم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أيّ أهمية لالام بالوكالة؟ هو شعوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصيد والصيد لحيل الطريدة. كأنّ غرائز قديمة قدّم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم أتية من

أصاق كل ذلك عقت في القاعة تنكّر الأدميين بحلوة القتل. ها هم يقتلون مع الفتلة
ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهتدين بالقتل.
لا شك أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابية جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشيئة
جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كل أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن
تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض و هلع يفرون من كز طفل
مغوار يُعمل في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهتد؟
تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابية عن التي يرهق بها نفسه ومن حوله.
أين البشر والخيل الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغني، هو أم هذا الذي يقول
إنّ الكائنات التي رآها بأع عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن
توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بد من العودة إلى القاعة
المظلمة للبحث في هذه القضية.
إيمان جديد يضاف لإيمان الكتب.
أيّ طريقة لإرضائه غير التكمّ والخناع، ف "ما" مصرة على التشدّد في رفضها
لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع قصص نساء
سفرات متبرجات وعنف وقتل. كل ما تكره، كل ما يجب.
يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من البلب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسي،
كفضاء الأفكار، زاهر بما لا يتصوّره عقله، واللامية لا تكف عن دفع حدوده إلى أبعد
فأبعد، واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.
يتهاشم الأطفال بلنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت
اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر،
بعد أن يتفدّ من لهم أعتاق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيق يحب كثيرا شربه.
يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان
الذي سيقتضي فيه الصبيحة، بل ومع أخوه الصغير الذي أصبح أستاذًا له في الإيمان
على الأفلام والكتب والكذب على "ما".
يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير
مبالٍ باحتجاج طفل أصغر منه أجبر على الانسحاب وهو يزفر من الغيظ. أخيرا،
سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفريت التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون
دراكولا هذا هو "العويّبة" التي ما زالت اللجّة تهدّه بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه
في وجودها. لا بد من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه،
تجري وراء ما تفتعل الهروب منه، والحدود بين ما تحبّ وتكره متحركة لا تخضع
حركتها لمنطق أو قانون.
ينتهي العرض ويخرج مع أخيه من القاعة يفعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية
الأطفال.

المشكلة الآن هي ماذا سيقول لـ"ما؟" بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الطود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فك كائن لا يراه إلا هما.

يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلل إلى فراش "ما". لكن هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأم كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعا للأمر الأبوي الصلرم التحلي بلشجاعة، أو على الأقلّ اقتعلها.

لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكئية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيانة إله الآباء والأجداد والاستجداد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما؟" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانيا؟

لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "ما؟" ثومها المنقذ؟ لكن ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافيا في الظلام ويناه منغلقتان بقوة على فصّ من الثوم؟

يفضض الإرهاق جفنين أضناها أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيد القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتنبأ اليوم من التمرد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للآدمي. ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تقفح فيه أنيابه شلّالا من اللين الأحمر الضروري لبقاء الغاريت.

هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت ذمته، ليقتصد طفلا من قارة أخرى لم يمسسه بسوء وفشّ عيبا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟ نعم، ممكن.

القاعدة هي، أنّ الخوف من خطر ليس دّفعا له إنما دلّه على أقصر طريق إليك وأتّك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما.

هكذا وجد دراكولا منفذا إلى طفل يهيب صارخا والبول -لا الدم- قد أغرق الفراش.

ما كان هذا الطفل عاجزا عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة منها أن الأمي يرفض رفضا قاطعا مغادرة العالم وأهواله وأنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير مترجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة...منها أيضا تصور العالم كمغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض... وايضا الرعب من أموات قد يطرقون الباب بقوة محملين بأخبار مفزعة عما ينتظرنا جميعا بعد الموت...ومن ثمة شرعية فتح القبور ليلا لاستلال

قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصن الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

*

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلع نظارات لا حلجة له بها وقد أصبحت له عيون التسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سلم الطائرة اللقائبة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيب التمنيات بنجاح المهمة. تتركب الذات مطية الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دوي المحركات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يولجه لمعان الشمس فلا يرف له جفن، وإنما الشمس هي التي تعض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة بباركها ويتبرك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط - حدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرة ثانية. الآن أرى بوضوح البخارة الشراعية وحنون متشبهت بصواريخها المكسورة. الأمواج يعلو الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دوي الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور بأنه أُنقذ مرة أخرى، أنه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعداتها فوق القارب بالضبط فيتلقيها المغلر الفيضي بشراهرة وكله امتنان ليعل ولدعوات "مما؟ وللطيار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. التقط حنون المعذات وتم الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهايننا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمة أخرى بانتظارك.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرت لحلها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرّفها رضاك.

يواصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعددة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البر والبحر. مرة يقود بِنْد ثابتة غواصته تحت جليد المحيط.

مرة يحط بصلروخه الصغير على كوكب مجهول. مرة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرة ينزل أعماق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا

صرّة الأرض. مرة يفتح الغابات الكثيفة بلحنا عن نبتة يذيمة يصنع منها لكسير الخلود. *ألا يعني كل هذا أننا لا نعيش حياة ولحنة في هذا العالم كما نعتقد أغلب الوقت وإنما*

"حياتاتنا" عدة: التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم البقطة، التي نقضيها في فضاء الحواس وأجمل "حياتاتنا" المتعددة التي نعيشها في فضاء الخيال.

تمرّ السنين. شيئا فشيئا يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنبت يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.
كفى من المعارك مع الشياطين والشياح الخصوم من أطفال وكهول.
تهمس بغنج ودلال ذلت محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنيت الجيران: الحب
أجمل من الحرب.
يقفه صئع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستبِق الأحداث.
يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكمه: يا
عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبيل لك بتصوّر متاعبها.
ثُرف حواجز الحياء والحرص. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا
يتوقف عن تشجيع اللصوص.
يهمس الصوت الساخر:

لبطمنن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت النمة بالكم والكيف الذي يأمر.
الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأدميين: الجنس، المال، الشهرة
والسلطة.

ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على نمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة
ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.
تمرّ المراهقة لتدخل الرحلة مرحلة اسمها الشباب ومعه تشهد أحلام اليقظة تغييرا
جذريا.

يصدر الكتاب الأزرق في لخر طبعة مزينة ومنقحة وفيه كل الأجوبة على كل هولجس
كل آدمي. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا
بقتون أنه "لا نبي في قومه" وأن تسمير النبي على الخشبة هو المنخل الإجباري لعبادة
كلمته يوما... هنا إذا كانت ورقته هي الراححة في اليانصيب لأن السوق زاحر
بالمتمتمين لأقدم المهام، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدى نبينا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن
صدرت بطاقة تقييش في حقه وأعدت له الخشبة والمسلمير وعين الجلاذ الذي لا بد من
المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقى البطل آخر نظرة على
حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضلّين.
يغيب المصطفى عن الأنظار ونواح خواربيه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن
يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل
حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتب سيفشل تجاريا كالعدة، خاصة والمصطفى عاجز عن
دفع مصاريف ملحق صحفي يروجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة،
وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتطم الخنازير اكتشاف الدرر التي نثرت
عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السرية لحزب
التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعتبين

في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في برائن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالتار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم نثار إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذيها للولادة إلا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلاً إلا وسارعوا إليه بتنام مأخوذة من جُملة المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف لإخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتهم، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. يتسلل داخلي حزن دفين على كم من مُلهم وكم من برنمج طموح قُتل وسيفشل في إصلاح هذا الجنس التعيس. ها قد داهم خريف الحياة الأدمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحاً تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكأبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزناً، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلع بدين. تتأمل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف جزئها الراكب فوق حطام حصان.

- ضع حدًا لهذا التيه. أما أن الألوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقّق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع.

يهزّ الشيخ الكئيب كنفه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كل الأساطير والديانات التي تحنى أمامها الهامات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجدل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

- لأعملن معك، يا سيدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى "الذنية".

يتنهد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار نكريتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبّة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

*

ما طبيعة هذا الفضاء الذي نقضي فيه جزءاً هاماً من زمن الرحلة وهل هو مجرد مرافاً سحري نهرع إليه للاحتماء مما نقلى من آلام وأوجاع وخيبات أمل في ما نسميه الواقع. يا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوّض فيه حرماننا المتواصل الذي هو قدرنا فيه. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء عند وصول الواحة.

ثمة من يرفضون مفارقتة، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية. إياك ثم إياك من طول المكوث وإلا كنت كمن يرفض مغادرة الرحم والنتيجة الموت تعقنا.

هذا إذن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفضح فيه أعمق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها.. فضاء يسمح لك براحة لا بد منها.. براحة متقطعة.. براحة موعودة وكل المطلوب عدم الإدمان. لكن وظيفة الفضاء الأهم لا علاقة لها بما يوفر من متع سحرية وبالمجان. إنها الوظيفة التي ينتبه لها كل طفل.

يقرر أنه يريد أرنبه ناطقا.

- أريد أرنباً يتكلم.

تستجيب القوة المجهولة فوراً:

- حاضر يا مولاي.

- أريد كائننا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقب العالم شفثنيه وتلمح في عينيه ابتسامة مكررة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كائننا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبيه جناحان.

تتصاع القوة المجهولة كأن لا هم لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقر فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.

القاعدة أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع إنجازات البشر كان يوماً أحلاماً في فضاء الخيال.

اعتبر كل الطفرة العلمية التكنولوجية التي تقلب حياتنا رأساً على عقب وقل لي ليست أحلامنا وكوابيسنا تحققت كلياً أو جزئياً؟

حلم الأدميون قروناً طويلة بشفاء كل الأمراض، بالطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور، بالغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين وحتى بالمشي على سطح القمر.

تبدأ محاولة ترجمة هذه الأحلام في فضاء الحواس بفترة طويلة والأداة الوحيدة السحر.

ثم تأتي مرحلة التكنولوجيا لتحقيق أهداف السحر بوسائل العلم.

هذا الفضاء إذن هو أيضاً المختبر الأول الذي يتخصص فيه الذهن الأدمي بما يمتلك من طاقة التخيل كل الممكن فعلة لتشكيل عالم يبدو أنه خلق غير مكتمل أو أنه خلق لا يطلب شيئاً غير مواصلة خلقه.

ها هو الأدمي منكب على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذنب وذلك على امتداد أيام وأسابيع في كهف من كهوف ما قبل التاريخ ليستخرج من علجه شكل كائن له رأس الأسد وجسم آدمي والفنان يضيف لكائنات العالم كائناتاً جديداً هو خالقه.

كم من فنّان آخر ترك العاج والأصباغ ليعمل على الأصوات يعيد تركيبها لتضيف للعالم
كيثبات صوتية لم توجد من قبل وتتنافس في جمالها الأذن أصوت تدفق الماء في الجداول
أو سقوط قطرات المطر على نافذة غرفة النوم...والمخيلة هي التي تقود نوما أصابع
الفنان!

فضاء الخيال إذن هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحة الفنان وفرضيات
الباحث وتقنيات المهندس وأحلام الأديب ومشاريع النبي والثائر.
خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي
تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبدا بحثا محموما عن الجدة
والطرافة والتنويع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل
الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطيهما التكنولوجيا في هذا
العصر امكانيات غير مسبوقه.

الخلاصة أنه إذا كانت مهمة الحواس الست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم،
فن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كأنّ العالم خزان مواد أولية يعاد
تصنيعها باستمرار ليكتسب حالات وأشكال جديدة وفق خيالهم هم لا وفق خيال الخالق
الأعظم ولسان الحال يقول انظر ما لذي يقدر عليه البشر نحن أيضا.

**

أو كيف انه عالم شاسع مترامي الأطراف ومع هذا لا يتوقف المرتحلون عن توسيع مجاله.

تصوّر ذهول ابن فضلان أو ابن بطوطة وهو يشهد بأمر عينيّه يظهر محيط جبار لم يعرفه مغامر من قبل، أو دهشة كولومب وما جالّن وهما يواجهان بروز فكرة سادسة بين شواطئ أوروبا وأمريكا.

هذا بالضبط ما عايشه جبلي ونحن نحضر ولادة ونشاهد للتطور الانفجاري لفضاء جديد للعالم لم تعرفه آلاف الأجيال من المرتحلين التي سبقتنا دخول هذا العالم.

إنه ما نسميه للفضاء الافتراضي. هو ليس جزءا من فضاء الحواس حتى ولو كان بحاجة إلى أشياء محسوسة مثل الحواسيب ليووجد. هو ليس جزءا من فضاء الأفكار رغم أنه يعجّ بالفكريات ولا هو امتداد لفضاء الخيال رغم أن الخيال من أهم أدواته.

ما يجعله فضاء فريدا هو أنه مصدوع من كائنات رمزية اسمها الأرقام وعلى وجه التحديد من رقمين سحريين: الصفر والواحد.

كما تحلّل أجزاء واسعة من ذاكرتي ظروف أول لقاء لي مع الحروف، لا زلت أنكر جيدا ظروف أول لقاء مع هذه الرموز التي تشكل هي الأخرى لبنات أساسية لا وجود للعالم الذي نعرف بدونها .

وفي هذا الملف يتوجه المعلم -المرهق طبعا - إلى القسم الهائج على الدوام.

-والآن يا أطفال تمرين الصباح: اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟

يصرخ فيه طفل لن يتعلم أبدا منافع العَضّ على اللسان سبع مرات قبل مخاطبة أي أدمي:

- سيدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمي؟

- ركّز على التمرين...أريد رقما صحيحا لا أسئلة ركيكة.

ثم يأمر المعلم المرهق قطيع الأطفال الهائجين على الدوام:

- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسي وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب.

يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بغيب فيه ما هو موروث وجله مُكتسب .

- سيدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟

- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.

- لماذا هكذا، سيدي؟

- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح.

فعلا هذا عالم بحاجة لجدول ضرب ثابت لا يخضع لضغوط السياسة أو تقلبات سعر صرف الدينار.

تخيل أنه جُن جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ابسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب نتيجه إيجابي لتصبح القاعدة أن ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سبلي مضاعف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بقواعد القسمة والطرح!

تصوّر فيروسا لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.

لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطورها إلى ابعاد نتائجها لوصف احتضار عالم امتشرت فيه فرضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيرة وخروج الأتجار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات والأفراد. حدث ولا تسئل عن انهيار البورصة وشلل جلّ دوليب الإنتاج الصناعي والخدمات وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

الأرقام إذن بما لا يدع مجالاً للشك من اللبّات الأساسية للعالم الذي نعرف ومن أهم العوامل المتحكّمة في رحلتنا فيه.

هي التي تصف العالم أدقّ وصف، تحصى، تقيس، وتصنف جلّ مظاهره.

هي التي ترصد له حنوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معين ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصنع ملامحه فولها لما خلقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكمها بلجساء سكانها وحساب ما يتكفون من خدمات وما يمكن اعتصله منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر والبشر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكثك داخل قفلة المرتحلين وأنت معرّف لدى الأمن والضمن الاجتماعي ومصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

ربما الأهم من كل هذا أنها تبلور عبر معادلات بالغة الأثافة جمالا كالذي يبهرك في أروع اللوحات أو السمفونيات. كم من علاقات وطيدة مخفية بين الموسيقى وبين الأرقام انتبه لها أكثر من موسيقي عبقري!

وهي أيضا جزء من غرابة العالم نفسه فلا اتفاق بين خيرة العقول حول طبيعتها والجدل بخصوصها متواصل منذ قرون. هل هي كائنات يخلقها الذهن وموجودة داخله ام هي

كائنات هلامية موجودة خارجه ومحكوم عليه باكتشافها في مخابئها السرية واستكشاف كل ما تزخر به من خصائص وإمكانات عجيبة؟
وفي ملف ذكرياته عن أغرب رقم في هذه الأرقام الغريبة يصرخ الطفل على عادته في معلمه.

- سيدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- كيف يوجد شيء غير موجود؟

- قلت لك كفت عني أسألتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرقه.

- سيدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفر إلى واحد!

- طبعاً، وفي كل مرة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثم مئة، ثم ألف ثم عشرة الآف، إلخ.

- سيدي، سيدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيب؟

- اضفت كما قلت لي صفراً بعد الصفر ثم صفراً آخر وآخر وآخر... سيدي! سيدي!!
يُوسعي أن أملاً الكراسية بأكملها بالأصفر!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجتهداً أمام صديقه الحميم: الحائط يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفر تخرج من الصفحة، من الكراس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتُنساب كلسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفر جديدة تخرج من العدم وتنفخ بالطابور ذوماً إلى الأمام.
إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفر. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم بكرا بمعضلة اسمها "اللانهائي" دوّخت قبله كمّاً من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنّ "كانطور" من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُبزك؟

ما كان يجهله الطفل ذلك اليوم -شئّه في هذا شأن كل المرتحلين- عمق الثورة التي سيجدتها في عالم الأسميين هذا الصفر رمز اللاشيء برفقة الواحد رمز الكمال وقد أصبحا الرقمان الأذاتان لبناء آخر فضاء لعالم يببوا أكثر من وقت مضى أنه مشروع متواصل البناء لا كيانا ثابّتا مهما بلغ من الاتساع والتعقيد!

*

ما يهمني في هذا الفضاء اكتساب الرحلة جملة من الخصائص تغلب مفهومنا وتجربتنا لها رأساً على عقب.

بخصوص "الأماكن" التي يعجّ بها والتي قد تودّ السفر إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو "أكسيت دوت كوم". لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسّي.

خاصية هامة مرحب بها أن المشي على الطريق في هذا الفضاء هو دوما بلا تعب. لا مجال لأن تعترضك المنغصات التي يواجهها مستكشفو الفضاء الحسّي مثل بعض المستنقعات الاستوائية وديببة القطب الشمالي وأسود الأعراش الإفريقية وضباط مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضا أن تعترض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقي يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك.

في هذا الجزء من العالم يتغيّر أيضا بصفة جزرية مفهوم آخر نبيّنا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم الزمان.

ففي فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف بلخرته بلشبونة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفيليبين - حتى لا يُغتَل في معركة تلفية مع المتوحشين- والتوقف في جوا وعدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

هذا لا يعني أنّ هذا الفضاء المضاف للفضاءات التي عرفها الأوائل خالٍ من المطبات والأخطار. فهذا الفضاء الافتراضي هو أيضا مثل الفضاء الحسّي-ساحة حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنرالات بخمسة نجوم يُعدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيب فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخ برامح محمّلة بكل أوامر خراب ونمار المصانع والمنشآت الحيوية! الفضاء الجديد مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانتهيار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بفونوغرافيا أطفال ورضع ومضلعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وألهة دموية وقرابين تُقدّم لها والنبح على الهواء مباشرة.

هو أيضا قمامة تُصبّ فيها مجاري صرف صحيّ تقيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في الفضاء الحسّي، حيث يختلي كل واحد بمرحاضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمة التخلص منها بعيدا. ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهولٌ فيروسا طائشا أصلب منه مقاتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وأسأطرّ للسهر ليل وليل

لإعادة صبب المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسه، والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة الورق؟

لا مجال لأن أضع عليه أية صورة أو أي اسم على العدو الخفي.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والغاريت التي يحفل بها فضاء الخيال.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسه والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة الورق. لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم.

نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدو. من يطورني تحت اسم "إيفان المرعب"؟ هل هو جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان

المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتتم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر دون جسد ليستيقظ من قبره ويعود إلى مضايقة أعداء الاستبداد أمثالي؟ إن لم يكن

إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والمثم وطرزان وأز دروبال؟ ثم لماذا لختار المتهوعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو للانتقام من

الاسم الذي فرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي البدوي الخبير بتقني آثار المخترقين، اكتشاف من هؤلاء الذين

يكتيونني ويشتمونني ويهددونني ويعلمونني بتني ربحت يوما المليارات، ويسرقون كتباتي، ويملؤون موقعي بالتفاهات لتدمير سمعتي.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني أدمي بجسد وروح وفكر، لما أقتعني أحد أنه ثمة علاقة بين بشر اللحم

والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما يشاء من الأقنعة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في الفضاء الحسي، يدخل

البيوت كالروح الهائمة، لا ينتبه لتطّقه أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كله أن هذا الفضاء الجديد يشهد ظهور كائنات افتراضية يحركها ذهن استوعب أحسن ما في أذهان البشر يسمونه الذكاء الاصطناعي.

لقد بدأت قصص الحب والغرام بين آدميين من لحم ودم وروبوتات جميلة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الأدمي في نسخته القديمة والأدمي الافتراضي. كل التهانى

وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

ظاهرة هامة أخيرة تميّز هذا الفضاء العجيب عن بقية الفضاءات : سرعة توسعه .
مما يعني أنه في بداية تشكله وأن الرحلة ستعرف فيه تغييرات غير مسبوقه لم يشهد لها
تاريخ المرتحلين مثيلا.

هل سيعيش أحفادنا داخل عالم مصنوع بالأساس من الخوارزميات وبصفة ثانوية من
الحواس السّت؟ أي معنى للرحلة في هكذا علم بل أي نوع من البشر سيرتلون فيه؟
سؤال لا أحبّه كثيرًا! هل قطعك كلّ هذا الشوط من الطريق لاكتشف وأنا في آخر مرحله
أنني كنت مجرد رحالة بدائي خبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا
على قدمين... وفتني سأعادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا
يتخيلها أخصب خيال لاينبغ ككُتب الخيال العلمي.

ليكن، وهنينا لأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات أو تجولهم داخل المعجزات وشوارد
الذرات وهم مستلقون على ظهورهم في صناديق بلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في
أدمغتهم. نعم، هنينا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص.

كأني برحالة المستقبل يتصفحون كتالوج زاخر بأجود الرحلات لأروع العوالم. لا شكرا
فيما يخصني والدليل على حكمة رضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار
لشفاف للجهاز تصرخ أريد أن أخرج! أريد نهاية هذه الرحلة!

هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقفة فقيرة
سوداء دميمة والتي لختارت هذه المرة في الكتالوج رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم
ورّع متاعب الرحلة وملذاتها بكثير عدلا مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما
دفع فيها أعلى الأثمان.

أيّ رحلة يمكن أن تضاهي التي تصنعها الصدف والمفاجئات؟ أي لذة يمكن أن تضاهي
لذة المشي حافيا على العشب المبلل بقطر الندى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي
المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

تقول ربما ستعطي البرامج التي سيضعها المهندسون أحسن من هذه الأحلسيس
والمشاعر وما على الأجيال المقبلة من الرحالة إلا التقر ليجربوا ما لم نجربه نحن وكل
الأجيال التي سبقتنا.

لينفروا ما طاب لهم من النقر، لما أنا ففضل الأصل على صوره، ولو كانت أحسن من
الأصل.

الأصل؟ الصُّور؟ وهل لهذا العالم أصلا أصلًا، أم أن له ما لا يحصى من الصُّور
والأصل نفسه واحدة منها!

**

أو كيف أن كل نموذج للعالم يطرح من المشاكل أكثر مما يحل

العالم إذن خلافا لما كان يتصوره الطفل ليس طبقا من الصلب وُضعت فوقه قبة لسماء كما يوضع صحن أجوف من البلور الشفاف على طبق الطعام. يتضح أيضا أن لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي أمه ولا القمر من فضة خلخالها. يتبلور في الذهن تدريجيا تصور جديد لأن الرحلة استكشاف صعب بطيء مليء بالمفاجآت لهذا الذي أفتنا فيه وقضينا فيه حياتنا ونغادره يوما دون أن نكون لدينا عنه إلا تصورات متضاربة يتبادلها المرتطون ولا أحد واثق تماما بما يسمع وحتى بما يدعي.

لنضيف لقائمة لن تعلق يوما هذا التصور.

أربع مكونات تشكل العالم : فضاء تصنعه الحواس الخمس وسمّيناه فضاء الحواس، فضاء تصنعه اللغة وسمّيناه فضاء الأفكار، فضاء تصنعه المخيلة وسمّيناه فضاء الخيال وفضاء تصنعه طاقة -أداة أخرى للذهن هي الحساب وسمّيناه الفضاء الافتراضي. هذه الفضاءات الأربع ليست طوابق مستقلة كطوابق العمارات، الطابق الحسي هو الأول وفوقه طابق اللغة وفوقهما الطابق الخيالي وآخر طوابق البناء الطابق الافتراضي . فالعالم وحدة صماء كالنور المكون من سبعة ألوان متباينة لكن تمازجها هو الذي يشكل اللون الواحد الذي نعرف لهذا النور.

يجب أن نضيف هنا عاملا من أهم عوامل تبلور العالم : مزاج الذات.

هذه الذات ليست مرآة تنعكس عليها الصورة الموضوعية للعالم وليست نوعا من الحاسوب الذي يستعرض أعدد الخوارزميات ليفكر ويتخيل . نحن أساسا كائنات حساسة تلعب المشاعر دورا محوريا في بلورة هذا العالم .

يال لروعة والذات رائعة المزاج حتى بغض النظر عما تلاقي من صعوبات ومشاكل ! بينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بأخر هدايا اليوم كأنه حلا للفنان الأعظم الذي علم الرسم موني وبيسارو وفوقان إعادة تلوين السحب.

ها هو يضع بريشته على أطراف رماديهما الكئيب لمساة جد خفيفة من الأصفر الوضوء متابعيا بخيط جد نقيق من نقط النور تعرج حواشيها. ثم كاني به يغير موضع فرشاة الرسم والنور يتوغل داخل السحاب قاضيا المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد.

أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن أقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أتروم بكلمات أغنية غناها أيقح أجمل صوت لأكرم فنان وبعده كم من أدمي شاكر حلمد وممنون.

" أشجار مزهرة
زرقاء السماء.
ألوان قوس قزح
صراخ الأطفال
أصدقاء يصافحون بعضهم
قلت في نفسي

What a wonderful world !

يا للتحوّل عندما ينقلب مزاج الذات إلى النقيض لا يهم أن تشاؤمها مبالغ فيه وشكواها
بلغة الظلم إكيف هو نفس العالم والذات في تفاعلها معه في ذروة المزاج السوداوي ؟

فنون رداك يا دنيا
لعمري فوق ما نُصِفُ (أبو العتاهية)
فأنت الدار فيك الظلم والعدوان والنسرف
وأنت الدار فيك البيغي والبعضاء والشنّف
وأنت الدار فيك الهمّ والأحزان والأسف
وأنت الدار فيك الغدُر والتنغيص والكلف
وفيك الحبل مضطرب وفيك الببال منكسف
وفيك لسلكنيك الحين والأفات والتلف

أنا الآن في مثل هذا المزاج . أي معلقة سأضع على بلب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي
يوم يخّصني منه الموت أخيرا؟

حذار ، حذار ، عالم غير قابل للفهم أو للترويض ... حذار ، حذار ، عالم قاس ، قطّ ، لنيم ،
بخيل ، خادع ، مرهق ، محبط ... حذار ، حذار ، عالم يضع أمامك على طول الطريق العقبة
فالحفرة فالحائط الشاق ، إلى لحظة السقوط فيهما ينصب كل من أفخاخ ... حذار ، حذار ،
عالم قنّرك فيه جوع لا يُشبع ، ظمأ لا يطفأ ، حبّ لا يدوم ، مشاريع لا تكتمل ، آمال لا
تتحقق ، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتتهي السفن ... حذار ، حذار ، عالم لا يعبا بك ، لا
يهمه من أمرك شيء ، سيان عنده أن تكون أو لا تكون ... حذار ، حذار ، كل معاركه بلا
نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان ، هو في آخر المطاف مهزوم ...
حذار ، حذار ، عالم تآتية خاوي الوفاض ، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها ،
مُضَيّعا ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن .. إنه عالم أحسن موقف تجاهه فعل
الرسام تولوز لوتارك وهو يخلع سرواله أمام البحر يتغوط ولسان حاله يقول : هذا كل ما
تستأهل يا عالم ، خرائي عليك .

عن أي عالم نتحدث إذن وهو يتخذ داخل نفس الذات حالتين على طرفي النقيض تارة
كأروع حالات الوجود وتارة أخرى كقسطها ؟

*

بقية الصعوبات لتثبيت نموذج ما عن عالم لا يتفك عن تحدي قدرات الفكر والخيال. القول بأن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ عقل/ أفعال/ مزاج الذات يعني أنه مخلوق من هذه الذات أي أنه ليس له أي وجود خارج هذه الذات التي تخلقه؟ صحيح أن عالمي سيرحل برحيلي وينتهي بنهايتي وأن العلم الأدمي ككل سينتهي يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه كما انقراض عالم الديناصورات بانقراض هذا الجنس من الأحياء. لكن إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي وأعمالي ومزاجي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه أفعال به ما أشاء؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ لماذا عليّ اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع التحكم فيه ولو بعض الشيء؟

أليس هذا الدليل الساطع على وجود واقع مستقل أمانا به أم لم تؤمن؟ ثم ألا يعني اختفاء العالم الأدمي نهائيا بموت آخر آدمي وجود شيء كان موجودا قبل هذا العالم اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية الملحمة الأدمية؟ لسنا هنا إلا في بداية الصعوبات.

إذا قلنا إن العالم معطى حواس /فكر /خيال / أفعال الذات فهذا يعني أنه موجود داخلها. لكننا نعيش في هذا العالم كما لو كان أكبر حلٍ يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟

كأنتا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف منطلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن هذا المحيط موجود بكل ما يحتوي في جوف هذه السمكة !!!
عن مشكلة هل العالم واحد أو عدد.

اعتبر الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الأربعمون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف لم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل.

خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يزرع الأرض طولا وعرضا وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القسويتين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفا في رحلة هذا الأدمي أو ذاك. شأن أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم، بين الذي يرتحل في عالم دعماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على

"فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها ولا نتحدث عن عوالم ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات الحية التي تقاسمنا الفضاء الحسي... التي انقضت... التي ستري النور بعد ملايين السنين... التي قد توجد على كواكب أخرى في الفضاء اللامتناهي.

أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟ وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على إدراك كل هذه العوالم ونحن لسنا هذا الكائن.

المشكلة أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدل على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقة تصوراته وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعا. أخيرا وليس أخرا.

ليلورة تصورتنا للعلم رصدنا أربع مستويات مصنوعة من الحواس واللغة والخيال والحسب. بحثنا عن كيفية تجميعها لتتناسق بينها فتظهر الصورة المخفية التي نبحث عنها. لكن ما حظوظ النجاح إن فاتنا أهم عامل من عوامل تشكل هذا العالم؟ سواء كان داخلنا أو خارجنا أو داخلنا-خارجنا، ثمة شرط أساسي لوجود أي فضاء: الوعي به وإلا كان وجوده والعدم سياتن.

ما الذي نعني بالوعي؟ إنه الحالة التي نكون فيها ونحن نعرف أننا نعرف. أنا واعى بلقصر لأنني أنظر إليه وأنا أعرف أنني أنظر إليه. أنا واعى بتفاعلي مع الآخر لأنني أعرف أن هذا الشخص غيري وأنتي بصدد التفاعل معه. أنا واعى بلم الأسنان الذي ألم بي فجأة لأنني أعرف أن إشارات تأتيني من داخل الجسم وأعرف أن علي أن أخذ موعدا قريبا مع طبيب الأسنان.

لكن حالة الوعي هذه متقطعة أو غير موجودة أصلا جل زمن الرحلة وفي المستويات الأربعة. ففي الفضاء الحسي جل أفعالي وتفاعلاتي مع العلم لا واعية: نموذج عمل خلايا أعضائي التي لا أعرف كيف تشتغل.

نفس الشيء بخصوص اللغة التي أتعمل مع قواعدها أليا دون أن أكون نحويًا أو أن أعرف كيف تشكلت للغة ومتى وكيف ولدت وتطورت كبرى المفاهيم التي تتحكم في أفعالي وتفاعلاتي مع العالم.

عن أي وعي يمكن الحديث في علاقتنا بكبرى الميادين والأليات التي توجه حياتنا كالأسلطير الدينية أو قوانين الاقتصاد أو خوارزميات الذكاء الاصطناعي؟

ألا يعني هذا أنني مثل من يعتقد أن جبل الجليد هو الجزء الذي يراه طقيا على سطح المحيط... بعبارة أخرى ألا يعني هذا أن جلّ العالم الموجود تحت سطح الوعي مثل جلّ جبل الجليد الموجود تحت سطح الماء.... إلى الأبد مجهول.

كل هذا الجهد لمثل هذه النتيجة!
للتغلب على الإحباط وعدم السقوط في شكل أو آخر من الكآبة الميتافيزيقية، لا مخرج
أحسن من الكفت عن اعتبار العالم لغزاً للفتك واعتباره بكل بساطة مأدبة الله ونحن كبار
لأضيوف.

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرق شوقاً لرؤية وجهك المقدس،
إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني-يا إله الآلهة ذاتك
الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني-يا أرجونا-في أشكلي
القدسية، إنها بالمنات والألاف نوعا ولونا وشكلا،
تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في
الرياح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في
القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجة جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

استمع إلى الشعر بأية لغة تعرف. لن تجد في أجمل قصائده شيئا هاما إلا وكان افتتاحها لغزابة العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانبهار والرعب.
"حصد القمح (ناكاتسوكا)"

وفوق ظهري

كل السماء "

من ينتبه غير لشاعر لهذه العلاقة بين الذات والعالم؟

الرسامون هم أيضا من كبار المنتبهين. موني Monet، مثلا، وهو يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجبة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغيّر الطقس وتبذل اتجاه أشعة النور للعودة إلى معالجة الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة.

أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية الخلق أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل. حتى يعود اليك انتباهه، لخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنك أنت الذي دوت الطبول تدعوه إلى الترحيب بالرعد.

ارصد كل أحاسيسك ومشاعرك وأنت على أشدّ الوعي بما يجري حولك وداخلك. افتح عينيك كما لم تفتحها يوما لتتأمل غير ومضات البرق الخاطفة ما تتخذة جبال السحب السود من غريب الأشكال.

لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا فطرة فوق شرخ النور.

اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسأل بين الثياب والجلد.

تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألدّ شعيرية.

أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسام جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى وهناك في أعماق أعصافها، أيقظ داخلك ودخلها كل البراعم.

لم يبق إلا رصد كيف تتسلل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السماء إلى صمتها على استحياء كأنّ الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها التعالي. تأمل كيف تخرج الطيور من مخبئ لا يعرفها أحد وكيف يتسلق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكزه من لون الورد، من لون شفاة النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج.

انظر كيف يرتفع قوس النصر هذا بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلك له وتزغرد وكيف يخفتي تدريجياً كئن اليد التي رسمته قررت محوه من سبورة السماء لا تريده لسبب مجهول علما ثابتا كالشمس والقمر . أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات، أنك أفتت فيه للمرة الثانية.

لما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.

لما تنتبه إلى راحة الأرض بعد المطر أو راحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة .

أن تكون منتبها يعني أيضا أنك تعي فجأة كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل وبما وراء الفوضى من نظم وتعقيد.

أهم فضل وخاصة للانتباه تفرغ الذات للحظة العابرة وللحظة العابرة وحدها وقد تخففت من هموم الماضي وطردت من وعيها كل مخاوف المستقبل.

ليس من باب الصدفة أن يسمى مؤسس دين كبير "بوذا" أي المنتبه.

ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكونا من "السلطوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم داخل رؤياه.

كي لا تعبر العالم مثل السائح الثالث في متحف اللوفر غير مهتم أو واعي بما تتغلغ عليه القاعات والأروقة من روائع، لا بد من تعهد الانتباه لأنه الحالة اليتيمة التي تستنفر فيها الذات كل وعيها لتكون حاضرة كلياً لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها ولا حاجز بينهما.

على الطرف النقيض من هذه الحالة المباركة التبدل.

إنها الحالة التي تجزبها الذات انطفأت داخلها أمام خوارق العالم ومعجزاته الأحاسيس البكر، زال التهيب وتبخّر التعجب والإعجاب.

"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)

إلا أن الحياة لا تتذوقها كل الأنفس"

دوريا أشعر بأن التبدل أصبح كبعث الهولجس زمنا. لا بد من العودة إلى بعض تمارين التخلص منه والتي أحرص عليها حرصا على التخلص من زائد الشحم بالجهد والمشى.

على مقعد عمومي ها أنا أتأمل أشجار غابة عبرتها كم من مرة لكنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بلنا شاغل.

يستمر البصر على ورقة انفصلت لتوها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفر.

ترى كيف هي سكرت الموت عند أوراق الشجر؟

ها هي معلقة في الهواء كأن خشية الارتظام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم.

تنفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عيب فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصياد وابل الرصاص.

هي لا تتسلق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إلي كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودع.

تحطّ بهدوء على حدائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس.

ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبتي ثم أغير الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قلبها وقيلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الحياة التغذي بالموت وقدر الموت التغذي بالحياة.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصلمنة لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون. من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تفلوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين.

فجأة يتحول الوعي ليركز على زقزقة عصفور مخبئتي داخل أشجار لا يرصده البصر. مما أصبح معروفا لأهل الذكر المختصين في العصافير أن هذه الزقزقة اللطيفة التي يتغنى بها الشعراء والعشاق هي إما دعوة الانثى للجماع أو تهديد للذكر بأن يبقى خارج حدود الويل له إن تخطاها.

تهديد؟ إذن هذا المشهد الرومنطيقي يخفي وراءه واقعا لا يمت بصلة لما يراه أو يتخيل رؤيته الشعراء والعشاق!

تلسعني بعوضة فأمنع يدي من رد الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحية البالغة للصغر التي تخبئتي تحت قلمي. مما يقوله عنها أهل الذكر من المختصين بدراسة السننيمترات القليلة التي تشكل ما نسميه التربة أنها أجناس لا تحصي ولا تعد، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعدسة مكبرة، أنها تتبارى غرابة وتبليبا وتغديدا، أنها في حرب لا تتوقف وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة أكل ومأكول، طريدة وصياد...بالضبط كما هو الحال في كل المستويات المرئية من العالم من سماء وبر وبحر.

عند انحسار التبلد وحضور أقصى الانتباه يتضح لك فجأة أن أهم شيء في هذا العالم موجود وراء ما يرصده البصر وأن هذا المجهول صندوق أسود من الغرائب والعجائب يمكنك أن تقضي العمر في البحث فيها ولا تستنفدها أبدا.

أفتح العينين أسارع بالعودة للمألوف المطمئن منبئها لكوني أتجنى أكثر من اللازم على

" الروتين " الذي أدعي أنه أخشى ما يجب أن يخشاه كل مرتحل. ماذا لو كانت هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبدل!

أنت لا تنخذ عضلة لتتقيض المرة تلو الأخرى لا تترك لها وقتاً كافياً للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة عن الرد احتجاجاً على كثرة الوخز.

أليست حدة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لا نستطيع البقاء طوال الرحلة فاغرين أفواهنا دهشة أمام مظاهر العلم في حلة أشبه ما تكون بالتعب.

لكن أي قيمة للرحلة إن لم نتوقف بين الحينة والأخرى لنعي لحظة كم من خوارق ومعجزات تحاصرنا من كل الجهات!

محكوم على الرحلة إن أن يكون لها نبض كنبض القلب. انتباه فتبدل فانتباه فتبدل وذلك إلى نهاية الطريق.

لا يبق لنا في هذه الحالة غير إعادة صياغة دعاء فاتحة الحياة. يا من تتوجه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين إن لم يكن كل زمن الرحلة فعلى الأقل أغلبه.

**

عندما يضع العالم كل ما لديه من حلي وحل لاستقبال ضيوفه الكرام

تلك الليلة -وقد أصبحت العائلة تسكن على مرمى حجر منه سألت- "ما؟" ابنها ألا يبخل عليها بتفاصيل تعرفه على البعيع المبهج المرعب و"با" بنفسه من تكلف بمراسيم تقديم الطفل إلى البحر.

فتح الطفل ذراعيه عليه يبلغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو ممتسع، كم هو ملان بالماء فسقطت النراعان والعجز هو الشعور.

من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟ كيف يصف هيبية دوي البحر وأواجه بين مدّ وجزر؟ كيف يقنع الأم أنه رأى بأب عينيه سقوط الشمس شيئاً فشيئاً بين أحضانها ثم اختانها فيه!

كم يكره أن تظنه "ما؟" مبالغاً أو كذاباً!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجدداً أم هل سيحتفظ بها نهائياً فتغدو كل أيامه ليالٍ بالشباح وكواكب.

من الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكد لها، أنه اكتشف أين تذهب الشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

يتجدد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذة العوم في موج هادي أيام الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو كان هو الآخر سمكة جاهلاً أن الأسماك خلافاً للبشر لا تموت غرقاً.

تلك الصباح المشووم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه مصراً على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلو الشاطئ من رفاق اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صلاحية قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه يختنق بالماء المالح، أن البحر بصدد ابتلاعه.

يتعالى منه الصراخ النجدة! النجدة!

تلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة الواجبة انتشلته من أشدق البحر يرتجف برداً وخوفاً ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي كتبت وكان بوسعها أن تنتهي بخبر في بعض الصحف الشعبية من نوع " غرق طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأنف، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها انتهت أوراقا بيضاء والكاتب مات قبل أن لم يخط عليها حرفا واحدا. منذ تلك اليوم وفربيا البحر سلكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا عودة أبدا لليعيب المخيف لا سباحة ولا سباحة.

حقًا! ما أكثر الوعود التي نلخذ وما أقل التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم أليس قناع البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراء الذي لا يقاوم. هكذا تسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يرتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها جمعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

أخيرا عرض المحيط غلب شوقي إلى أروع مظاهر العالم أعمق المخاوف. يحدثك الأقارب بنهيب وجل عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة "مما مع جدتي لغسل الصوف. أي رعب مقس كان سيدهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط الذين يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكف عن الصعود والهبوط. لمن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثابتة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغير رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود به اللعين إلى مستوى الأرض المنبسطة مواصلا مسله كل شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستترنل منه لملم بينك تترنح فيصيفك الجيران بعريبد وضح النهار.

هل تقدر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البر والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحملة أي مسافر. يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلعا أن قاع البحار لم يتوقف منذ آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعد من سفن الأدميين... وأنه مستعد لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

يحتد الدوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التفجر من الفم فيناكريها. أية قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية للصغيرة رأسا على عقب؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكان الحادثة وقعت البارحة.

تائب يا نبتون، رصاك توقف. النجدة يا صحراء. تخلي لدى سميك السائل! ليس من الصعب القول بأن البحر هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل ويدؤه الدافين والسلاحف وكل أجناس السمك والحوت. هم أيضا يرحلون هم أيضا بحثا عن

واحاحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعية يجدون فيها الكلاً والمرعى وجماعاً يُجند الحياة. ما يقال أيضا إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كانتات تنبارى في الغرلية والإعجاز تتدافع فيها لا فترة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان... أو ما تعيش من أحداث وما تتبادل بينها من أخبار نثرا وشعرا.

الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني مويبيك؟ ربما يوجد بين هاواي والأسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء المحيط الهادي يسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟

ومما عاد به الرحالة الذين استكشفوا البحار على السطح وفي الأعماق التي وصلواها، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.

تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لئيبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكي الحوت الخرافي لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأسمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إرتيا إربا.

جميل، لكن ما يهمني أنني أنا الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفره السائلة.

اللعنة، ما الذي تى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

لله درّ فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيل وراء الأجيل لا يتنبهون كم من مرة لقي بهم في غياهب اليم. حقا إن شجاعتهم لضعف من النهور أو الجنون! لم تكفيهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعيع المخيف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حاثون من ثبات قرطاج إلى حراك البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للممنن! نسي عرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُجني من ذكرته كل ما عانى، عاندا للغول بل ويمحض إرادته! لو كنت مكائه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، و لركضتُ إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري.

عاد إليه حانون كما عادوا كلهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تسوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم يرَ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف زوعة أروع من سطح البحر لئلا عندما يوثّحه طلوع القمر بنهر من النور.

نعم فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يؤثر فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتنوعا وهو يستنقر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها بشحن كل ما في جعبتهم من مهارات، من ذكاء، من فضول لا يقاوم ومن جرأة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار. الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أه، الحوت الذي ركبت هذه السفينة الصغيرة عليّ أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأت له رحلته في هذا العالم تحت اسم موبيديك. أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرج من بين ذراعين أغلقتا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعوداً وهبوط.

تعود المرأة إلى الصّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! كُفّي عن الزعيق لوجه هرمان ملّيل. نعم، لقد رأيت الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغت كل ما في معدتي على فستان عجوزٍ أخرى أشبعنتني نظرات ساخطة. ألبست هذه السفرة أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طقشة على أمواج هانجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشدّاقها لالتها منا كل لحظة غير قشة طافية نركبها ونحن لا نتوقف عن التخاصم فوقها نثقياً على بعضنا البعض؟ أخيرا المرفأ.

لا تصدق أبنا من يشتقون "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن" فالرياح تجري أيضا بما تشتهي السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم نبينا على ضفاف بحاره كم من موانئ تغادرها ونعود إليها بيننا وبين أشداق الموت ستيمترات من الخشب أو الصلب!

المهمّ انتهاء هذه السفرة اللعينة التي دفعت فيها ثمنا باهظا لأقضي يوما من أثقل وأغبي ما عرفت من الأيام. أخرج من السفينة الصغيرة أمشي على الرصيف وكأني خارج لتوي من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتانا أنني من روادها بل حتى من ساكنيها.

أدير الظهر للبحر وقد أخذ القرار. نعم لن أعود له ما حبيبت. لكن ما أكثر القرارات التي نأخذها وتتكفل الحياة بلسخريّة منها.

ها أنا مجددا بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقاوم نفس الدوار والغثيان والبحر الهائج يعيث بالسفينة عيث القطب بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقباها والحرب برآ وبحرا على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة لسويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلاح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتي لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظفاره. أي قيمة لستره النجاة التي اليسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وإبل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟ ليس صحيحا أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بد أن يلحقنا يوما ما؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

فجأة ينكب عليّ رجل ملثم يحمل مدفعا رشاشا ليقول سيدي، لا نريد بك شرا ولو أحببنا لسلمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن نهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرّحلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعتني فيها عنوة أحنق طويلا من النفاذة في قوافل السحب متمنعا بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. التفت للراكب الجالس بحذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقل ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلت من برائتك للمرة الثالثة، لا تعول على فرصة أخرى لمت مثل المجانين الذين يجيئون استقزازك طيلة رحلتهم.

من قال إنني سأفنى بنفس الوعد الذي قطعته على نفسي أكثر من مرة والبحر معلم من أروع معالم هذا العالم؟

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقي الخاصة.

بالمناسبة، من قرّر أن على الأدمي شق الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ ليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هانمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون لشلطى لا يجيدون عنه إلا اضطرابا، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟

نهجا على سنة أوائلنا كرم الله وجوههم وتبيننا بسيرتهم المباركة وانقاعا بحكمتهم وحنكتهم فإنني سألتزم من هنا فصاعدا باستكشاف البحر لكن مشيا على رمل شواطئه. يُسمح لي بملاحظة تهمة كل المرتحلين فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العلم من المشي.

من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أي وقت نشاء، وأنه فرصة للاختلاء بالذات.

لا أتذكر أن فكرة هامة أتتني إلا وأنا لمشي، ولا أن الفوضى التي بدخلي اكتسبت بعض النظام إلا إبان المشي.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبية" وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي للذات المنتهية الوقت الضروري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أو أننا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوة بعد خطوة، وهم كمن يتذوقون أفخم مأكبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصوا ببعضها أحيانا.

هكذا سلطوف حول البحر الذي عشت سنينا على ضفافه وتعللي بيدي بنظولني مرفوع إلى الركبة وقدمي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لتذوق طعمه.

يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأشرع في طواف حذر حول الذي يصفونه بالأحمر، ثم كتفتي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظرا لضيق الوقت وكثرة المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمذ من يتوجب له الحمد أنني لسنت الغريق بل وفي مأمن حتى من البلل.

*

يجذبني من ذراعي مُضَيَّفِي ابن مدينة تُشرف عليها هضبة طبقت شهرتها الأفق.

- لا تستعجل علي، يا للمهندس العبقري الذي أمر للصخور أن تتخذ أشكالاً هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فن خلق الجبال.
- الأغرب أن الذين هندسوا وشيدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحلوا كل ما تحلوا من غناء ومن حوادث مروعة، فقط ليتمتع حفنة من الفراعة بالخلود.

- ربما الحقيقة أن الذين شيدوا هذه الأهرامات لم يفعلوا ذلك إلا لإثبات ذواتهم وسعيها لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير السلع الضرورية؟
يهزّ الرجل كتفيه مستهجناً فكرة لم يدافع عنها يز ما أحد ثم ينظر لساعته.
- هيا، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة على النهر.

طبعاً وهل يمكن أن تأتي هذا المكان المشبع بالتاريخ دون سفرة على النهر.
إنه نهر ليس ككل الأنهار.. نهر أرسقراطي بكل المفاتيح ومن ثم شعور التهيب الذي يسكنني وأنا الآن محمول على موجه.

“هو النيل... (خالد فتح الرحمان عصر)

مفات كل العصور

راحل أبداً باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وتلك الغمام... وحّد الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفتيه السؤال

يقطع علي صوت مراقبي انتباه على أقصاه

- هيا يا صاحبي، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّر بهذا العرض!

- لهذا تسميه اللهجة العامية "البحر". أهم تحدّ طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أملهه تتعقبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حثّ ولا تسل عن طوله وكم أرق كبر المغامرين وهم يبحثون عن منبعه.

- المنيع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلدت معه حضاركم.

يمازحني مضيقي:

- أخشى أن نتأخّر كثيرا على العشاء فتزعل "الولية مراتي". كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.

- رحمك، اترك لي بعض الأوهام.

- الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كلُّ ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. لكنه شيء جد مختلف هو يتشكل في رحم المجهول.

- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط ازعاج.

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرك وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلّت لنفسني: أخيرا وجدتُ الجزء الآمن من الطريق وتقول لي: لا شيء من هذا القليل موجود. حرام عليك. طيّب، ماذا سنفعل الآن بالأميين في بحثهم عن المنيع وقد توقّف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحب من البعوض، تترصدهم تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.

- أي خيار لهم سوى السباحة بقصوى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نقد للصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

-الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانهيار وأنا في البلد الذي أعيش فيه لاجنا لخذ
المثرو كل صباح لأسمع نقاهات النلس يصرخون في نقالهم!
- عفو!!

كأني بأشباح توغلت بعينها في فضاء العتمة تبيث عبر الزمن شيئاً يشبه التعجب، ثم
حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبلادنا رفاهنك بالذي عشناه ونحن تانهون
في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية، تكاد نهلك فيبيها هلعاً
وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

- يا رجل رحمة بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمعلمين الأشاوس وهم يواصلون
بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكفوا عن التردد: سنكتشف من اين يأتي كل هذا الماء
ولو تطلب الأمر آلاف السنين. ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

من اين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هنا السؤال الذي أوحى به النهر أب أسئلة من
اين أتى الأدمي، من اين أتى العالم، من اين أتى الزمان؟ ... أليس النهر من أوحى لنا
بتصويراتنا الأكثر انتشاراً عن هذا الزمان، وأنه هو الآخر يسيل بلا انقطاع في اتجاه
واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته أو جعله يدير مساره عودة إلى المنبع.

- لا تقل لي أن الرواد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السر؟
- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتم منذ قرن تقريباً اكتشاف المنبع بعد ما لا
تتخيل من مغامرات.

أعود لممازحة مضيف كريم.

- لا تُطل، يقال إنه ينبع من... اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟
- بحير؟! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال
شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. كم من وقت ومن تضحيات
لنتجمع أخيراً كل قطع "البوزل" لتتضح الصورة الشاملة.

- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما عرفه عن طبيعة الطريق أنه يحزم أمراً كهذا.

- نعم يبدو أن موضوع منبع هذا النهر قد أُغلق.

- طيب، من اين يأتي الماء الذي تفيض به كما تقول البحيرة الأم وما تفرع عنها من
بحيرات لتلد نهرك المقدس؟

- من قسم شامخة مكللة بالثلج أصبحت خرائطها هي الأخرى معروفة ومؤتقة.

- وقبل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- فهمتني، أين كان ماء تلوج قسم الجبل؟

يضحك مرافقي.

- في السحب طبعاً.

- وقبل تجمعه في السحب، من أي بحر تظن أنه انطلق؟
 - أتصور صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.
 - إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيرف يوماً منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر.
 محكوم علينا أن نهمل دوماً بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولد من
 الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدّر عليه
 والبحر الحقيقي ليس بعينا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس
 النهر. في طباع هذا النهر شيء يندكرني بزحف الثعالب لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس
 كذلك الغبي المسمّى "أوكفائقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من
 وشوا أنه يعرف طريق البحر.
 - لست متأكداً أن هذا النهر مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترّ على الخريطة
 حبه للتعرج واللفّ والدوران ولو أنه ليس الوحيد في خياره هذه. هل رأيت يوماً نهراً
 يرسم لمساره خطاً مستقيماً؟
 - طيب، لننتج بتعاريجه ما زال أملكنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل للقاء
 البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوماً.
 - أملكه هو كل الوقت وقد قل فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلياً
 الإسراع إلى البيت. مؤكداً أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل بارد منذ ساعات.
 كل ما يمكنني أن أشهد به بخصوص النهر أنه لا وجود فيه لظاهرة اسمها دوار النهر...
 وأن السفر عليه يأتي المرثل بحالة من الارتخاء اللذيذ وهو يستعرض الانسياب الهادئ
 لما يتراحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نغير الحياة جلوساً على
 كرسي مريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان- روائع العالم
 وفضاءاته.

*

لم تكن الرحلة يوماً سهلة على أحد وذلك منذ غابر الزمان. كان رحالة العصور القديمة
 عندما ينزلون بشاطئ مقر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم
 وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم. كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر
 آدميون أكثر منهم خوفاً يقتربون من بضاعتهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم
 يختفون بئورهم ليعودوا يوماً -إن عادوا أبغى ما يملكون يبعون. هكذا كانت تبدأ أولى
 علاقات التبادل وطقوس حقن الدماء.
 بالكاد تغيرت هذه الطقوس والحذر والخائف من الشبيه المختلف هو العنصر القارّ الثابت
 في العلاقات بين البشر.

يعترضني قبل دخول الطائرة شرطي آخر لكن في زي مدني.

يطمرني بأسئلة غريبة وهو يقلب أوراق الجواز: ما سبب سفرك لحرّستان؟ زرت
 قمعستان وفسدستان وقبستان وإرهستان. ونفاستان أيضاً! ماذا فعلت في هذه البلدان؟

كذت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: لمانا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقنن؟ التأشير حقيفة أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد أنك لا تحمل فيروسات أو قتل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم في بلادي؟ هل أنت إرهابي، هل تصلي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل تحمل مخدرات في مخرجك؟

يتجدد الاستجواب في مطار الوصول. تُطيل الشرطة تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إلى تحقّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بدهة تقدير مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المعذّي. من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأذهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطنتها البيروقراطية المطلقة لقادنتني مباشرة لغرفة الإيقاف بتهمة التمر على الوضع الفكري - السياسي -الروحي للبشرية جمعاء. تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا. - انتظر...

تعود الشرطة بالجواز بعد دقائق بلغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة: - تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعنا نحتلجك في أمر ما.

أخيرا أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جنّتها متعللا بالبحث عن العلم والحال أنني لم اقصدها إلا للضياع في غابات سمعت الكثير عن كثافتها واتساعها وما تحفل به من أضخم الأشجار. أتوجه لرفيفة المقطع الجديد من الطريق مداعبا ومستقرا ونحن ندخل أقربها إلى المدينة التي نزلت فيها.

- من الظلم أن تتمتعوا وحكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه من الواضح تحسبا لغزونا؟ فجأة أصرخ بشنائم من حسن الحظ أن مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتقخت يدي!
- حذار، هذا الذي نقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر. أما زلت مصرا على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قولي لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشير قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد؟
- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

بعوض! تسمون هذا الفيل الطائر بعوضاً؟ ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجئة والحل أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة لوحش بأنياب تقطر دماً على نصف البطاقة على الأقل-ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة. سأحتج على كل وكالات الأسفار التي تروج لبلدك. حقا هذا عالم رائع، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحوالك كائن يخدم أو يقضم أو يعض، وإن لم يجد ما يمتصه منك، أصدر طنيناً مزعجاً فقط للإزعاج.

- لا تعجل بالإنهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرتني حولاً كاملاً وأنه ترصد قديمي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم. طمئنيني. هل النزل محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجدداً إلا مسلحاً ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. تغير الموضوع.

تعال، طلبت أن أريك الأماكن التي جنت من فيايفيك الفاحلة خصيصاً لرؤيتها.

- خذيني حذو أصغر جدول وتحملني صمتي وجلسي عنده ساعت. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خرير الماء. هل النوات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟

تجنبي مرافقة الطريق من كنتي.

- يكفي ما قضيت من الوقت هنا. نعم كم جميل صوت الماء وهو خرير هذا الجدول وهو صرير الثلج تحت الأقدام وهو نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم! لكن هناك مكان تسمع له أجمل أصواته عندي. تعال.

بعد ساعات تمس المرأة في أذن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعت له الصدف على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:

- كفاك تمل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهز الحالم اليقظان من كنفه:

- تعال؛ مضى جل النهار.

- لن أتحرك من هنا حتى..

- حتى مانا؟

- حتى ينتهي تنفق هذا الماء. لا أصيق أنه سيسيل دون توقف.. اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.

تضحك رقيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عينين بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش طيلة الانتظار... جوعا بالتأكيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.
أهز من جديد وأقطع الشتائم تتدافع مجدداً على لساني:
- بجذ، كأَنْ لهذا البعوض اللعين مشكلة شخصية معي، عجلي؛ أريد العودة إلى الحضرة، غيرت رأبي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.
- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.
- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يُوثر لاتجاه النزول. انظر ملياً لعنك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.
- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد أكون مضطراً إلى مصّ دمك أعوض ما يأخذه مني فيلكم الطائر.
- من هنا الطريق.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتقتعني بصوب القرار، لا تعلم أنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح فما بالك بقراءتها.
وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبقونفيل وكوك وقيلهم بحارة العرب والفينيقيج وجزر المحيط الهادي خرائط صحيحة!... كلهم مع ذلك توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مبهم إلا انبهارهم بعالم بريدون التشبع بكل رواعه لا يهمهم ما يدفعون من باهظ الثمن.
أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف.

- على ذكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل سامحتهم آلهة كل أساطيرنا وأدياننا كتبوا دليلاً مفصلاً اسمه كتاب الموتى حتى لا يضلّ أمني طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فكّر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا؟ نُفصّ فادح قررت أن أضع له حداً.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.
- بربك من تسلّم عند الإفافة مثل هذه الوثيقة الضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العالم شبيهاً بوضع سائح يفتق في مثل هذه الغاية وهو عار، جائع، خائف، جاهل من يكون ومانا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتنّبّر أمره لكي ياكل ولا يُوكّل، ولا أحد يمده بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل أساطير الأدميين.
- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتاب الحياة لُحسن التعامل معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العلية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتنونون يتعلمون بالتجريب على الزيون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- مَنْ يَسَلِّمُ القادم الجديد فيرميه خفية في مَصَبِّ البلدية، أو يدخل به أوّل سوق يبيعه بمقابل بَخْس، أو يجعل منه عبداً، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نُقضي جُلَّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حدّث ولا تسل عن الأئلة الكانبيين وخرائطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الاسبان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.

- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري ليبيدوا الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لتكون نحن من تبيدون.

تَهَيَّرَ رفيقة الطريق كتفيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها. أعود لنصحها والحال أنه لا جدوى لنصح البشر وكل آدمي قادر على أن يخطئ دون اعانة من أحد.

- تنفّسي بهدوء وفكري في تحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي تقررين لا نحيد عنه قيد أنملة.

- انتبه أنت لعلامات الطريق. لقد رسمته على أرض الغابة الخطى المسرعة لأجبال من المغامرین الحمر والبيض. أشعرُ أنه قريب جداً منّا.

- إن رأيته فسأقتل أنتي لم أره.

- لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

- أنت في ورطة، أمّا أنا...

- لوجه لشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

- ألا تعتدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق وتقاطعاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تائهون أكثر منّا.

في الوقت الحاضر أكبر مشاكلي أنت.

يتواصل المشي وسط ألياف وأغصان شرّعت في الوجه سيوفا. أعود لمداعية امرأة بصدد فقدان حتى اقتعال السيطرة على أعصابها.

-لا تخشي شيئا، خذامك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار هذه الغابة.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86:
"ابرا دابرام باتو باتتي يتاي متغى". هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العفاريات ويصلح
أيضا ضد العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543، "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها
ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة رقم 798:
"لايناعي لايس". هيصالحة ضد وجع الأسنان والاستبداد والقيح والغباء وغلاء
الأسعر والحيرة المبتذرة بيقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن
عمرًا معيّنًا.

- وتعويذة... لنقل 987؟

- هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

تبتسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشًا من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل
بأهم التغييرات التي أحدثتها على العالم.

- غريب، لم أعد أسمع لخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن!

- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلي لا أعرفه؟

- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها، أنظر على
الخارطة.

- أنظر أنت...

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشكله المقرفة التي لا تنتهي..

- هل جننت؟ هذه حمية طبيعية لا يوجد في صحار بها إلا البعير وقطعان المها وغابات
الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية.

تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا يتعاويذك كل ما لا يعجبك، يالك من محظوظ.

- المشكلة أنني ربما خلطرت بمستقبلي فيه وقد تجاوزت كل الحدود بلسخرية من الشرق
الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لاكتشف أوزيريس وهو يحتق في بحق: ماذا
فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين
قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أرباك يا نرق! لن يأخذ وقتنا طويلا في وزن
قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الرية أميت لتمزق أشلائي
وتلثمهم روعي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم
تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع
شجرة ميتة أمثل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة
قبضتها وتفجّر الطريق أملمه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامت التي تسبق نوبات الغنف عند لبشع أنواع للرجل ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكي نزعجني بشكل من أشكالها.

- أقص عليك طرفة عن آخر مرة ضعتُ فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعاد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصله التوغل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحيات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرتبى.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا - لا بد أنه أخذ عن أبيه وجده كل تقنيات الجنى والقنص- أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدت لي بالقفة مبتسمة، فقلتُ في نفسي: يجب أن أطلب رُمحا وقوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدب؟ إنا اعترض طريقني؟ أثرت الصمت وتوكلت على إله الأباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستغفر آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألغها في السرّ وفي العلقن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبت مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطقلين عليها أن تنبت على شجيرات قرمة ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلًا. فجأة فتبهيّت إلى أدني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سلّخ منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و "ما" في طرفها الآخر لا قيل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبه رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطولا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصله المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبت على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالح السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، ورب الكعبة لن أشرك بك من اليوم لها آخر! - ووجدك البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل. الملاحين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وغموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتظة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.
كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهاك بالذي عشناه ونحن نلتهمون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.
- سهوئ. واصل.

- كانت الغابة التي ضعفت فيها مكانا مروضاً شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفست الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعداء. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف في أي جهنم كل الآخر يتخبط.

- ملك ممتع الوجه؟ لماذا تأخرت؟ أين القطة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدب. لا أخرج إلى جبل بوقرنين وما يعج به من أسود ونمور وفهود وفيلة مرعبة إلا مسلحا بما تعده لي "ما" من رماح وسهام، وترسلونني هنا لمواجهة الدببة ولا أدري كم من وحوش أخرى أعزل. سأقول كل شيء لـ "ما".
يومها ضحكك المرأة الطيبة:

- أه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.

ترمقتي مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:

- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس بقبعة صفراء يبلننا على باب الخروج. انها غابة تمتد مئات الأميل في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حدث عجي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا "المارنجوان" السمين لتغذية أطفالنا. ثم تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعون يوما رنين نّقال؟

- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهالمة السندويشت وأنداك حدثني مجددا عن رغبتك في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وجني ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات. لنعد للموضوع. حدسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء من عالمك المجنون.

أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة ولآخر معال الثوار.

تهزّ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنيرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يداهمنا، يا يسوع!

- نعم، لنصلّ ليسوع. سمره ثم اعبدته. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغثت به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟

- عمّ الظلام وهدّني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرح. يا إلهي، الغاية ليلا ولا ناز تدفع عنا أنياب البرد والذبّ.

مما يقال ان الكلاب لا تهاجم الا من تشم عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع في هذه الغاية والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كغيلة يجلب كل ما فيها من اصحاب المخالب والاتياب.

على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان. ظهري مسنود الى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصر ليلة جادت بها الأقدار.

إنّ هكذا هو العالم كما جزيه الأوائل كل لباليهم طيلة مئات الألاف من السنين. إذن هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والألمي طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق في جمرات ملتهبة هي أعين السباع الجائعة الباحثة عن عشاء.. الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور: خوف الطفل من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه، خوف فقدان الحب والمكانة، خوف فقدان الصحة والشباب، خوف الموت بعيدا عن الأحبة والنديار وخوف الضياع نهائيا في مثل هذه الغابات الموحشة... والويل لمن لا يعرف كيف يرزّ خوفه...

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلسل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه المألوفة للنفس مطمئنتها المحبوبة.

تبادرني امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلي فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق للعين.

كأنّ الغاية أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائع وأسرار فقررت أنه أن الأوان ليغريا عن وجهها.

تصرخ مرافقتي فجأة في قمة الجذل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت...

- آه، عدت الابتسامة إلى شفتيك. مهلا، ما هذه العجلة؟

- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟

- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ سلخن وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

- ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا.

يا امرأة لا تفعليها فيّ. تعالّ، كوني بنتاً طيّبة. من سيطيخ لي "المارنجون" ويكوي لي
جلود الحيوانات لأكون أنيقاً وتعجبين بي ؟
- لو كنتَ تعرف على الأقلّ كيف توقّد النار!
- لم أتمعّن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.
- تدبّر أمرك بالتوفيق.
- كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من
ضلعي.
- هذه مشكلتك لا مشكلتي.

- لا تتركين لي الخيار خاصة وقد نفذت كل القهوة من الترموس. على كل حال الذنب
ذنبني وقد تبعتك في غابة كنت أظنك عليمه بأغوارها. كم صنفت العجوز النزويجية : آه
منكم يا أهل المدن، تُضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة
صفراء.

حديقة عمومية ! المكان المرّوض من العالم ... الذي فيه طريق لا ليس فيه ، حدود
واضحة، خريطة صحيحة وحتى حارس غير ضروري بما أنه لا نبيه ولا أسود طليقة
تنترصد وراء الأشجار..كاريكاتور الغابة... محاولة اعتصار ما في العالم من ميهز
والتخلص من كل مرعب فيه ..حلم الأدمي في أقصى حالات التبدد وهو يريد الشهد بون
إبر النحل.

*

الطريق الآن أنه ليس متّجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فوق والمشكلة المتفاقمة فيه
ليست الدوار وإنما تنفس يزداد صعوبة وكلّ العالم داهمته نوبة بخل وقد قرر أن يكون
عطاءه من الهواء أقلّ من القليل.
خلفي وفوقي الشمس، تحتي ولماي ظلي أشرف عليه أتلمله بفضول كذني أكتشف
للأول مرّة أن لي ظلاً.
يحتدّ الصداق والقمة المنشودة تتباعد نفساً بعد نفس.

يجب رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بثقل عمود من الرخام.
أرمي كلّ مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر، مردداً لنفسي ما
تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أقسم أنها الأخيرة.
يا إلهي ثمة رياضيون طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بالآلاف الأمتار!
يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكلّ عتبة
مألها التذليل والإذلال! يا للأوباش، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقاً مكتظاً
بباصات السياح!

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتح عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبدلنا رفاك بالذي عشناه ونحن تانهون على قمم الجبال المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعا وعطشا... وخذ ما سُنت من انبهارنا البكر.

عليّ التوقّف طويلا هذه المرة لألتقط ما بقي لي من أنفاس.
فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا العلوّ.

لا شيء غير مسارات متعرجة يمنع بعدها من رصد كائن يمشي فوقها.
أية مخيلة قادرة على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل.
أحاول تخيل شبكة آثار خطوط الأديميين الذين تتابعوا على لسهل الذي انطلقت منه... وأيضا الآثار التي رسمتها خيل وبغلٍ وحمير سجينة تننّ بأثقل سجانيها... ناهيك عن آثار بيبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ.
مستلق على الظهر أسترجع أنفاسي أحدق في السماء متابعاً سرب طيور دخل فجأة مجال بصري.

قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافاتها جزريا عما تعرف كل الأجناس الحية التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.
فجأة ترسم طائرة نفائثة خطا أبيض يقسم السماء إلى اثنتين.
تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل.
تبدو الطائران كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي.

من حسن حظي وحظ ركابها أنهما على غير نفس المستوى من الطريق.
يحصل التلاقي قط بين الخطين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة السماء.
والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار ساقطها ولو زحفا على البطن.
أخيرا المكان الذي أوصيتُ، قُل أمرتُ بالوصول إليه وكلُّ من حملهم الطريق إليه لم يرجعوا منه كما وصلوه.

كم وقف عند هذا الجبل من شعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا يبنسون بينت شفة.

منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد.
كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!
قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكم الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم.
أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.

العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة تكاد لا تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دوماً شكل لا يكاد يُلاحظ لأدمي يفصل التواري، أكتشف أخيراً حجمه.

بعيدا عن الأنظر، مشدوها أمام جمال الجبل انبهار بكر. انبهار كل البدايات.

تري ما الجمال ولماذا هذا العلم جميل؟ بانتظار أن يجد أحذاراً واقفاً لا بد أن يكون هو الآخر جميلاً، لا أحسن لكل مرتحل من اتباع أمر أحد كبار المنتهين.

"عش للجمال تراه العين مؤتلفاً في أنجم الليل أو زهر البساتين (إيليا أبو ماضي)
خير وفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين"
تحضرنى قصة الرجل الذي تضرع لله وهو وسط كل هذا الجمال أن يدخله الجنة فهمس في وعيه انظر حولك يا غبي أنت وسطها.

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه يتسم (كيوكسي)
جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطراً
جبل الخريف ساطع المعادن كأنه يتزين
جبل الشتاء بعيد لا مُجال كأنه نائم

هل ثمة فنان أكبر من هذا الذي تفقت عبقريته عن مثل هذا المشهد!
أضم راحتي كأنني أصلي. فجأة أجدني أصفق ودخلي صراخ صامت يتعالى من الأعماق: برفو الله!

*

لاتباع الطريق وهو يتوجه إلى ما فوق أعلى الجبال لا خيار غير لسفر بالوكالة.
يخيم الصمت على قاعة العرض بانتظار سفرة ولا كأي سفرة.
فجأة يدوي انفجار يصم الأذان. يخيل إليك من فرط بقة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهب النار يلفح وجهك وبرائحة النخن تخنق منك الأنفاس.
تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.

ترصد كمبرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من النخن وهو يتلاشى ويودا رويدا.
ثم ينفصل المكوك وتنتهي عملية القذف لتتمركز الكاميرا في موضع يمكن الأدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.

على ماذا أركز والذهن مشدوه مأخوذ منبهر بما يرى والانتباه على أقصاه؟
على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟
على البياض وهو كفو دب ألي على كتفي غائبة؟
على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟

على الصفرة تضيق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق
ثعبان؟

على الحمرة استقردت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟
لا يغرثك ان هذا الكوكب اتخذ اللون الأزرق له عنوانا فقد ارتدى طوال تزيخه
العاصف أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته ... ثم باللون الأسود
وقد هدأت هذه الحمم ... ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه
تدثن عصور انتصار الحياة ... ثم باللون الأبيض في أزمان سوودد الجليد والثلج ... أخيرا
لونه الحالي منذ غطت المياه جل مساحته.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى
عشب الصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكف عن
الثرثرة والصراخ.

كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قليلي وهو ينبه المتبادلين أنه لا يمكن أن يكون لهذا
الكوكب إلا شكل الشمس والقمر!

كم كنت أود أن أكون من مع خوان سيبستيان الكانو والسبعة عشر من البحارة الناجين
من أفضع الرحلات الذين أتموا أول دورة للبشر حوله!

كم كنت أود أن أكون مع نائل ارمسترونج والأحد عشر محظوظ الذين ألقوا عليه من
سطح القمر أولى النظرات الشاملة.

ومن هذا العلو الشاهق يستحيل عليك تبين شبكة الأثار التي ترسمها من اليمم الأقدام
والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج
البحر.

من هذا العلو الشاهق لا مجال لرؤية تجمعت البشر الكبرى التي يسمونها مننا
وتجمعاتهم الصغرى التي يسمونها قرى ولا مجال لرؤيتهم في بيوتهم أين يقضون جزءا
لا بأس به من زمن الرحلة يلجنون إليها كما تلجأ العاصفير لأعشاشها والنمل لغيرانها
ولنفس الأسباب القاهرة.

ما لا تراه العين من هذا العلو الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر وأمريكا الوسطى
وكل ما كدست الأجيال الماضية من قار.

ما لا تراه العين من هذا العلو الشاهق كل ما كدس جبلي وجبل الأباء من موائى عملاقة،
من مطارات عملاقة، من جسور عملاقة، من مصانع عملاقة، من أنفاق تشق بطون
الجبال المتكبرة.

ما لا تراه العين المجردة من هنا العلو الشاهق شبكة مسارات القطارات والسيارات على
الأرض والأساطيل في البحر والطائرات في السماء تنقل البشر وما ينتجون.

ما لا تراه العين أيضا شبكة الأنابيب التي تنقل البترول والغاز من أبعد مكان إلى أبعد
مكان وشبكة والألياف التي تنقل الأفكار والصور بسرعة البرق إلى كل فج عميق.

أين قدرات النحل والنمل الأبيض وحتى دود الأرض من قدرة الأمي على التحكم في هذا الكوكب وفقا لمصالحه ولنزواته!

أنت ألام كوكب تحت السيطرة وسيده ومرؤضه الأدمي المهندس... أو هكذا يبدو. فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جل فضاء الشاشة. إنه إعصار مرعب يستعد للاعتداء على الأميمين المسكين.

تتذكر فجأة أن هذا الكوكب هو المهد والحد.

تحتي أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات ومن الأجناس. تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.

بديهي أن هذا الكوكب كائن حي يحمل، يلد، يغذي ثم يورث في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات كبده!

كم بديهي أيضا أنه الوطن الحقيقي... الوطن المشترك لكل البشر ولك الكائنات الحية... الوطن الذي لا مكن فيه لغريب.

تدرجيا يمحو السواد بقعة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين. في الجزء من الكوكب الذي داهمه الظلام، نصف البشرية مضطجعة في أسرته ترحل داخل أحلامها وكوابيسها بينما النصف الآخر في الجزء المغمور بنور الشمس في أوج الصراع مع ما نسميه الواقع... إلى أن يحين وقت تبادل الأدوار فيهب النائمون لرحلة النهار ويهرع المستيقظون لرحلة الليل.

ومن هذا العلو الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك. تنظر لشكل القارات فتحسبها قارة موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها-ومقياس الزمن بملايين السنين- لم ولن تكف عن التغير انقسامًا ثم تقاربا ثم انقسامًا جديدًا وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.

كم شهيد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت، من صحار تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل!

كم من جبال انبثقت من قاع بحره وكم من رياح وأمطار أحنث هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول!

هو لم يكن مقترًا، حتميًا، متوقعًا، محتملًا أو ضروريًا. كان مجرد إمكانية من بين ما لا يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود بكل ما في المفهوم من أبعاد ومن أسرار.

يا للصف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت!

كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!

كم من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف، جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على تساع الفضاء اللامتناهي!
يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما فيها من قدرات الخلق والابداع!
كم تتابعن وانقرضت على سطحه في أعماق بحلره وفي تساع السماء من أجناس حية كلها نتبارى غرابة وإعجازا!
كم من بشريات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار!
كم من ديئات، كم من حضرات، كم من اميراطوريات، كم من دول ظهرت، ثم اختفت ستظهر ثم ستختفي!

مما يقال إن الجنس البشري استطاع أن يبني ما يسميها الحضارة في العشرين ألف سنة الأخيرة على سطح هذا الكوكب لأنها كانت فترة استقر فيها المناخ بعد فترة طويلة من الصقيع والجليد...وأنها فترة ستنتهي طال الزمان أو قصر. مسلكين من سيأتون العالم وقت يكشف فيه المناخ عن انيابه فتنهار المجتمعات والدول والحضارات وتعم الفوضى وتأكل الناس بعضها البعض لا بالمعنى المجازي وإنما بلسلكين والأنيب.

يا ترى كم من أجناس حية ومن بشريات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يعلق هذا المسرح أبوابه نهائيا وقد انتهت كل العروض! فعلى الأمد الطويل يتنبأ البعض أن سماء الكوكب ستطلى يوما بالأخضر لتشرف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفتت برلكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين.

أه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عاقبته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا وينكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يَوْم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية.

طال الزمان أو قصر ستنتهي كل القصة بالحتضار سيجول هذه الجنة الى كتلة من لاصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس!

يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة لزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي الذي تسبح فيه. تتضح الأبعاد المذهلة للفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف عند انطلاق الرحلة عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن ثم عند حدود الأرض وهو صحار مترامية الأطراف رملها الكواكب وكثبانها المجزآت.

تفغر فاك دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف.
كأنَّ الفنان الأعظم -أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة
الأشكال ثم رصَّعها بقتاديل الشمس وفوانيس المجزآت...والنتيجة متحف ربّاني
يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمالَ فينا إن فاق حدًا، شعورا يقارب الألم!
هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟
حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل
حاسب على الحساب؟

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفص عن ظهيرة آخر
راكب. مجتدًا إلى أين؟ ...إن بقي في مستوى كهذا معنى للسؤال؟
ليواصل إلى حيث يريد، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة على ما تركت ورائي أو تحتي
من أبعد نقطة أوصلني إليها خيالي.

هناك بين ذلك الربع الخالي وتلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع
واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجزآت توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة
الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة
الزمردة، بياض اللؤلؤة وزرقة الياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوععة على ستار لا متناه
من فأخر الدمقس الأسود.

أمام كل هذه التساعاة المرعبة للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمن الذي بالكاد ينتبه
ليروزنا واختفائنا، تنتسّطح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها
الحقيقي. حقا لا أتفه من قصتنا بمقياس كل هذه التساعاة، لكن هل ثمة أهم منها بمقياس
الآن وهنا؟

أي خيار غير ليّ عنق الطريق ليعيدني من حيث أتيت أو اصل على سطح هذا الكوكب
المعجزة نصيبي من ملحمة الحياة!

كيف لا يحضرك سؤال يلاحق البشر منذ وجدوا: هل من كوكب يمكن أن يصله الطريق
يوما ليكتشف جبل محظوظ من الرحلة على سطحه كائنات حية مثلنا... أم هل نحن
وحدنا في هذا الكون؟

مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال
أقول إنه مصنوع من كم هائل من الغرور والتبذّر والجهل.
طبعًا لسنا وحدنا.

كيف نلقي على أنفسنا مثل هذا السؤال وحولنا ويقربنا ما لا يحصى ولا يعدّ من كائنات
حية هم في هذا الكون اللامتناهي الجيران الذين لم نحسن جبرتهم!

**

عن الكائنات المدعوة الأخرى وكيف أننا لا نريدها حول المائدة وإنما على قنمة الطعام.

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعيد يوم لا كسائر الأيام.
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميّة أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.
أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى؟
- لا تخلق لنا مشاكل مع قوَى نحن في أمس الحاجة إلى حمايتها خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.

يهمس الرجل العبوس: رجاء لا كلام بصوت عل ولا ضحك من الآن.
يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة التي جئنا نتطلّف عليها في عقر دارها.
ينبهني الدليل بين الفينة والأخرى لعلامات لا يدرك معناها إلا هو.
- انظر يا سيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكاها، وهذه طريقة الثيران للتخصّص من الهوامّ التي تسكن جلودها. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القرده. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار.
نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ وكل انتباهي مركّز على شجيرات قزمة متناثرة على جانبي الطريق.

تحقّق في مرافقتي ثمّ تسألني لا تخفي سخريتها.
ماذا تفعل؟ تشمّ أوراق هذه الأشجار العجفاء!
- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأفني وأضعها على طرف اللسان متحمّساً على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق طعم السحاب.
تَهَيّر المرأة كتفيتها لتتكفي على أفكار لا تقصح بها ولا أرغب في سماعها. فجأة تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟
يردّ الرجل متحرّجاً:
- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحياناً وحشاً واحداً طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الأدميون... ما أبرعكم في قلب الحقائق. من عرف منكم جنسا فيه جلادون باستثناء جسكم؟ ... من سمع يوماً بنمر تكّل ساعات طويلة بنمر آخر؟ ...

لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سببه وشتيمة؟ خيارى بنو
حرية لمن نسميها الحيوانات وآل ثبت بصوت متهيّب لتسمية الأشجار.
تُبادرنى المرأة بلطف لن يطول:
- الظاهر أنّك لن تكون أسعد حطًا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".
كانت يومها تصرخ للتعطية على صفير الرياح:
- انظر إلى هناك.
- لا أرى شيئاً.
- نفّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح
الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟
الحقيقة أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبت البحر حذو شواطئ قارة أخرى
أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام.
تمدّ لي ريفتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:
- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.
- جيّاً كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقاً في
لقائي. كنت أنتظر استقبالاً آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان
تزرعد القرود احتفاءً بمقدم الصديق لوفى.
- نعم، كيف لا نتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه
الصيد الرياضي؟
- رجاء قولي لهم هذا الكلام لعلمهم بعقول.
يتسّمّر الدليل مشيراً إلى مُبهم ما:
- سيدي، انظر هناك!
- لا أرى شيئاً.
- نفّق النظر يا سيدي!
- في ماذا؟
- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!
- أها، تقصد هذا الخطّ.
- إمضاء فهد. لا أحب فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب. هيّا بسرعة لكن دون
هرولة.
تختفي رغبتى في ملاقة السكان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم
وخشيتي أن يتركوا فيّ مثل هذا الإمضاء.
نعاول التحرك إلى الأمام والطريق يتوغّل بين أعشاب تحتضر عطشاً. يهمس الدليل وهو
يُنزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعدا المشي ورائي فقط. ممنوع منعاً باتاً دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، تَوَقَّفَا فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمَ هنا سبعُ سائحة إنجليزية متهوِّرة.

أهمس في أذن امرأة متزايدة للتوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حاد.

- كن جندياً، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصيد.

- وهل المدن التي جئنا منها حقاً جَدَّ مختلفة عن هذا الغاب؟

يأمر الدليل بلمسراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكداً على ضرورة عدم التحرك.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مدهنته بلا انقطاع.

تتوجه إلى مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.

- ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعابث هذه النملة التي غامرت بتسلُّق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بدأه ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تقترس الحشرات التي يضعها سوء طالعتها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيجئ قلبك على الأدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم على الأقل خَلَقُوا على هلمش معاركهم شيئاً اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرزة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن بجهل المتبلدون قيمتها والدليل ألا أحد منهم جاء خصيصاً هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أي جنس يفوق النمل انضباطاً، شجاعة، تضحية وعملاً دؤوباً لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوماً؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقَّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرق والحرب. أي جنس آخر لا قائد فيه ويسير أمره على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبي؟ صدقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.

تيزر مرافقتي كتفيتها تخالني أمزح.

يبرز الدليل أخيرا من وراء أكمة الشجيرات مواصلا اقلل أضرار سرواله.
تبادره المرأة المتزايدة نقاد الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.
- افترض بعد الشرّ عنك- أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعاً.
كيف كنا نخرج من هذه الأحرّاش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تتطلق الدورية. اسمحي لي
بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى
وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحرّاش بلا بندقية وخارطة وليل مَحض انتحار. أسف،
بلنسبة لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول... كل الحاجات الطبيعية في الخلاء فقط.

أقرحُ على مرافقتي رفع الحرج فلا تستقطع الفكرة.

- أديري لي ظهورك وأديري لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.
نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق
وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المبحّج؟ ... إلى من توجّه بالتهديد أو بالغزل؟ ... هل يُغازل نثرا
أو شعراً؟ ... هل تكون يا طيراً كبير شاعر في هذه الأدغال.. ترى كيف تشعر وتفكر هذه
الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حرية وآل ثبات تساعلوا هم أيضاً ماذا يفعلون في هذا
العالم؟

أفبق على همس صارخ للدليل:

- انظر هناك!

- أين؟

- تحت قدميك!

- لا أرى خدشاً.

- هناك، هناك!!!

- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسانحة منكوبة الطالع حتى ولو
كانت إنجليزية.

أثر آخر سينمجي قريباً. هو والأثر التي تركتها كل الكائنات على الطريق.

- لا يا سيدي إنه لوحيد قرن. لنتنبه، قد لا يكون بعيداً.

وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماماً مع كل هذه الأنواع من الحيوانات
التي تنبخر يوماً بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم،
لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن نُجِدت يوماً... على كل حال
المحمية نفسها من الأثر... ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجوع صدى عالم اختفى أو هو
بصدد الاختفاء.

يهمس الدليل في اذني:

- سيدي، انتبه للبراز اليليس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا آثاره منذ قليل. مر من هنا منذ يومين تقريباً.

انتباه متحفر ثمنه توتر أعصلب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كتينات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.

ما الغريبة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العلم إلا بالخيال والظن؟ ألا نقضي العمر في تتبع الأثر ولما نجد صاحبه؟

لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات تتمتع وتقرّ منا.

ما الأدميون بالنسبة إلى هذه الحيوانات التي تتفادانا بكل إصرار؟ طبعاً أخطر

الكائنات التي يأتني منها موت صاعق مُتَوٍ من بعيد... لكن من يعرف منها أن هذه

الكائنات المرعية تسير دوريات من الجلود المنجحين بالسلاح لحمايتها... لحمايتها؟ نعم

من نفس الكائنات الغير مرخص لها بقتلها.

فجأة يتوقف الدليل مشيراً إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.

- تقرب لنرى بوضوح.

- يا سيدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقي

في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تود.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار.

يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصل ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

- يا سيدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"،

والمتوسطة الحجم وتسمى "نيالا"، والضخمة وتسمى "كودو". ما رأيت واحدا من هذا

لصنف وليس حصاناً.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول اقتعال التأدب

وكبح ما به من سوء مزاج.

- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدرون ضرورة

التحكّي بلصبر.

- نعم يجب أن نتحكّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصّر على تفادينا.

استجار المسكين بأعماق الربيع الخالي قنبغه الصياد لا يصدّه الحرّ. استجار بأبعد

أماكن الصحاري البيض فهورول وراءه لا يخيفه الجليد... استجار بعرض المحيط ففتش

عنه وراء كل موجة... استجار بالجبال الشامخة فوضع للإمسك به الأوتاد على الجبال...

استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه
الحذر ليلاً... استجار بالصيغ فخلق له المجهر... من الفضاء تجسّس عليه بالأقمار
الصناعية يتبعه وقد رشق على ظهره واثباتا الكترونيا... كم من شياح ومصورين وطلاب
تكتوره بركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين!... أتري كل هذا الإصرار على
تعقيه لإدراكنا أن سرنا من سره وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟
تعود رقيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعانَ فرس
النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبخر هي الأخرى.
يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقاً صغيراً عجيباً باتجاه كدس رمادي يطفو بعيداً على
سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكاً:

- أعرّف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقترب،
آنذاك يقرّوا المسافة. إن بقي بعيداً عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إننا خرج من
الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.

تحقّق فينا الكائنات بتقرّز ثم تدبر لنا ظهرها تتوغل بعيداً داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوماً أن أتكلّم الجملي والجماري والحصاني
والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات
الحية، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهيو. ففففففوووو.

يستغرق الدليل في الضحك:

- يبدو، يا سيدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيتُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيّعتني في هذه الأحرار؟
يدخل الرجل قرقعته والطين يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن
يومها ضاع لأن لنا دليلاً لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلنقط أنفاسنا ونمسح عرقنا.
أعود لاستقراز رقيقة السفرة:

- هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرنا فيها الحيوانات
التي تفرّنا. كيف لا تتوارى عن الأنظار ترتجف رعباً وقد شمتت من بعيد روائحنا
الكرهية. هل تعلمين أن القبيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في
البراري التي جنّت منها؟ لكنّ بشرا اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلبية الشعب
أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائلة للتمتع بمذبحة تدوم أحياناً ثلاثة
أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر
ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها،
بحاجة إلى الملايين نغم الملايين من القبيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر

والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِقَ "بزنس" كامل كان يدّر الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئاً فشيئاً فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوّطون فيها جيلاً بعد جيل هرباً من الوحوش الحقيقيين.. وها نحن نأتيهم دون دعوة ونزيرهم في استقبالنا. تُفضّل المرأة المرفقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعوننا إلى العودة إلى الطريق. - آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر. تهمس المرأة الغاضبة في أذني. - نهار كليل من المشي من أجل خدش وكدس خراً وصباح منكر لأشباح من فوق الأغصان. هذه المسكينة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لوتسو. "لا هنف ولا وجهة. يغم كل لحظة ما تقدّمه له الحياة"

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أحراش منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين أميين وضعتهما الصدف جنباً لجنب. -أي حصيلة بانسة! بالطبع سيادتك غير منأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس. بالعكس أن مسرور بيومي . -كأنك تعوض سحرياً ما كان نقصنا في الواقع هذا اليوم، اصدقني القول، هل نمتت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟ - أبداً، أفضلها على خيار الأغبياء الذين يتجولون في عرباتهم شبه المصفحة يزجون سكان هذا المكان. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكرنا قليلاً: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. هذه المحميات "باتتوسانات" للحيوان، لا غير. كم تذكرني بتلك التي زرتها في قلّة أخرى وضع فيها بشر سُموا "الهنود الحمر". - باتتوسان حيوانات! هل تقصد أن ما كنا نسميه باتتوسان كلن في الواقع حديقة حيوانات أمية؟ -بالضبط والقاسم المشترك كبير اثم الا وهو الاحتقار. كل ما نعاني من بعضنا البعض وما تعانیه منا الكائنات الحية التي وضعها حظّها البائس في طريقنا غياب الاحترام... يوم نجعل منه مبتدأ الخبر ومنتهاه في تعلمنا مع بعضنا البعض ومع كل الكائنات الحية الأخرى سنتتهي أغلب الفظاعات التي نكرّك في هذا العالم.

- عن أي احتقار تتحدث؟ لم أرى من حراس حدائق الحيوانات والمحميات إلا الكثير من التفاني في خدمة حيواناتهم.

- آخر بانتوسنل حيواني زُرته مكان اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء حتى في ذلك المحتشد المتحصّر وفي تلك البلاد المتقدم كانوا هم أيضا محكومين بالمويد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكّر جيدا أحد السجناء. كان كلب بحر، جُوع غمدا، يرمي له المروضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفالُ حول المسيح يصفقون له فيقلدّهم سجين الحرب يتسوّل غداء مُنع بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيل مخطوف على الرقص وجواد مخصي على المشي إلى الوراء... هل كنت ترين شيئا كهذا لو كان احترام كل الكائنات الحية قاعدة تصرفاتنا.

- يا رجل، نحن بالكاد نستطيع احترام البشر وتريد أن نحترم الحيوانات. ما الذي يميزنا عن الكائنات الحية التي نقاسم معها العالم ويعطينا عليها كل هذه السلطان؟ ... الكتابة؟! هل تكون هي السرّ؟ ... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور إلى حالة أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب يحسب بالقرون وأحيانا بالعقود لا أكثر؟ عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعليّ.

على فكرة لمانا لا نفتح سجون الأدميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على الأقل ستمكّن مناخيلها بعد خصم رشاي الإدارة والحراس والقضاة من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيتدافعون للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وبلابور.

تضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

- تُبالغ. تُبالغ. تُبالغ.

- أبدأ، ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجن وهو دور في الفضاء الخائق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان....

- نعم، ثم ماذا؟

- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

- ضربة الشمس على ما يبدو أخطر مما اعتقدت؟

- بل وجع ذكريت عن شهور طويلة قضيتها في زنزانة أكبر بقليل من خز انتين.

-واصل افراغ ما في جعبتك، ربما سيخفف عليك ذلك بعض ... الغضب، نعم أشعر بك غاضبا وليس فقط موجو عا.

أذكر أنني وقتُ طويلا أمام قفص كانن تسميه اللغة "غوربلا" -طبعاً بنكهة احتقار- وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئاً باستثناء تحريك حصى صغيرة بقطعة من الخشب. يوماً تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"لشيء" بما لا يدع مجالاً للشك بحتق في يسألني: عرفتني، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها. يوماً حدثت معجزة بالغة اللندرة اسميها لا عليك...

- وفي الأخير انصرفتُ مُضيفاً إلى جعبتك من الأوجاع حزن الغوربلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضاً أنه ثمة أكثر من غزاة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وجنت في حقائق الحيوان التي تستنكر وجودها حياة أمنة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تعب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوربلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الأسير الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

يوم نقرر أنه بعد الغاء ريق البشر حان الوقت لإلغاء ريق الحيوان... يوم نعيد للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كنا فيه ضيوف سواسية ومصيرنا واحد... يوم نقبل بأنسنة الحيوان وحيونة الإنسان... يوماً قد تكون خطونا خطوة جبارة في تحقيق المهمة الغامضة لرحلتنا في هذا العالم.

تنتهد رقيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصند إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغيب يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها أذ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية أنت الذي يحاول إغرائني بالادعاء أنك طباطح ماهر.

- تكريتي، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميز إنثها بصيغ الشفاء بالأحمر ونكورها بلبس ربطه العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات.

تعود رقيقة السفرة المثيرة لما تظنه مزحاً.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك... لا تفتحي جروح طفل نبحوا واكلوا يوماً أمامه أعز أصدقائه.

تفتح الذاكرة ملفت طفل في سنته الرابعة أو الخمسة يفتح عيني الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، ودعيا، بريئا، كان يحنو عليه ويكلمه كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملف المحفوظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقول

الهواء بقوانمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في مندبل أبيض هادنا راضيا عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جزه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمرّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خر وفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعلم لجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعيّن ضللكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصيان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هون عليك، إنه مجرد... فصد أنه، على كلّ حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كيش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبّه عجزه عن حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلّف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكدّون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتباديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كبدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تَهزّني مراقفتي من كتفي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم الدني.

- المصيبة أنه معروف على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر نما. هكذا مشيت دوما فيها لاغا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجزارين.

تغتم مراقفتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش كما هو الحال في أغلب سجالات البشر حصرًا بالكلمات بديلا عن الصراع بالكلمات.

- خاصة إذا تكذّس عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحقّ لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من نككين الجزائريين ببلدك وبلدي: محطات سفر يتوقّف فيها الناس

للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت نخان الشواء لا يخلو فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أم أو أخ أو أب. تقاطعني امرأة تقتعل الاستنكار وهما الوحيد أن اواصل.

- ارتفع صوتك، الدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزار والشواء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحاها؟

- لذت بلفرار بكل شجاعة وروح مسؤولية عالية. للانقاص مني ومنهم كانت تأتيني صور عبيرة ممتعة لقطع من الادميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزار، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل ادميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستشيق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رفيعة الطريق إلى أن يتملكها السعال. أعتنم الفرصة للتفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أنكسر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الادميين طبعًا) كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت لضرب لتصطف الواحدة وراء الأخرى في ممز لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما يتبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرّد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكتم للصوت. يضغط على الزناد فتَهوى على الأرض كلّ ساعة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلقة في الهواء ميتة - أو هذا ما يظنناه لها المرء-وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كذلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجزار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندفق شلالات من الدم والرّجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذلك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضع دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.

على فكرة هل انتبهت يوما لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحدائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سب أو صوت منكر. كل الخرفل لا تنبس ببنت شفة وهي تُدبج. لَمَّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال يُقتل الأول ويموت الثاني حِدْحَفُ بهما وقارُ الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القَتِيل عقيرته بعويل يجمد الدم في الشرايين والقاتل يصبح كالمجنون يحيا الامبراطور أو يحيا الوطن وحتى يحيا الموت.

كيف يمكن لكانن له هذه القدرة على الإيذاء -إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات- أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟
- ربما معك حق، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟
- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا نترصّد بنا الكوابيس على الضفة الأخرى لهذا العالم.

"الليل وطوله (شيكوي)

والفرد يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

ما هذه الكائنات كائنات من بني حرية أو آل ثبات؟ مشاريع بحث يجرب عبرها باحث عبقري كل إمكانيات الخلق؟ إذا كانت مشاريع يجزّب عبرها إمكانيات خلق لا تنضب أبدا فما الذي يجزّب في الأدمي بعد أن استنفذ الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال من قطب إلى قطب؟
أ تكون أنجح تجاربه أو أفشلها؟

*

من الغد توقظني رقيقة السفر:

- انهض، إنه الفجر. بكفي ما نمت.

- عن أي نوم تتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

ما أرق نسيم الفجر! ... ما أروع هذا الهدوء! ما ألطف هذا الجوّ! ... يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا (المسعودي).
... أي شيء أهم من التمتع بيذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء! كم صدق أيضا المثل الصيني: اعتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

تستعجلني مرافقتي لعودة الركض وراء أشباح حيوانات.

نزدر فطور الصباح لننطلق مجددا بحثا عن أصحاب الأثر الذين يعدنا الدليل إنهم سيبتدفعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير.
ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.

فجأة يتوقّف ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين لطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. مانا بالضبط؟ أنتفتّ إلى المرأة فإذا بها باسمّة مفتوحة العينين على أقصى اتساع تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنت، أما أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- أتكون رأيّتها وترفض الاعتراف؟ فاجأتك أكثر من مرّة تلخع نظراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أدفي. صدقيني، لم أَر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمّ تتحدّثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ بروية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة لسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. مازال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

تهزّ المرأة كتفيها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أمّلنا الأخير في الكسلى، من سيروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل التربة وسيادتك تغطّ في النوم. أه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الطوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسلى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتّى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو تعجن في البدرية !!

يضع الدليل مجددا إصبعه على شفّته قافرا كلّ ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزّمة.

هذه المرّة وصلتّ حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.

تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تثبت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب. تصطفت على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سرّة. فجأة تتواجه زرافتان فيقاطع عنق الأول مع

عشق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نبتاً في اتجاهين معاكسين. ثم تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.
من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه "الشيء":
لا، لست إلا عجوزاً خرف قبل الأوان... كل ما في جعبتك اللعب على تنوع الأشكال وتغيير المقاييس... هل لك حقاً من جديد تبهرني به؟ ... مثلاً عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختل له توازن.
تصرخ مراقفتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.
يتوجه إليها الليليل بنبرة من نقد صبره من الألبهين:
- يا سيدي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثاً عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أي من هذه الحيوانات المقام في مثل هذا المكان.

كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة... كلها كائنات مسكينه! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمتعت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسنا عليه.
تتوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.
- على فكرة، سيانك لا تحمل أبداً كاميرا ولا تهتم بالنقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتلفس الفلغ.

- هل انتهيت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.
- وحده شخص سيء الظن بالبشر وخاصة بقومي يظن أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعامله معه.
تغير المرأة الموضوع مجزبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟
- العياد بالله أفضل صورتي أتوسط العنزة والبقرة والحصان والجمال يعبدن، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت علي جناحها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.
أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصد وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبهاها لوجود لحم طري شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.
- انتظر تدوّقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هرباً من الأدميت.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قُرِّت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخيرته المهنية الطويلة أن جمعه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكليمرات أو رصاص البنغقيات عليها. يلتقط الذهن الشلرد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقًا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أندخل في الحديث:

- قطط هنا في الأحرار؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخمنني. حقًا، إنها حيوانات عجيبة.

تهزّ مرافقتي كتفيها.

- قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجزّ صغار القوم إلا أشبع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقتبل العمر لظراوة لحمهم.

- يا عدو البشرية، لا تنتظر مني تعاطفا إننا التهمك قطّ جانع من قطط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظمي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قتيّدا، أه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجففه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تنكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إقالت منه وقد قُرِّت إناثنا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسمر الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها لاصنف الأسود.

تجتو مرافقتي على ركبتيها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- أه طبعار رأيته، هل تعتدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهمس متوجها إلى الدليل:

- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- وحيد القرن الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتفطن الرجل إلى ما في قوله من غرابية وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كفيه مفضلاً متابعه الحيوان وهو يدخل ببطء الأحرش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- بريء أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فردا بعد أن دمرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤلخذي. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر توّرعني بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و... الحرج. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الأميمين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه ليّنال به الشهرة بين بني جلدته السميكة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على مانا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلتفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهنيّ صاحبة البقتيش المنتظر بطننتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون اصطادته حسب رايه لبؤة ماهرة لا أسد كسول خلافا لما يعتقد أغلب السياح.

الصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل... نوعان اساسيان منه... الأول صيد الأسد للغزال... من ثوابته ضراوة انقضاض الصياد وأتاقة مراوغة الضحية، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيعة للمأكول أو بتجدد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد... الثاني صيد تنين الكومودو لثور رافد في الوحل يكفني بعضه واحدة لا تتسبب له إلا في جرح بسيط لكنها تحفنه بسّم بطيء المفعول... لا يبقى على التنين إلا ملاحقة ضحيته أحيانا لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عصّة يحقنه بمزيد من السّم إلى أن تخور قوى الثور فيسقط لقمة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف ميّت نصف حي... يأخذ صيد الألمي للألمي من تقنيات الأسد والكومودو، والظروف وحدها من تُملّي أي الخيارين الأفضل... ليس في هذا العالم غير أكل ومأكول، قاتل ومقتول وأهمّ فعل فيه قتلٌ أما الباقي من الأفعال فتعاليق وهوامش.

يتواصل الهمس بين الدليل ورقيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريبا منا لأن الفهود تفزّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني أوى.

حتى هنا كانت يسرق بعضها البعض وتحتل لوضع الغنيمه خارج شره المناقسين.
فجأة تتحرك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر.
يهمس الدليل: لا تهتمًا، مجرد خصومة قرده الشمبانزي.
أهمس في أذن مرافقتي:

- على أي شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة العجز
على خلافة طاغية مسنً، على الشهرة بين الشبلب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى
الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ
الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.
تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تذكر ما يُقال عن بني عمومنا الآخرين: اليونويو. يكفي أن
تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال
غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة
وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعها بكامل
الطرف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي اليونويو حياتهم
بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون
أيها البشر أنكم أرفى مخلوق الله.

تري ما الذي يميزنا عن هذه الكائنات الحية التي تتقاسم معها العالم ويعطينا عليها
كل هذه السلطان؟.. الكتابة؟! هل تكون هي السر؟.. ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى
تتطور لتغيير في الجينات يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل
تجارينا وتوظيفها والزمن المطلوب بحسب القرون وأحيانا بال عقود لا أكثر؟

سمر الليلة الثانية

في المخيم تعود مرافقتي للثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت طويلا وهم
جنبا إلى جنب.

- يارجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في أشجار هذه المحمية على قبتها و صغر حجمها. لا أنت ولا الدليل ابديةما أمدني
اهتمام بها والحل أنها أجدر بالاهتمام من كل ما ركضنا وراءه عينا.

يبدو أن البحث عن الطرافة ومخالفة الرأي العام خاصة فيك تتعدها بكثير من العناية.
- أبدا. عن بعض المنتهين الذين من سخروا حياتهم بحثا في أسرارها أن الأشجار
تتكاتف وتعاوض بينها، أنها تتبادل المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أنها تدافع عن
نفسها بتسميم الحيوانات التي تبالغ في قضم أورقها، أنها تتعاون مع الفطر، مع النمل،

مع الطير، مع الريح وحتى مع النار للحفاظ على وجودها، أنها تشعر ولو أنها تشعر لا كما نشعر وحتى أن الأرز هار تسمع ولو انها تسمع لا كما نسمع.

تهز المرأة كتفيها غير مصدقة أننا عندما نقف أمام الأشجار لنحرق ونجتث فنحن صرح من الغباء الصراخ في تعدي على صرح من النكاه الصامت.

يوم مشيئاً وراء نحلة مقتلعة لحينها، وجزائر البلدية البطيء الحامل لجثتها بسند الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه... كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جائزة وأن عليهم التزام وقار الجنازات. يجب مواصلة زعزعة قناعات تمنعها من تجدد الإثتاه.

- ألا يذهلك أن الأشجار لا تموت لما تدمر النيران تسعة أعشار " جسدها " وإنما تتجدد كليا بينما يكفي أن يدمر المرض عضوا واحدا من الجسد الأدمي حتى تنتهي حياته؟ أليس من باب المعجزة أنه عندما يكسر لها غصن تخلق غصنا جديدا على عكس الأدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبت به قبلة؟

- على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. -عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتبديح تقرير له الحد الأدنى من الجدية. أه، لو علمتني سرها. تضحك المرأة ضحكة صفراء.

- صحيح أن الأشجار وجدت قبلنا بملايين السنين وأنه لولا وجودها لما وجد هذا الهواء الذي نتنفس و بالتالي لما وجدنا.

- أه بدأت تلتئين موقفك. برّيك، ماذا لو فقدت هذه الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبيعث إليها الأطفال والعناري نطلب الصبح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدّست التي لم نقّدها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.

-إلى أين تريد الوصول بكل هذه الفلسفة الفارغة؟

- إلى ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حل.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موقى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الربّ! برّيك هل في الأميمين ما يُعبد؟

- ثمة كثير من المعصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصرٍ معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كثوا يتقنمون لها بالاعتنار عندما يضطرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبيكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضاً عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلني أمل بمستقبل للبشر أن منهم حتى في هذا العصر المجنون من يغامر بحياته دفاعاً عن حياتها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين متراً بين أغصان شجرة سيكويّا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشل تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنث الثلاث وعشرين سنة تقات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقلاء مثلها. لم تقبل بالزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها، "لونا" لن تقفّ حطياً. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالماً قابلاً للسكن"

هذه المرأة والكثيرون من أمثلها يتجمعون اليوم في أكثر من غابة يحقون بالأشجار متعبدين للقوى المقدسة التي تسكن جذورها وجنوعها وأغصانها وأوراقها.
- أه، أخيراً عرفت بأي دين تدين.

ديني؟ الذي أوصى به أصدق دليل.

لقد صارت قلبي قلباً كلّ صورة
فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبانٍ (ابن عربي)
وبيتٍ لأوثانٍ وكعبة طائف
وألواح توراةٍ ومصحف قرآن
أدين بدين الخبّ أتى توجّهت
ركائبه فالخبّ ديني وإيماني
تعود المرأة لمامزحتي:

- قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة مثلاً، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أرتدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الزراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرّات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُتقطع الأنفلس أجلسُ في حضرة المهابة والجلال مردّداً في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقته - هكذا نون سبب-على الكائن غير الآدمي غير الحيواني المشرف من علياء سموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البط ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن العوث والمحجوب وسيدي الخفي وسيدي محرز وبقية أسياد وسيدات الأب والأم.

-واصل التضرع له ، لعله يحنّ عليك أكثر من آلهة وقديسي البشر .

ما أعرفه لحد الآن من طبائع البشر وطبائع الشجر تجعلني أضع في جوناس كل ثقتي وأمالي. أسف لإخيارك أعلى درجة سلم الكائنات ال ثابتا وبعدها بني حرية وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة فردا مشاكسا ومعارضاً ففُزّر لك أن تمسخ أنميا في هذه الدنيا كاشدّ عقاب.

تفسير منطقي. لهذا حولت في هذه الرحلة أن يبقى ملقي نظيفا علّ السلطات العليا لعلها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم لن أقبل بالبعث إلا نظرة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري أو سيكوبا ، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة... في شراييني تتدفق عصارة الحياة، محمّل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محمّيا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشردّ، يتسلّقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطعم من هبّ ودبّ لا أنتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، لين، هادي، صامد في وجه الأنواء والدهر...الريح والفرائس والنحل رسل أشواق... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم يقصص الليل منتهيه، شارذ الدهن، أغفر على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تلعمّ الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

*

تلتزم مرافقتي الصمت وكأنها تفكر في منقح أن تبعث هي الأخرى شجرة. ثم تغير موضوع الخصام المقتعل.

- لننسن أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغيضة معنا. تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مسنّلية ورقيقة كذلك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ونام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. لك لي مثلا عن دبّ التسيح الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.

- ليس لنا بنبية في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.

- ربما كان لك نمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

- لأخشى أن تضحكي مني إن حدثتكَ عنه، عينيي بعدم فضح الأمر.
تعدني مرافقتي بالأمن وأنها لن تفضح السر، على الأمل طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك. كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.
كل جدي لا يملك غير حوش متداعٍ وحمار وجمل يعينه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخمسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باعت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قزرتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة معرفة في القدم بين قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أنقذته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عترة سهل الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأنني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

- هل كان جدك يتركك تأخذ حماله متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عترة، فينطلق شريطة ألا أنسى من فرط تسرعِي فك الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدي، كان ككل جدٍ يحترم نفسه ودوره ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبي الشديد لعترة، لذلك كنت المكف الرسمى والوحيد بل أن أخذه ليشرب من العين، والمشرف الأول على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. مازال توح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.
- توقّف ستيكيني. لا أتصورك تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة فرقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أهدئك عن عترة وتحذيني عن النساء! أه يا عترة، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسع ملكك وتمرد كل حميرٍ يُحسّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! أه يا عترة، رحمك الله أوسع رحمة،

رزقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جناته، في القسم المخصص للحمير.
بالمناسبة، ألا تشاركييني استهجاني الشديد أنه لا أحد من حكماء الأدمية، اهتم بمصير
الحيوانات بعد موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية
الثابتة منها والمتحركة، فسأحمل مسؤوليته كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة
قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجنة للبعير
والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قلسته من كائن لا
يجازى في الشر اسمه الأدمي. الاستثناء الوحيد الفران والذباب والناموس، وما على هذه
الكائنات إلا البحث لها عن جنة في خيال من يعشقها.

- الظلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح الحيوانات لها روح!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فيالتأكد له روح. لا يجادل في الأمر
إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الأميمين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور
والبغل لاضطررنا لشئنا إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدث ولا تسلى... هل كنا نتعلم الصيد لولا أساتذتنا الذئاب وحلفاؤنا
الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناء قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف
والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مطعم الخيل؟ ... ألم تشكل الحيوانات النموذج
والقوة ونحن نحاول تقليد هيبية الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة
الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان
الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد...أما نحن أحفادهم الأغباء فنستغلها نون
حياة أو عقدة ذنب أو نضعها في اقفاص من مختلف الأحجام.

- وأصل رواية قصة حيك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا
أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيت محضنرا قلت: لم لا
أشتري حماراً أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفر عن كل خطاياي السابقة بمنحه
نوعاً من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكّلت
به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيراً عرفنا ما ساهدبك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكلف المشقة فيلدي يعج بالحمير، بل منهم من تبوأ أرقى المناصب.

- نكرتني بذلك الأرستقراطي الذي نشر إعلاناً عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة
يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا
يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على
الرجل. بجد، ما الذي كنت ستعمل بحمار بطل يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟
أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحه. كن المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس لسياسي القائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحي أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيتُ جبراني وكلهم مَيَسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تقطن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برواك دوما معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.
- خاصة مع قرية الماء. أترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلى عن حلم جميل كهذا.
- من الجبن أو من التعلّق؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. نيدن أغلبية القوم أن الكذب قولم الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهم، تخليث عن المشروع برمته ولم يبق لي للتفيس عما في وجداني غير حصار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجد: كم أحسدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حنق في الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيرت موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرق إلى إمكانية أن تربط حماره أو اصغرُ نسب بحمير الجنوب وربما لم لا بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون - هكذا بمجرد الصدفة دافعا من ذرية عترة. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما قصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأنمييين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصنقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجذباء التي حكم عليّ ظلما بالانتماء إليها، أصبحت أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام حيث لا وجود لبوليس سياسي. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمته. تصورييني على عترة الثاني متسكعا بين المجرات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقيني، لا عدو يهدني، لا خصم ينقسنني، لا نصير بيتزني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تخلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردد وقد أيقن أنها مقلّضة رابحة مسبقا بين طبيب بروجوازي من الأحياء الراقية وريفي مكر. نتنح بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارًا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق

الاستكثار الشديد في عينيّ فسارع قائلاً: إنه حمار لا يأكل كثيراً ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مائة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شك أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ما تزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تنكرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجاناً، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟
- لا تقتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادراً على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعاً لا. كل أموال الدنيا لا تشتري ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها... ذلك الجلد الأعجوبة... ذلك الجهاز المناعي العبقري... تلك الحوامس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون!

حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطففة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تُطَبِّب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيد مخيف يكشفه الباحث، فاغرا فمه من التعجب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كل عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون بفرزه هذا الكائن تُكَلِّف الملايين، ويقول لي هذا الأحمي الجاهل: لن أنزل تحت منة وأربعين ديناراً!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند.

لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عترة.

تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعاً قديمة.

- الدور عليك أنت... في ماذا تفكرين؟

- في غباء تكلفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطة والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفران والعصافير والدجاج وبقية الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

- لا تغنمي، غداً يوم آخر سنرى أخيراً الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غداً يوم آخر ستواصل فيه استقزازي. ليلة سعيدة. ثرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأُميين بصفة عامة، ومنهم من يخلطنا نحن تحديداً: Go

Go home ،Go home ،home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعاً إلى الضفة الأخرى من هذا العالم لربما تلاقي فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسببنا في هذه الضفة. أي نوم في هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خَفَضْتَم الصوت قليلاً لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود. أه يا صمت صحرائي الغالية!

على خط التماس بين لوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوماً. تتحقق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوًكها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعاً طالباً النجدة، فتصرخ جحافل النمل الرلكية الخلدجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فبه هو القتيل.

فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلاً لعبةً تتزايد إثارةً وتعقيداً. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بكل ما يليس من أشكال.

سمر ليلة الرحيل

نهار آخر من الغبار والفراغ والحرّ انتهى ومعه العذاب اللنيز.

تبادرتي مرافقتي وكانتي المسؤول عن قلة ما التقطت من صور لحيوانات غير معنية بأن تلتقط لها الصور.

يوم آخر لا شيء فيه يستأهل أن تحذره الذاكرة!

- لا تكفين عن لشكوى من غياب الكائنات التي جننا لإزعاجها والحل أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أرعناه في أحلى أوقلت القبلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الأسد الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل.

- هل أغلق عيني لا استحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأسد؟

- استحضري أيضاً ما في هذه الغلبة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفراً لبيضاها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا يقبل لنا بتخليه.

- كفى، أصببتني بالدوار.

- انتبهني لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب المينة، لهذا الزجاجاة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحننه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هب فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتي فذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكن هذه الأشجار التي تحف بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حرك.. انتبهني ل.. أشباح الأوائل .. كل الأوائل الذين مزوا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكلمون ببطء.

- لست بحاجة لطقوس بدائية كهذه، لي طقوس سرية تغنيني عن كل ضجيج.

قللت والنار تلتهم أحر الأغصان وشخير اللليل يطو ويهبط:

تصر مرافقتي على مواصلة الترتة، لا أصعب على الأميمين من التزام الصمت وهم جنباً إلى جنب.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكارني، وترتخي أعصابني، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟

- في ماذا تفكر الآن؟

- في ضرورة القتلصا النهار على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهيرات العائلية ومنغصت العيش الأخرى. بربك لمانا يجب أن تكون هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من حاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبري الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمن على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحفظ إلا بلسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محتمل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهر ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعقدة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحب برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلاً. نعم، يجب إلغاه هو وفراير الذي يسرق يوماً وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إنز إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكثوية ولا أظن إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحز ناھيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلص من سبتمبر للسبب

المنكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك أن يكون حقا زمننا رائعا وقد طهرناه من كل وقت مضيق للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتكم؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأهل التي دشنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور للصحة والعافية. تصوّري ثراه الفلحش أنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجداننا وهو في نقله الأول، في طهارته الأصلية. تصوّري الفضاءات العذراء وكم كن البحر هادئا على السطح زخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحارّ بصدد التصخّر بجبال من البلاستيك.

تواصل مرافقتي حتّي على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

- واصل لعب دور المدعي العام في مرافعتَه المزلة ضدّ البشرية.

- بما أن زلّة لسانك تعترف بشرعية رفع قضية ضدّ البشرية، كمذعي عام لا خيار لي للأسف غير إحالة المظنون فيها للمحاكمة بأخطر تهمة: خرق القانون الأول الذي ينظّم تواجدا جميعا على سطح هذا الكوكب.

- وماذا يسّن قانونك هذا؟

-الذي تتحدث به كل ظواهر العالم سزا وجهرا والذي أسمعته كالتالي: حيث أن كل الاجنلس الحية شبكة من علاقات بالغة التعقيد والدقة والقدم تربط أوتق الارتباط وجودها ببعضها البعض، فإنه يمنع على أي جنس حيّ التغول بالنمو المفرط او إفناء أي جنس آخر بأي وسيلة كانت وإلا يقع التخلص منه عاجلا أو آجلا إلى أن تستعيد الشبكة توازنها.

- ياسلام! أتصور أن في جعبتك قانون ثاني.

- طبعاً، إنه القانون الذي يقول: الأمي ليس كائنا فوق وخارج ما يسميها الطبيعة ومن طينة غير طينتها وله الحق في التصرف فيها كخزان لحاجياته. هو شكل -حالة منها ومن نفس طينة أشكالها وحالاتها الأخرى.

تهرش المرأة رأسها مستغرقة في التفكير ثم تقول اخفتت من نبرة كلامها كل سخرية.

تأتيني صورة الخلية السرطانية. هي من طينة كل خلايا الجسم، لكنها تخرج عن القانون الأول فتتو وتدمر ما حولها من خلايا أخرى إلى أن تقضي على الجسم أو يُقضى عليها بهذا النواء أو ذاك.

-تمام.

-أصدفني القول... هل ترى أننا سنجد حلا؟ ... الأخبار في التلفزيون كل ليلة عن تكاثر الحرائق الجبلة، عن تفاقم موجات الجفاف القاتل، عن تزايد عدد الفيضانات الرهيبه،

عن الغابات التي تتلاشى ، عن أجناس حية لا تحصى تنقرض بسرعة مجنونة ، عن أطنان البلاستيك في البحر...شيء مخيف حقاً .
- تعلمين أن لي في كل موضوع رأي ورأي معاكس . هكذا اضمن لنفسي ألا أخطئ إلا مرة على اثنين حتى ولو أن التجربة تثبت للأسف أنني أخطئ مرتين .
طيب هات الرأي الخاطئ الأول و بعده الثاني.
- رأيي أن هذا العالم مَ بلف أزمة وأزمة وأنه سيجد حلاً لأزمته معنا فلا خوف لا علينا ولا عليه .
-والرأي الخاطئ الثاني .

-أنا ضيوف غير مؤدبين ، نخلنا بيت الضيافة فلأخنا نهشم الأثاث ونكسر الزجاج وتنبول على السجاد ونبعثر كل ما في الثلاجة ونجري وراء القط لأكله . ورغم تكرار إنذارات المضيف واصلنا حماقتنا لذلك أخذ قراره بطردنا في أسرع وقت . المشكلة أن المسكين تورط بدعوتنا وقد أصبح بقاء البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم .
-كيف؟ فسر .

توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلاً بوباء لا يبقي ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطينة الانفجار تبتئ سموها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبترو، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهم حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.
- إنن سيتحملنا العالم طويلاً لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكره أخاك لا بطل" ألم تخالجي الفكرة يوماً أننا بالنسبة إلى جل كائنات هنا العالم غاريت مثيرة للقرز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريته التي تصف بالنسبة إلى كلبى وأنتى لو متتُ عدا لأحمل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك ستقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما اقتدنا إلا الجرائم والطفليات والقطور التي وجئت فينا مرتعا خصيبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من أمني ينتبه لكونه عالماً بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعد وأظفها ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها ..كم غريب أن نكون في أن واحد رحالة في علم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- عدت للسكوت، أي فضاة أخرى تختمر داخل ذهنك يا عدو البشرية؟

- نقيفة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكل بها الأدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر. نعم يجب إقامة التماثيل للآفار وهو الكائن الوحيد الذي كل الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جرائم الطاعون.
- ولم لا تماثيل أيضا للفيروسات هي الأخرى نالت منا ما نالت.

في ملف فارغ مازال ينتظر عقدين من الزمان استدافع المعطيات المرعبة عن مُدنٍ مطوّفة، عن شوارع مُقفرة، عن مستشفيات تفيض بالمرضى، عن ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن فيروس خرج فجأة من المجهول مفاجئا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علماء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول... لا شيء يُحتزل نجاح تطاوله على الجنس البشري وعلى صفوة من فيه قَدَر وَضَع أمة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنقسمة، تُدعي أنها لا تفعل كل هذا إلا نفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها... ها هو الكائن المجري ينقض عليها فيزهق في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية وبصفة عامة كم هي تافهة أوهام الأدميين عن تفوقهم المزعوم وكم ببالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكم هشّ وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم... أنشككي مما تفعله بنا الفيروسات وقد تكون أخطر الفيروسات التي أصيب بها هذا العلم؟

تنتهد مرافقتي تقطع عليّ تفكير متوجس قلبي.

-المهم أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة بعيدة عني هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن يتهاوى.

- سفسطة كالتي تجيد.

-اسمعي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أوبئة غريبة أدت إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف المختصون أن الأمر مرتبط بانقراض تلك الطيور المذمومة التي اسمها الجوارح والتي تعيش على الجيف بدل تكلف مشقة ونبيل الصيد مثل النسور والصقور.
- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ست الكل أن الهندوس لا يأكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك في العراء فتتغذ منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح تنتج تسمةمها بكل ما تنتج من مواد كيميائية منها التي كانت تترسب في جوف الأبقار التي كانت تتغذ منها بغيرت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق تتعفن وتصبح مرتعا خصبا

للحشرات والجراثيم هكذا انتشرت هذه الجراثيم في الماء والهواء والترية ومن ثمة انفجار الأوبئة. وهكذا اتضح للكل كم كان البشر يدينون بصحتهم وحياتهم لطيور يحتقرونها.

- هل أقام الهنودس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى مستشفياتهم؟

-لا ولكنهم سارعوا لسنّ قوانين لحمايتها وتعهدها حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهايار عالمهم.

- ما نسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغناء بكل عذف. ثم من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضد كلالل الأدميين أو إنني متعاطف مع كلالل الكائنات غير الأدمية؟ أبغض حون حرج أو عقدة ذنب-الذباب والبعوض وكل هذه الهوام التي أطلقتها الإدارة العلمة وكأنها الأظافر المقصوفة وأغلب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرايت قبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الألمي الجديد بالمقارنة-أية في الجمال. والجراد، من أي مخيلة مريضة خرج كائن كهذا؟

تبتسم مراقفتي وكل ملامحها تقضح تئرا تريد اخفاءه. ثم تغير الموضوع كما يفعل المحرّج دوما.

- افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

- الأوفر حظاً للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر واليستائي الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.

تنتهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعتراقاتها للقسيس أيام الأحد.

- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستندارك حتما خطأ تعييبك عند وضع التصاميم.

- لسث ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العليسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبيكهم ويبكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أفسس معتقداتهم؟ ما يغير وجودهم أنهم من أقحموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها.

تجذبني رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟
أقول لها أم أحتفظ برأيي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفرة؟
أعترف أم أعتبر الموضوع؟

- لم تردّ على سؤالي.

أقول لها إنني جئت حاجبًا لما نعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلق منه الطريق... فمن هذه الأرض أو من أماكن قريبة منها انطلق أوائلنا جريًا وراء الطرائد والمطر واغراء ما وراء الأفق طوال مئات الآلاف من السنين إلى أن وصل بهم الطريق إلى القمر... في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكلت النماذج الأولى للدين والسحر والعلم لترويض القوى المرعبة المتحكمة في مصيرهم ... وفي هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد لشعر والأدب والراوي حول النار يردّد ملاحم كبار الصيادين.. في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل السياسة والقانون والتقاليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا فرانس بعضهم البعض.
كلي أذان صاغية.

- جئت لإثراء نص أكتبه منذ سنين ويتطلب أن أسأل سكان هذا المكان كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومنا المتأرجحين على الأغصان.
- خمس دقائق من الجدّ لا أكثر.

لم أكن جديًا في حياتي أكثر من هذه اللحظة. نعم كم بوذي استكشف كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراش والنورس، كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر، كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم الشامخة بعينه التي تُبِت داخلها مجهر يبصر أدقّ التفاصيل. هل كنتُ سألقتل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالًا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكركم جميعًا على "ما".

من أين لنا نخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهمن ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون ما معنى أن تكون امرأة؟

للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئًا.

نعم محكوم عليّ وعليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأمييين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمتنا، فمحرمّة إلى الأبد...
وماذا أيضًا؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جئتُ أيضًا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا بكتشافه وراء كل الأشكال التفسيرية التي يليس.

- جئتُ تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات بريّة؟

- أين تريدني أن أبحث عنه؟ في معابد تقيض بموظفين يتمعون منه دون حياء
وبشحذين يتسولونه دون كرامة.

أضاعنا الفلاسفة والمندبين والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي،
بعيد، ملتحف بالغرابة والسر ولا يمكن لعين أن تراه.. انظر للمولود الجديد وستراه...
انظر للفرح يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتح الورد وستراه... انظر لجمال الفهد،
لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

وَأَيُّ الْأَرْضِ تَخْلُو مِنْكَ حَتَّى (الحلاج)

تَعَلَّوْا يُطَلِّبُوكَ فِي السَّمَاءِ

تَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ خَيْرًا

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ مِنَ الْعَمَاءِ

تهزّ مرافقتي كفتيها. فجأة تسحب هاتفها النقال من جيبها فأرفع صوتي.

- ألم نتفق أننا سننسى وجود هذا الشيء اللعين؟

- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة. فقط
أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا
ننتظر خبرا ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي أنني حققت بنجاح المهمة التي كلفت بها عند
الولادة ومن ثمة تهاني الإدارة العامة لشؤون الكون.

- ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم.

- ستصل حتما يوم أقرّر فحواها بكثير دقة. ساكتبها بخطّ واضح مزيفا امضاء الله. ثم
ستسلمها يدي اليمنى إلى يدي اليسرى فأفتحها خافق القلب لأرقص طربا وأنا أقرأ ما فيها
من أخبار رائعة تتجاوز كل أحلامي.

- وفي الانتظار، جنّت إلى هنا لملك...؟

- جنّت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا أفهم
طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة شيئا لا
توجد للغة كلمات لوصفه.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

عشية وصولي هرع لهده الأسواق الإفريقية التي أعشق. انتهى بي التسكّع عند امرأة
في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمل محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء.
كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما
انتبهت لوجودي حثقت في باسمه ثم بادرنتي بـإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: أنتشري مني
أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون
تردد: ليكن. التقت المرأة الغربية بعض الحجيرات من حولها. اجثت بعض الأعشاب

المحترفة. مدت لي الكفن في خرقة قنرة واللؤلؤ المنضود في قمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومدنتها إليها قبيلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعياها. - لما مدت لي المرأة الغريبة حجيراتا وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلى وعلى وجهها ربع ابتسامة حنونة مرحة.. تلك اللحظة شعرت بأنه "هو" الذي بيتسم لي.

-انتبه، بدأت أغير.

آن الأوان للعودة إلى الهزل والى مواضع أقل حساسية.. أو هكذا يبدو...

- لا داعي للغيرة، هل تتزوّجيني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساءهم.

- لحذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضربن أزواجهن، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مائة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبيع سنوات. هذا أيضا كان معمولاً به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- قد لا أكون أحسن من يصاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألمع حذاه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- النقاوض على هذه القاعدة. لكنني إن اتراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدك بقائمتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والمقاتلة إن الحجارة المذبية والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفن أو لتمضية الوقت وإنما أساساً لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كثر يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مسلكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أمتاها بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، دية من كنتم تغتالون أيها النكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسن البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة

وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقير فالسرقة فالعدالة فلشرطة فلسجون...
- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة
وال ستريت ومايفات أكلة السوشي وأكلة لسباجيتي وأكلة الهامبرجر وأكلة جناح
القرش.
- يا لله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حل أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سوادهم
سنوات طويلة عند عمهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البليدة. الحرب، العمل،
السخرة، كل هذه المصائب بسببها! لا غرابة أن يكون انتقمنا منكم رهيبا.
- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -بصوتنا رثة فخر كاذب وتأثر مفتعل- تحرر المرأة. هل لاحظت أن أهم
دعاة هذا الشعر الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغلي دماغك الأثوي الصغير. تلمني أهم
التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل، من واجب الشغل-ومن
التعليم الذي يعد له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين
الجنسين". سنكتشفين أنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرر الذكر من
ثمنها الباهظ الذي فرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمَّا حُطِبْتُ أُم فِطْحَةَ وتقيحه،
كنت لا أملك شروى نقيير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدما كما كنا
نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أنتى
بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهمٌ أن الأوائل سيركضون
ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني
ضربا بجزمته.

- سلم عليه من طرفي وبلغه تضامني وتشجيعي.

- كل ما أتمناه أن يتواصل النقم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل
المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطيبيني من "م". قد تخيرك
بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أضحك بالعرض الأخير بدل جمع
ثمن النوق سدين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتصص
كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمك مع بقية العفش،
لكن انتبهي، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "م"؟ وجداتي بلقيس وعليسه والجازية الهلالية
وما أدراك.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكدا أنها سنكتشف -طال الزمان أو قصر- أنني
كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي
تودعني عند باب المطار.

ثم تستعيد جديتها.

- تُذكرني بجذتي جاثية في كنيسة قرينتا، مع فاروق واحد. أنت طول الوقت جاث أمام شموع القديس والعالم كله معبّدك. والآن كفى تهريبا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل ما تسميه اللقاء بين آدمي وأمية تلهين وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه.

نعم... ونحن نتبول في الهواء الطلق طبقا لتعليمات الدليل، أنت تُخفين حرجك وأنا أكنم ضحكي.

**

أو كيف أننا لا نرتحل في هذا العالم إلا بوسائل لم تعطى لنا وإنما نحن من خلقناها .

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم مخاوف كل المرتحلين قدر التي تصل بك ليلا مدينة نائية والدليل الذي ينتظرك أخطأ وقت الموعد.

تبتُّ في ساحة المدينة شبه المقفورة قلقتا مبهما. هذا ماؤُ ربما يدكني. أتوجه إليه بلُغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها. يُعرض عني الرجل وكأنَّ الذي خاطبه غريت خرج لثوه من القبر.

كم صنق ذلك المسافر اللبيب المسمَّى "اليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فالمرزعج ليس فقدان السيطرة على المكان وإنما تراجع المكانة.

بغرابة سحتني وجهي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصلح أفراداه باستمرار على أعلى الدرجات.

هذا أمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشبته المترنحة ما يجعلني أشك في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيَعوني نادرا ما كانوا من المخمورين.

يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب ويكل علامات التطمين والتأدب لتفادي أن أحرك دخالها أعمق غرائز البشر.

ماذا سأقول لها؟ سيدتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثة، منبوذ بالطبع والتطبيع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

سيدتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دليني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتساماة عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهدبُ أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- أه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذة هذه المرأة لصالحة.

تخلَّلت أو سمعت المرأة تتنهد هامسة لنفسها: أمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمتونك بها. أخيرا النزول في إبتدائه، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذر الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهت أن الأماكن الأدمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي و سطح خارجي، أن اهتمام الأدميين انصبّ دوما على السطّحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقرون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قُصر مزركش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بما يتكفون من أموال طائلة لملئه بأجمل الأثاث.

طيب، لكن كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتمثيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفلرغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلِك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مسكين أصحاب القصور، كل هذا التّذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين! يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ ليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، ويقطار يكاد ينتظرك تحت سلّمها، ثم بسيارة لدفعه أخيرا داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغّت متاعه ومُتعتّه! لا يبقى عليّ إلا إلقاء نظرة خاطفة على غرفة عادية فيها بزاد زاخر بكل أصناف للشكولاتة والمشروبات التي سيُدفعونني فيها ثمننا موجعا عند المغادرة.

أه، يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة. ماذا تصرخ في أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في لاصحاري، في الجبل، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنبه منذرا أنه أن أول نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث ستبديل نفس الوجود منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقنعة به سلفا. كم من حيل للتسجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما

سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتهية ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عبثاً كل السلطات ودعوت إليه كل المتمردين دون أدنى نجاح؟ لست القائل السيد من يعطي للمثل لا من يعطي الأوامر. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحي، وسكان هذه المدينة، ولم لا للعالم بأسره؟ ستفقد السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريباً في شوارع أقفرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغير جذرياً كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرت على عنادها خوفاً من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاهي وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيقه في الجري وراغنا واحداً واحداً!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين. سيبدأ الإضراب التاريخي من الغد وفي الأثناء لا بد من محاولة النوم.

على باب الغرفة والمعني بالأمر العالم كله وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح - لافتة "عدم الإزعاج"

على الطويلة حدو الفراش لافتة "ممنوع الكوابيس".

عند الاستيقاظ أول سؤال: كيف سأقضي هذا اليوم؟

لماذا لا أتسج على منوال ذلك الأرستقراطي المعادي للثورة المدعو دوماستر والذي حكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوماً في غرفته عقاباً على خطأ ما، فتوكل وجّهز نفسه لاستكشاف غرفته وتبوين رحلته فيها؟

ألم يكن الرجل على حق في سخريته من كل المغامرين الذين صدعوا رؤوسنا برحلاتهم في أبعد وأخطر مناطق العالم؟ أي فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحقبة البيت إن غألينا في التهور؟

على فكرة، ألم يكن من العنل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتب وسُكّتب في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقاً ألفاً في المائة من عدم افتضاح أمري، وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول بين قراء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبّي، وحيث أن احتمال ظهور نقد مغرض يفضحني شبه معدوم، فإبني قرّرت بكل أريحية نسبة الفكرة إلى نفسي.

ها هي إذن رواية أول رحلةٍ لأدمي لهدفٍ منها ليس استكشاف الإتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الأُميين وبقية الكائنات وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما تناسيها. تبدأ الرحلة المثيرة باستكشاف ما يوجد داخل الحمام: حنفية، دثن، ستلر، مناشف، فرشاة أسنان، مشط، صلبون جسم، صابون حلاقة، موس حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء. أوف! لا شيء مفاجئ أو غريب أو مثير للانبهال أو الحيرة. بلضبط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

يجب الآن استكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها. رائع، لا شيء مما يتراكم داخلهما يحرك داخلي مشاعر الرهبة أو الخشوع أو الانبهار أو التقرُّز أو الخوف أو الرعب.

يتوقف البصر مطوِّلاً عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقاً موقف الأرسطراطي الفرنسي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقتها به الرجل والحال أن المرء مضطر لتسلقها والنزول وراءها للنخول أو الخروج من الحمام.

اللجنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء حتى بلأراج المكتب أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوماً كاملاً!

كم من مرة سلطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطولة في ثلاثة وأربعين يوماً؟ (كسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

ثم كيف الاعتصام طيلة هذه المدة دون أن أفاجأ ذات صباح بموظفي النزول يخلعون الباب بالقوة وورائهم الطاقم الطبي المكلف بحملي لأقرب مستشفى للأمراض العقلية.

فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعقريّة التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فأنا ككل أدمي نزيه لا أسرق أبداً ما ليس لي أدنى حاجة إليه.

أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفيّاً للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل. أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسقلاً عما يمكن أن أفضله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟

فجأة أنتبه لإثاء موضوع على لرفت. يبهرني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جرياً وراءه جزييون صعّدوا إلى الجبال يُتقيون عن المادة العجيبة التي سيصنعونه منها... الشيء الذي استقرّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار... الشيء الذي حمله أشباه عبّيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبل والبحيرت والأنتهار... الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرفأئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدّين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأً في أقصى الشرق محجّرين عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حمولات قوافل أشباه العبيد... الشيء الذي رجع

به مغامرون غرقَ منهم الكثير وغرقت معه أئمن بضاعة... الشيء الذي مثل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء لمبراطورية عجوز: البورسلين.

على فكرة، كل هذا الكلام المعسول عن خروج الأدميين لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثا عن الذات والله! بصرلحة هل كان الأوانل يغادرون حضن نسانهم لولا جشعهم للشاي والقهوة والسكر واللبن والتوابل النادرة، يبحثون عنها وراء المحيطات لا يهمهم للحصول عليها استبعاد قلة وحتى العالم بأكمله. كيف فانتني إذن لحدّ الآن الدور المخفي للأشياء في رحلتنا؟ هل كنا نستكشف هذا العالم لو لم تكن من أهداف هذا الاستكشاف ناهيك عن كونها وسائله؟ هل كنا نصل القطبين والقمر وندخل عالم الفيروسات والجراثيم لولاها؟

كم غريب استخفافنا بكل ما ندين به للأشياء!

ثمة كما هو الحل دوما استثناءات للقاعدة.

انظر شبه التقديس الذي يوليه بشر بعض البلدان للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعداده وشربه. هم يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

ثمة أيضا ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهية قتل من يمد يدا إليها؟ لا يجب أن ننسى حبّ الإثاث للأشياء التي تتدلى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تلبس ولا تُصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاق سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أقفوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

بديهي أن الأشياء مكوّن أسلسي من مكونات العالم منغني تبلّد مزمن من الانتباه لنوره في الرحلة. يتبابني جذل غريب وقد أتضح لي أن الأيام الثلاث المقررة للإضراب التاريخي ستكون فرصة لتدارك نقص فلاح في تقريرتي هذا. أضف ما سيكتشف تفحصها من معطيات هامة عن الأدميين الذين يصعب تصور رحلتهم وحتى وجودهم بدونها.

*

في البداية يجب التأكّد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الوجهة لصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ نقول: لكن الشيء لا يغلّق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تَخَلَّصَ سهلاً فهذا الذي أقصد صُنِعَ وطُوِّرَ وحُسِّنَ على مرَّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والتكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سري للغاية"، كل هذا خوفاً من قلة أدب وفضول الأدميين ناهيك عن غريزة السرقة المتأصلة فيهم جميعاً.

لوظيفة الأساسية لشبك هذا بما لا يدع مجالاً للشك إذن هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرُّفَع الموقت للإغلاق- فيمن المهام الثانوية، ومن ثمَّ دعوتني إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيوسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئاً من هذا القبيل.

كم كنت الرحلة تُسهِّل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وأخُرُ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

يمكنني المرور الآن لتفحص منظم لكل ما تتعلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنرجى لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها.

يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المفتوحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميص، وشاح، دفتر، ديوان المتنبي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خُفْن، باقة ياسمين، علبه تمر من الذقة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتغلغل لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلبه إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أياً من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف لشيء؟ أه ثمة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة في جيوب البدلة.

المال!

لا شيء يلعب دوراً أخطر من هذا الشيء في رحلة الأدميين. إن حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكرّمهم، هو الذي يذلّمهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو الذي يعزّي كل قبحهم، هو الذي يعطي كل عيوبهم... وهو على الدوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقربانيه.

أرمي بقرف غير مفتعل قطع النقد على السرير. أه السرير!

بصرحة من ممّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثاً فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في هذا الشيء والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت. مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود إلى خدماته.

تحضرني هنا قضية شائكة: قيمة الأشياء.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟

مثلا كيف نقّر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويقتل البشر فرادا وشعوبا لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النيلية مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شراههم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يفف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفا بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه فلاة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع الحذاء حدا له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقها، بل وحتى قبل الهاتف النقل، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان يوسعنا تحمّل الطريق لولا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلتصق بالمشكين. كم تُظهر للأشياء من عقوق أقطع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.

تداهمني صور عشرات الأحذية التي أبليتُها على الطريق وتخلصتُ منها رميا في الزباله لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحترق الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أو اصل حقيبا"

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.

ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأنني راهب مسيحي يصفل الصليب قبل القداس. يا له من منظر مهيب والأدبي المعترف بالجميل أخيرا ينظف الحذاء ويلمعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لاپيه. المشكلة أنني سأكون يمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قلمي داخله رقفا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح. لكن كيف سأواصل الطريق حافيا بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ ويقع النفط على الشواطئ؟ نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء العظيم.

أنكر أنني قدت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطة في الفهم وفي المشي على طريق الحل، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنتين و عقود. صتق أو لا تصتق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقيق الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من الفماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقش حتى الصنف الجيد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المدة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا. على السرير أيضا البيجلما وقميصن وجوارب وبلتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء التي نسميها الثياب.

من يقدر قيمة هذه الأشياء التي نلبس إذا استئتنا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جد بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جيبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المرعب للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حل انتهاء المعركة إلى الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المعانم. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الأميمين خاصة الإناث من ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهن يُظهرن لها من الامتنان أكثر مما نظهر نحن الذكور.

فالثياب دوما مجرد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمودية أو لإبعاد الشبهة، أو للتميز، أو لأداء مهمة فترة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطواها بعناية ووضعها على رف نظيف بعيدا عن أنياب الفران.

ثمة أولاد يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوة هرتا مولر التي تستأهل جوائزها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحب مقعًا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فاتكة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنائك. عند الصداغ نضعه على الجبين ميللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربت الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلًا فإنه يلفت منديله حول يده. تحرك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفت منديل حول ذقه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف ستجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني من خُرّ صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصيبت برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يدي لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتى منديلا.

يقطع علي تفحصي الدقيق لكل ما هو مبعثر فوق السرير رنين مطول لشيء غير عابئ - على ما يبدو جازدرائي له. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرنني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بلسراح الشّرطي وبالغفو الإلهي الشامل ويتعلق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عاثت منهم كثيرا، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دقعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنتقصه المنغصات.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلته، تمادى في المعاصي. فغوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أتى إلا أن يصغره إلى حجم غلبة سجاثر، مما شجّع كل أدمي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع.

أغرب ما في الأمر حُبّ أغلب الأدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يبرنّ داخل جيب الجلسة أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلتي

من ثقافة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقالهم معهم مواصلةً لعادةٍ مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صغير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوتات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجُمَل أغانٍ هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سلّوصي تفلحة وتفيحه تحسباً لكل الاحتمالات بحشو أذني بكل الممكن من القطن والسمع قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتٌ كم أزعجني في الحياة.

تقول يا رجل كفت عن القذح في شيء سهّل على البشر التواصل بكيفية لم يسبق لها مثيل في الماضي وتلّل أمامهم كم من صعوبات.

نعم... نعم... أعرف كل هذا، ولكن...!

في بعض أقدم مقفات الذاكرة تتقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطبيين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت نمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".

في ملف آخر تهزني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

لم تتغير العلاقة العدوانية بيني وبين هذا الشيء رغم مرور السنين والعقود. يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحاً. تصرخ الممرضة في الساعات: الرجل يفرغ من دمه. عجل. لا أعود لمحاولة النوم ساعة على الأقل حتى يعود الرنين والممرضة تصرخ: عجل مريض آخر بصدد لفظ أنفاسه.

لو كان تنكيل هذا الشيء بي يتوقف عند أبواب المستشفى!

أرفع السماعة ليفاجذني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافياً شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد الميطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمتاً بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخط. تمرّ الفلّاق كلساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

إنه دوماً نفس الشيء السمج الحامل لنفس الأخبار السيئة أياً كان موقعك الاجتماعي والدور الذي تلعب.

يخاطبني المساعد الوفي بكل أدب سيدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاينة أناس لا شرف لهم.

أغلق الشيء وأهزّ كتفيّ: معاقبته؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحدق لا يمر إلا الحقدّ والحسد لا يُذل إلا الحسود؟
يرنّ الشيء مصرا على نفس النهج في تنغيص حياتي: أسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قوائنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.
كيف تستغرب أنني لا اسمع رنين هذا الشيء إلا وتنقبض عضلات الحلق وتتسرع دقات القلب!

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكرهه وأنداك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صلمت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدّق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ وعليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأبّ وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيتي الجميع. لم لا؟ سيمكّني تتسم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشكلتي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب".

الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. أه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف الأخرين!
كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟
للساعة!

ساعتي موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "اللمبية" أسلطها عليها كما تعلمت من المحققين في الأقبية المخيفة. يجب أن يكون الاستجواب مهنيا وصارما. أي زمن تقيسبن أيّتها الساعة الغيبة؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف أم الزمن المستتفع لأيام العزلة الانفرادية في الزنزانة القذرة؟
ماذا الآن عن تعديك على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوان وهو سيل متدفق؟ من أين لك ادعاء تمثيله والحال أنه لا أدمي توقّف هرمه وهو يكسر ساعته. بعد الاستجواب لائحة الاتهام علما وأن الحكم جاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة - شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمن حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نية لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبيّن من عدم توقّف الزمان عندما تتعطلّ أنها تكذب في ادعائها تمثيله ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلًا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنزات

على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبلينا وطفولتنا، وإنما لا تنفك عن دفع الزمان فُدما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفاء. وحيث أن زمانها الذي تدعى قياسه زمن ريك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهر جليد جامد منغلق على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمنع في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...

يرن الشيء المسمى "هاتفًا" الغرفة معذنا فرصة فشلي في اكتشاف خطبه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرن إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يعتقم لسان الدفاع عن الساعة الفرصة: نرجو من الجنب تسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الأميمين وأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير مما هو عليه، ولولاها لما تنبّه الأسمى لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثم نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأنا سنقيم عليه دعوى المطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سحنت له الفرصة.

قيل رمي الساعة في أبعد مكان أضعها على أذني كأي أريد اسمع صوت الزمان.

تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك....

ليس في هذا الصوت إلا خير مؤكد. ثانية بعد ثانية تتواري البداية، تقترب النهاية.

ما أقصر هذا الليل (شيكوي)

تُرى كم بقي

لي من ليالٍ؟

حقًا يا شيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعصّ أصابعك ندما لو فلجأك جيّ خبيث بالردّ.

أن أو أن التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدعى عليها، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حكّنا على الشيء المائل أماننا بالجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُحجّن؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لُحِطت تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-2-4-5-7-8-9-11-10-. تأمل دمولها وتوقها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الورا،

والزمن لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حواث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقاً تمنى نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحثج بينهك بنفاد صبر أنه ليس مسؤولاً لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعلت.

أين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبت به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي ساكنت به لتقاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

لكن أين النظرات لأعيد قراءة ما كتبت؟

أه النظرات! كم من مرة أسرت الأم في أذن الطفل المتهور، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء نموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفت عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع لخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئاً بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فولاها لعبرث عالماً ضلبله خارجياً أكثف من ضلبله داخلياً.

كم كنت أفضل أن أرتحل وفي حقبة السفر نظارت تنقق في ملامح روح وفكر كل ذات ترافقتني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمن كما تتحكم الحفنية في سيلان الماء، قلم يقرأ أفكاره ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَي تكون لي جلداً ثانياً، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل الطلوب، حذاء يمكثني من القفز فوق الجبال البحار، وخاصة هاتف لا يرن وإن رن فلخبر سعيد.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن سانحاً.

أه الكتاب الموضوع على طاولة النوم. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنزلة، المرشد، المرئي، الدليل الصديق، السمير والمنبه الأكبر!

تصوّر حرج وضعيتي لو خُيرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فردتي حذاء سميك وبين كتب طاوتني كنج أجمل هدايا "ح"!!

بناهة وجود الأشياء مرتبط بوظائف حيوية تُلبّي حاجيات طبيعية ماسة ما للآدميين، بل قل هي حاجياتنا هذه بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصور، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط... لولاها لما ذهبنا بعيداً. فالألمي، خلافاً للذب بفروه، للبلغ بجوافره، للنمر بأنثابه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه... هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها... مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟

يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل الأشياء التي تحلّل الإفلات من الرصد.

أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئاً يضعه على مرمى حجر في الصدارة، في الواجهة.

لا بد أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. طبعاً إنه جهاز التبريد. هو لم يكتفِ بضجيجهِ المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه الآن على رأس القائمة.

ثمة أيضاً هذا التلفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل. لو كان هذا الشيء حقا ابن حلال وصديق الناس الطيبين أمثالي وعريفا بأقدار الرجال، لما بخل عليّ هذه الليلة بما تشترك اليه روجي: الأخبار الطيبة عن عالم شفي من تتابع نوبات الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتحهُ لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة. ماذا؟ العرض الآن عن حرب طروادة ضدّ الاغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور وأثيل. فيلم هوليوودي آخر عن البائدة هومير.

هوميرا، ما الذي تفصك حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا وسهول بريطانيا ومن الأميركتين معابد زوس بدلا من كنائس المسيح؟ ... ما الذي جعل اسطورة مريم وعيسى تغلب اسطورة أهنون وافيجيني؟ ... لمانا هيكلت قلوب وعقول أمم عديدة مأساة الأم والابن لا مأساة لبننت والأب؟ ... آه يا نبي بلا بخت، لو كان لك مدير أعمال من طينة القديس بولس، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء أو التلميح به للمنتهين من بني آدم؟ أن العالم شاشة ونحن صور تندافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما بلسنغراب، أو استهجن أو يبلس متعاطم؟ حقا هل توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء المساحب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

حان دور الالتفات للأشياء المخفية في صغرها البالغ؟

ثمة عليّة الكريت... المشيكات لمنع الأوراق من التناثر... هذا المسمار المسمى "بقعة"؟ يا لي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. كنت سلمت دون الانتباه للغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة لية بأنه "منثور". الغرفة زخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل فراغا بحجم الكون نفسه.

أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقَدَّرًا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. أتصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعيها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لأدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبحر في سحب خفيف! كم سيطلب كس هذه الوساحة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب!

بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلدات تبحث في المشكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطَلَق كلِّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبْنًا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حل انتهائي من تدوين الرحلة، فناعتي أنه

لا موضوع أهم، ويوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصي الجديد: إننا للغير وأنا إليه راجعون.

أه بدأ النعاس يغلبني. أن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة. فنجان القهوة! كأني أراه لأول مرة وهو الذي صاحبني طيلة حياتي.

الشيء الذي بين يدي الآن كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا ونوقا. هو يحدث صوتا إذا ضربت جداره بالملعقة ومنه تتصاعد رائحة شبيهة للسائل الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كل علي للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكلف مشقة جمع كل هذه القطع؟

“على حفتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بالي

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوان مهشمة

تنتظر البعث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأدمي وبقيّة الكائنات مسرّب بالغموض، مخلوق كما يجهبها كل خالق لا تعصي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا بقي؟ كيف نسيت حاسوبني وهو أول ما أخرجت ما حقيبي؟ ربما تناسبته من فرط الغيظ فمذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع القطعة تلو الأخرى على شائته فسقط بسرعة لا تصدر أي صوت.

كل مرة أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمّي نفسه باستعادة كل ما خسر في الجولة الماضية. عبثا، والرسالة دوما نفس الرسالة: كثر مات.

أعود للصراع بلا أمل كبير. مرة أخرى يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كثر مات. خيلت من المهانة وشهوة الانتقام.

لجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا قصاب بالجنون مما سيضطرني إلى رميك في سلة المهملات.

كشّ مات.

- يا برنلمج، يكفي أن تقول لي من أي جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوبا في هذا القمص. إن ألححت، سلگون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلکم في كمبيوتر نقل أرقى لفسحة نهاية أسبوع.

- كشّ مت.

- وماذا لو زجّك تفیحه. أترضی لصهرک بتواصل مسلسل الإهاتات هذا؟

- كشّ مت.

الرابعة صباحا! أرهقت الحاسوب المسكين ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب... عفوا يا ابن الأمي.

هذا الشيء المكون من معادن بخسة أذكى مني أنا ابن أبنفاس!

المشكلة أنني لست الوحيد الذي تهذ مثل هذه الأشياء لصورة التي يحملها عن نفسه.

ها قد بدأت تتزاحم حولنا وداخل بيوتنا أصناف متفارقة التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكير أسرع وأصفي من الادميين، ولم لا على مشاعر أرقى وأفعال أذكى؟

ادرس تاريخ البشر في علاقتهم بالأشياء وسترى أنه يتحرك الآخر وفق ثلاثة مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثرها تعقيدا، تزايد قدراتها هي ومنها القدرة على الانتصار علينا في الشطرنج، وتزايد تبعيتها لها التي قد تصل بنا يوما لحالة نصبح فيه عبيد عبيدنا. تصوّر أن جنيا ألقى بتعوينة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عاريا بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية لختقت من فكك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدراجات والعبارات والهرارات والمكينك والحفارات والسماعات والحفظات وكم من أشياء أخرى كنت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كنفك مستخفا بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن أخشى ما يخشاه علماء الطقس والفك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتتمر شبكة الكهرباء على كامل الأرض. حدث هنا أكثر من مرة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتنفة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الأشياء كالحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها. ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل

للتصرف في تقرير المصير. أنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهدف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للاقلاب الأكبر الذي سيحيل مدن العالم إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيها الكائنات الجديدة في قوافل السواح وبعثات الأبحاث العلمية.

نوم مضطرب تتزاحم داخل أحلامه كائنات من معادن وأسلاك تصرخ في أوامرا غير مفهومة.

عند الصباح يُدق باب الغرفة بلطف لكن بالبحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لازلت لم أخرج تملما من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول ميتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في" اللوبي" كثير من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضل بسرعة.

وكانه تم الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، يرن الشيء في جيبى. إنها "ح" تريد التأكد أنني ما كنت سأسمى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا.

كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك أينما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرههم وبحبهم!

داخل قاعة المؤتمر يظنوني أدون بكل اهتمام كلماتهم التاريخية والحال أنني منهمك في رمي أفكار مشوشة بخصوص هذا المكون الأساسي للعالم الألمي الذي نسميه الأشياء.

تساءلنا ماذا نمثل بالنسبة للحيوانات والأشجار؟

قريبا سيتساءل الأبناء والأحفاد ماذا يمثلون بالنسبة لكائنات مثل السيبورغ ومختلف أجناس الروبوتات الذكية الحساسة الواعية التي تحركها أكبر فتوحات النكاء الاصطناعي؟

أنتكون في سلسلة الأجناس الحية حلقة تقادمت ولم يعد لها من مهمة غير فتح الطريق لكائنات أكثر تطورا ستأتي بعدنا لخلق عوالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلقنا!

كم مؤسف أن " طوماي" لم يأخذ الوقت لكتابة مذكراته لنعرف من مصدر موثوق به من كانوا أولنا.

إنه تقصير لا يجب أن يتكرر ومن ثمّ شهادتي هذه عن الأدميين احتراماً لحق الكائنات العجيبة التي سترث عنا الأرض في معرفة أوائلها واليهتها.

الكتاب الرابع بنو سفر

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلدهم أمهاتهم
فالحياة ترغمهم أن ينجبوا أنفسهم باستمرار

غابرييل غارسيا ماركيز

مقدمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحلرة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من ياكل على طاولة الرين، من ياكل من القمامة ومن يكون المأكول.

من الطبيعي أن تكون لخر المشاغل هؤلاء الركاب في مثل هذه الظروف التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو استكشاف العجائب التي تتحرك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب منهم للحفاظ على حياتهم أنق معرفة بمن هم الركاب الأخرين والهاجس تقادي شرهم وإن أمكن حسن استغلالهم.

تصوّر وضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته فجأة من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار بخارة سفن "سانتا ماريا" و"بنتا" و"بينيا" المشكلة أن استكشاف رفاق رحلة الحياة، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط ليس أمرا هيناً.

هناك آراء من تنتق في حكمتهم وخبرتهم ككبار الفلاسفة والأدباء والفتاين من كل العصور للأسف تكتشف يوماً أنها أغلب الوقت غلاف مزاجهم يُخفون وراء ما يسوقون تشاؤمهم أو تفاؤلهم وذلك من منطلق أزماتهم الشخصية مع من جرّبوا من بشر. التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم العدد أي استحالة أن تعرفهم واحداً واحداً.

أهم عنصر يمنع المعرفة المعمقة قصر زمن الملاحظة وموقعها.

كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدة بني سفر من انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم.

إنه موقع لا يحثه إلا من تسميه اللغة للرب. لست متأكداً أنه حتى هو يصير على متابعتنا واحداً واحداً والتدخل في مشاكها التافهة كما تدعي بعض الأساطير.

ثمة أيضاً استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقط والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كل ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في الثلب والتعدي على الأعراض.

يبقى أن أكبر الصعوبات هي المتعلقة بالملاحظ نفسه نتيجة استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راي يُنتظر منه أن يقدم المعلومات لا الأحكام.

أي كلام "موضوعي" يمكن أن أقوله عن الأميمين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟

بريک ألا يسمون حياتك إننا بالدعاء عليك أنك تغلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشا،
أنت تستعمل فرشاة أسناتهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان
المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ؟!
ألا يسمون حياتك وهم رضع لا يحلو لهم الاستيقظ إلا آخر هزيع من الليل مع
المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات؟!
ألا يسمون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنفيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التقفية
التي لا تنتهي؟!
ألا يسمون حياتك وهم مراهقون يكلفونك مصاريف تقصم الظهر أجرة أطباء الأمراض
الجلدية والنفسية؟!
ألا يسمون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالجملة يدعون أنهم من قاموا
بالثورة، يريدون كل شيء في التو واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكشف
كم هم سدج مغرورون جهلة؟!
ألا يسمون حياتك وهم كهول ينفسونك في كبرى المناصب والحل أنك أنت وأمك أعلم
الناس بأنك بالأجدر؟!
ألا يسمون حياتك وهم شيوخ يرتعون ويهدون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما
ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لقرار السنين؟!
ألا يسمون حياتك حتى لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطر للوقوف في الحز
وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأميمين وهم يتبرلون في افتعال الخشوع والحزن
يستمعون لتأبين مضحك عن خصال القيد الكثيرة التي لم تكشف إلا وهو على وشك
الانزال إلى الحفرة؟!
وكانه لا يكي أنهم أهدوا عليك يومك يجب أن تدلو ببلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي
وأنت تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.
بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات
سخيفة وتواريخ مزيفة وخرافات مقدسة يودي التعرض لها للوقوف في أحسن الأحوال
في طلور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محكم التقيتش ليأمر
بحرقك حيا بعد ما تيسر من التعذيب.
تقول مستكرا إنه موقف غير لائق بئسل يدعي الاعتدال الموضوعية في كل ما يفعل
ويقول؟
بريک هل أنا من قال فيهم؟
" فيا رب إني الناس لا ينصفونني فكيف وإن أنصفتهم ظلموني (أبو العتاهية)
وإن كلن لي شيء تصنوا لأخذه وإن جئت أبغي شئهم منعوني
إن نالهم رفي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شئهموني
وإن وجوا عندي رخاء تقرّبوا وإن نزلت بي شدة خذلوني

وان طرقتني نكية فكهروا بها

وان صحبتني نعمة حسدوني

سأمنع قلبي أن يحزن إليهم

وأحجب عنهم ناظري وجفوني

قد تصرخ في: يا نكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من علموك كل ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "م" و"خ" و"تفاحة" و"تفاحة" من هؤلاء البشر الذين تقول إنهم سمووا حياة سيادتك؟ طبعاً، طبعاً يا هذا، معك نصف حق، لكن اعلم أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت إليهم بعين السخط أو بعين الرضى النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروّجي إمكانية الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجردة فصيل آخر من مسمي الحياة. محكوم عليك أن تنتظر للآدمي، مثلما تنتظر لباقي مظهرات الموجود من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها تتأمل ذوات أخرى أكثر منها ضياعاً والزمن محسوب بتقدير شديد للذات التي تشاهد ولذلك التي تشاهد.

شئت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وصف للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم. هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسماً لصورتك في مراتهم ولصورتهم في مراتك، ولا علم أخز بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل. آخر عامل خطير يفاقم صعوبة فهمهم: التبادل الذي يأتينا يوماً من طول حبههم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمات وعودة الانتباه للتفاعل معهم بكل جوارحك ثم الإسراع لشهدتك لتقطر الحروف حبا وكرها.

المطلوب إذن من أي شهادة ذات قيمة الصدق لا الموضوعية.

على اعتبار قدرة الترامى طول الوقت بفضيلة لصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروتة.

**

أو كيف أنك تعبر العلم مجهولاً بين جحافل من المجهولين

داخل عربة مترو شبه فارغة ثلاثة مراهقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحنت رفاقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر الجالس وحده هناك!

لا مجال للإفلات من خصومات الأعميين، كل ما يتغير المكان والظروف والرهانات ومستوى الخطورة في التعامل معها. أهرز الكتفين مفضلاً الخروج في أول محطة. واقف على السجاد الآلي المتحرك في اتجاه الخروج والانتباه على أقصاه. ثمة من قال بخصوص الأعميين: نحبّ منهم واحداً أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

أقول للتصحيح نحب منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند المتبذرين إلا اللامبالاة فهي تثير في منذ الصغر فضولاً عارماً.

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه المتداخلة محمولة بالسجاد الآلي الأخر المتسارع في اتجاهي.

تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي مباشرة عوّضتها أخرى كم هي مُشابهة ومختلفة. كلها كما نحتها جيا كومتى في تمثال الرجل الماشي لها نفس الملامح المتجمّمة الأَبصار الشالخصة نحو الفراغ والكُلّ منغلِق على ذاته في صمت ثقيل.

حذار من لمسهم خاصة في مواضع حساسة إن كنت لست على أوثق صلة بهم فقد تقابلاً بصفحة جدّ محرّجة. طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لما تنغلق اليد على اليد للتأكد من أنها خالية من السلاح.

تبقى حاسة اللمس فقيرة بالمعطيات التي تحتلجها لتفادي خطرهم أو للنفذ لما يعتدل داخل نواتهم. يمكنك أن تقضي ليلة كاملة تتلمس جلد الحبيبة وشعرها. لن تعرف ما تضمّر أكثر مما يعرفه عنك الطيّاب في الحمام أو المذلك في المستشفى وهو يفرك جلدك وعضلاتك.

على العكس من هذا يمكن القول إن الذوق إمكانيات أو سع أو هكذا اقترض البعض بما أن أقدم أدوات استكشاف العالم الفم واللسان والأسنان .

في حال اقتناعك بالفكرة كأقصر طريق للمعرفة، من أين لك المادة الأولية وهي لا تَباع إلا سرّاً أو أوقات المجاعات فقط؟

ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: “أرغب في أكل أمي، فهل من راعب في أن يؤكل؟. فجاءه متطوّع مدّ عنقه للذبح ليشرح “الباحث” من البحث.

أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادرٌ على تعقُّك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير أُمِّي من بلد اسمه أوكرانيا، قُتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحل أنه كان مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تُحدان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الأُميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض يشعّ باسمه مرض الكورو، لا نتمناه حتى لألذّ الأصفاء.

لكل هذه المحاذير الصحية والقانونية ننصح بشرك جانبنا فكرة أكل البشر للتعلم في دراستهم ربما إلى أزمان أخرى قد تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ما الحلّ إذن والحواس الخمس لا تنفع لسير أغوارهم أكثر مما ينفع لفهم كتاب تلمّله ولمسه وشمّه ومضغ غلافه وأوراقه؟

نعم ، كلهم كُنُتْ مُحَكِّمَةُ الإغلاق لا تُرى منها إلا العنوان... أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه... أغلبهم منغلَقون على أسرار بلّسة، متخبِطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عاشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطّمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها بلستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبه على ممشى الألام ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا. لا تسمع والسجاد المتحرك يواصل تقدمه إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم للضحيج أت من الإنث بكعبين العالي، كُنْ بهنْ إصرارا على مواصلة بنّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى مشوقة القامة واهّة جوارى كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادة. أخرى تفتعل للامبالاة. قرة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات ما فاتها. وهذه نظرة مطوّلة للصياد يزن بفكره كم في الطريقة من طرّج اللحم. ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيرا، لا تتوقّف حتى على الوجه المثير. بريق غير عمياء تبعث فيّ قشعريرة، يُلْس موجع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمتا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

هذا عالم أعلى قيّمه الجمال. محكوم عليك أن تُعبّره رانبا مرنيا، والكل يقيم مدى قريبك وبعدك منه. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ . ما أروع أن تحقّق فيك عيون الجاهل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلكة الظلام. ترى ما الجمال؟ مسألة هندسية بحثة مرتبطة بدقة رسم ملامح وجه أم إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخته؟

هذه نظرة خلّتها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزَلت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الأدميّ جذيرٌ بالاهتمام.

كم مخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إليّ، أو اهتم بي أو لاحظكم أنا مُرهُقٌ مهموم.

"كم تسكّعت شرقاً وغرباً! (أغنية صينية)

كدم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتذكّره

تعبت حقاً نبي

ظلّي وحده الرفيق!"

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفئق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشارات الصلّمتة وحدها الدليل.

أي كايوس لو انطفأت كل الأضواء نهائياً واضطرتّ هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام!

لا أحد من هؤلاء الأدميين يقف مسلماً ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالأقبل والدموع. أه أخيراً بيتسم لي لأحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعتف . يختفي بالسرعة التي برز بها. إنه تائه مثلي يقول لسان حاله : تشجّع ثمة مخرج لنا جميعاً من كل هذه الأفئق!

فجأة يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حلجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، ويدي اليمنى تمسك بيد اللص ويدي اليسرى تسرع لخنقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيداً سهلاً، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللجنة! من قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تمّص منّي لفجان قهوة ليجدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالم كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتناول القهوة لتمدّني هي بتصريح مطوّل عن حالة رحلتها، عليّ أزيح بعض الغرابة عن الأدميين بصفة عملة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشاراً، هذا الذي اسميه الذي منه كل وحشة . لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدفّعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدفة والأقدار.

**

أخطر ما تلاقي من كانتات على طول الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من العربة. انفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:

- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أي محكمة تنصفنا منك؟
تبهت ربع ابتساماة الأم. تقطّب جبينها. تتردد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب، ثم تقرّر الثبات.
- قل لي كيف كلن علي أن أفعل؟

- تسأليني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الادميين.
أثب أمامها لأمثل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، ويدها الأخرى تمسح دمعته.

- اسمعي وانظري كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. ها هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخسفة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حادا أمرا نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلل لأحد.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليويد. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للآلم مستعدون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفّزون، إننا منهم لمنتقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكتمة للصوت. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الخصوم والمنافسين والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيتها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.

- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفئن في أول أدمي يعترضني غيظي ضربا بالحداء ولم لا برصاصة في صدغ بعض الأوباش.

- كم أخففتي ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدس. يا إلهي، لا أصدق إلى اليوم أنك كنت تريد حقاً الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبت من خلك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقاً تحت إحدى شجرات توت البستان.

- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقومة الباسلة؟

يلمع في عيني "ما" مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، بخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكنزاته سخريّة خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتذكر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟
لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّست، وإلا كان طريقه أخذ اتجاها جَدَ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقْتُل زميلا ويجرح المعلم الذي حاول التخلّل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القتلون".
لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول مكانا بظورة المدرسة وهي من أخطر الأماكن على كل قادم جديد؟

ابحثْ دوما -وراء الهدف المعلن- عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها البشر، ومنها مدرستهم العزيزة التي يحملون بأنها ستنتج لهم أجيالا أحسن من التي ما زالت عائشة للأسف.

سنتكتشف أنّ أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والصلب.
أين تُعلّمنا لأول مرة الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلم الرتب والمسؤوليات والتدريب على أبجديات القتال، وكلّ صغير يستبذ بأصغر منه؟

وسط ساحة المدرسة تبدأ التمارين الأولى استعدادا للحرب الأزلية يُترك للأطفال أنفسهم مهمة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري -والحمد لله دون سلاح سوى القيضتين- وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.

يواجه الطفلُ خصمه منتبها لأول مرة أنه فارغ الطول مقتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار بسرعة المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوع، ممنوع، ممنوع.
تضعب ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجه البغيض. ثم يندلع الألم فظيما ما بين الفخذين يندب بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربت قبضتين كأنهما صنعتا من حديد ورخام. يستنجد الطفل بكل ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى، ثم ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوَى مجهولة.

هكذا يتعلّم كل طفل بمثل هذه التجربة كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، واقتبضة الموجعة للخصم هي التي تدرسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانيات المتعة

- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح يمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يصيف يوما من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أعملت في أولاد الكلب قبضتي. صمدوا بعض الوقت، ثم فزوا يستجدون بالمعلم. كنتُ كسيدنا علي في هجومه على الكفار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غدا لأمر مهمك. تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفستر لها أنه وفي بوعده، أنه ذهب طالبا للسلام، أنهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.

- أرجوك، اسمعيني. يدعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لذلك أنا أولهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلني عليهم!

تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.

سبحان من جعل أطفال الادميين ملائكة أطهارا يفقدون براعتهم بتقدمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية ونرجسية من الادمي وهو طفل. برّك، ألم يأت الوقت ليتحمل أخيرا أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطرهم الرضّع؟

لا أحمل أيّ واحد منهم -وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبله مفتعلا الإعجاب بجماله ونباهته الميكرة- إلا على مريض. هلعي الكبير أن يتّوّل عليّ اللعين أو أن يغتتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

ثمّة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضّع على وجه الخصوص.

بالله عليك، هل وُلد هولوكو، أو تيمورلنك، أو هتلر، أو ستالين، أو بشار الأسد بشوارب وحذاء بمهمازين؟ ألم يكن نيرون -ولا أتحدث عن كاليجولا- هو الآخر ملاكا كانت تدوب للظوب لرؤيته واستبشّر بقدمه أبّ وأمّ وجدة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعدّ ملاكهم هذا من فظاغت ما زال التاريخ يتنكرها مرتجفا من الهول؟

لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش مورّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية لتدفق الرضّع مع بالغ الأسف.

أليس جلّ ما نعانیه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا؟

أليس كلّ طاغية طفلا رفضن أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريد ما أمه؟

نكّر كلنا في العمر بتعقب السنين، لكنّ عذاب الصبح يتوقّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فنيقّي نعاتي طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر.

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كلنا لم نأت هذا العالم إلا للصرع مع ذاتنا ومع الذوات الأخرى.

يشنّد صراخ "يا" وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضن الطرف يا ابن الكلب. غضن الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي. لقد كسرت شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك يا كلب-وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب "سيّد"؟

تشنّد سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تنهاتل عليها الضربات.

- رحماك، رحماك، سنقتله.

- سأقتله وأنت معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

يوصل المراهق الراضخ الخضوع لمتسلط -أبا، حاكما، أو إلهاء التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بالأم السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب يبتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:

أراك عصي النعم شيمتك الصبر أما للعصا نهبي عليك ولا أمر.

يجن جنون "يا".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سلكس شوكتك مهما تنطعت يا متمرد.

يخطر للمراهق أنه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحب؟ إنه فصل من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة -وإن بأشكال مختلفة- إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟
يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهاً ماسحاً عرقه متوجهاً إلى مُناصر مجهول:

- قتلني بتحدّيه الدائم، قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرفق على الأريكة منتظراً أن تأتيه "م" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه ذوماً على حقّ وأنه أكبر من أن يعبأ بشطحات مرأهق.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدي؛ فلذات لا تتشكل إلا باعتراف تفنّكه من أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للقسمة من فم السبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم اجعلني يوماً من بُناة الذوات لا من منقرئها.

وفي آخر ملفت عن صراع الإرادتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفث له جفن، نافخاً ببطنه مدروس في غليونه الجديد، وحركته تتضح بما مفاده أنه سيّد نفسه، أنه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراع بنفس الحدة وكان الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمني؟ خسنت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

يتسّمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجوع فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجدّد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمائع شرطي محليّ ورت عن الغازي الأجنبي نقاط التقنيش، لرجل محبّب هزّمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تصويبها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبّه طفلي؟

تبقي العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى غمده سيفاً لم يعد له نفع. ثمّ يحدّق في ابن لم يتعظّن أنه أصبح شاباً وفي عينيّه شيء من البغض وشيء من الحبّ، شيء من التقهّم وشيء من الإنكار، شيء من الاستنزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكأبة ثمّ تجدّد المرح.

ينفجر "ب" ضاحكاً: لله درك إنك رجل. والأب أخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعاشيش أسدان في قفص واحد.

المشكلة الكبرى أن هنا الذي ستخرج اليه والذي يسمونه المجتمع ليس إلا أكبر ققص تتصارع داخله سباع شرسة مشدودة لبعضها البعض بسلسلة غير منظورة من الكره والاكراهات.

تغلق المدينة أبوابها في وجهي مجدداً كأنني لم أسكنها يوماً ولم يكن لي فيها صاحب. يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ لئ غباراً شوه لمعان حدائه. يقتعل من كنتُ ولي نعمته وهو يمرّ أملمي أنه لم يزنني وأنا أول من رأى مصدوما ومتضايقا. إيه والله هكذا هم البشر. صدق من قال إن كنت تبحث عن الوفاء استثمر في الكلاب.

ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشيا في الطريق تصرخ في ظهري سافلة: أيها السفلى، ألا تخجل في عرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني من تجمعت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا نهاية له والأوباش ورائي ورّعوا الاستقزاز في نظلم محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أكن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقياً منه رذاذاً من البصق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أُمي. يفتح الملة أفواههم دهشة ثم يُطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تقتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: ققص القردة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفيتين مغلقتين بأشمنزاز. تتدافع الأيدي بحثاً عن نصيبها من جسد استحلّ حرمة إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال-حصارخا: من تحارب، يا عميل، سيديك وسيد الخائن والدك. كيف أحمي نفسي من عاصفة حقد داهمتني على غير انتظار؟

الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممن؟ أجيل البصر حولي باحثاً عن هبة من "الشعب" الذي ندعي كُننا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه. يطأطي المارة رؤوسهم ويسرعون الخطى.

فجأة أنفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصور الحادثة لسيرة ممتعة سيضحك فيها عليّ العجار ويتشمتون.

(البياتي)

من أين يأتي النور؟

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطيور

بيبعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملفت أحرّ ونفسُ الغوغاء المأجورة تهاجم سيرة تحملني مع بعض الأحرار أصرّخ
في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جئنا من
أجله أننا لن نخذله أبداً.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة
بإرهاب ذلّة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصابة: يا نبيل كفى.

فجأة تكفّ الرياح عن الصغير وتقرق الأمواج لحظة الغرق. أه، لم تكن هناك أوامر
بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

نبيل؟ النبيل في مثل هذا الكائن كرائحة لياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة
الطريق منذ أيام.

لم يبق لي من مكان يحميني على الأقل من شرّ الغوغاء المنفوعة الأجر غير بيت فرغ
ومطوق بأعوان البوليس السري.

الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الألمي أنه دوماً في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما
يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أقلت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه.

ذات يوم تمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني لخرى بغلظة نحو سيرة رابضة
تنتظر حمولة اليوم. أخيراً أمسكتني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلاً. كم أظهروا من
طول النفس طوال هذه السنين والعهود. نفسٌ لا يضاهيه إلا طول نفسي في مواصلة
الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميتي وهل ما زال في هذا العالم العابس
المقطّب الجبين من حام؟

يأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيبت.

كل الفضاء الآن زلزانة ننتة، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.

أنت لا تجرّب الوجود بكل حلوه ومرّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالآدميين،
التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض... وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة لتعقيد
ومن التفاعلات والأفعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه
الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا
قوة. في هذا المكان أنت على أقصى طيف الخضوع لقوى قادرة على جعلك هباء منثوراً
أي لحظة.

لا شيء تفعله سوى المشي طويلاً وعرضاً كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا
أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. تلك لأن لكل زلزلة ذكرّة مفاؤها جدران ملطخة

بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتي عشرة وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش الصبر ياربي.

نعم يجب أن اصبر عشرين من الزمن لكي يعذ خلط كل الأوراق.

في مشهد ما زال بعيدا في غياهب المستقبل يهمس في السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سرعان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصم الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيدي الرئيس أرجوك، انظر إلى هنا! ها أنا نظر لنفسي أولا وقد تشطرت إلى ذاتين، ذات شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفونا بين الركبتين يحاول استحضار صورة تقاحة وذات شبح أنت من مستقبل ما زال بعيدا يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يالك من غي.

قدر المصلح أكلن نيبيا يريد اصلاح البشرية جمعاء او ابسط شخص يسعي للتغيير في أصغر ميدان الارتطام بمنتهجين يخدم الوضع مصالحهم ولو على حساب أغلبية الناس... قدره أيضا الارتطام بضحايا هذا الوضع والجنين يجعلهم يتقنون اليد التي تصفعهم ويعضون اليد التي تريد كسر أغلالهم... يا للمسكين والمصير أن ينكل به الظالم وأن يتنكر له المظلوم... طبعاً كل تضحياته لا تذهب دوماً سدى لكنها لا تغير شيئاً جوهرياً والوضع يعيد نفسه بألف شكل وشكل كأنه ممنوع علينا أن نبني مجتمعاً لا ظلم فيه... هل لأننا بحاجة لتواصل القصص المثيرة التي نشغل بها وقتنا ومنها قصص نضال المصلحين وتضحياتهم المثيرة للإعجاب عند أنصارهم وللشفقة الساخرة عند أعدائهم؟ فجأة ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة سئلاحتي سنولب، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجذ، تُذكر بأعمق وأرهب ما تعلمت عن الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مُسَلِّماً، تُضْمُهُ لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقبل.

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلاً ثم صغيراً ثم حشرجة.

تنطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بلصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.

كيف يمكن أن يكون للذي منه كل نقمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلاً؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحل أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ هل هو كائنٌ جاء من عالمٍ آخرى لتدمير الأدميين بغرس كل هذا العذف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبة وأفظع منها أنه أدمي، بل وله أم.

لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تقننه في طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول.

أما الأدمي فقد اخترع بتر أصابع الأدمي الآخر إصبعاً بعد إصبع واعتصاب أمه أو زوجته أو ابنته أمام عينيه ووضع خازوق في دبره وكَيّ القبيص الذي يليسه وتجاهل صراخه وأبنيه وبكاهه ثم والجاهز عليه بالذبح والحرق والخنق والشنق والصلب والدفن حياً وحتى نبش القبور للتمثيل بالجثث.

أي طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؛ اللعنة! ما الذي يجعل من الأدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن تجد لها نظيراً في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كهذه بلن توجد أصلاً؟

من أين للمرتحلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم نتاج تجربة قوّة أسماها الطبيعة، انكار أننا أسلم أكبر غلطة ارتكبتها هذه القوّة؟

أما بخصوص المرتحلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم مخلوقات خالق اسمه الله فلخيار الوحيد لمهمهم بين فرضيتين. الأولى أن الله لما ارتكب خلقهم كان في حالة متقدمة من السكر. الثانية أن كائننا بمثل كماله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الأدميين. إذا كان فعلاً بريئاً من هذه التهمة المشينة التي يلحقونها به منذ غابر العصور فهل الخالق الحقيقي هذا الشيطان الذي تسميه أساطيرهم إبليس؟

لم يضعوني في هذه الزنزانة صدفة. لاختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دك حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعاد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي دلخل أدنّي، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت.

أي كائنات رهيبية هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب جعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة.

اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشاً بالبكاء طالبا الكف عن تعذيب الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضده أي سلاح.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال.

فيتسائل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد. لا، لا، تبالغ حقاً، يا رجل سنقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، لأحدك عن صحتك وتحدثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدتك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيراً. تعب الأذن من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرثان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكونون بصدح مسخ دمانه

والتفكير في الأعداء التي سيتقدمون بها لتبرير زلّة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلفت في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لثيم، لتراه مرتخيا يتصيب عرفا تغلو محياه ابتسامة الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عيينين فاضتا بالنموح، والرأس منفون عميقا بين الركبتين.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تتطلق لعنان السماء تريد شج رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فتزفر لحظة لتنفصّ عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرد عقيم تحالفت لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، لتوجه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كلُّ لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعتُ فيك.

ذلك أنني أضع اللعين كلَّ ليلة في المزاد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يسهل التعرير به: خذه بفسل وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غزّا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطمحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح منتئب ولا أملَ جديًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. علمٌ كامل الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجاناً، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

يفتح أخيرا بلب السجن الصغير لأجد نفسي مجددا وسط أوسع سجن وحبلى الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المنبوح، والذابحون رفاقي الذين يدعون محاربة من أحارب.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فلنا بهم كفيل. القاعدة أن الصديق الحقيقي هو أجز من يصدق ما يُروّج عنك من إشاعت وأول من يغفرها لك إن صدقت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أول من يُصدق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الحل الرفيق في ساحتها كبحثك عن أم لأطفلك في مأخور.

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتَي. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تندوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطر جرح الذي أصابني به الصديق أم العدو. يهمس في:

- أتعتقد معي حلفا ضد أصحابي وأعيئك بالمقابل على أصحابك؟

أهز رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقه، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ في أدهم قبل أن تندوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

- يا مغفل، القانون الأول في السياسة ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة وعدو اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة.

صحيح، لذلك ما تحتاجه الحلية السياسية ليس محاربا سانجا يعتقد أنه مسنود الظهر بطيف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص بليه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يستند فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هلمدة.

ها أنت تتضرع لله: اللهم خذهم عندك أصدقاء واعداء ووزعهم كما تشاء على جنتك وجهنمك.

المشكلة ماذا ستفعل أن أنت تخلصت من كل الأعداء والأصدقاء والسياسة كأخطر أنواع العلاقات الاجتماعية لا تكون إلا بهم. يتحول الدعاء: اللهم كثر أعدادهم لكن رجاء ارفع مستواهم. أي لذة في لعبة لا يلاعبك فيها إلا من ليس له قيمة وليس له قيم!

ثمة لحسن الحظ من بين اللاعبين الذين لهم قيم وأولها الشرف. هؤلاء للتعهد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر.

للأسف أغلب اللاعبين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خوض في الوحل وصلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهد لأن صداقتهم نعمة النعم والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قمة تظن نفسك في مأمن من الأعداء الأصدقاء والأصدقاء الأعداء إلا وأتعتس أنواعهم يتنقّس في ظهرك والسكين بين الأسنان.

إنه الذي منه كل نقمة عندما يضع على وجهه قناع المنافس.

هذا الأدمي وراك على طول الطريق، كل ما يتغير منه الشكل وهو نوما نفس الكائن المقنع أنك حجز عثرة في طريقه والمصمم على ازاحتك كلف ذلك ما كلف.

"ومن يُقِ الدنبا فإني طعمتها
وسيق لبنا غنبيها وعذابها (الإمام الشافعي)
وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجنابها
فاين تجنبيها كنت سلما لأهلها
واين تجنبيها نازعتك كلابها"

لا فرار من الذي منه كل نقمة ولو تحصنت داخل قصر السلطة مطوق بحراس مدججين بلسلاح.

يهمس في الطبيب العسكري عند دخول عنبر الجرحى.
- كان كميني البارحة لجنودنا مكلفا ...

أرفع يدي أطلب الصمت. نعم كان كميننا مكلفا للمساكين المصابين لكن كم سيكون مكلفا لي ولكل من يريد الذي منه كل نقمة رأسهم لأنهم تجاسروا على سلطانه وعلى سرقاته.

على فراش الآلام ثلاثة جنود مبرمجين لأشهر طويلة من العذاب. بعد ذلك سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر السفين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في انقاذ بصره.

بشّر يزرعون الزيتون وبشّر يزرعون الألعام! هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص بل وأن ينام الزوج مع امرأته والمرأة مع بعلها وليس تحت مخدة الذكر مسدس كاتم للصوت وخنجر مسموم تحت مخدة الأنثى تحسبا لكل الاحتمالات.

مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل هؤلاء الناس العاديين الذين تلاقبهم في كل مكان ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنرّو من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات القادرة على جعل الأدمي أكبر مجرم قادر على أن يزرع على طريق الأدمي لغما من المتفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألعام.

يا لهذه القفلة التي ترتحل وسطها تتوهم الأمل وأخطر من يترصدك على الطريق قد يكون الذي يمشي خلفك أو الذي يمشي جنبك يروي لك نكريات طفولته!

القاعدة أن قدرة الإيذاء عند الذي منه كل نقمة مرتبطة أوئق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عابرة أو مزمنة... في أسفل درجات السلم هو مجرد منغص لحياة من حوله... في أعلاها هو لعنة على الملايين يحتل أراضيهم بالقوة، يسرق خيراتهم، يرسي بهم في أتون حروب نمر بلدانا بأكملها ضاربا بعرض الحائط كل القيم والقوانين التي كدسها البشر على مر العصور لحماية بعضهم من بعض.

ما لا مناص منه أن الذي منه كل نقمة من يصلحك على طول الطريق الصق بك من ظلك. في شكله الجماعي هو الغازي الأجنبي ومستغل عرق الملايين والمستبذ بشعب بأكمله. هو في شكله الفردي الأدمي الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خريف الماء على دويّ الرعد، على نزول المطر. كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلقا كل الأبواب، واضعا كل العراقيل، معسّرا كل يسير، منغصا للوجود. الوجه البشع للعالم اللهم امنع عنه النوم واحرمه من الموت.

*

يأتيك من تواصل المواجهة مع الذي منه كل نقمة وتجدها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاما دائما ولو بشروطك. هيهات. هو كنتك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سموم أو حرق.

لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوما مطوقون بأشكاله لا إقلا من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبر هم.

لا جدوى للغضب والضغينة. لنحاول كما يفعل الأميون دوما تبرير ما لا تبرير له واضفاء المنطق على ما ليس له منطق. ماذا لو كانت للقوى المبهمة التي رمثنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كل سيجعل قصصنا بانخة وبلا طعم، أنه هو الذي يولد فينا أحد المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج نارا ونورا ونحن نقاوم ومنتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن!

ما الحل؟ تنظيم مظاهرة عارمة وتهديد القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو وجعلت من الشرير الأعظم البطل الأول في سيناريوهاتنا الخبيثة.

تقول ساخرا بماذا ستهدد أنت المسكين هؤلاء الميرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهم أن تهدد هم بشيء ما عثنا نثير فيهم مخاوف ما ولو لحظة عبارة.

الدليل على موافقة الجميع حضور مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا الذي منه كل نقمة، قتردد البشرية ورائي بحقد عارم وجذل الشر: لا، لا، لا.

بداية موقفة أكبر مظاهرة في التاريخ سنننر القوى المجهولة التي تتحكم في كل هذا السيرك بضرورة الإسراع في الكف عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس قاتر والهتاف متقطع وأصوات نشأ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدن هم أشكال الذي منه كل نقمة، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين هم كلهم أبناء زنا ومخلفات الذي منه كل نقمة!

ها قد تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسيق مطالبه ويصق حساباته مع من يدعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الأخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف. لأتوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسن المصلحة العامة: يا جماعة لا بد من وحدة صماء ورض الصفوف.

تتعالى أصوات الاستحسان فلاسب والصفير، بأسرع مما كنت أتوقع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل زعيم من قزر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختلي؟

ماذا لو صحت: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. أه يمسون بخنقي يريدون التثبت من حزامي!

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئب ويني أوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه.
أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا. إن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كمية الشحم واللحم التي سيوفرونها للدود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سmada للأعشاب والنبات.
آه، وبخصوص عُذر وجودي؟
كمية المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمّم زهرة ولن يصيب دودة بإسهل.
تنتهي ظل الزمن أو قصر لاستنتاج واحد: المنفذ الوحيد من الذي منه كل نقمة.. الموت.

آخر عقبة قبل أن ترتاح منه نهائيا تحمّل مراسم الجنازة.
هي عند الأدميين كالختن والزواج: مناسبة لملاقة الأعداء الذين فرّق بينهم الزمن، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصفقات، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت.
يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسدّ تغذيته لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.
يجنح بي الخيل لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.
كانني أسمعهم يتهمسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفاقي أن يريد نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أرحنا الله من سحنته البشعة.. ثم خاتمة كل المناقشين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "الذكروا موتاكم بخير".
حقا ثمة قلّة بجانب كل هؤلاء الشلمتين من يحزنهم فعلا رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

*"في يوم وفاتي عندما يسيرون بنعشي (جلال الدين الرومي)
لا تظنّ أني متألّم لفراق هذا العالم
فلا تبك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه
فوقوعك في مخيض لشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع*

قالقير هو حجاب على مجموع الجنان

كم أخطأوا جميعهم في حقي: الذين بالغوا في كرهى لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنفائصي وعبوبي. كل لي ككل الأدميين بعض الحسنات تتسيها زلاتي، وبعض الزلات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان، صورته في مرأة من يجبونه، صورته في مرأة من يكرهونه، صورته في مرأة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحه وحتى صورته في مرأة ذاته خاطئة. أما من له هذه الصور المتباينة في كل المرايا فشيبه مجهول للآخرين ولنفسه أولا.

بلله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقموا في العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركت لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا في العزاء. تُرغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميت، والحال أن تمام العكس ما يجب.

لغات الحفارين الصامته وهم يزفرون غيظا من الحر وصلابة التربة.

على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكتبان على بعض الكواسر وثلعب الصحراء وعقاريها تجد أخيرا نفعا في أممي؟ الرائحة من سيئضابق إذا رُميت بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تعلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من ثعلب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتني. "ماشى" مع الذفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأدفن لها ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

"سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلادتي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا"

يا هرمس، يا رب المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنات الخلد، أنت الذي يعرف محو الخطي، امح كل أثاري حتى لا يواصلون ميت منذ قرون ملاحظتي بلسب والشم.

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لأخر اعتناء. من قال أكبر الأكلذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصيد؟ نسي لشقي خطبة التابئين.

ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو فم الميت بعنفود العنب الذي رفضوا إعطاه وهو حي أصغر حبة منه.

كل شيء إلا انتصايبهم فوق قيري يخطبون. إكرام الميّت دفنهُ. نعم وبصمت. وحده الوجع لصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عدا هذا مسرحية عديمة الذوق. لله ذرّ هؤلاء البشر. يكدون عليك حيا، بالتعويض من قدرك، ويكدون عليك ميّتا بالزيادة فيه.

إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتم خُطبكم الرثاة على حافة قيري لرميتم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانقلب عفرينا يأتي ليايكم بأفزع الكوابيس. ولأنني أما انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوه بمدحني بخصالي المرتقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "مأ" وخالهُ وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثلوث نساء آخر: تفلحة وتفيحه و"ح" التي غمرتني بحب لم أستحقه يوما.

ثُهل على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين تعصرُ عينًا من مآقي جفّة دموع التماسيح. فوق القبر يتواصل تنفّق سيل الحياة، نهر جبار علتْ آب من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ آخر. ما هم مثل هذا النهر لأن قطرة تبخرت منه.

"ميّت أنت وإلى الأبد (لوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عاندون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما تتصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدركت لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا. على المشاهد أريد أن يكتب هايكو ليسا أعدت صياغته بما يرضيني ولا يغيظه.

"أخيرا نجوت منكم

والآن تعال يا صرصار

عش على قيري"

يكمل الخيال بقية الاحداث.

تتواصل المشاهد في فضاء خيالي أستيق الأحداث وأحاول تصور بعض سيناريوهاتها. ها قد عدت من حيث أتيت. بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاق إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إبداني التامة لفكرة خلق كائن مثل لذي منه كل نعمة وطلي الملح بسحب دوره من السيناريو في النسخ القادمة من العوالم التجريبية.

طبعاً لا أعني من هذه الفكرة ... كما لا افلات لأحد من قانون الجاذبية لا افلات له من قانون التناظرية القاضي بأنه لا وجود للشيء إلا بنقيضه ... مما يعني أنه إذا كان لك محبوب لا بد أن يكون لك كارهون... أنه كلما ارتفع عدد المحبين كلما ارتفع عدد

الكارهين... أنه كلما وصل الحب عند محبيك أعلى درجة كلما وصل الكره عند كارهيك
فمته... أنه كان يوسع كم من كارهيك أن يكونوا من محبيك ويوسع كم من محبيك أن
يكونوا ألدّ الخصوم والصدف هي التي وزعت الأذوار... أنه من العبث السعي لقلب
الأعداء أصدقاء إذ سيتركون حتى ولو نجحت في الأمر القضاء شاغرا لينبت لك كم من
أعداء جدد ناهيك عن التسبب في فقدان كم من أوفى الأصدقاء... أي حلّ تجاه وضع لا
خروج منه ولا خروج عليه غير قبوله كما هو بل واعتباره الوضع الضروري لكي
تكون لنا التجارب والقصص التي تشكل حصيلة رحلتنا.

أستمر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لمخرج الفيديو واسمه بالصدفة جبريل وهو
ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفت غليظ، ومن الملفت الغليظ إلى وجهي. طبعاً هذا
ملقي وهو بدهاة زلخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين توقفت وتكبرت عليهم...
بشكاوى الأب من طفل متمرّد ومراهق وقح.. بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عقرت
أنفهم في التراب... بشكاوى الطغاة الذين أشبعتهم تهكما وتحقيرا... بشكاوى كل الذين
ظلمتهم حين أنصفوني، الذين حجبت عنهم ناظري وجفوني عندما كانوا بأمس الحاجة
لحبي وتضلمني، الذين لم يسلموا مني ألاحقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق البيضاء.
أه، ما زال هناك المزيد من الملفات! ماذا أيضا؟ شكواى الأعشيب التي اجتنثت أو دُست
غير عابئ بماذا أجتث أو على ماذا أمشي... شكواى الفئران التي سممت صغارها في
غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق... شكواى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خانفة
مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت
الفظيع... شكواى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة
طبخها... شكواى شعوب النمل التي لاحقها في الحديقة بالدعس وخرطوم الماء وكل
أصناف المبيدات.

كيف لا أنفجر ضاحكا، لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نعمة لكل هذا الكم من الأدميين
التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبيّة لما لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

لا معين على أهوال الطريق سواهم

قل فيهم الشاعر :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا (أبو العتاهية)
يُعظّمون أبا الدنيا وإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا
صحيح، لكن ما أكثر استثناءات القاعدة.

يُدقّ الباب بإلحاح. خلفه تتصاعد أصوات رجال الشرطة. لكنهم لم يأتوا هذه المرة لأخذي وإنما هم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي.

أبكون لشقيق الذي رافقتني طوال الرحلة وكان صديقاً أكثر مما كان أماً؟

لا، هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجاني محامياً في كل القضايا الملفقة التي لاحقوني بها أكثر من ربع قرن. هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدرات لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب.

يفرض لرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهناً بسلامتي. يلقى بنظرة ناقبة حوله، متعجباً من خلق البيت تقريباً من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفته حبّي للمشي. يصرّ وسجارتته الأزلية بين شفثيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس ليُعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار.

أمازح للصديق -الأخ أخفي تأثري:

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.

- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسينان.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقص عليك ما حدث يوم أطلق سراحني. أخذوني إلى بيتي في سيارة عادية. دخلها بادرني أحدهم: تظنوننا وحوشاً؟، مانا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

وأصل الرجل لا يثبته إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها؟ التي حصلت أمام مقركم؟ ... طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسك أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟ كان الصوت مختفياً وكأنه يغالب عبرة صامتة. قلت لا ماذا فعلت. قال فتحت القحية بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصفت عليّ. بصفت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقرّز لا يكف عن السيلان، بالنهاية، بلليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني. تلك اللحظة تدافعت إلى الذاكرة صورة والدي وبده

على خذه وغضبه لم يخدم بعد عقود من صفة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب لصداق المزمّن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دواني.

دون وعي ارتفعت يدي مررتها برق على لوجنة الملهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجفت منذ شهور وقلت للرجل عفوا أخي، وقيل صغارك من طرفي.

كل كوارث الدنيا تأتي من تعذيب بعضنا لبعض (فرنكو بيسوا)

بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير.

يطفي الرجل الطيب سيجارته المغروسة طول الوقت بين شفتيه ثم يتوجه إلي وكأن به شيء من التردد.

-آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

-قل و عليك الأسمن.

-أنت تصرّ دوما على الجهر بالحقيقة كأنك لا تعلم كم يكره هذا النظام أي شكل من أشكالها.

- النظام وحده؟ يا ليت. أغلب البشر يدعون حبّ الحقيقة وهم لا يخشون إلا هي ... يفرّون أمامها أسرع ما يركضون وراءها. أكاذيبهم هي حقائقهم وجلّ حقائقهم أكاذيب. لا أتمنّ لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم ومن اسدال الستار الكثيف على التاريخ الحقيقي لأبطالهم وقديسيهم وأنبيائهم والويل لمن لا يشارك في أكبر مؤامرات التجبيل على النفس والأخر.

نعم ولكن ... أليس الجاحظ أيضا على حق : “وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء” .

نعم كم كان الرجل حسيفا عريفا بالبشر: “وإن الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتنگر مثالبه ويحابون الصدق بتنكر منافعه وتناسي مضارّه وأنهم لو وازنوا بين مراقبتها وعلوا بين خصالها لما فرقوا بينهما هذا التقريظ، ولما رأوها بيده العيون” . تنتهي السهرة الممتعة ويصرّ الرجل الطيب على أن يوصلني لباب البيت والتكد من أن الذين يتبعوننا منذ خروجنا منه لن يقتحموه مرة أخرى.

أن الأوان لأعبائه بدوري:

- تعرف لماذا طلبت منك عدم المرافعة عني أمام الموظف المكلف بإصدار الحكم الجاهز. ما الذي يدفعك للمشاركة في هذه المسرحيات البائخة.

يتبسم الرجل الهادئ.

- معك أن كل هذه المحاكمات السياسية مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبوله على مهني مثلي. ببني وبينك ماذا تريد من محام أن يفعل أو حتى أن يكون إن منعت من الكلام.

فعلا، ما المحفلون دون الكلام الذي هو وظيفتهم وهويتهم ووسيلة رزقهم شأنهم في هذا شأن الوعّاظ والمرثيين والتجار والسياسيين والصحافيين والدجالين وكم من مين أخرى لا بضاعة لها تتاجر بها غير الكلام...

تجدد الحوار والمشي مع الرجل الطيب المصّر على تقفّد أحوالي كل يوم .

- على فكرة قد يمكنني إعانتك على ما تكلفك السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. مما يقل همسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطبّ الشبوعي الذي تحول فرضته. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

- يكذبون عليّ كعادتهم. بخصوص صرامتي هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.

- لا أصدّق.

- فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مراودة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في أن ولحد قلة النكاه والجمال والململ. دخلت مكتبي ذات صباح ترفل في أسماها بالكية لأن كل من توجّهت إليهم من الزملاء الأعزّاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بلّسن الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيتُ أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتدة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تننر في كمل الكلية.

شيء ما تحرك داخلي يلمر بمدّ يد العون لأدمي سيح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلاً، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاهن الله بما ابتليت به من مصير. قلّت لها هذا موضوع سهل، جمعنا له كلّ المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدث أرمي أول مسودة في وجهها. تماكث أعصابي وقضيت معها يوما كاملا في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالطروحة وكانت عجيبة محسنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعدتي حصل شيء إجماع على أنه لا فائدة في تضبيب معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلّت لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوما تبيع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يُسوّه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت الشكوك ترودهم بخصوص ما ستجاسر على فعله. قلّت نعم، سأكتب لها

الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محققين آخرين قد ينتبهون للخديعة ويصيبون لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها.

قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي أحد بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارقٌ في خضم مشاكل المتعددة.

كيف لا يتغلب يوما تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جلكهم يعانون من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن أخطاءهم وخطاياهم أغلب الوقت يرود فعل قليلة الفعالية على عالم يعيث بهم عبث القط بالفرار!

أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صيغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنات حواء. يوما كلنا لأنفسنا الثناء ولم نصغر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغير وجهة الطب الاجتماعي للمشرية المقبلة.

كنت أغلب نفسي من الضحك من نفسي وأنا ألاحظ بمنتهى الجدية كم تحسنت لغة الأطروحات في هذه الكلية التعيسة ويا لهذه اللغة الرائعة في أطروحة طالبتنا المتألقة وهي تجمع بين صرامة لغة العلم وأناقة لغة الأدب.

كل هذا الكلام وبلغة أجنبية أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليفتعلن متابعة كلام لا يفهم منه شيئا. بعد نهاية "النقاش" مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج بحثنا وقرأ العلماء لتعلم الفتاة أن رسلتها قبِلت بعلامة مشرف.

لما أتت قراءة قسم أبقراط وهي تتلغتم، همست في أذنها أن قسمها لأبقراط لا يعني في شيء، كل ما يهمني احترام قسمها لي بالا تلمس أبدا مريضا وألا تغير من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقف عملها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستانا أنيقا والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشيم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكرا. لحظة سعادة صرّف وتصالح خالص مع الذات والأخر.

تنهد الرجل الطيب وقال:

نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر.

يجذبني الصديق من ذراعي بلطف لأنتبه له وقد حملتني الذكريات بعيدا.

- على فكرة شقيقك يشكك أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد.

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير ببدوء عما يقدر عليه الأدمي في أروع حالاته تجاه كل ما يحفل به العالم من كانتلت .
تعود إلى الذاكرة زبدة نقاش حول النار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق.

ليلتها قلت لها وأنا أعبت بعود أقلب به جمر النار التي تجمعا حولها لسهرة الوداع - صحيح، كم نكلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقصدون فيها الفران، عن الأطفال الذين يغسلون قفلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحدثون عن فرد: فلان، السيد فرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البونيين وهم يدخلون قفص النور لغسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي الدير. تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعها الحزب الحيواني.

ليلتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنوياتي. أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ثيابة والمشى والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تنسى من يزرعون المسامير على الجنوح لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجنوح الموعودة للمنشار الكهربائي.
قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أخفاد مويبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقدّيس فرانسوا، فسرعي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرك طابور طويل وكل أدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول إلى الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبيلرك الأدمي ويبيلرك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصلّمتين ولو في قبس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصوّر.

عما يقدر عليه الأدمي الذي يحبّيك في البشر والذي اسميه الذي منه كل نعمة ، حدّثني جدّي وأنا طفل أن الأجنبي قال له وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصله وبأي ضربة

حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو فقلت له الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرُّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفيافي الفاحلة التي تفصل بين أرض يَهْرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يَهْرَبون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى يروي لنا الأدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأهواله: عُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا كانت النجاة في تلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكز قطع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الأدمي المتماوت جوعاً وبرداً بلغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أن عليه الإسراع بالدخول. تصفّق الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين رب العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى، هل ينتظرون ضيفاً؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أية لحظة.

كم من قصص عما يقدر عليه الأدمي محبّة لبني جلدته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الأدمي الآخر ليس إلا ناته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

القاعدة أن قدرة النذل والعطاء عند الذي منه كل نعمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عبيرة أو مزمنة... في أسفل درجات السلم هو الفقير الذي يجود بما عنده.. في أعلاها هو محزّر الملايين من المرضى والجوع والظلم... هو حامي وحامل كل القيم والقوانين التي تجعل من الأدمي انساناً.

آخر ساعة سهرتي الليلية مع البحر. أن الأوان للرجوع إلى البيت المقفر من كل حبيب. فجأة أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي. تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة. تتراعى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سقّاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرني أميون بسحن متجهمة وعيون يتطير منها شرار البغض. ثم تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الأدمي المجهول يهيمس في أذني، وقد أصبحنا جنباً إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان. تربّث يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضع الرجل في الظلام، لا يترك لي الوقت للتمتّع في ملامحه.

إنه الآن شعور من كذ يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العريس، شعور الطفل التائه عثر أخيرا على والديه. صتقتم صراخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب؟ مجرد ردّة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له بدا ليمسح بها مجدداً على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخلجته التأتأة. مكائنتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روجي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك فيكم.. بوركتم، بوركتم، بوركتم جميعاً.

على أي حال كنا نعيش دون الذي منه كل نعمة. في شكله الجماعي هو المرابي والطبيب والبانّي لكل ما يسهل عليك العيش. في شكله الفردي هو الصديق الصدوق الذي يرافقتك على الطريق يُعينك على أحواله وأحواله. هو الذي يمشي طوال الرحلة أمامك دليلاً وخلفك حارساً، الذي يُخرجك من رمل متحرّكة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفزع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بتلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تنكئ على ظهره تنتظر مرعوباً وسلاحك في يدك بروز النشاب، الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من نئاب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يقتعل سماعك وإنما يُنصت إليك حقاً، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهبه نجاهك ويبيكه أن يراك فاشلاً، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ماء، الذي يُؤوي نكرك في قلبه تُواصل داخله أعرب أصناف الوجود.

إن أردنا رصد نقطة الفصل والافتراق بين الأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة والأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة فهي دون شك ظاهرة لا أخطر منها في تشكل المجتمعات والديانات والسياسات: تقديم الأضاحي للقوى المبهمة التي تتحكم في مصائرنا.

في حالته الأولى هو الأدمي الذي لا يتوانى عن التضحية بملايين القرابين على معبد لاسلطة قمعا وحربا ليحفظ سلطانه وحياته هو.

وفي حالته الثانية هو الأدمي الذي يقدم عنقه للذبح طائعا قربانا لآلهة القبيلة حتى تواصل بسط حمايتها على أهله، أو الذي يتقدم جنوده ليستشهد في معركة ضارية دفاعا عن حق الآخرين في الحياة. نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر مقترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تنفق الحجاج وقد فافت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

**

الذين لا تكتمل الذات إلا بلذونيان في ذاتهم

أصبح السمع لما يتعالى من أغاني الأدميين وستكتشف أن موضوعها المفضل هذا الألمي الذي أسميه "الذي منه كل نشوة".

إنه الألمي الذي ترسم له أروع اللوحات، الذي تُولف لأجله أجمل الموسيقى، الذي لا يتوقف للشعر عن التغزل به. كيف لا وهو الذي تجرب معه الذات أروع حالات الوجود. تعود "ح" لحديث مقطوع ونحن نتوجه للبيت عبر شوارع المدينة الصاخبة.

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها. إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وكل الوقت الذي أضيعه في متاجر المطبرات بحثا عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استقزازا رخيصا.

-استقزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجذع الذي تسمونه "الملك الشمس" نفسه كان نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشًا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شبكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجنّون على الخنازير وقد عبرتم جل التاريخ ملوكا وعبيدا تتضوعون أظفح الروائح ثم تدعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

-أه يا عدوّ البشرية!

- على فكرة، هل انتبهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبیب يشتم ما بدخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكل القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط

روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمع داخلنا فما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار الغفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة ...
- أنت حالة مستعصية على العلاج. لست ضدّ أن تعود لصمتك المعتاد.
فرصة لاستحضار بعض أقدم الذكريات عن موضوع المشدّة.
ذات ليلة يصرخ الطفل متوجّها إلى "م" وهي مضطجعة حذو "ب":
- أف! هذه الرائحة، "م" أخرجي الكلب بسرعة!
كان في ضحكها المكتوم ونحنحة "ب" - حرج واضح خاصة وأن الكلب لم يشاظرنا ليلة غرفة النوم.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قل -وأنا أدأوي نفس الحرج بسعال حادّ اتقاني على غير سبب: طيب غطيت على الصوت بلسعل، بماذا ستغطي عطر هذا الذي غمرتنا به؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكاً.
ها قد انتبه الطفل أنّ ربّ البيت -وربّما حتى ربته- يضرب أو تضرب كما يضرب هو، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر منه. كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دوي قنبلة تنفجر تحت الماء. البشر أكياس مليئة بسوائل مشبوهة ذات روائح غير عطرة تفلت منهم عند عجز النكتم عليها!!! أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك أن تكون قسامة متجولة. من المؤكد أن هذا سبب ولع الأدميين والإناث منهم على وجه الخصوص بالبخور والطور يدفعون فيها من قديم الزمان أعلى ثمن للتغطية على ما يخفون من روائح كريهة؟
تهزني "ح" من كفتي :

- عد إلى شريطة أن تكفت عن السخرية من كل شيء والباقي.
- لا بل أنت من ستتكلمين وخذي راحتك في أي موضوع.
- حتى ولو شمتك على طول الطريق.
- كل ما تريد. أنا بصدد تذكر أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين أول ألو، يوم اتصلت بقسمك بخصوص مريض حولته لي ممرضتك دون ملّقه؟
يومها قلت لنفسي يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمان صنعها؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتاً أجمل؟
يومها قلت لنفسي لا بد من عذرهما كل واحداً-لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني ساكون ممنوناً لها لو بعثت لي بشرية تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليلاً وليلاً، وبعاني دفتر صغير أدون فيه ما يوحى إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

أه أفضل أن تحدثني هكذا، لم تغالني منذ مدة، أحيانا أتساءل هل تتفقدني حقا عندما أغيب

- طبعاً افتقدك أكثر مما تتصورين... البارحة مثلاً كنت عند طبيب الأسنان وكان المسكين جاثماً فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليدة مستقرة في أصعب أماكن الفم. قلت للرجل بين غرغرتين لا تأخذ في خاطرك ولا تغضب مني وتعرف كل معزتك عندي لكنني لا أدري لماذا أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.

تضحك "ح" إلى أن يأتيها السعال.

نعم، كم يخطئ ذلك الشاعر الذي أتهم بلاء النبوة، لأن "أعز مكان في الدنيا" لا سرج ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعي الحبيب.

يا معشر العشاق ما البشري قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)
ضممت كفي على درة لا شركة فيها ولا دعوى
لما تملأت سرورا بها أغربت عني سائر الدنيا

لوصول إلى هذه اللحظة التي تتمازج فيها الذاتان لا بد من طقوس معقدة لا مناص منها. من يتجاسر على الالتحام بالذات الغدوس دون المرور بأكثر الطقوس تهبوا وإجلالاً. تحقّق الذات في الوجه الآخر فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. أي أوتلر سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المَقْرور عند بسط يديه فوق نار المنفاة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيراً بين جحافل الوجوه الغربية، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرد.

تهمس "ح":

- سنترك آثاراً زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عز الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنّع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تعبّر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجع على المواصلة. تتصاعد من الأصاق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنها المغلة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشلجنين.

وفي جسدي تجبنين عن الهضبة (أوكتافيو باز)
وعن شمسها المدفونة في الغاب
وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلية الضائعة

أخيراً يفتح الحرم ويأتي أمر الخول رقيقاً لا لبس فيه.

- هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبهي.

اتحد المعشوق بالعائش
واتشترك الشكلاّن في حالة
اتيسم الموموق الوامق
فامتخفا في العالم الماحق
(الحلاج)

تكشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أعرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويّت.

- رويّت.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتمجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك الحياة أو على الأهل شريك هذا المقطع من الطريق. لا أحد عبر هذا العالم وحيدا. تصله فتتلقفك الأحضان ولا تغادره إلا وأنت بين الأزرع التي تحملك لمثواك الأخير. كأنّ بالذات ثغرة لا تسد إلا بالذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة أن حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل عن حلجتها الماسة إليك.

تستيقظ "ح" من اغفاءة عبيرة.

- تغّي! بماذا تهّمهم؟

- "أمانة عليك يا ليل طول" كلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضخم اسمه الراديو.

نعم، يا ليلت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين اغفاء وبقطة، ننعيم بالدفء بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكف عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- آه لو كنت قادرا على الشيء، والآن، ردي على سوالي: من أنت؟

هل سمع المحبوب لكنه فضل الصمت؟

آخر محاولة.

- مجددا، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم"

- نم الآن، واتركني أنام. غدا يوم حافل بمشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قيل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى بضعف الترجمة:

تواصل مغازلتني! إنها ليلة حافلة بكل المفاجئات. نم الآن، أنت أيضا بحاجة لكل قواك غدا.

على تخوم عالم البيظنة وعالم النوم وأنا أحضن " ح ، يصرخ فيّ وفي أشباح خانقة كائن من نار ونور. 'تحلقوا حولي أيها اليوساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم. لما وضعتُ أمني على طاولة التشريح الكائن الذي خلقه الله لأهلي فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أي ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلاً؟ يومها وضعت أدقّ أجهزتي أتحنس بها ما يداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكثف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدت الكشف أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل. إذن نجح غريمي أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من القمني علماً. فتحتُ الكائن لدراسة مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنًا من جزأين لأصقا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميّنة للكائن لم تُجدّ نفعاً. أخيراً رقصتُ طرباً وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجاً أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصال. لإتمام انتقامي سارعُ بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمنع بحثاً محموداً عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلاً. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل اثنين ناقصين أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا الذي تسمونه إبليس."

الآدميون كانتات مشطورة لا تستجمع ذاتها إلا إبان تجربة الحب؟! نحن كانتات محكوم عليها بالجري الدائم وراء ذات مكتملة لأن وجودنا إلا يكتمل إلا بوجودها؟! *

ما نتعلم عنهم أين تتعري أجسادهم

تفتح "ح" فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.

- علبة ليلية!

أهز الكفتين:

- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض "الستريبتيز" ولا شيء آخر.

تطلب "ح" الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- ستحتمل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدي على الكرامة البشرية الخ. لا شكرا، وعلى كل هذه عروض لكم انتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذا الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحاث؟! وعلبة عري!؟

- نعم أريد أن نسهر هذه الليلة في أخطر أحياء هذه المدينة، في أفقر أزقتها، في أحقر علبة ليلية فيها. أي قيمة لشهانتني عن الأدميين إن اغفلت بشرية الليل من مومسات وفوادين وسكارى ومشردين وتجار مخدرات وضحاياهم. أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بدخلي.

يتلقنا ليل متجه لا يقع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تنوارى إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله ولشيطان والمخبرين...

أخيرا قاعة ضيقة عانمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر.

أجبل البصر بين الجمهور والخشبية التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيفتي النظر إلي باستغراب غير مقتعل.

- مالك تنظرين إلي، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشددة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة

لصدر، خرجت من وراء ستار قدر لتحل ركبا بحجم طلولة صغيرة.

"أنت تزجي رنفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل" (ابن هاني)

تنفجر "ح" ضاحكة:

- تغني! أنت! أظن أنني مُؤمنة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يعنون؟ لم لا أعني أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تتحدرون من الفردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظ أنني لا أفهم الكلمات.

- إنها كلمات جميلة وجدّ مهذبّة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يبتئى. ردي معي: أمان أمان، وبالمناسبة كفي عن لصاق التهم المشينة بالخنازير.

تبدأ "الفنانة" في التثني وهي ترسم على شفتيها ابتسامة مهنيّة تستشف من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصل الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضج.

هنا وجه آخر لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علت على محياها ابتسامة النصر؟
- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ وليست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بلبيجما إلى الحمام لغسل أسناتها. وفي كل الحالات لا أخشى شيئا قدر التورط مع النساء الجميلات. ألم تسمعي بالمثل الإفريقي: "من يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجارا مثمرة على قارعة الطريق".

- شكرًا على كل هذا التغرّل بي.

تعرض عني "ح" لا أدري هل هي حقا غاضبة فعلا أم تقتعل الغضب.

كل انتباهي مركز المرأة التي على الركب لا التي بجانبني.

تشرع "الفنانة" في خلع قميص جدّ شفاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.

من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد فقط للزينة والحماية والتميّز وإنما لنقول للصياد: تحت الغلاف جوهر النضج. يا الهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوصية لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من هذا الجسد بالذات.

تنهزني "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها.

ثمّة هذا الرقص من قبل هذه المبتدئة وثمة الذي تغفر فمك أمله وأنت تتأمل الراقصة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الراقصة الهنديّة تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسيتا.

تهمس في "ح".

- وتسمي هذا رقصا !

- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع أو ما تيسر من البهاراتفتيام ...

فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر.

تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزاع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها أهات تعجب، أو دهشة أو وجع. تبدأ المرأة المسكينة اللعب بأزرار بنظونها الضيق تعد بعرض المستور على من جاءوا لهنك كل ما يحرمه نفاقهم المعتاد.

مسكينة! حقاً؟ من قال إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أن اللعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للأنظر، سالب للعقول؟ كأنني أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تملّوا، سبّوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الأدمي للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهّدًا وتجميلًا منذ أولى خطواته على الطريق؟

الجمد! كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تدنيس ومن تدنيس إلى تدنيس.

يُرمى البطلون بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة. المأدبة أمام الجائعين ولا مجال للإسك بما تعد. تنفجر شتيمة حقيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طلّشة أصابتنى في الوجه. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل تصفّحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟ ثم تتسارع وتيرة الكلمات البيئية يطلقها مراقبون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القثون ونظارة هانجين لا شك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مخدر ما. هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والازل الفاخرة وقاعات الانتظار للشرفية في المطارات. الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أقل تكلفة ويلعبون أدوارا أقل تكلفاً.

تهمس “ح” وفي صوتها نبرة لا تبشر بخير.

- خذ بالك، ستسقط نظارتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الاقتعال والتكلف عند بعضهن.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. نقت أظفري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تألمي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهانجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتّى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى “جوردانس”. أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأدمي عادة بين فخذيّه، أكان ذكرا أم أنثى.

يا ترى كم من هؤلاء النظارة الهانجين لم يدخلوا هذا المكان القبيح لإنكاء شهوة جنسية وإثما لغليات مبهمة كاتني دفعتني إليه؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر

الخلابية؟ ... هل داهمتهم هم أيضا صورة نظارتني بُعد وفُرب وُضعنا على العينين التي كان بهما حور؟ أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر... نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تننان يحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم... على من يتَهكَمون؟ ... هل ثنائهم موجّهة إلى المرأة أم للذي يركل ويمزق ويكلس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كنييا؟ ... هل هذه اللعبة الليلية الحفيرة محراب تتعبد فيه للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال، وينصق عليها لما تفعله بكل هذه الروائع؟ ... أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: الصلاة والسكر، العبادة والكفر، التقديس والتدنيس؟

تهمس "ح" في أذني: كئيب فجأة، حدثني، ما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحدانها وهو يععب عال متبب.

لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كل هذا المقدس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجولة سترمي يوما لقمة سائغة للدود.

- انظري. إنها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُب ضارة نفعه، وقد اكتشفنا هذه الليلة وجهك المخفي قبل أن أتورط معك، يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟ المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتى لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعمل داخلي. أصرخ مقتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدق أنها ستجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تقتل البلاهة. لليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

من الأضمن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنها عزيمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، أقول لك: ستخلعه !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أممنا! يا الله بسرعة ورائي، لا أظن بول أو خرا حتى هذه الحسنة يعيق برائحة الفل والياسمين. تواصل "ح" الضحك داخل السيارة ونحن نشق طريقنا نحو البيت. ثم تتوقف لتصرخ في تقفل الغضب.

- على فكرة لا تقل لي إنك تريد العودة لمثل هذه اللعبة الحفيرة التي جررتني إليها الليلة.

- لمواصله أبحتي هناك أماكن ثرية بالمعطيات هي الأخرى ولن تمناعي في الذهاب إليها كما لا خشية لأن تُنقط لي صورة على أوبائها.

**

ما نتعلّم عنهم أين تتعرّى النفوس

ليس من باب الصنفه أن أول من علّم الأدميين بناء المسارح في تصورات الهندوس ربّ اسمه فالكسمان، أن مدّربهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وكانت أستاذة الارقص الرّبّيّة بارفاتي، وأن براهما إله الالهة لا غير هو أول من علّم الأدميين فنّ التمثيل؟ لهذا لا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكرة ترك نعلّي عند الباب ولا أدخل معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد لكن المسارح بلا شك أو جدل من أهم الأماكن لتفحص الأدميين... ومن ثمة مواظبتي على ارتيادها. يشاء حسن طالعي هذه الليلة أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية طبقت شهرتها الأفاق لعبقري لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله.

أغرقت في المقعد الوثير منتفسا الصعداء أرهقتني طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة ممتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفو!!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الظرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني فيبين أن الأدمي الذي يعيش سبعة عقود يقضي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الثرثرة، ثماني سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهلف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال)، ستة أشهر في المراحيض.

تبّأ لهكذا برنامج. من الأحسن نسيان هذه الأرقام المفزعة والتركيز على الكتيب الأنيق وفيه بعض المعلومات عن توقيت السهرة والفرقة المسرحية والسيرة الذاتية للمخرج الشهير.

ثرى هل بوسعه أن يأتي بشيء من التجديد في مسرحية تعرض منذ أربعة قرون؟

أه لو تُرك للممثلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

أه، لو تُرك للنظارة حقّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهم أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفق صارخا برفاهه هكذا أحسن بكثير!

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا نضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟

أجبل البصر حوالي على أقصى قدر ممكن من الانتباه.

أنا الآن في مكان لتشريح النفوس بذكرني بالأماكن التي كنت أرتادها طلبا لتشريح الأجساد. إنه أيضا المجهر الذي يمكننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستتق والجداول والشلال الذي فيها. إنه المختبر الذي ندخل فيه الأعماق المظلمة لهذه الذات ونحن في مفاعنا الوثيرة لا نتعرض لخطر. إنه العالم المصغر الذي نستطيع فيه وضع اسم وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوض سحرنا جهلنا بكتب السيناريو الكبير وبما يريده منا نحن البشر التانهين بين فضائي الواقع والخيال. تنطفئ الأضواء تدريجيا.

يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه.

يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. تترك خلقنا ما نسميه "الواقع".

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعا للتمتع فيها.

يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعا أن ألما فاق كل حدود التحمل يمزق روحه.

- "في نومي وببذ شقيق! انثرت مئي في مرة واحدة الحياة والتأج والزوجة. يا للظاعة! ينق شبح الملك المقول يستنهض همة ابنه يحفز فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- لا تترك فرانس ملوك الدنمرك يُدس بالفسق والزنا اللعين".

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب ابن أخيه وهو متزايد اللق. هل فهم أنه قاتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والخذل على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة حول جريمة ما فوقها جريمة؟

لوضع النقط على الحروف وتسمية الأشياء بمسمياتها لنقل اننا أمام جريمة يصفها البلغاء بالذكراء والجريمة خاصة يتميز بها الأدميون عن بقية الكائنات التي لا تقتل ولا تسرق إلا لضروريات البقاء. أما الأدميون فيقتلون ويسرقون للتمتع بالكليات، لتسلط على الآخرين، للانتقام، لإثبات الذات، للرياضة وأحيانا دون أدنى سبب.

هذه الجريمة التي هي عقدة المسرحية تسمى جريمة دولة أي أنها ما يرتكبه حماة القانون من انتهاك للقانون وهم في مأمن من كل محاسبة أو عقاب.

لو يعلم الناس أي نوع من المجرمين يسكنون القصور التي تتحكم في حياتهم لما استطاعوا النوم ليلة واحدة والقاعدة في عالم الأدميين صغار المجرمين في السجون وكبار المجرمين في القصور. لا ذكرى لصغار المجرمين إلا في لصحف الشعبية وملفات المحاكم أما كبار المجرمين فذكرهم محفوظة في كتب التاريخ. صغار المجرمين للسب واللعن، كبار المجرمين لعبادة الجماهير الغيبة.

المسرحية أيضا عن خاصية أخرى يتميز بها الأدميون وهي نكث العهود والعقود. أغلب قصص الأدميين تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد ماله الانتهاك عاجلا أو آجلا. لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم. عيبا.

يتوجه الملك المجرم إلى هاملت خانقا متودداً، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.
- "إنه جميل ومحبيب من طبيعتك أن تؤذي ولجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أن أباك قد أبا وكذلك والده، ومهمة البقي على قيد الحياة التقيد بواجبات البنوة في الأسي، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فعنداً كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.
كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مرّق عهداً مقدساً ربطه يوماً بأخيه وهاملت يروي، متكلّفاً السذاجة، قصة تخلص إيطالي اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسم مسكوب في الأذن.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!
أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبط فيه، ومن أيّ مصباح سيسع؟
ليست الأمّ الخائفة، الخفية، الخائفة، بأحسن حل. ها هي تحدّ بولينيوس على أن يصدّقها القول بخصوص تغيّر طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟
يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قراراً لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنوناً وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".
- "أريد أكثر مادة وأقلّ بلاغة".

- "يا سيدي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنه فعلاً مجنون وإنها لمأساة".
تتوسل الملكة إلى ابنها الذي أهدته الجريمة النكراء صوابه.

- لا تقل شيئاً لآخر. كلماتك خناجر تدخل أنفي. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.
يوصل الملك افتعل السذاجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثٌ والده؟
يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما كرهه عند الأدميين.
يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرّك في فضاء مواز أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن تقتل أبا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والأن تسخر مئاً متسانلاً عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف السبب.

يرمقي القاتل بحقد:
- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وقيلدنسترن رأسيهما من الملك يهسان في أذنه.
- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصة أخرى ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو معارض وكل المعارضين للسلطة بقلبه مرض.

إنها اللعنة التي تلاحق حكام كل زمان ومكان. هم لا يتعاملون إلا مع مقترّي أو مُتلقّ أما الصديق الصدوق فملتزم الصمت لفهمه عبث كل نصيحة.

يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهّم. ترمقني الولىة امرأته باستهجن، فأعتم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملقي بخصوص سبّ السلطات العليا زاحز، ولا تُضيرني قضية إضافية.

- كيف لا يُجنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للأميين! أي إض أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته ولمه قتل والذة وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يلغن أبوك يا قحية.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أنك وبداءة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التخلّ السفر في شؤوننا.

يا لخبية الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هبّ لنصرتهما. لكن جود الأميين ونكرانهم للجميل أمر عا، يكزّمون اللئيم ويتمردون على كلّ كريم مُجدوا.

أجلّ البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للنفاع عني إذا نشبت معركة علنة بين النظرة والممثلين. أفلجأ بهوء جبراني، ذلك لأنّ لطور المشادة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجزوني مباشرة إلى مركز لشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكونة لعالمهم.

*

ينتهي الجزء الأول من العرض. يخفي الممثلون وراء الستار تحت والبل من التصفيق. غريب والله أمر هؤلاء الناس. يصفقون للمرأة وهي ترجع لهم أشع الصور عنهم تريهم بوضوح ما الذي يقدر عليهم من جشع ونفاق وكذب وخيانة وغدر!

يعبر جاري بصخب كبير هو الآخر عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألقفت إليه باسمًا متأتبا:

- أنتصوّر! أخ يقتل أبا وينكح امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الإنتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكربين، ككل الأجانب وأصلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يُشعرني أنه لا يُنوي فتح نقاش مع غريب مشبوه.

من قال له إنني لا أقوى الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوق إلى معرفة الخاتمة. هل تظن أن هاملت سينجح في الانتقام من عمه؟ بالمناسبة، من هو مؤلف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء) ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أيّة قاعة لفضاء السهرة. لمّا رأيت طول الطيور قلت لنفسني: لا بدّ أنه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكورا باسم مؤلّف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلّف وليام شكسبير "مون بون مسيو".

- وليام من؟

- (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟

أحدّق في الفراغ مُطوّلاً.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها "فيثيسيا"؟ زرتُ هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتُ إليها، وبختي كما تعرف، غداً فيضمان لا يُصدّق أغرق كل شوارعها في وديان من الماء. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفانتا" والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم!

- (باحترار دون مساحيق) شكسبير ليس إيطاليا "مون بون مسيو".

- صحيح ما أغباني، إنّه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار)

ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي "مون بون مسيو"

- ماله إذن ومشكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟

- (ببداية نفاذ الصبر) خُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من الإنجليز... الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروع القتل والانتحار بعد أن أرفقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع "تكون أو لا تكون"... بصراحة أفضل أبطال تشيكراف ومشاعلم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفونكا في الداتشا الأبلية إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريبا دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأنّتي. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟

يحدّق في الرجل بذهول. لا شك أنه قرّر أن يروي الطرفة، واختار من سيتفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سينكّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

هذا الأدمي المحظوظ يُعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مده لا يقدّر بالضببط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بنكره الركبان أم أرسطراطي إنجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرّفة؟ ... هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتبها المؤلّف،

أسقطت من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناشر دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسماً أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو والمشاهدون بـ "هابي أنت"، وأن مراجعة النصوص وتزيينها قاعدة لم تسلم منها حتى، بل قل خاصة، تلك التي تُرثّل في المعابد؟

ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! بل هذه فرصة للتجول بين المتفرجين والانتباه لما لا أعيره عادة أدنى اهتمام.

ما الذي يمكن تسجيله في تقري الصغير عنهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتتطلق الألسن بعد أن فُرض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة؟

أول ملاحظة أنهم تكلفوا ما تكلفوا من جهد ومال لحضور هذا "القدس" حتى يروا أنفسهم الأمانة بالسوء في مرآة الممثلين، حتى يروا أنهم ليسوا وحدهم ضحايا مقادير ظالمة، ليستمعوا إلى وعظ يواصل الذي يسمعون في المعابد الرسمية يؤكد على أهمية الالتزام بالوصايا العشر وعواقب الاستخفاف بها... بالجدوى المعروفة لوعظ المعابد والمسرح. لا علينا، هم وضعوا للحظة كل هذه الأمور الجدية بين ظفرين. همهم هذه النقائض المعدودة ممارسة رياضتهم الروحية المفضلة: للشكوى من ظروف الرحلة، تحديداً من "عزّ مضي، من حلول مصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عدى غلت صيحاتهم، من كفت ليس فيه درهم، من ليالي تجرّع العلقم، من دنيا يأتى إليها المرء مرغماً ويغادرها مكرها".

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قُتّمنا حياة أعطينا دون تقدير اللبس والشم والسمع والذوق والبصر؟ ما الذي قُتّمنا لعالم أعطينا دون مقابل البحر والنهر والسهل والجبل وليل الصحراء؟ ما الذي قُتّمنا لكل من أعطونا دون من قصاندهم وموسيقاهم وعصارة أفكارهم ليسهلوا علينا الحياة والموت؟

موضوعهم المفضّل الثاني رواية خصوماتهم التي لا تنتهي مع كل من يعيشون معهم. هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواشٍ الحروب والانقلابات والإرهاب والشجاذ على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرقة والقتل بين الأحباب، جلّ العفن الذي يمكن طفيليات تُعرّف بالمحميين والقضاة وكثبة المحاكم والسجانين ومزوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال بالأسلس في الروايات البوليسية فالمواضيع دوماً حول من كره من ومن تأمر على من، ومن قُتل من. هكذا تُعبّر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشارع، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهمك والسب والشتم والإدانة والتهديد.

يقال أنهم يواصلون خصوماتهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التملل لحثل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسيية لمشلحلت السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة."

اللجنة! اللجنة! أضجرتوني بخصوماتكم العبيية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم النموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخمسة وأنتم أطفال في الخمسين... كفوا عن خصوماتكم بخصوص من ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ، من دان بالدين الصواب ومن يتخبط في أساطير الأولين، من الأجدد بالحكم ومن الأقدر على ممارسته.. كفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتخلل المزيد من خصوماتكم المقرفة... ماذا؟ استجبتم لدعائي. صدقتوني؟ مع من تريدون أن أتمتع بلذة المصالحة بعد أن تممت بلذة الخصام؟

يرنّ الجرس منذرًا بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعل الاهتمام بخصومات هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم كلهم.

ها هي أوفيليا تركض في أروقة القصر تتمم مرة لنفسها ومرة لتلول قعدت المسكينة عقلها.

- 'حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نوئي نوئي هاي نوئي، وعلى قبره تهاطل المطر دموعاً!!!'

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يا رب؟!'

المسكين! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهيمه استنكار الأمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البرينة وكلوديوس القادر على موبات يحمّر منها وجه ابليس.

لا يهمننا الآن موقف الخالق من خليقته وهو موضوع شائك سنعود له لاحقاً. المهم صرخة لارتس وكيف أنها تختزل أهم ما في هذه المسرحية أي ما يعانيه الأمي من الألام طوال الرحلة.

تتفحص المسرحية بكثير من الدقة عينات من هذه الألام وخاصة أسبابها الخفية.

انظر آلام الملك القليل. هو ظنّ نفسه بمأمن من قانون أنّ كل الغنائم مكسبٌ نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً. مما يزيد في الوجد طريقفةً فقد ما نتوهم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وببئ شقيق!" المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلاً في حرب مقدّسة لهان الموتُ أمّا أن يُسلب الحياة خيانةً وببئ شقيق فلا ثمّ لا.

تمعنّ في آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوماً لنفدّه يوماً آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلّق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عزّزت أدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنبّهة: كلّ ما أحبّ في هذه الحياة حرام ديناً أو محظور قافوناً أو يزيد في الوزن.

قراءة تكميلية لموضوع كوننا على الدوام كائنات مَوْجُوعَة مَوْجُوعَة لتصور عالمنا مبنيًا على شكل عمارة وسكانها موزعون على طوابقها حسب ما شاءت طاولة الضار.

القاعدة الأولى: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تُسبّطن باكراً من قِبَل الجميع أنّ حدة الآلام تُخفّف مع الطوّ، والحال أن كل ما يتغيّر هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بنلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحلل في العليا وهيكّل الآلام الذي غطي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد. ما أسخفه من صراع أخذَ جُلّ وقت رحلتي، والرهلن " التمتّع " بنفس العذاب لكن في أعلى طوابق البنّية.

القاعدة الثانية . يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوّقة في الدهايز بنفس الآليات وإن اختلفت الظروف والرهانات.

فقدّر الأدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة لتي يريد ويريد المجد الذي يريد ويريد الثروة التي يريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحلة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لتتسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارتها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسدّ وصراع وظلم. إنه العيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن تقلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةً أو فلسفةً أو ديناً أو سياسة.

اعتبر الصراع على السلطة. لا شيء يعرّفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون للتمكّن منها.

كم من قصص يرويهها التاريخ عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جرياً وراء هذه السلطة اللعينة!

طبعاً للأمر دوافع لا أقوى منها . أليست السلطة وخاصة السلطة المطلقة مشاركة الأدمي الرب في أهم مميزاته ووظائفه أي التحكم في الحياة والموت؟ داخل ملف أحداثه ما زالت تتشكل في رحم المستقبل، على مكتبي مطلب عفو لمحكوم بالإعدام. بجرة قلم يمكن إيقاف هذا الأدمي فجراً ليَجْرَ مرعوباً إلى المشنقة. وبجرة نفس القلم يمكن أن يعود قادراً على النوم مجدداً وهو لا يتربص كل لحظة صرير الباب. حدث ولا تسأل عن قدرة دكتور نصف مجنون على الحكم بالإعدام على مئات الآلاف من البشر بجرة قلم وهو يستيقظ صباحاً ليقرر إعلان الحرب .

المشكلة الثمن الباهظ الذي يجب دفعه وتدفيعه للأخريين للتمتع لحظة بهذه القدرة. وفي نفس الملف سأتهض من مكتبي والأزمة التي تصف بالبلاد في أوجها أتأمل البحر وكأنني أراه لأخر مرة. تتدافع في الذاكرة صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم... صورة الملك الطيب الذي أعطاني "بأ" اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيداً عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموماً... صورة تلك الملك المسكين الذي وُلِّي بعده والذي أخرجوه هو أيضاً ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أفقر بيت... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجته كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيداً منسياً... وصورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جباناً ويموت منفيًا. كل هذا لأن تسيير شؤون الأدميين مثل تربيعة الدائرة. إن حكمتهم بالعنف والظلم خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين والعدل تمردوا مباشرة والرقاص يفز على مَر الأنظمة والأحقاب من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادراً ولمرحلة لا تطول.

داخل ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لوعيه بتعاطم الأخطار سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد من هذا المكان ملفوفاً في خرق قدرة تقيض بدمي. نعم للسلطة اغراء لا يقووم ولها أيضاً ثمن فظيع رفض أكثر من أدمي حكيم دفعه. عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قرية من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب إلى الغابات خوفاً من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحي به قرباناً للالهة في أول جفاف أو طوفان. في نفس السياق عن مؤرخ للتاريخ الإسلامي قوله إن قائداً عسكرياً من المماليك وقع جرحاً جراحياً إلى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيذبح قريباً والقناتل بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة بوثر أعصابي؟ لم لا أعود إلى مضايقة جاري؟

أهمس في أذن الرجل الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمه تعيد عليه الحكاية التي يحب.

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يتعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتبدروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

كيف البقاء مستيقظاً؟

يجب إعادة كتابة المسرحية على ذوقي.

وفي فضاء خيالي يمسح أبو هاملت العزق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثماً بمؤخرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهاراً وبالجنس في فراشه ليلاً.

يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزير على الجيران آخر همه ما يقوله لأشقيّ.

- أه منك أينها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، أه وآه وأهات! يتوجه إليه روزنكراتز أو فيلنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكاً؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبير الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبكثير. يتعمّق فيه الشكّ وتعلو موجات الفلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النصّ ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المسكين.

تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس ملياً يا حبيبي. لم أعرفك يوماً بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب السلخن إلى الملك!

يحتمّ الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين، أين قبيل؟

- نسيّت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى الفلق.

يتنفّس الملك الصعداء مصلياً للعداء أن تزيد المعركة الرّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجة ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسماً، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تخفي ضحكة الصبليا المغرّمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هاملت يتخبط داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنزَر وتُنَبَّه؟ من يضمن له أن شقيقه لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب لولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتى نكرهه وتملّه وتعاقد جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخلوف الملك تخرج من مخالبها لترسم ملامح الواقع وكأنيها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسَقَط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه.

يا له من غيب. بينا له بكل الوسائل أن امرأته تحبه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكابتك وأن تسير يوما بذكراها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها!

ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض.

وانت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "الزهايمر" وكنت تفضل للرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين.

وانت يا ولية! كل هذا بسبب مَلِك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأول.

هل كل هذا الصخب لمجرد اعتصار كل ما تزخر به الذات من أحسيس ومشاعر لا يهتم اسرافها في اتجاه الخير أو الشر؟ أمن الممكن أن كل هذه المشاكل التي يفتعلها الأدميون هي لمجرد تدفق هرمونات الإثارة في الدم لا غير؟ أليس الأدمي أقيون الأدمي وأيضا المنبه والمنشط؟

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأدميين خبثا مفرطا ونكاء مكيفيليا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغليبيتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جل استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعلية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأن لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الاخفاقات التي يُصْحون بالشكوى منها. ولأن التجربة لا تورث كلون الجلد، فإنك ستراهم يكزرون من جيل إلى جيل نفس الكوارث بثبات عجيب.

هذه مأساة لا ينفع فيها التهمك الأنيق. يجب نكها نكاً بلسخرية الفظة فالألمي ليس فقط هلمت ولارنس وكلوديبوس وأوفيليا أي الألمي المبكي . هو أيضا هاريجون، تارتوف، جوردان وأرفان أي الألمي المضحك كما شرّحه مبضع مسرحي عبقرى آخر اسمه موليار.

أليست لسخرية أسرع تقنيات الفكر للفرز بين الصدق والزيغ؟ أليست قابلية الفكرة-أو الشخصية أو القضية أو العلاقة-للسخرية أصدق دليل على وجود خلل كبير فيها؟ لتلك كل ما هو قابل للسخرية لا بد أن يُسخر منه، أيا كانت حالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من الفضح.

إنن تُنخل هلمنة ننتنى لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيعة صغيرة وحملها نمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصة بما يعرف عن الإثا من فكر عملي وعدم تضییع الوقت في السافساف الميغيزيقية وخاصة في جذون مرهق ومكلف لصناديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتمس هاملتة وهي تتابع فعل السم في جسد الأّم والعَم.

يموت القاتلان فتتزوج هاملتة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا.

تنويعة أخرى على نفس النغم.

تندلع مشادة بين بطلي هذه القصة التعيسة فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هلمت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والذي. كيف أكون بطلة تراجيدية إنن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنتظر إلى جوليات من عليانها أو تقول أنتيجون إنني بطلة آخر زمن، لم يجديني الدهر أهلا لضرباته؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزولجانا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرضى بأقل من القتل وتحذثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلص من حماتي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- ياسنتي لنقل خلتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة.

تقرر رفض العرض لأن جوليات غريمتهما الكبرى ستهازأ من قصتها وستنتجج عليها بعمق الأمها هي. تجهش بلبكاء الكلاب فيستسلم هلمت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقي من مشاكل مع أخيك والمدعو شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمته.

تعسا لقصص الألميين، لا يغفر لنا كل ما نرتكب من أفعال وأقوال إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضح الحقيقة المرة، أننا كائنات مأساوية وهزلية بنفس القدر.

تقول وأصبعك مرفوح في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثّر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، مَنْ أعطاك الحق في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قنرة. تمهل يا هذا في شكك المزمّن في نوابي. لسْتُ ضد التعطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه. صحيح ليس كل شيء قابلٌ للهزل وكل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر. نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريفة، لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّ بها على عالم لا يطبق أي نوع من الدلال.

*

أوف! أخيرا ماتت هاملت وماتت معه القتلان وكم من ممثل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية.

يتقدّم الممثلون صفًا ولحدا بمسكون بأيدي بعضهم بعضا، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا لا يكفّ عن التصفيق بل وفيه من يرفع عقبرته يصرخ برافو، برافو. يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسه مواصلا لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقرّ أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثّقفي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصقّق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار أحمى هو الآخر لا يظنّ أنمية عن جاره، ومن ثمّ مغالبتة لزهو بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة ولحة دوز وصحرانها في الاتجاهات الأربع.

يشنّد دويّ التصفيق فتعبّرني فكرة مزعجة، أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من ركافة الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيدا من التصفيق. أخيرا يخفون عن الأنظار.

تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب اللتنة والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير.

هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمه الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فشكته حبه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "اللايز" الذي شخّص عنده مؤخرًا.

نفس الروائح والبذات والهموم الصغيرة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

في طريقي إلى البيت تتدافع الأفكار وصوت ساخر لا يكف عن الهمس دلخي : أنتم الأدميون كائنات مضحكة في أحسن الأحوال ميكية في أسوأها وفي كلتي الحالتين لا مجال لحملكم على محمل الجد.

ثلاث ساعات بأكملها في تأمل فشل الأدميين وتحمل شكواهم منه من ألام هم أولى أسبابها! فهذا فشل في الحفاظ على ملكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحب، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على حياتهم!

لماذا لا أصرخ فيهم جميعا مثل أنمي اسمه صمويل بكت: أفضلوا أكثر فأكثر.

ربما لم نأت كلنا إلا لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل طموحت بالغة الصغر، فشل شهوات بالغة التفاهة، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل خصومات بالغة العيب.

كم نحن مثيرون للشفقة... أو للازدراء عندما يكون المزاج في أوج سوداويته !

ثلاث ساعات كان بوسعني لستثمارها بكيفية أنكى. قراري النهائي: بما أن جل مسرحيات البشر عن فشلهم وألام هذا الفشل فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهد الممثلون بأنهم لن يبنسوا ببنت شفة إلى نهايتها مكفين بالتحديق في النظارة . حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا اكتفى والمغنون بالابتسام والجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعرف عليها.

نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم عن مآسي ومهازل الأدميين والثمن الذي يدفعون كله للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت.

**

مدى ما يعنون لتعلم ما يفرض عليهم تمثيله من أدوار

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهد الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب قُل عن ترويض-الممثلين لأداء أدوارهم.

تخرج أليرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير: جئتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم... يبرز من وراء الستار المخرج ييادرها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تخلين مكانا عاديا للقاء عادي. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهذب بغضب الله وكالك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجدية يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجني من صمته متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدتان إلى الأمام كأنها تتضرع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُدِّي ورواح من وراء الستار إلى نون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إما تهزول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر اثاره للسخرية. يصرخ فيها الرجل لا يخفي مله.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهزولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها: - جئتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أن من أحببت يتعرض لغضب الله. أتيت لتذكيرك والتوسل إليك لتتقادي غضبا بدأت مؤثراته تتجمع.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا! إلفوك مثل ماء بركة أسنة. يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسؤوني أن أعلم...
- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهان إنقاذه من لعنة أبدية. هذا تفسير نص. كأني أسمع النقاط التي تختم الخُمل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.
قال أحدهم المخرجون نوعان من برييون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة أنهم فعلا آلهة. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقامها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه.

تبلغ المرأة ريقها: مجددا:

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. و...
المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفر بين مخالف القطر.

أخي غرابة في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتبط بطنك في تديفة مقطوع من دور في سيناريو ضببطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن أفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرري عبره مشاكلك الشخصية. لكنني غير مهتم بالبنية بمشاكلك الشخصية! أفيرا وحدها التي تهمني. ما هي مشاعر أفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا لعقاب الهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصور إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تيكيت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حب لغير الله. أين المشاعر الملتهية؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتى أنك تشعرين!
تبدأ الممثلة في الشكوى تلمح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهلت. لا خيار للآلمي غير مواصلة تعلم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقرها المخرج وحده.

يفتعل المروض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلت لك كم من مرة ليس هكذا!

إنه تصرف كل من يعلموننا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا سلاحك على طول الطريق المرّبي والحبيب والمنقّس والشرطي والقاضي والزيون والتلميذ والناخب يصرخون فيك "ليس هكذا!"
بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلسفة وأنبياء ودعاة يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس هكذا التصرف، ليس هكذا الإيمان!

يصرخ "يا" رافعا عقيرته: اللعنة! ليس هكذا! انفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا:
ليس هكذا! ينتهد مطولا، يمسط جملته بما معناه: أرهقتي يا ولد، أصببتني بالقرف
والغثين، ليس هكذا!

كلنا ممثلون نتبع أوامر مخرج مخفي يصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا !!!
تُرى هل أضفتُ شيئا لدور الابن والأب والحييب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحقّ
وهو يصرخ فيّ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟ كم صعبة هي هذه الأدوار التي تُجبر
على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكر، على
الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظارة!
كم من مرّة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وفي أخطر
التمثيلات.

يحقّق في كبير الشرطة السريّة طويلا يظنّ أنني أول من سيحوّل اتجاه النظر:
- نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أنذرنّاك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى
الأمر الجنيّة.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني!
لم يكن الرُجل المخيف يهدّد في الفراغ.
هذه المرة بيد أنني تجاوزت ما يسمونها الخطوط الحمر. يصبّب البوليسي المكلف بدور
البشع مخزونه من الشتائم ثم يمرّ لصلب الموضوع قل لنا كل شيء. يحقّق فيّ زميله
المكلف بدور الطيّب بلتسامة فيها تصنع التعلطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا
به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغيّيل لا يعرفان أنني لا لكفّ عن تقييم
الأدوار التي يلاعيني ليأها الناس، بحسّ الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في
ميدانٍ ملأسف فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وأصيح الاتهام.
ليس هكذا، ليس هكذا، أوف! أوف! ما زلتم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب
والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!
أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف
من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل
الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.
يبتسم المكلف بدور الطيّب. مؤكّد أن طرفاة الوضعية جدت لديه الانتباه. يُفتح المكلف
بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحه بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا
يُفسدوا الطيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّه.

المضحك المبكي في الخصومات والمعارك التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل
الفاطين فيها يعتقدون أنفسهم أختيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عاتلة في
مواجهة أصحاب قضايا ظالمة... تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ

بداية التاريخ بين أختيار أشرار وأشرار أختيار، بين مهوسين بهذه العقيدة وهاذين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على فريسة الصيد وشرسين جشعين يريون الفريسة لهم وحدهم... والأدمي على الدوام كذاب مقترى عليه، سارق مسروق، ضحية وجأد...

ينفجر الرجل في وجهي:

- أنا الذي لقي الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأني أسمع لسن حاله يستعظني: لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جُلهَا، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمك العنب تورك لألعب دوري وإلا فإيها الفوضى.

نعم، لا بد من أن يلعب كل دوره وإلا فإيها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسنتُ المكلف بدور المحرض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى مطلقا كل تجديد.

تسمح الممثلة نموها وقد بدأت تفقد لسيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جننتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله،... يستشيط المخرج غضبا غير مقنن:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردد لك أن ما يعنيني ألام أفيرا لا ألامك أنت، أعيدي، أعيدي!

المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتئين؟

تتلعث المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جننتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسووني أن أعلم...

يعود المخرج للصراخ وقد أصبح شبه مقنن أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبة.

ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للادميين نموذج واحد ومتفق عليه لـ"كيف هو الهكنا" وإنما مقاييس تُنفس مقاييس ومقاييس تُشرع لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرعها.

ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل مشاهد صامت متزايد الاستتكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرّي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنّه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى تهدأ المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

انتهت استراتيجيتي الطيبة. يجب العودة إلى تور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! لنجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!

هّم المخرج اعتصار أقصى الألم والرقة والحبّ والتهيبّ والرجاء من ذات مشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإقصاص عنها.

- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنه دون جوان الرجل الذي أحببت و هو مهتدّ بلعقاب الإلهي. يجب أن يضحّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرع والرجاء والتوسل. ربّما أمكن إنقاذ لشيء إلا لأنّ نيرة ما في كلامك أصبلته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرد علو نبرة أو تهدج صوت.

تعود المرأة لترديد الجملة اللعينة على وشك الانفجار بلكية

- جنتك اللبيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبي اليوم...

- كفى. ألم الفيرا بلا حياء أو تكلف، ألم مطلق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه الفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.

- جنتك اللبيلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم...

حصّلت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات الفيرا. تتدفّق الكلمات بلا نقط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خرير. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!

يخرج المخرج من حالة التقمص العجيبة هذه لاهثا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنهبة:

- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليتملئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيكمّن، أو ماذا؟ فتح نواتنا ليحلّ فينا؟ الطول؟ اليس هذا المفهوم
المركزي في رؤيا توصف بالصوفيّة؟
الانتباه هنا للمعنيين لكلمة التمثيل. ثمة الممثل بمفهوم المسرح...والممثل بمفهوم
الدبلوماسية. هل نمثل بالمعنيين للكلمة؟
إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، يكون السؤال لماذا حكم على الأدمي بأن يمثل
أدوارا ليست من اختياره ويشقى طيلة حياته لتعلمها؟
إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، السؤال هو من هذا الذي نمثل ونحن نلعب أدوارنا والذي
يجب أن نفتح له اللاوعي لينطق فينا؟

**

أدوارهم المفضلة وما تكشف عن كبرى المشاكل التي يتخبطون فيها

المخرج الآن آدمي اسمه زي.أمي. ترى ما الذي سيضيف لكل من حاولوا فهم من نكون ولماذا هذه الحالة المضحة المبكية التي نحن عليها؟

تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطلبة. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهبٍ عايشٍ القصة الحقيقية للآدمي بل ويعرف كل التفاصيل.

يتوجه إلى مشاهدين كلٌّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمصا شخصيته ومتوجها إلى نفسه.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

ثم يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يارب البيت، أنا مسافر قادمٌ من بداية الزمان والطريق أمامي ما زال طويلا.

مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟

- قدّر كل آدمي أن يظل ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلا توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته سلطنا لا يزجج نفسه أو أحنا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرك به، فيمن الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

- الصنفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلا أزهقت روحك.

الممثل لايسا قناع الراهب متوجها إلى النظرة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهت إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعت عن علمك وحكمتك وأنتك تعرف أسرار العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعت أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط لآدمي يحمل سراً لي حاجة ماسّة إلى معرفته.

إنه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجرت ابن أخيه وجئت خطيبته. يقال إن فظاعة جرمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فر من القصر واستجار

بهذه الغاية ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدّعي إنه تنسّك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثا عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشتاعات أخرى لا تشفي غليلي! إثنى أجري وراء الرجل منذ زمن عليّ أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجالّد، ربّما لجرانمه ظروفٌ تخفيف. لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقّة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كاني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. لجانبي صاحب المكن بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدا صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبيكت الضمير وكيف استحالته حياته جحيما وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.

كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها.

هنا يتبادر الشك إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثيره. هذه ليست تصرفات شخص حكيم قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو.

يشنّد القرع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظرة صارخا: لا تصدقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنف.

يجب التوقف طويلا عند صراخ هذا المزجج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟ أترأه يوحي بأننا كلنا ممثلون، أننا طول الوقت نمثل -حتى لا نقول- ندجّل على أنفسنا وعلى الآخرين وأنتا أغلب الوقت ممثلون على قدر كبير من الرداءة؟

يبدا الممثل في الانسحاب ووراءه المهزج.

مهلا أنت الممثل. ما زلنا بحلجة إلى خدمتك. أثرت اهتمامنا بفكرة ليس قناع الدور على الركح ثم خلعه لتتصّص دور آخر. تفضل واليس أفضّة أهمّ الأدوار لتي يمثلها الاممي

والتي تتردد من جبل لجبل بثبات مُلئت للانتباه. أما أنت المكلف بلصراخ لا تصدقوا شيئاً، الزم مكانك سنستدعيك كلما تمكّن منا التبدل من جديد.

يلبس الراهب قناع روبنسون كريزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك: يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة تزار كأنها وحش يريد لتهامني. ولحظة خلت أنتي على وشك الموت وجدت نفسي مرميا على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العتبية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمرّ يوماً وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الأنمي. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة .. هو الذي جاءها طوعاً.

يخلع الراهب قناع روبنسون كريزوي ليلبس قناع سيجموند.

ثم يبدأ في الإلقاء الحزين: أخيراً بعد طول التشرّد في الغلب الموحش الخطر للجزيرة المنسية من الآلهة أبصرت كوحاً قلت قد أجد فيه أخيراً ملجأً يحميني من الموت الذي يركض ورائي. فتحت لي سيجليند الباب. إنها الأخت التي فقدتها والحبيبة التي ستحمل قريباً طفلي في أحشائها. تردّدت لحظة في الدخول. صرخت في وجه المرأة: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يخلع الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجليند.

تصرخ سيجليند: لا عليك، خلّه هذا لشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمّن فيه من الشقاء، لكنّ خارج هذا المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الأنمي ... الشقاء لم يوجد إلا بوجوده.

من الأفضل وقد تورطنا بمجيبنا هذا العالم الثبات والمواجهة.

يخلع الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكريد ثم يأخذ في الصراخ.

الأنمي بطل لا يرهب لا القزم ميم ولا فأفرن التنين ولا حتى الربّ ووطان. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء أسنة النار.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الأنمي. إنها قصة أخرى ستنتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بحرقه تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة أجمعين.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليليس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوحا بعصاه وتحت الإبط اللوح المحفوظ الذي خط عليه يقيه بنفسه أوامره ونواهيه للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: ما زلتم تصنقون خرافة وجود إله مهتم بكم فردا فردا ومشغول بمصيركم أفرادا وشعوبا! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتابع حسنت وسينات كل نملة ويقرر أي نملة ستنتهي في النار أو في جنة نعيمه... على كل حل ليحتفظ بوصاياه لنفسه فيالنسبة للآدمي في حالته الطبيعية أنه لا أكثر إثارة للشهوة من زوجة الأخ ولا الدُّ من سرقة حملا.

يرمي الراهب على الأرض غاضبا بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهللا فاتحا ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الرب انتبه لوجودكم أخيرا بل وقرر أن يبعث بابنه الوحيد ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعت فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: قولوا له يحتفظ بابنه، لوكان هذا المنقذ قدرا على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من إشع موت ممكن.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليليس قناع الدكتور فوست. يصرخ الممثل: ما زلتم تتقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونذوركهم؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا ابليس، تعلوا ارهنوا اراحكم عنده كما فعلت.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتبهوا للفتح. الشيطان ليس أكثر جدارة بالثقة من سيده.

يخلع الراهب قناع فوست ليليس قناع بنج-لو صارخا: انا ابن السماء لي الحق في مطلق السلطة والحرية والجنس لا أخضع للشيطان أو إله لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا هذا الدعي، إنه مجرد آدمي سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين ألّف رؤيتهم بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع بنج-لي ليليس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هدنة وربع إبشامة تضيء وجهه يدعي أنه لا حل لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكتس من كل أرجاء الذات غير وقادورات الطموح والطمع والغضب والحق. هكذا يستطيع الأدمي مواجهة ضربات العالم لا يرفث له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نبتز جزا من ذاتنا؟ ليس الغضب والخوف والطمع وكل المواقف التي تأتيها من ارتكابها لذة

الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبْنِيًا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبي. يصرخ الممثل لا حلّ إلا الذي أمركم به " لا تَلَقْ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرَبٍ مَادَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَيْتُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ يتوجّه إلى النظارة صارخًا: لا تصدقوا حرفًا من هذا الدعي الآخر، لا أحد اشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الألمي المعروف بجمعته الفارغة.

يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع المغني سارج فلنسيبورغ. بعد حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن يستعمل نارها لإشعال سيجارته ها هو يحول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث مضاد.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخًا: إنه ممثل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا همّ له إلا إثارة الاهتمام باستفزازات مرهقين. الدور الأخير.

يخلع الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعًا، تدبرت أمرى للفرار من تلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخًا: هذا عالم -أرخبيل كل جزره محتشد بجاور محتشدًا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أقطع.

يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الألقعة المتراكمة على خشب الركح ثم يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب الساكي الى اللصبح مع سكارى الحي.

هذا عالم لا منفذ فيه (هايكو لمجهول)

لا مهرب لأحد

لا حدود له لكن كم هو ضيق

**

أوكيف أنهم ينتظرون دوما شيئا أو أحدا والموت وحده من لا يخلف الميعاد

هذه الليلة يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضا في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوع عنصر قارّ في أغلب قصص البشر: الانتظار.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات ادوارد هوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئا أو أحدا.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما التعليل دخول راعي الماعز الصغير حاملا أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكل تأكيد. نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنى بالأمر.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب مئى السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غدا.

- لنفعل ماذا؟

-انتظر فودو.

كلّ الزمان توقف عند نفس المشهد.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب مئى السيد

فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

أتى أم لم يأتي، اهتمامي كله منصب على قاعة العرض. عندما ينحسر التبلد ويحضر

الانتباه تعي بأن أهم ما في المسرح ليس الممثلون وإنما النظارة و قبلة الأنظار يجب أن

تكون القاعة المكتظة لا ما يتحرك على الركح. كيف لا وأنت هنا في مكان جدّ خاص

سُحِبَ من قائمة كل أماكن العلم التي لا تتحرك فيها إلا مصحوبا بكمّ كبير أو بصغر من المنغصات والأخطار.

لا خوف هنا من تهائل المطر أو من زوبعة تلج أو من رياح رملية عاصفة... حتى البعوض تمّ التخلص من ازعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة... لا خوف فيه أيضا من حيوانات كاسرة تترصد... أما الأُميون فلا أحد يحمل بازوكا أو مدفعا رشاشا ولا خوف أن تتشبب بينهم خفاقة يصفون فيها حساباتهم فيلطحون ثيابي بدمائهم وربما بدمي.

هم كلهم في وضع مطمئن لا تخشى منهم ولا تخشى عليهم شيئا باستثناء تجدد خيبة الأمل. أغلبهم يعرفون أن المطلوب حضوره لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشرّبة نحو الركح كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصدق المعرفة. المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم.

كلهم ينتظرون أحدا أو حدثا... ثمّة من ينتظر الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو وصول الحبيب، أو قدوم المخلص، أو المدينة الفاضلة، أو الحزبية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت. كلهم ينتظرون من العالم شيئا والعالم يسرّ فيمن يريد يسمع: بل أنا الذي نفذ صبره، طال انتظاري لما أريده منكم لا أراكم تفهمون.

يتكثف الصمت داخل القاعة كأن التوتّر بلغ قُصاه. لم يعد الممثل الأول يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:

- قلت لك إننا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:

- وأين كنا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نضيق وقتنا في حُطْب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنه من غير الصحيح لُثم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمة أحسن منا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجه إلى البشرية جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشرية هي نحن. لنغتتم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُشرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُشرنا فيه! هل يقدر الرجلُ خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشرنا فيه! الشكل الانمسي غلاف! من حُشرنا فيه، لأيّ عرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟

بتعمق الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي وقت في لعبة الانتظار .

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب مئى السيد فودو إبلاغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد .

ترى من هذا الذي لم يأت لحد الآن ولمانا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعادة الأبدية التي لا غشّ فيها؟ أن يأتينا أخيراً بالترياق الواقي من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟
يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حال سبيلنا .

- نعم فلنذهب .

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا .

كم من معابد مسارح تنوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلا بعد طول الترقب لكنه صلب على خشبة تهرط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى! ... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص سيأتي دون أننى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الأدمي! لكن كم من مرة جاء المخلص قام بواجبه ثم رحل ولا أحد انتبه لمجيبه أو لرحيله!
يعود الممثل الثاني إلى الصراخ ماذا نفعل هنا؟ مجددا السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما اقتعلنا تجاهله .

- طلب مئى السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد .

كفى من هذه الجملة! المرأة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتى يتلقى واحدة منها، أو حتى بيضة إذا كررها ثانية .

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مرددا:

طلب مئى السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد .

يقول الأدمي لنفسه أو لتو عمه في الاشقاء:

- ماذا لو تخلينا عنه؟

- قد يعاقبنا .

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحية .

- نشفق أنفسنا. لديك حيل؟

- حزام البنطلون .

- إته قصير .

- تجذيني من القدمين .

- وأنا من يجذيني؟

أصبح صمت النظارة هو المثير الأعصابي .

ما الذي يدور بخلدكم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقرب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحب من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفصل حالاً فسأخذ صدك الإجراءات الضرورية.

تنطلي الحيلة على فودو يفهم أنه خُسر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هلو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقلت الزحمة!
يتسمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يغلقه. ينفجران بالضحك.

- فودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المقفوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرجت إلى هذا الحد، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء إلى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب مني السيد فودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبهنا لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت مني الشمس أن أبلغكما أنها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكل تأكيد،

(ضحكة شامتة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقتنع معقلى بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى". لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همّه واهتمامه منصّب على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو فودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحذوه أمل عارم أن يتعرف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأنشيد الدينية في شوارع المدينة الجنلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل. تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

صحيح إذن لم يبق إلا أن نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بيكت وإلا لا نُلم إلا نفسك. يأتي الرد الشهير: لو كنتُ أعلم لما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خَلَقَ كائنين ورَطمهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدّعي أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنقذ من الانتظار كأَنَّ على رؤوسهم الطير والكل مقتنع في قرارة نفسه أنه أخلف موعدا بالغ الخطورة لأنه قصّر في شيء ما لا يعرفه؟

هنا أسرع إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو فودو...أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أولهنا. أما المهمة التي جننا من أجلها والتي انتظرتن عبثًا تأكيد ما تعرفون فهي "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

عن أي طبيعة بشرية يتحدّثون؟

قد لا توجد ظاهرة تطرح عليك كما هذلا من التحديات في فهم الأدميين والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاتهم والتباين المدهش في مواقفهم وأنت ترى دوماً منهم:

صغِيرٌ يطلُبُ الكبراً	وشَيْخٌ ودَّ لو صَغُرَا (العقاد)
وخالٍ يشتهي عملاً	وذو عملٍ به ضنَجرا
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقرا
وذو الأولاد مهمومٌ	وطالبهم قد انفقرا
ومن فقد الجمال شكى	وقد يشكو الذي نُهرَا
ويشقى المرء منهزماً	ولا يرتاح منتصراً
ويبغى المجد في لهفٍ	فإن يظفر به فترا
شكاةً مالهم حكّم	سوى الخصمين إن حضرا
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حَيَّرُوا القدرا

لسؤال هل يوجد وراء كل التباين الذي يظهره الأدميون في أهم خصائصهم ما يوحد بينهم بغض النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ويسوتون يوماً؟
بعبارة أخرى هل ثمة نواة صلبة تكون قاسماً مشتركاً بينهم رغم تعدديتهم العجيبة وهي التي يسمونها الطبيعة البشرية؟

عما نتحدّث؟

لنقل في مقاربة أولية أن هذه الطبيعة البشرية المقترضة في مفهومها السائد منظومة من الصفات المادية والنفسية لها ثلاث خصائص:

هي موجودة عند كل لبشر وذلك أياً كان تباينهم في العرق والعمر والدين واللغة والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجاً.

هي لا توجد إلا عند الأدميين وتميزهم عن بقية الكائنات الحية. التعذيب نموذجاً.

هي ثابتة تنتقل من جيل لآخر منذ غابر العصور دون تغيير يذكر. الكلام نموذجاً.

المشكلة أن هناك شرط آخر للحديث عن طبيعة الشيء أو طبيعة الكائن: التناغم.

مثلاً، من طبيعة الحديد كما يعرفها المختصون الذوبان إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538 درجة. لكن أي استغراب سيتمكن منهم لو اكتشفوا أن الحديد يرفض الذوبان تارة إذا كانت درجة الحرارة 1600 درجة ولكنه يقبل بالذوبان تارة أخرى إن وُضع بضعة دقائق في الجليد.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ أمام السبع الذي يريد التهامها، لكن أن تفرّ منه مرة وتجاهله مرة ثانية وأحياناً أن تهاجمه بقرنيها الصغيرين !!!

إنها الظاهرة المحيرة التي ترصدها وأنت تتفحص مواقف وتصرفات الأعميين في أغلب مجالات الحياة.

اعتبر أولى وأهم متطلبات الرحلة ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة في كل مرتحل لمواجهة عالم حافل بالأخطار.

تكشف بلكرا أنك أمام نوعين من الأعميين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حط فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استنارته الأساس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرع في مغادرة الوكر. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم تستفز أنيابه ولا درع يحميها سوى الجراة والتحدي. ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأثني وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاطم الأخطار تتعاطم الغنائم، أنه لا بدّ "مع الشهيد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أثن من الشهيد. لا شك أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعين لمهمة أخرى في عالم أخطر.

لكن ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ ليخذه بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرج من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. ها هو على الطريق كالغزالة التي تركض وسط أعشاب عالية تتربص داخلها الأسود.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

قد يشتمّ من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النمذج النقية.

لنتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشد الإعجاب: الشجاعة. هي فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهريا وموجودة كاملة عند أقلية. لكن لو دقت فيها لاكتشفت أنها أغلب لاوقت-عند الأكثرية خليط من العيوب كالتّهوّر والمجازفة والخفة والبحث عن التصفيق ومحاكاة الأبطال المزعومين.

والأن تمعن في مشاعر كل أدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غيب الخوف أو اقتلاع من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فن إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فن التغلب عليه.

أيا كان المزاج ثمة ضرورة قاهرة لفهم هذا العالم ورصد ثوابته وقوانينه للتعامل مع الأخطار التي يفيض بها والأمر رهن بالقدرة على تجنيد طاقة اسمها العقل. ها أنت كالعادة أمام توجيهين متباينين. الأول الأدمي العقلاني الواعي أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل. والثاني الأدمي اللاعقلاني الذي يختلق الأساطير ويجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بلسحر والصلاة. هنا أيضا يمكن للموقفين التجاور في نفس الشخص: نموذجا نيوتن الذي كان عالم فيزياء كبير وممارس مواظب للسحر.

اعتبر الآن كيف يتعامل البشر مع ما يواجههم العالم من مشاكل وإلى أي مدى تتباين قنراتهم على اتخاذ المواقف الصحيحة التي يتطلبها الوضع. يقول ملاحظ حصيف في الشؤون الأدمية اسمه سيبو لا أنه لا يمكن الحكم على الأدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة " أعراق أدمية: الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى. وراء تصنيف سيبو لا خير سيء وخير أسوأ. بماذا أبدا؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأدميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأنكباء لا يقرّون خطورة هذا النوع من البشر خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفاضلة.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغير في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قلّة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

في نفس السياق للخليل بن أحمد رباعية أخرى تعكس بنفس التباين الموجود بين الأدميين وداخل نفس الأدمي وهو يمر من حالة لأخرى: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخنوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فنكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

"إن تعرف وأن تؤمن أنك لا تعرف... قصة الفضيلة (لاو تسو)
ألا تعرف شيئا وتؤمن أنك تعرف... مرض الناس"

أيا كانت الأفعال التي يأتياها الأميون وأيا كانت نتيجتها فهي دوما في خدمة هدف فار قد يعكس هذه النواة الصلبة المشتركة التي قد تكون طبيعتهم .

هم على اختلاف أصولهم العرقية والدينية والاجتماعية وتباين عاداتهم وتقاليدهم ومؤهلاتهم الذهنية لا يسعون إلا لتحقيق غاية واحدة : التحكم .

هم يجاهدون للتحكم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت... للتحكم في نواتهم يريدون نحتها لقترب من مثال صنعه الخيال الفردي والجماعي... للتحكم في رفاق الطريق عليهم يكونوا مطية لا عقبة.. للتحكم فيما يسمونها الطبيعة بيغون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم... للتحكم في العالم بوضعه داخل لطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل.

هكذا خلقوا السحر والطب والعلم والتكنولوجيا والدين والسياسة والحرب والفن والتحليل النفسي، الخ، الخ.

كالعادة سترى الاميين يتوزعون على طيف الظاهرة. في أقصى الطيف تجد العبد الذي لا يتحكم حتى في جسده. على الطرف الآخر تحكم الطاغية في شعب من الرعايا أو تحكم الشيخ في مريده أو تحكم الغاسل في جثمان الفقيد.

بين النقطتين القصوتين كل درجات الفشل والنجاح في فرض الإرادة.

النتيجة عادة تسليم الاميين يوما أن اجسادهم هي التي تتحكم فيهم وأنها هي التي تقرر متى تخرج من الخدمة... أن سلطتهم جد محدودة على ذات صنعتها قصص متقدمة على وجودهم وتواصل صقلها ظروف مستقلة عن ارادتهم... أنه يستحيل التحكم في بعضهم البعض وقد جُبلوا على الصراع الشرس والتنافس المزم... أن محاولة التحكم في طبيعة لا يفهمونها إلا بصفة سطحية خطأ الجهل وخطيئة الجشع وأنهم يدفعون ثمن تطاولهم عليها غالبا إن عاجلا وإن آجلا...

ثمة منهم من يعهدون لأخر محاولة قل لأخر حيلة للتحكم على الأقل في هذه الذات التي هي كل ما يملكون.

أنهم كل من تصوفوا أو تسحبوا داخل الأديرة والهدف التخلص من كل أشكال شهوة التحكم كشهوة المعرفة المطلقة أو النمتع المطلق بطيبات الحياة أو القدرة على فرض الإرادة على الذات الأخرى والعالم برمته.

لكن أليس ما يحرك اعتزالهم وتنسكهم وصلواتهم للتخلص من شهوة التحكم، شهوة أعمق وهي شهوة التخلص من شهوة التحكم أي أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا خروج منها بأي نوع من التججيل على الذات؟

هذا ما يؤدي بنا للحديث عن مزاجهم وهم دوما في مواجهة عالم لا يبخل عليهم لا بالعطايا ولا بلعصا.

تجد فصيل المتشائمين ونستطيع أن نعدّ من بينهم كل الذين سكنوا بعد أن بخت أصواتهم بلتقدم "الحتمي" وبلتحاق المتخلفين بالمتقدمين ويقرب عصور الحب والعدل والرخاء... كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله... كل الذين اكتشفوا أن الثورة قريبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم.. كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمر، بالأفيون، بمهدنات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوما... كل الذين سلموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا... كل الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضينا مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظ أن ليس لنا مستقبل.

ثمة فصيل المتفائلين ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس والكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للأدبي الضاحك المضحك، المرح، الثرثرة، النهم، السكر، العاشق، المبتدّر، السلخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحب لها حبّ الأكلول للذجاج المحقر.

انهم المؤمنون بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعث ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي. كما هو الحال دوما مع الأديبين تجد شيوخ تظنهم في حداد مزمّن وهم يحتون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بلقن، وهناك أيضا كثير من المرحين ظاهريا الذين يمارسون الكآبة السرية.

هذا ما يؤدي بنا لرصد صنف ثالث من الأديبين قلما ينتبه له المحللون: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التساؤم لعلمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التنازل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه.

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في طريقة التعامل مع العالم ككل. ثمة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرّ على تخليصه من القسوة والفضاعة والقيح والظلم. مثل هذا الصنف في حرب لا تضرّ أوزارها أبدا لتغيير ما ليس قبلا للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضعينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلّ خططه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عنّ هو سلخظ عليه ولا يحبّ من يكرهه، فبُك ستراه يكيل الصاع صاعين لصالحنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقة متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمّ حياة الضيف وحياة مُضيف يَفر غظا من نقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه.

وفي المقابل ثمة الأدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقضه السذَّج يبكي ويصرخ. لنفُح حتى لا تنتهمه ببلادة الحسن إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مفاسه، وأنه اكتشف بطول ممارسته له. أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغايط والتركيز على الورد. فرُّق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرٌ سبيل أنيقٌ لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريمٌ ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم.

لفاعل إن يقول ماذا عن الثنائية التي تختزل أهم ما شغل بل الفلاسفة والأبهاء والقضاة والمصلحين وشتى مشنقاتهم من ثوريين والمعتدلين أي ثنائية الخير والشرّ وما العنصر الغالب الذي يجب المراعاة عليه للتنبؤ بما سيؤول إليه مصير الأفراد والجنس البشري برمته.

كم من أدمي تركَ الحبَل على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلُّط. نموذجاً ليفيا وهي تدفر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمم الأقارب والأباعد، لتعيد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سويّ.

في المقابل تجد آدميين من أمثال المسيح ويودا ورابعة العودية والأم تيريزا وغاندي. المشكلة أننا أمام النقطتين القصوتين لطيف واسع من تصرفات الخير والشرّ هو الذي يتحرك عليه أغلب البشر باستمرار وفي الاتجاهين. معنى هذا أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقديسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقية للمومسات لما كان حكمنا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة المهينة.

تُطرح قضية تعددية المواقف والتصرفات ومنها الأخلاقية الأسباب المفسرة وربما المبررة لوجودها.

*

في فيلم غناني شهير يعرض أب متشرد سكير على البروفيسور هيجنز بيعه ابنته ليزا دوليتل بعشرة جنيهات حتى يجرب عليها نظريته في علم الكلام وربما أشياء أخرى.

ردا على استنكار البروفيسور هو يساومها مكانياتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صاحب أخلاق وأن أنزل تحت هذا المبلغ.

ثمة إذن آدميون تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشتهم بأن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي المقابل ثمة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصاً، قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم.

أسهل هذه الظروف الموضوعية رسداً تلك التي نصفها بالاجتماعية الاقتصادية.

ولأننا في نصّ يشبه الحياة برحلة فلتختل معي "قطارا" نعبّر به هذا العالم وفيه أربع درجات جد متباعدة في كل ما يخص الرفاهة والأمان.

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها النساء الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة يفضل تمتعن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وتفاني الآخرين في السهر على رفاهتهن. خلفهن ترتيباً مباشرة رحلة الرجال الأغنياء لتمتعهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو أنهم يعيشون أقل من نساءهم لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلف للقلب.

القاسم المشترك بين رحلة الدرجة الأولى والثانية أنهم هم من يعطون الأوامر لا من يتلقونها، أن أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون وأنهم لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام.

هم أيضاً من يخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخبرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثلث درجات 'قطار' الرحلة هي التي تسافر فيها النساء الفقيرات. هنا تتعدّد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرضى نتيجة تفتير العالم بما جاد به على الأغنياء نكورا وإناثا.

أين رحلتن حتى هنّ من رحلة الأدميين الذكور الفقراء ركّاب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحتكّم عما يعيشون طوالها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرده الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يكلون من فئات ماندة لسدة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقّ غير قابل للتصرف في قلمة طويلة من الأمراض تُزايّد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُتصوّر من أصناف للوجع.

إنهم من يخترعون الأدب والنقابات وحركات المقاومة والثورات الفاشلة منها والناجحة نسيباً. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة الأثرياء من الرجال والنساء) بأنهم جهلة، قرون، لصوصّ، مجرمون، أوباش، رعاع، عوامّ، إرهابيون ومخزّبون. بداهة ثمة ظلم فلاح وراء هذا التنظيم لفقلة المرتحلين.

هل طبيعة التنظيم المتقدمة على ولادتنا هي سبب ظهور الشعور بالظلم، أم هل أن وجود الظلم كمكون صلب ودائم للذات هو سبب الحيف في توزيع ظروف الارتحال؟ بعبارة أخرى هل توجد وراء الظروف التي ننعته بالاقتصادية والاجتماعية قوى أعق وأقوى هي التي تحدّد لنا الأدوار ومن ثم الخصائص الكبرى وما ينجر عنها من مواقف وتصرفات.

لكاتب يدعى برنارد فرير رؤية تنتصر للاحتلال الأخير.

يلاحظ هذا الباحث الحضيف الآخر في الشؤون الأومية أنك إذا وضعت سنة فتران في دهليز ووضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف جولجز عدة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضع المحدد هذا يفرز بسرعة تنظيمًا يتشكّل من سيّدين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وعيّنين في خدمتهما، ومتمرد، ومتسول يعيش على الصدقة وفترات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمعت سنة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكليّة: سيّدان وعبدان ومتمرد ومتسول. إن أخذت سنة مستضعفين أو سنة متسولين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه نوّما، كلّ هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائل -اشتّم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فترانا. ردي أن الدهش ما يُظهره الفتران من أوجه شبه عديدة بنا.

المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعي لتقسيم الأوميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يدعّمه. من يستطيع إنكار توزّع الأوميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمردين ومتسولين؟

من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون لتسولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصّل إلى التمرد.

كل المجتمعات وأن تباينت تعقيداً و"تقدماً" مبنية على نفس النموذج... الخرفان في المراعي والاسطبلات، النذب في الثكنات والقصور، الأسود في الغابات والسجون... والكل يتخبط في أوهام بيدها الزمان كما تبتد الشمس الضباب... أوهام الخرفان حول قرب وصول المسيح المخلص... أوهام النذب حول دوام حال لا يتوم على حال... أوهام الأسود حول قنرتهم يوماً على الحكم دون أن يصبحوا بالضرورة أكبر النذاب.

أيّ عجب بمثل هذا التنظيم أن تتزاحم في الفضاء الرمزي ديانات سادة متسلطين وديانات عبيد متسولين وديانات ثوار متمردين؟

تعود إلى السطح إشكالية قديمة قدم الأوميين أنفسهم: هل هذا التنظيم المتكرر نتيجة كوننا كائنات مسيرة أم هل نحن بما نظهره من قدرة الثورة عليه. وإن فشلت أغلب الوقت - كائنات مخيرة؟

تجد كالعادة ما يثبت الرأي والرأي المعكس.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي...من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت.
ترى من سيجهز على العدو مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمد له بقرية الماء لبيال شقيقه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخرج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذلك؟

التجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان أيا كان تشابه الوضع المحدد.
خذ أميا وضعه في أقصى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظفاره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلا بالجملة ومن سيصبح قديسا...من ستحتكم فيه غرزه ومن سيحتكم فيها ؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ أميا آخر ووفّر له منذ نعومة أظفاره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وهبته الحياة وخرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

بخصوص هذه الإشكالية ليسمح لي القارئ بالتوقف لحظة عند ظاهرة لم تأخذ في هذا النص حقيها من الاهتمام والحل أنها أهم ما يميّز الأدميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لا راعي حكى يوما أنه شاهد بأمر عينيه خروفا يخرج من القطيع ويتوجه لحاقة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قرّر أن الحياة الروفية غير جديرة بأن تعاش. كذلك لم يعرف أن بقرة في اسطبل دخلت في اضراب جوع احتجاجا على تعسف صاحب المزرعة. في نفس السياق لا أحد أدّيت أن شجرة اضرمت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستتحرر أكثر أنواع الروبوتات تقما (ربما هذا ما سيرقص له مخترعوها طربا وقد أيقوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق)، لا خيار أمامنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا "ينعم" بها إلا الجنس البشري.

توقّف على الصورة قبل أن يطلق الأسمي الرصاصية على صدغه.

تخيّل معي كل رسائل هذا الراحل عثا يوجهها لكل من يهيمه ولا يهيمه الأمر :

أنت الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغائلك جملة وتفصيلا.

أنت العالم بكل اغراءاته التي قيّدني بها طوال رحلتك لأتحمل كل موبقاتك وقسوتك ولا مبالاة، لحفظ بغراءتك لم يعد لها عليّ أي سلطان.

أنت القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي لأنني أرفض مواصلة تجربة لا أقبل بتكلفتها ولم تعد تعينني لأ أسبابها ولا أهدافها. أنتم المؤمنون بهذه القوة، على حدائي ما تتوعدوني به من عقاب لتمردي هذا، لم اعرف من عقاب أشد من الارتحال معكم. هل ثمة تحكّم فوق هذا التحكم والأيدي يثبت ولو عبر ظاهرة رهيبة مثل الانتحار أنه في آخر المطاف كائن حرّ يقرر في آخر المطاف هل يواصل الرحلة أم يخرج من القفلة. بديهي أننا مسيروون ومخبرون، أننا نتصرف أحيانا مثل الروبوتات التي تتحكم فيها التعليمات المزروعة في شرائحها الالكترونية وأحيانا ككائنات قادرة على التصرف بكيفية تتعاضد كل من يتصور معرفتنا جيدا.

كل ما يمكن قوله لحد الآن أنه في غياب شرط التناغم لا يمكن أن نتحدث عن طبيعة آدمية ونحن أمام كائن تتعايش داخله الخاصية ونقيضها ومن ثمّ نصدق في وصفه إن قلنا "الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم" (المتنبي) ونصدق في وصفه إن عارضنا الشاعر:
"العدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زكّة فلعلّة لا يعدل"
عن أي طبيعة بشرية يتحدثون إذن ونحن أمام كائن مثل وعاء يتجاوز داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار؟!

**

أكثر الأسئلة احراجا عنهم

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، قراء وأغنياء، حكما ومحكومين، فلاسفة وأميين، الخ.

ثمة في صراخهم هذا دوما ركن قار هو شكل من التفاضل أي ادعاء قيمة أعلى من قيمة الأدمي الآخر.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين طوال الطريق يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلاتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فولد يصرخ أنه من "شعب الله المختار" والآخر أنه من "خير أمة أخرجت للناس" وثالث أنه من "قوم كلّ نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظماء"... الخ.

لا غرابة أن تخصص أمة بأكملها ركننا قارا من أدبها لشعر الهجاء والفخر. لا غرابة أيضا أن تحوم جلّ معاركهم في فضائي الفكر والخيال حول أحق الآلهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وما هي الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها.

تراهم حتى وهم أباطرة وملوك وأمراء واثرياء وعلماء يبحثون دون توقف عن مزيد من رفع قيمتهم بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد! السؤال هنا هو هل هذا الهاجس عند الأدميين -أيا كن موضعهم من لسلطة والثروة والاعتبار- نتيجة شك مؤلم بخصوص ما يسوون حقا مما يعني وجود شرخ موجه داخل كل ذلك؟

حسب آدمي يدعى سان سيمون المقياس الموضوعي الوحيد للبت في قيمة الأدميين هو مكانتهم بالنسبة للعالم. ثمة الذين يؤتي اختفاؤهم إلى كارثة عظمى تلحق به وثمة الذين يتواصل هذا العالم بلا أدنى تغيير لا يلحظ اختفاؤهم أكثر مما لحظ وجودهم.

تصوّر في مستوى عملي حالة مجتمعاتنا لو أخطأ القدر فزكت يده ومحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية، لا يبقى بيننا إلا جحافل من المخبرين والجلادين والإعلاميين المأجورين والسياسيين الفاسدين.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول إن التقسيم "الحقيقي" للأدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.

يمكنك -إن كنت في حلة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالي وأنا أكتب هذه لسطور- أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين يترون بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية والذين لا يترون إلا بعض الأطنان من البراز - تصلح على الأقل سمداء-والآلاف اللترات من البول

وستين إلى سبعين كيلوغرام من اللحم والشحم توفر لحسن الحظّ غذاء مفيدا للذئب الأزرق ولأجناس مجهولة من الدود والجراثيم.
والآن وقد استفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشاكل مع الأدميين يمكننا العودة للموضوع بالتساؤل عن مغزى الظاهرة نفسها.
نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشباه ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأمي أو بأية أدوات نقيسها؟
لنحاول ...

تصوّر أنك تنظر للأدميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا أو الفلك المنخرط في زمن يحسب بمئات الملايين من السنين.
أغض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحاري مترامية الأطراف.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت لم تترك إلا رميما تقاخر به متحفنا.
حاول الآن تخيّل الثمانين مليار أدمي الذين يقال إنهم تتابعوا على سطحه منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة أي العمر المقترض حاليا لبشرتنا.
والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يتراكضون من حولك وستبذل أول فكرة موضوعية عن قيمتهم.

بديهى أنه بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكمّ المريع من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وستتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، يجوز الحكم بأنه ليس للأدميين أدنى قيمة.
تجربة ذهنية ثانية للتعقّق في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من العقلاء والحمقى، وعينة أخرى من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، وعينة ثلثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العينات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقمّا ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعلت التي يحملون وإنما طبيعة أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكوّنوها وكيفية عمل أدمغتهم.

ستكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة لأدمغتهم المثيرة لدهشة أكبر العلماء مهما اختلف ثمن الملابس التي يرتدون والساعات التي يحملون.

أي ردّ تتوقع من الباحثين العلميين إن سألتهم هل للقديسين والأثرياء والعقلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعدمين والأغبياء؟

كأنك في تشبيه آخر مثل مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لُفَّت في خرقة قَدرة
وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنهما لُفَّت في ورق ملون... ويسأل ساذج أي زمردة
أعلى قيمة؟

إذن بمقياس ما يولد به كل البشر من خصائص وصفات وطاقت، لست أرفع شأنًا من
المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأنًا من أي سلطان جالس على
عرشه.. مما يعني أنه لكل الأُميين نفس القيمة.
التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكّل وصفاً صنع كل الكائنات ومنها البشر.
بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تستشعر أن العبقريّة
المخفية التي صنعت الأُميين تنبّرت أمرها لكيلا يشبه أُمي أُميا آخر وهي تحرص
على وجود ما يميزه عبر التفاصيل داخل التفاصيل في تكوينه البدني
ولاحقاً النفسي. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس الرحم يتباينون في
أكثر من خاصية.

كأنك في أكبر معرض للوحات أعظم الفنانين وكل لوحة فريدة من نوعها. أي استنتاج
آخر غير أنه لكل أدمي قيمة ليس فوقها قيمة.

الرجل الذي ضمّ يديه أمامي قائلاً أنه يحيي المقدّس الذي في... كان لا يسخر مني !!!
ها أنت أمام مفارقة جديدة تضاف لكل ما رصدنا من مفارقات.

ما هذه الكائن الذي يمكنه أن تكون تباعاً أو في أن واحد الذي منه كل وحشة وكل نقمة
وكل نعمة وكل نشوة .. الممثل والمخرج والمنفّج في كل الأدوار الذي يلعب .. الذي
يجمع داخله كل المتناقضات وهو كمن يتجاوز داخله الماء والنار فلا يذخر الماء ولا
تنطفئ النار ... الذي لا قيمة له وله نفس القيمة وله قيمة لا تضاهيها قيمة.
لمواصله سبر أغوار هذا الكائن العجيب يجب تجاوز الملاحظة والتنظير والتوغّل داخله
لاستكشاف الدهليز التي قد تخفي داخلها أهم أسرارها.

كيف؟ بتفحص العيّنة الوحيدة التي أعرف أصدق معرفة ... أو هكذا أتوهم.
أليس صحيحاً أن تفحص تركيبية جسم واحد تغنيك عن تشريح ملايين الأجساد والتباين
بينها في تفاصيل لا يحسب لها حساب بالمقارنة مع الثوابت التي تجمع بينها؟

**

الكتاب الخامس الغريب

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.

حافظ

مقدمة الكتاب الخامس

على طول الشارع الرئيسي مظاهرُ زينة الأعياد ونهاية السنة، أجمُلها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار.

قد لا توجد مدينة في العالم تعجّ بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسيّ لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصغّرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

هذه المدينة ككلّ تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذّر الأمر. وراء الواجهات المنمقة يخفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيايل والتجسس والدعارة والجريمة.

أيا كان نصيبها من الرونق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككلّ تجمعات الأدميين منذ سكناهم بيوت الطين والحجر مرّة أقطع ما فيهم بما تعجّ به من مواخير وسجون ومحاكم وتكنلت وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يومياً... ومرّة لحسن ما فيهم بما تعجّ به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومتاحف ومسارح ومكتبات. لوجهة الآن المكتبة العظيمة.

على الرصيف المكتظّ السُّباح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والقرقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهرروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

ورائي قوس النصر. على من؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزار الكبير الذي رُفِع، لكن من يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثاً. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباء، أنه كان واحداً من بين ثمانية قُتلوا آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثل كلّ الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم التاريخ مائة أو اسماً. يا لها من جائزة أحرزها ولا علم له بالشرف الأثيل! آية قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأمّ المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسيموت أبشع ميته، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايين المجهولين لإجلاله أمام قبره ولا أحد يعرف اسمه. فجأة التفتت خلفي مدفوعاً بقوة قاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكر أنني خرجت أو قُل طردت هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حراً لأول مرة منذ سنوات ولا مخبز يتنفس في عنقي.

نعم لا مخبر ورائي، لكن كم سامشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور
ببال من يُلهون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابين، خطر، مهيد للنظام،
لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عبدة.

نوبة من الكبرياء المجروح. أليس قدر “النقيس أن يكون غريباً حيثما كان؟”

ما يخفف عني لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب
بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا
يكونون هم غريبي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هنا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو
سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يلقون فيها
غربة عن غربتي. كلهم سيرطون عن هذه المدينة بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم
يعيشون فيها قصصاً فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيراً عن قصتي إلا في التفاصيل
داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل بي الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كم
هائل من أفطع قصص الأدميين.

قُطع في هذه الساحة حسب من حسبوا 1119 رأس منهم رأس ملك. المسكين! ماذا دهاه
ليولد ملكاً، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكاً في غير الزمان المناسب!

انتباهاً لاختلاجه، امتعاضاً هنا وعلامات نفاد صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا
مكان هنا لمن يسدّ الطريق والويل لمن يتلّكأ. ليس عوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتماً بهم
وكل انشغالي مُنصبّ على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقيّدة إلى الخلف
كُدسوا فوق عربات مجرورة بالخيول والنيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة الرهيبة
المنتصبة وسط الساحة. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوس علي وشك السقوط
جائحة العينين في قفّة معدة خصيصاً لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبتّ على كل
الأمواج قدرا لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وسقوها في
مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاه لتولد ملكة بل
وفي غير الزمان المناسب! لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحت أم الشعب والقديسة التي
تتبرك بها العجائز والعناري.

كيف الإفلات من صُراخ صلمت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهمة تقع على بُعد
بضع مئات من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي
أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميراً ووليّ عهد
ملكٍ على وشك الغروب! ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكماً لو أسعفته الأقدار بشيء
من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في
دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبا بكل ما عرف من ماسي.

بعيدا على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطل على نهر هو منذ نشأتها شريان يضخ في جسمها حيوية التجار والمهريين والمسافرين والغزاة. فجاء تصلني كاللطفة المفاجئة على الألف لعنة سكّير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تُحايه طاولة القمار اللعينة أكثر مما حابت ملكا وملكة واطفالهما قبل فرنين.

من قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرة، أمام الشاحذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في روق المترو، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقدهم المصائب كل صواب.

أية غرابية أن يقفز البعض خارج البساط السيّر، أنهمكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماه جانبا، ضيق ذرعا بجمل ليس من ورائه نفع؟! كم من خطام بشري سار على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منقم هو الآخر مجهول!

أه هذه أدمية تظن أن بقدرتها أن تفعل لي شيئا حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أتقيا. تُبادرنني صببية وابتسامة بلهاء على الشفتين.

- هل تعرف الرب؟ هل تدرك إلى أي مدى يحبك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟

- لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من يسيّر هذا الكون، أما خبّ ربك لي، فكم أود أن يكون أكثر وضوحا هذه الأيام.

تمضي البنت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

أخيرا هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلا. يا سيدتي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من الآم روح ذلك الطفل لا أظنها ارتاحت إلى اليوم، وبلرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك لا تنسي أنني أيضا وقد تحالف ضدّي كل ما في ديني من أولياء ومن صالحين.

أه هذا هو الحي الذي ذرعه سنوات شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب. لا أحب إلي من مقاهي هذه المدينة. دخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريات، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نقدي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قل إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعّتهم ولسعوك، إن بعدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيل، أبحث عما بحثت عنه يوما: الدفء دون لسع.

يجب الخروج إلى السيل المتدفق.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كتب. الشَّد والجذب الأزلّي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز.

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتبت الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. فيذه المدينة تُصنّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكاتبُ التاريخ. وأيضا هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان: فكّرْ من خارج كل الأطر، تمرّد على كل الصيغ، جِدّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة. جُوّ كهنا هو جرعة الأوكسجين للمختنق ونفخ الطيّب لمن عاش في أرض جدياء وننتها يملأ الخياشيم.

صخبٌ مفاجئ. متشردٌ يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل. أمامي حفنة من الأدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا انشغالهم بجمع القمامات يرمونها بسرعة في عربلت ضخمة بالغة الضجيج والقبح تسدّ الطريق على سيارات نفذ صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها العاصفة لا المرفأ الذي يتخيلون. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مل، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، ولسفر مغامرة كبرى رهاتها الحياة أو الموت.

"الطريق ليس صعبا (كبير كجارد)

الصعب هو الطريق."

لا شك أن بينهم كُنّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء، أو غريقٌ أنقذ آخر لحظة من برائن البحر، أو مغامرٌ يئس بانس يخترق الجبل خلسة ليلية صقيع يُمرّق أحشائه الجوع، لينتهي على أعتاب هذه المدينة شبيه مَيّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطّدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقني جناحي.

ربما يأتي يوم ينشد فيه المرتحلون القادمون من كل أفاق الزمان والمكان.

"تحت أزهار الكرز (إيسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب"

أصعب ما في الوضع ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعجّب بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب... حتى لنفسني.

أو كيف أن قدر الآدمي استكشاف عالم يجهل عنه كل شيء والأداة ذات جهله بها أعظم.

يحقق في الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: بونبول²، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
لوعدا! يقارم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أستثمرها في صدقة تعود عليّ
بالدعاء لا بالشتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا الأجنبي!
لا يبقى لامي سوى الفرار، وكأني السارق وهو المسروق.

ما يجعله هذا الشقي أنني أجنبي مرخص له في الوجود في بلده وليس كالغرباء الذين
يختننون في الأقبية خوفاً من اكتشاف البوليس أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.
الدليل على متانة وضعيتي القانونية أن في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على هاجس
فقدانها أو سرقتها متنتي بها سلطات البلد. ببالغ الامتعاض-وهي تحفظني مؤقتاً من عنف
الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.

قد يكون من مزايبا هذه البطاقة تظميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي
ولقبتي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي ليبروقراطية
المراقبة والتحكم عن بعد.

مما يقل هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما
أعرف نفسي بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول حتى
قبل أي قرار مني. يا ليتة يقول لي أخيراً من أكون اللهم إلا إذا لم يجرؤ على الأمر ترففاً
بي.

في الانتظار لا خيار غير أن أعول على نفسي وأن أتحمّل مسبقاً تبعات ما قد أكتشف.
لكن كيف؟

ألم يأتيك يوماً الشعور أن داخلك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو ولصرف) ولحد
رسمي ومعتوف به والأخر يعيش في كنف الطي والكتمان. على فكرة كم لنا من أنا؟
الأنا للمعروض للخداع أو للإبهار، الأنا المخفي عن الأنظار، الأنا الذي يعيش بعض
قصرته في فضاء الحواس، الأنا الذي يعيش أهم فصولها في فضاء الخيال، الأنا الذي
يرحل ليلاً ليعيش في عالم الأحلام، الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت.
ليس من الأصح أن يكتب كل واحد منا من هنا فصاعداً أمام كل فعل نحن، وليفسر
البعض هذا بجنون العظمة.

² سبة عنصرية في إحدى البلدان (الناشر)

المهم أن الأنا المخفي هو الذي يحدّد طوال الطريق كيف ومتى الجوع والعطش والحلم والحب. هو من يفكر ومن يتنكر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم ولحظة الموت.

لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و" هو" يقدك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرد طرد يُسلمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلاً؟

بربك ألا يدهشك أن تكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيف مجهول!

"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)
عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكاننا كنا يوماً أصحابها"

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يخفتي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرف بهويته، فكنت كمن يحدث الجبل!

تكلم يا من يسكن بين الضلوع، ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القرى بيننا؟

كم مرّة تحايكُ على صمته يشتمه والتملق الرخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملق البحر!

أواصل مع هذا استفزاز: هل تقبلُ لذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه المظلمة؟ هل يمكن على الأقل أن تحسن خدماتك؟ اتفقتنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعناقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء لهيبه بهذا المخدر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً. طرقت بابَه بالعلم فلم ينفع، بالفلسف فلم ينفع، بالفن فلم ينفع، بالرجاء فلم ينفع.

لا نتيجة أبداً كمن الباب الذي تُطرق، والشيء أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

إنني أشهد في نفسي صراعاً وعراكاً (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكاً
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذلك اشتراكاً
أم تراني واهما فيما أراه
لست أدري!

لم لا أنتقم لنفسي من هذا الساكن داخلي حتى ولو كانت نفسي؟
ها أنا أدخل إحدى الدور المظلمة التي نحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات
الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها. أتوجه إلى المرأة الواقعة خلف منضدة تسلم
المعاطف الثقيلة: لا معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها
وهذا بفشيش محترم لأجل الخدمات.

سيناريو انتقامي آخر.
أتوجه إلى المرأة وأنا أخلق: ما رأيك في الاحتفاظ بهذه النفس التي ترفض أوامري
واقطي بهما ما تشائين.

تخاطبني المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلباً، هل أنت مستعد؟ تعطي إشارة
الانطلاق لعملية امتصاص الأنا المغضوب عليه. ومن الغد تبرز الصحافة الشعبية
بعناوين صاحبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكشف أمام مرأة
لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة: الأطباء لا يجدون تفسيراً
للظاهرة."

ثمة إمكانية الطلاق كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحل بينهم الوفاق.
أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سلقدهما ضده هذا الأنا الآخر الذي
يعاكسني؟

ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضريني وبكي وسبقتي
واشنتكي.

كأنني أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينصت
أبداً. لا ينتبه إلا لأقل الأشياء والأمور شيئاً. أسر في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن
فهم، فبلصافة أو على وجه الخطأ: له في كل موضوع رأي سخيف. لا يثبت على موقف
إلا إذا كلن الهذين عينه. ذهنه قمامة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكل أصناف الوهم
والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثراً. أشير عليه فلا يسمع. أتبهه فلا ينتبه. أعلمه
فلا يتعلم. أهذنه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولاً. أمره بما هو في مصلحته فيتنتطح. أدفع
عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيمعن في النزق. أريه
الطريق المفتوح فلا يتوجه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل
المدلل. ألف لعنة على هذا الشكل الذي قبلت التجسد داخله. لا يد من نقاش معتمق مع
الهندسة العائمة حالماً تنتهي هذه المغامرة. أي جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن
السخيف؟ نعم يجب إنهاء تجربة يمثل هذا الغفل.

لا أتحمّل مزيد التجني. أبدأ في تصفيف هذه الاتهامات الظلمة لحضنها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثاً كل هذا التفكير؟ طبعاً. لا ينفع في الأنا المحفي أي تهديد. تُدخل فراش النوم هاربا منه فتجده يتربّص بك داخل ألف كابوس.

تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك.

تنتكر عليه لا يعرفك فتكتشف أنه كان القناع.

تبعي قلبه فإذا به اليّد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي.

طوال بحثك عن هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللامتناهي ويقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرأة، أنه صورتك في المرأة تتأملك أنت.

ولمّا تتصوّر أنك أمسكت به تكون كمن انغلت قبضته على الريح.

ومع هذا أي خيار غير مواصلة البحث عن طبيعة الذات وهي أداة استكشاف العالم والسيطرة عليها لا يعني شيئا آخر غير السيطرة عليه.

الذي يعرف البشر دوما حذر (لاو تسو)

الذي يعرف نفسه محفوف بالنور

الذي يبرّوض البشر قوي

الذي يبرّوض نفسه جبار

المشكلة أنك طوال هذا البحث كالفارس الذي يركض في كل اتجاه جريا وراء الفرس التي يركب!

**

لَمَّا يَنْخَرِطُ بَحْثُ الذَّاتِ عَنْ ذَاتِهَا فِي طَرِيقِ مَسْدُودٍ.

في بعض الملفات المتعلقة بهذا البحث، بيدرنى الطبيب الشرعي ضاحكا:
- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
كلن صديقا عزيزا من بلاد الشام مهذارا لا يكف عن المزح وكنت سعيدا أن يكون هو لا
غير من سيعينني على تحمل حصة تشريح لم يكن ممكنا تقديها.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر لصور شيئا. أريد
التأكد من سبب الوفاة لإغلاق ملفت هذا المسكين.
- تؤمر أمر لكن انظر فقط ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تُقدرون عليه أنتم
يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
- لا تضيع وقتي يا جزار، هيا توكل على الله.
يا لبختنا ونحن أطباء هنا العصر نشرح مثل هذا الجسد المسجى على الجليز لا
خوف من شرطي وقاض وجلاد! كم من أطباء في عصور غير بعيدة عُلقوا في المشاتق
لتشر بهم في الأقبية المظلمة جثتا مسروقة من المقابر...هم أيضا كانوا يتحون مثل هذه
الجثة حجتهم العلم والدافع الحقيقي اتباع الفضول بخصوص القوة المجهولة المختبئة
تحت الجلد...القوة التي تجعل منا أحياء عندما تكون وجثتا هامة عندما تختفي بسبب هذا
الورم الحقير أو بأي سبب آخر!
يرسم الزميل بسكينه أهدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة.
يدخل يده تحت الفك الأسفل مستلا بفضاطة ودفعة واحدة اللسان والحجرة والمريء
والقصبية الهوائية. ثم يشق الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص
القديمة تجعل منه معقل الحب.
لم يبق إلا انزاع كيسين يحتلان جانبي قفص العظام يمثلن بأول نفس للواقم الجديد
وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.
يرمقي الزميل ساخرا.
- مالك؟ هذي من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كيش العيد لا أكثر.
كلّ هذا الغبي يعلم...كأنه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدام جروحي! يواصل استفزاز ه شجعه
تزايد ارتياكي.
- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟
- ها ها، نكتة بانخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:
- انتهى الثوب بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على
الورقة المربوطة في رسغه.

ثمة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر أكثر ترفقا بي.
- يا ولد، منظرك يرثي له الأبناء فما بلك بصديق مثلي. لا تحمل نفسك ما لا تطيق.
لخرج لحظةً لتتنفس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوما على الأقل،
لاوقت الكافي لكي تعدّ لكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.
- قلت لك واصل.

نواصل ويواصل الجسد السلكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استقزازه بالخنز
والقصر والافتتاح والتطبيع والكلمات البينية. لم تطلق شفتاه أها واحدة احتجاجا على
انتهاكنا حرمة الترابية. لكن هل نحن أول من اعتدى عليها؟ بل هل كان له يوما حرمة
ترابية أصلا؟ هل كان حقا سيّد جسده هذا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك أنت لا غير هو منذ الإفاقة تحت سلطة الآخرين بدءا
من الأبوين والمجتمع والدولة والأطباء وصولا لحاملي النعش وحافري القبر ثم الدود
والجرثوم.

*"السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة
كم هي اللحظات التي انتبهت فيها إلى جسدي
الذي سيغدو الجثة المأوى لكل الحشرات المسافلة"
يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:*

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة
أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟
ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخمة بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من
لحم الكتف لا تتردد في الطلب. فنتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من بينك أمام
المرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن
اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى
الجامعي.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل أعراض السرطان
كانت في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفاري.

- هل ترى شيئا؟ هل وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا قتي، تشخيصك كان مخطئا
من البداية. لنتنظر المعلم، إما يبرئك وإما... الويل لك من لسانه.. والآن ما رأيك في فتح
الجمجمة؟ اغتتم فرصة رَوْقن مزاجي لسيلحة مثيرة في أعماق المسكين.

يبدأ المهني الماهر في قطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم يأمرني بمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. أخيرا الغنيمة المرجوة: عضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلّقا بعشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينقضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

أه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل النفس والفكر والعقل! انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. كل الأشلء بين يدي الآن. كل مكونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض.

الجسد الذي تقول الرؤى السائدة أنه الحاوي المنغلق على محتوى اسمه الروح الآن مثل كتاب مرقت ويثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيت منها كلُّ الأتغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيق، مثل أقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمان منها شيئا ولا يقدّران ما وراثها من عبقريّة الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثة للبحث عن سبب إخفاق المريض في الحفاظ على روحه وإخفاق الطبيب في صدّ الموت.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلء يتفحصها من وراء نظارته السمكية باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلف الممثل.

كان يقبلها بقضيب حديدي يتأكد أو لا أنها موضوعة بكلّ عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صفّقناها وفق أوامره. كانت دقّة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل المريض والطبيب المكسوف.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المقنوعة.

- انظر إلى هذه الحيّة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظارتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبل... أه كم مؤسف!

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النيرة التي يتفنّن بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميت.

يفتعل الرجل الترفّع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يلمي عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سدغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.

- هل يظن هذا البلبد أنني لم أرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصّص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكشتاين!

- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجاناً بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.

- جزارون وخيطون أيضاً. يا له من تخصّص!

- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.

يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.

- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة لصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفراع. مؤكداً أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كلن من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص اتّصال فريق المدينة للساحق.

يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب بتشخيص دقيق لسرطان قتل مريضاً آخر. يخرج الطفل الذي بداخله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها وهو متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم ما للروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها مايسمونه الموت.

**

أو كيف ضيعتنا ولا تزال ثنائية قديمة للسحرة والفلاسفة

في ملف أول لقاء مع الكلمة الغامضة، تطلق "ما" صرخة مدوية وقد وصل العويل من بيت الخل والجار مننرا يحدث جل.

ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خلة جالسة في حلقة نساء يلطمن خدودهن ووسطهن رقيق اللعب مسجي بلا حراك.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجد إعراض حسين عن قدمه؟ مؤكّد أنه سينهض صارخا من مرقدّه ليقتّر جريا معه نحو أشجار الزيتون واللوز.

يواجه لطفل لأول مرّة باحتمال أن ابن خله لن يلعب معه لا هذه المرّة ولا المرّات القادمة.

يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيدا عن الأنظار وهو دائما ساكن لا يبدي اهتماما بوجود ابن عمّة مزايّد الخوف والحيرة والهمّ.

همس متقطع بين النساء عن الروح التي عادت لخالقها وكيف أنه لا مردّ لحكمه.

عند الرجوع إلى البيت تتزاحم الأسئلة في ذهن حائر: هل من الممكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضعونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتولول ووجهها منفون في صدر أمه؟

لا بدّ من إجابة تطفئ اللق الذي شتّب فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد الشرّ عن وليدي وسبعة أطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل أعوذ برب الناس من الشيطان الخلس.

حقا الحب تلتفّ ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشاً، عرضة للعطب، مؤهلاً لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهبت روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسح جنّته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ربيع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تتخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روبي.

لا تزيد الإجابة الطين إلا بلةً تضيف الحيرة للخبرة.

تصرّ "ما" على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصد ظهور الدليل الآخر. لا بدّ أنه يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".

في أول لقاء يبادر الطفل والده بسؤال غريب جديد.

- "ب"، ما هي الروح؟ لماذا خرجت من حسين هل تعود عندما تخرج؟

تتغيّر نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون وإبل القبل متحدثًا بكلمات غير مفهومة عن حضور "الساعة" دون أن يتكلف غناء شرح ما "الساعة" "ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمى الساعة وليس الدقيقة.

ومما بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها مئة من الله حيانا بها دون الحيوانات، أنها قوة موجودة داخل قلوبنا وأنها هي التي تحركنا وتتحكم في كل ما نحس ونشعر به، في كل ما نفعل ونقول.

كم كان الرجل يغالط طفلا بريئا وهو يتبخر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، والحال أنه كان يعيش على تصورات ساذجة تشيعها منذ آلاف السنين رؤى غير متقنة مفادها أن كل واحد منا له حاوي اسمه الجسم ومحتوى اسمه الروح والموت عندما يفرغ كائن مخيف اسمه عزرائيل الحاوي من محتواه. يوضع الملفت على رف من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه وقد توفرت معطيات جديدة وإن لم تكن حاسمة.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانقباض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى.

المراهقة في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الفاييوم" سائلا في الشرايين أنقذ من التعلّويز.

لا بدّ من الصبر قبل أن تسترجع المريضة كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا أنسة، أريد كل التفصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغربة. كأنني في حلم. تقول أمي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكر أنني مشيت. تقول إنني أتكلّم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التّمصّص وكأنّ الروح التي تسكن الجسد في التصورات الشائعة تخرج في هذه الحالة لتحلّ محلّها روح أخرى، غالباً روح شيطان ما؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متناقل الخطى:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعصيق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجراح المحكّك على الصور نظرة متمعنة مقيماً ما سيلقاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئاً لكن هذا النوع من السرطان فوق كل أمل. أدخلها حالاً إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجيبت عليها المريضة المبتجّة، يتجمّع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كانوا وصلوا لتوّها من عالم آخر.

يُحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كلّ بي خوف تذبذبها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شقّف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرانجة مركز الروح وعريتها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن منتبهاً أشدّ الانتباه، حذراً أشدّ الحذر، حاضراً بكل حواسي، خاصّة و "المعلم" صارم لا يرضى من مساعدته إلا بمطلق الانضباط.

ها هو أخيراً العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يخترق في أعماقه الورم الخبيث.

مسكين ذلك الفيلسوف الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعياً أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة بنيمة تتوسط العضو الرخو ومنها تخرج كالهواء من بالون مقنّب لتذهب إلى مكان آخر تواصل فيه قصة دخلت منعرجاً جديداً.

كم من علماء أكثر منه جهلاً ادّعوا بعده أن معقلها بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الأحاسيس في البطين الأول والتخيل في البطين الثاني والفكر في البطين الثالث والمشاعر والحركة في البطين الرابع ... والحال أن هذه البطينات فراغات داخل الدماغ لا تحتوي إلا على الماء!

كيف لا يضع هؤلاء المفكرين الروح داخل الدماغ وكان البعض منهم قد وضعها في السابق في القلب والكبد وقد قد ينقلها بعضهم غداً داخل الخلية، فالصنغيات شوارذ النزة... ألا يعيشون داخل تصور لعالم هو أكبر غلبة تحتوي على الموجود من العلب؟

يلحظ "المعلم"، ونحن نقرب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهني بفضاطة فأنته
مخرجاً. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك،
أن أفعل ما يقول، لا ما أتصور أنه قال.

يتقضم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل
العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتراً.

الروح، النفس، الذات، فوضى مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ الانتهاء من
تصور هذه الروح كشيء من غير طبيعة الجسد... اعتبارها زينة خصلصه وأوج قدراته
في حالته التي نسميها الحياة... بالضبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زينة خصلص
الدماغ السليم وأوج عطائه يعمل بكل طاقته... داخل تصور كهذا لن تكون بحاجة إلا
لمفهوم واحد هو الذات وإن بوجهين متباينين ومتكاملين الوجه الحسي الذي نسميه الجسد
والوجه غير الحسي الذي سماه الأوائل النفس أو الروح... نموذجاً قطعة النقد الواحدة
المنحوتة من نفس المعدن ويسطحين متباينين لا يمكن الفصل بينهما.

تتصاعد حدة صوت "المعلم" وهو ينهر الممرضة والمبنيج ويصرخ أنه لا يستطيع أن
يفعل شيئاً مع كل هؤلاء الاغبياء المحيطين به. الرجل في حالة من الكرب ولا داعي
لأخذ صراخه على محمل الجد. بداهة هو غاضب من نفسه، من عجزه، من الأقدار
الظالمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.
يتصاعد من أعماق الذات صراخ صامت: بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة،
بحق كل جهل الأدميين، بحق كل آمالهم والامهم، بحق كل إثمهم وبراعتهم، لتعط لهذه
الفتاة فرصة!

كأن العالم هو الذي هز كتفيه.

يضع الأستاذ جانباً كل أدواته يخلع قفزه وينصرف صامتاً.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول
التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ
"المعلم" فجأة وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهزّب. هذا أيضاً جزء من المهنة ولا بد أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.

لأوذ بالفرار لأرمني بجسدي المرهق على أول كرسي أصانفه في الممر. أخلع حذائي
لنقعد حلة الانتفاخ في قنمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسدي وكل عنايتي
منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب
لولاهما؟ هل تمتعت يوماً بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشياً على رأسي؟ بل وهل

كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أخلق لي نظرية
تمشي بنكرها للركبان تدعي بكل صلف الجهلة أن القدمين هما معقل الروح؟
نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال
الذين تنحت لهم التماثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمّتا بالطريق. يمكن للنحات أن
يأخذ بعض الأفكار من جيكرومتني فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من
اعتبار. توقّف في أروع أعماله عند قصبة الساق لا يعنيه كل ما فوق. ..كل ما فوق؟
المحمول على هذين القدمين...جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه.
أنتبه فجأة أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة التفكك وتقديمه
غذاء للكائنات السافلة..أنه لا زال النمر الذي أروض، الخروف الذي أحمي، الحمار
الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزير الذي أمنعه من التمرغ في الوحل، الجمل الذي
يحمل كل الأثقال، النسر الذي أطلق به لأرى العالم من أرفع موقع.
يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجوز مرتعش ناهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر
قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ.
فجأة يتضح لي طريق آخر لمواصلة الجري وراء الفرس الشاردة التي أركب.

**

الذات ذاكرة أو لا تكون

على تخوم عالم النوم واليقظة يتوجه عجوز نحو نافذة الغرفة ليستمّر محدّقاً في شجرة زيتون علاها الغبار. يَلْتَقَت إلى بابٍ يُفْتَح وامرأةٌ ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفْتَعِلةً المرح:
- صباح الخير يا سيّدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلاّ تبعني الآن لمقابلة الكتور.
مَنْ هذه الأثني؟ لماذا تبتسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هنا المكان؟

تواصل المرأة المجهولة كلاماً لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئاً:
- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأتسة زهور. انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنيتك طبعاً، ستحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.
طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟
تجبل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تُدَاخِلَت الحدود وأمحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بلحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يُلدّهما بعدُ ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء أفضع نهائيةً.

يتفحص الطبيب شكله المرتعش القادم من مستقبل غمض مغالباً قلقاً لا يفهم تقاقمه، ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيّدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللعة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والننا!

تتدخل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خطيبٌ مُفوّة لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا أصدّق أنه "ب". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ نقيحه:

- معقول ألاّ يتذكّر أنه قبلنا البارحة! أننا نحن من أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى

رجلٌ كهذا اسمه واسمي؟

يقاطع المرأتين شبح هو الطبيب والمريض.

- سنبدأ بقياس اضطرابات الذاكرة في مختبر المستشفى وسنقوم ببعض الفحوصات الأخرى للتأكد من تشخيص المرض ولا داعي للتسرع قد لا يكون مرض الزهايمر.. وحتى لا قدر الله فإننا الخ، الخ.

تتدخل من يعرفها النص تحت اسم تفاحة:

- الشهر الماضي رأيناه بمزق ديوانه المفضل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظفة... بنظافة اللسان أيضا.

تريدان العجوز مهتبا وهو يتابع لحظة بلحظة ذاكرته تنزف كما ينزف المذبح مما فيه من دم وذاته تلاشي ذاته شيئا فشيئا كشكل يفقد مكوناته الواحدة بعد الأخرى وهو عاجز عن فعل أي شيء.

هو الآن ضحية أخيب مرض يمكن أن ينهي الرحلة والدماع لا ينسى فقط كل ما عاشته الذات، كل ما تعلمت وخبرت وجربت وإنما أيضا هو بصدد نسيان كيف يشغل مكوناته الواحدة بعد الأخرى وكيف يجب مواجهة العطب الذي يمنعه من أداء وظيفته الأساسية ألا وهي أن يحفظ للذات جوهرها.

ليست الذاكرة كفعلي (التذكر)، وكماة (المعطيات المحفوظة) للشرط الأول لوجود الذات؟ ما الذات دون الذاكرة التي تحفظ كل تفاعلها مع العالم ودون الأوامر والخبرات المضمنة داخلها ليكن للذات فعلها فيه؟

من طبيعة الكوابيس قل من مهامها كشف لأشى ما تخشاه الذات.. ما تحاول عبثا رميه بعيدا في أعماق اللاوعي.

لا شيء والرحلة على وشك الانتهاء أهم من تجديد هذه الذاكرة وهي التي تنقل على كل أسرار الذات قبل أن يُطفىء الموت قنبل وعي حائر أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجال مرض حثير اسمه العته.

**

ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع

السفر الآن داخل الذات والأمر كالخفر في منجم بغية للوصول إلى أعمق الطبقات.
الطبقة السطحية.

تتراحم الملفات داخل ذاكرة مجنّدة لاعتصار كل ما تنغلق عليه من أحداث الطفولة والشباب، من أحداث البنية والأبوة، من أحداث الصداقة والعداوة، من أحداث القشل والنجح ومن قصص الحب والغرام.
الانتباه على أقصاه لتفحص آخر هذه القصص.

تكفكف "ح" الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح. إنه أول لقاء منذ آخر فراق لا يبرر وجوده وعذابه سوى لذة المصالحة واستئناف الخصال.
- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قررت أن أجلس على أبعاد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائياً.
تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شينا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كن علي أن أعطيك نقاحة وتقبحه.

- لم أكن أقراً وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبكي وراسك على صدري.

أقول ل "ح" أعود للاستقرار الضاحك الذي طبع دوما علاقتنا.

- هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحاتها الأولى: عجز تفلجى زوجها، صاحب التسعين حولاً ولم يسلم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعاً. لله ذره، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ تشكين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنى مصيبة مع النساء.

- أريد أفعل لا أقوالاً.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزول فمها وأنا أفزع الحساب:

- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. بل هذا ثمن الغرفة مسبقاً. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيداً، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهراً.

وعند باب النزول تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجع في قراري.
- من يتفهّمك أحسن منّي، أنا أيضا لا أريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...
- بلى، وداعا.

عبثا أصرخ في "ح" وهي تدبر لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.
- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفعوني.
لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع "الذي منه كل نشوة".

مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحب بغير قلوب

وتحب ملايين المرات

وترجع كالمك المخلوع

من ثوابت قصص الحب والغرام أن لها نهاية كما لها بداية. كأنّ الذات وهي تصل آخر فصل من القصة في علاقتها بالذات الأخرى جنوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحرّكها ربح، بركن خمد، حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تفيق كل ذات لوحدها كأنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

ترى ما الذي أضافه قصتي لقصص الحب والغرام؟ ترى هل كان في البعض منها شيئا من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس الدور الأثري؟

القاعدة أن هيكلية كل قصص الحب ثابتة لا تتغير أيا كان الزمان والمكان، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل تعطي لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة.

هذا ما يجعل من قصتي مع "ح" وإن تخضع للسيناريو العام قصة فريدة لم تحدث إلا لي إذ يستحيل أن تكون ذات أخرى قد جربتها في نفس الظروف وعالجتها بنفس الكيفية.

أه هذا ملفت ثقيل هو أيضا لكنه عن علاقة حب من نوع آخر.

تدافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الأدمي لذنيه عن كلّ نداء، وقد اقتنع أنه لا نكاء يبزر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثم، لا رقة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحة مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنها لا تكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

نخلت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدّر عليه؟
أحاول فتح منفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تقيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عجزه انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كلّ ترحح فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المنذب.

- طبعاً البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بلوكالة، وقته للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميّة وموتها على حسابك وحدك.

يتواصل إضراب البنت عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الآلام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

هذه المرّة فاهت ضريبة الوجود قدرة الدفع. صدق من تنهّد: أيّ مكان تشلون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدّق منه الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صرّخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

تنتهي تقيحه في غرفة إنعاشٍ قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط تمرّ ألسني الممرضات يتبادلن ضاحكك آخر فضائح القسم.

أفزع ما في العالم لامبالته لا ما يلحقه بنا من ألم.

كم يخيّل البنا أحيانا أن العالم أعدّ لنا شمس وقمره ويشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف للشرف في وليمة الحياة. تآئينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقيّة

الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغيبي أو الرصاصة الطلّشة أو المرض الحقيير لنواجه بالحقيقة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى

كأنه لا يعرفنا ولا يهتم من أمرنا شيئا.

أفزع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واع أو مبال بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعباء وممن افتكّ منه كل ما يملك.

"لم نجنّ بنينا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما أهنأ من ملت بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

كيف تواجه الذوات الأخرى الألم عندما يتجاوز كل قدرة احتمال؟ كم من قصص رهيبية عمن استجاروا بالخمر، بهذا المختر أو ذاك، وهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثمة الحلّ الجذري الوحيد القادر على إنهاء عذاب تجاوز كل الممكن قوله. لينته كل الهمّ والأحزان والأسف دفعة واحدة للجميع وإلى الأزل. لئمت تقيحه ولأمت حذوها. الموت! وليمة من الفكر واللاشعور. "شبعة" من اللاوجود. تخمة من العدم. طفرة من السلام. نهاية كوابيس النوم واليقظة. الراحة الأبدية... وكل هؤلاء الأغبياء حولي الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه.

ثمة حتى في مثل هذه القصص هناك مخارج عدة منها التي توصف بلاسعيدة .. بشرية أن يكون ورائها قوة تتغلّق عليها الذلّ لا تضاهيها قوة في الكون.

لهذه المحن الكبرى الدواء الناجع لما لا قدرة لأي دواء على علاجه اسمه الحبّ. كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنّينا بأكثر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أقطع ما أعيش من الأمل. على العكس حُبّي الآن لها لا تسعته السماوات والأرض.

أحسنَ من فهم طبيعته الأعرابي الذي سئل أيُّ أطفالك أحبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة ألام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاطم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سعيّنا لحمليته بأعلى ما نقدر عليه الحبّ.

حتى الشيخ الأكبر لم يدرك من هذا الذي يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبه فالحقّ ليس هشاً ضعيفاً مهددة حياته لا ضمان لتواصلها إلا حُبنا له... اللهم إلا إذا قبلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنّ حب الذات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن يبقى من الأزل إلى الأزل فوق كل عبدة وكل حبّ.

أقرب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالناز. أراقب تدفّق السوائل المغذية في نراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير حبّ صامت لا تصفه الكلمات.

أتوجّه للراقدة على فراش الجمر بلوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعرف يوم الوصول: لغة الرّضع.

كلُّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أتر في شيء ما... غير وجهة المسار. أيكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمّت بما فيه الكفاية... أنها تكلمت أخيرا من شيء كانت تريد التأكيد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعرق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الاثنين.

لا أصدق أنني وأنا أسمع تقيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدد في شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إلي وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، نعم، نعم، نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقنق في عينين بدأت تدب فيهما الحياة من جديد.

- "يا"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- ويعداها نعود إلى المنزل وقد فك الإضراب؟

- نعم

- لمواصل المشوار؟

- لمواصل المشوار.

- على علاته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علاته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئا قدر فسح كابوس مرضها من ذكرتي بلسرغ ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحب الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فرص تدارك ما مضى من أخطاء.

حقا عرّف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفث. لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملايساتها وتناجها لم تحدث إلا لي أنا... والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت أبا لهذه البنت بالذات بكل خصائصها التي تميزها عن كل البنات، أنني كنت ابنا لأب دون كل الموجود من الآباء، لأم دون كل الموجود من الأمهات.

إنها القاعدة تعلق الأمر بأولى المشاعر والأحاسيس التي تنطلق بها الرحلة.

من يعرف أو يتذكر رنة الخلل بل من يتذكر حتى في بلاد "ما" أي شيء هو الخلل؟ كيف كان طعم القبلة الأولى عند لنقل هذا الصديق وتلك الزميلة حتى لا أذهب بعيدا في تخيل طعم أول قبلة عند كل المحبين الذين تعاقبوا على الدور الأزلي؟

إنها نفس القاعدة عندما يجلس المرء والرحلة قد شارفت على نهايتها لتجميع ما ترسب في الذاكرة من قناعات بخصوص أمهات القضايا.

هذا ملفت زاخر ثقيل بالاستنتاجات التي تولدت من كل القصص التي عشت والأدوار التي لعبت والمآسي والمهازل التي مثلت فيها هذا الدور أو ذلك.

ثلاث آفات من صنع الطبيعة تترصد بني سفر: الأوبئة، جنون السماء جغافا أو طوفانات، جنون الأرض بركينيا أو زلازل... ثلاث آفات من صنع الادميين: الاستعباد والاستعمار والاستبداد... لن أرضى بالعيش وحتى بالدفن في أرض شعب من الرعايا حتى ولو كان الراعي عمر ابن الخطاب... الشعب المؤكده خرافة نسجها المخادعون للمخدوعين كل

الموجود ملل ونحل في صراع أزلي على الثروة والسلطة والاعتبار... هذا شعب لا تنفع فيه لا الدكتاتورية ولا الديمقراطية، إن حكمته الدكتاتورية نمرته، إن حكمته الديمقراطية نمرها... نعم كم صنق أنكر سيسن القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزقها الكبار... لا يُخلصنا مسيحٌ واحد إنما يُخلصه كلٌ واحد منا... من أين لنا تصور المستقبل وليس لنا عن الماضي والحاضر إلا الجهل المركب والغرور؟... أي تحليل جذّي للحاضر وتنبؤ معقول للمستقبل بأيولوجيات الماضي؟.. منهم من يتوهم أن العصر الذهبي كان في الزمن الغابر وثمة من يتوهم أنه في المستقبل "المشرق" والحال أنه لم يوجد في الماضي ولن يوجد في المستقبل إلا ما يوجد في حاضرننا، كل ما يتغير الشكل والإخراج... عندما تنتظر من التاريخ التكرار، يفلجك بالتغيير وعندما تنتظر منه التغيير يحبطك بالتكرار البليد... أما المستقبل المنظور فلا يتمخض عادة عما نرغب أو عما نرهب، وإنما عما لا نتوقع وكان أحب وجهة إليه ليس الأفضل أو الأسوأ وإنما المختلف.. يريدونني أن أؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بأفكاري... اللغة هي النظارات الذي نرى بها العالم والغشاء السميك الذي نضعه على العينين... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد إلى العدد، وإرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم على الدوام واحد عدد، عدد واحد... هذا عالم الروتين فيه ليس روتيننا وكل شروق شمس لا تشبه أي شروق شمس والتغيير فيه ليس تغييرا وسيناريو الصراع بين الخواء والنظام، الحياة والموت، النمار والاعصار، ثابت أبد الدهر، أي تنائية من خارج الصندوق لوصف حالته.. من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟ أحسن رد للسكير الذي قال أنا سرجاي باطوفيتش، جئت من بيتي وذهبت إلى خمارة البلدة... الأثانية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... لا فضيلة أعلى من الاحترام وأكبر خطيئة الاحتقار.. الغبي من يضحك من الآخرين واللبيب من يضحك من نفسه.. في موضع ضعف لا تستسلم، في موضع قوة لا تنتقم... السيّد من يُعطي المثل لا من يُعطي الأوامر.. من الغيباء محاولة تغيير العالم ومن الإجماع عدم المحاولة... الهزيمة ليست ألا تحقّق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... لا شيء في هذا العالم يدعو للفاؤل ولا شيء يدعو فيه للشاؤم وأحسن موقف تجاهه شاؤل عني... الخ، الخ، الخ، هذه الفتاعات أهدت زبدة الرحلة؟! نعم، تحديدًا زبدة رحلتي أنا لا أي آدمي آخر. كل هذه الفتاعات سواء كنت أفكارا أو أحكاما مسقطّة أو قيما، لا تفهم دون الظروف التي ولدتها والظروف الأخرى التي رسختها كل هذه الظروف في تشكيلها وتتابعها وطرق التفاعل معها خاصة بي وحدي حيث لا تشبه في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل أي من التجارب التي مرت بها كل الذوات التي عبرت والتي ستعبر هذا العالم.

لنسمّ هذه الطبقة من ذاكرة الذات ذاكرة الأنا دون سواها... أو إن كنت تفضل صورة الشجرة على صورة المنجم ذاكرة ورقة الغصن أيام الربيع.

**

ذاكرة الغصن الوارف الحامل للورقة

هل كانت ذاتي تتشكل كما هي عليه لولا العلاقة العاصفة التي ربطتها على طول الطريق مع الرجل الذي كنت أسميه بين فخر وتهكم " أَيْنْفُلْس"، بل هل كانت قصتي توجد أصلا لولا قصته؟

يتحوّل البحث عن ذاتي إلى البحث عن هذه الذات التي تفرّعت قصتي من قصتها لإدراكي أنها ما زالت تفعل في فعلها الصامت وعبت بالأمر أم لم أعي.

لكن كم من فراغات في قصة "با". أول مصدر للمعطيات النقصية ذكّرت "ما".
- ألا تعتقدان أنه لو كان له أشقاء علموه باكرا أن يُقاسم لما أقرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره لئله المكلفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما" بحدّة غير معهودة فيها:

- لم تُدّله يوما أمّ

ثم تعصّن على شفقتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

غريب! لم أسمع "ما" على كثرة منحها للناس تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها. الأهمّ، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته، أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه... ولا شيء بخصوصها!

كل ما يحفّ بنكري هذه المرأة التي توفيت قبل ولادتي صمت ثقيل مثبوه.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرٌ تحريكها. لكن فضولي أهمّ من ترفّق بحضر ويغيب.

- لم تدلّه!؟ تقصدين أنها كانت مريضة... أن مرضها أثر في طبيعتها وفي طبيعتها... ربما المرض سبّب عدم إنجابها لغيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي لصوت نبرة لستهجان.

كلّما لم يكن بها أيّ مرض، والان قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيّري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باعتماد ميثية. إنه حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكيّن "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ أمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فُخرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل.

ربما لم تقبل بالضعيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جفّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبيعتها، من ساهم في تكريم هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحل دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟

هل هذه الجذّة سببُ الوجع الذي جعل "با" طول حياته كأننا متألما مؤلما كم تسبّب لي وللآخرين في كم هائل من الأوجاع؟ هل كانت هذه المرأة تترك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبّب في سلسلة من المصائب لِكُم من نساء وأطفال أبرياء على امتداد أجيال؟

لكن يجب أن يكون رَفُضُها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شِدَّتُها التي التصقت باسمها؟ لكن ما سبب هذه الشدّة؟ أيكون جرمائها هي من حب لم تستطع اعطاءه لابن بقي طوال حياته يركض وراءه؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدّتي؟

مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم المقاومة الصامته.

- وأيضاً؟ تكلمي.

تنسحب "ما" لدخل فوفقتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بدهاءة ثمة شيء لا يمكن لأُم أن تحدث فيه ابنتها... شيء ربما تهلمست به النساء يوما بعيدا عن أذان الأطفال!

لأحاول الجمع بين مختلف قطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تحبّط في أحشاء أمه غير كما هو حال الأنبياء. ثمة عدوّه للنساء وتكليه بكل أنثى رماها الحظّ العائز بين ذراعيه مكبّسا الخليالات والطيّلات يشيعهن إذلالا وخيانة وطلاقا.

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تعترف. الخيانة الزوجية؟ جدّ مُستبجّر. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بلذبح تحت التكبير والزعاريد. مفهوم رجال تلك الزمان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاعية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهّم أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فيالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهلمست به النساء، وأن المرأة لني رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

أيا كانت الأسباب وأغلبها ستبقى مجهولة إلى الأبد، الشيء الثابت الوحيد أن قصة الجذّة أثرت بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبّعني بها من خلاله إلى الأبد.

ما أعرب أن تُشكّل أحداثاً لا تدخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب وما أعرب أن يقول البعض بحريته وكلنا مُسَيَّرُون بأحلام وكوابيس من سبقونا.

ماذا عن دور الجد؟ لا بد أن جزء من قصته يفعل في فعله الخفي عبر ما قد يكون فعله في تكوين ذات 'أبا'.

كم مرة سمعت 'أبا' تردّد قصّة وصوله بيتنا ليلا قائما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف أنه نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنه خاف إر عابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر. هذا الرجل كان أباً لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمتلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقلّوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالما. ثمّ يلمر 'أبا' بنزع حذائه وغسل رجليه بلماء الساخن، يرغي ويزيد لتلكها.

لم يكن نقیض ابنه في مثل هذا التصرف وما ينمّ من طبع وإنما في كل شيء تقريبا. بقدر ما كان 'أبا' صاحباً، طاغي الحضور، متكبرا بقدر ما كان جدي هادئا، متواضعا حنونا. لم أعرف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرة من رأيتهم يفتعلون أمرا كان عنده فطرة وغريزة.

إذا تهيكلت قصة 'أبا' في علاقته مع امه على ردّ فعل. هل محبّتي للنساء وثقفي الدائم بين مجرّد ردة فعل على ردة فعل على زدات أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟ أما قصته في علاقته مع ابیه فقد تهيكلت على رفض صارخ لخياراته في الحياة. كان والده فلاحا بدويا فقيرا لا يغادر واحته إلا لضروريات قصوى ولا تتجاوز طموحاته الاعتناء ببعض النخلات العجاف وتوفير الحد الأدنى لأبسط أنواع العيش. أما هو فقد كان لا يرى نفسه إلا سيّد قومه... المستبدّ العادل الذي تنتظره هذه الأمة عبثا كما تنتظر أمم أخرى المسيح أو المهدي المنتظر.

هل كان صراعي معه وعلى من حاول أن يلعب معي هذا الدور المضحك المبكي بحثا عن الخروج من السيناريو أم محاولة للفوز داخله بدور البطل؟ الثابت أن تأثير قصص الآخرين في قصتنا بالغ التعقيد فيه النماهي الذليل، فيه التقليد الأعمى، فيه التباعد الجزئي، فيه الرفض التام، فيه الانخراط في الاتجاه المعاكس أحيانا بإفراط هو أبلغ دليل على تواصل التبعية للنموذج الذي تتمرّد عليه. أيا كانت الخيارات الحرة أو المفروضة بنوع أو آخر من العصاب فالمنطلق ثابت لا يتغير وهو أنك لا تصنع ذاتك إلا بالذوات الأخرى.

كيف لا يشعر الألمي بالغربة داخل ذاته وكلّ الأنا أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخله منها لأتلس معروفين وأغلبها لمجبولين لم تحفظ الذاكرة منهم إلا ما تحفظه الرمضاء من خطى التائهين. كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي وذاتك، لا البيت يعلم ولا الأشباح!

الإستنتاج أن ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مكون من الأنا الآخر....وفق نفس القتون فإنني أحر الأخر مما يعني أن ذاتي ضرورة ملحة خام يتكون منها نسيج كم من ذات وتصار عني وتقلدني وتدخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءا من قصتها.

محكوم علينا أن ندخل العالم وهو في طور من تاريخ لم نختره، أن نفيق في مكان عينته الأقدار وزمان حدته طاولة القمار، أن نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا جمل تشكلت سنوات وعقود وحتى قرونا قبل ولادتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحت قصتنا شئنا أم أبينا مجرد فصل من فصولها.

يجب أن أتبع القصص التي وأدت قصتي والمصدر الآن التاريخ بما هو الذاكرة المروية المكتوبة التي تتناقلها الأجيال.

عن هذا المصدر أن أجداد جدي وجدتي كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضع في مجال لا يتخلفها خيال...أنهم هجروا من فيافيهم القاحلة نحو أراضي الماء والطين...أنهم عاثوا فيها فسادا وأن ملكا من ملوك الماشيين وراء أذنان البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء... أنهم افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجبول يجزون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير...أن جثة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها هي التي بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمر اسمه من اسم الهلال جمع الجراة والدهاء... أنه هو الذي رسم العلامات لتتفق جحافل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدقون أنهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة...أن السيف عاد لغمده يوم تبين أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كل الملقات التي تحفظها ذاكرة الرواة والمستمعين ترن بقعقة الشعر وترنم السلاح. كل الصور لنساء لهن عيون المها وشعر يغار من سوله الليل، لرجال لهم وجوه كأنها نحتت بلسكين إذا شجعوا تهوروا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثاروا كفروا وإذا حنوا ذرفوا الدمع مرارا، لا يضاھيهم بشر رقة وتوحشا.

لم يُعط " أَيْنُقَاس " لابنة له ماتت في سننتها الأولى اسم الخنساء صدفة.

مما يتناقله الرواة جيلا بعد جيل أنه كان لهؤلاء القوم شاعرة لا مثيل لها اسمها الخنساء قل عنها بشائر إنها الأنثى الوحيدة التي غلبت الفحول. ظلت هذه الشاعرة تندب طول حياتها موت أخيها البطل وإثنا ظلت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيين محو اسم صخر من ذاكرة القبيلة.

“يا عين ما لك لا تبكين تسكيا
 فابكي أخاك لأيتام أرملة
 المجد طئنه والجود عطنه
 خطب مَحْفَلَة فزاج مظلمة
 حمال الوية قطاع أودية
 سم العداة وفكاك الغاة إذا
 لاقى الوعى لم يكن للموت هيبا”
 إذا رب دهر وكان الدهر ريبا
 وأبكي أخاك إذا جاورت أجنبيا
 والصدق حوزته إن قرئه هابا
 إن هاب مَعْصِلَة سئى لها بابا
 شهة أندية ليوتر طلابا
 لاقى الوعى لم يكن للموت هيبا”

يقيني أنه قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر دخله ببطء، أن مناهج ومسالك فتحت داخل ذاته، أن أهدافا قاهرة تحذت لها والشعر منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع ذوات أطفال الصحراء.

ليس من باب الصدفة أن "با" أطلق اسمها على وليدة له لم تتجاوز رحلتها السنة الأولى. يقيني أن الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل "با" نمونجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سم العداة وفزاج كل مظلمة..وأنتي أخذت عنه وغنا كل الأوامر المبطنة.

كم غريب أن أبينا لقصيدة عن قصة نار حدثت قبل أكثر من ألف سنة بين قبيلتين لعبت دورا أساسيا في تشكيل كم من ذات منها ذات "با" ومن ثمة ذاتي!

هذا ما يجعلنا نتذكر أن اللغة أكثر من منظومة علامات منطوقة وكتوبة لتبادل المعلومات. هي مشبعة بأوامر ونواهي، بتعليمات واضحة وأكثرها خفية، بأحكام معيارية، ببركات وبلغات آتية من أعماق الزمان

هي رؤية هذه المجموعة البشرية للعالم ونفسها عبر كل الكلمات التي تشكل معجمها. هي خزان كل تجارب الماضي التي مرت بها تتوارثها وتثريها وتنقلها للأجيال المتتالية. نحن لا نعي ونحن نكلم لغتنا الأم أننا نستحضر دون وعي كل ما تراكم في ذاكرة الآباء والأجداد، ننتقي فقط منها الأجزاء التي نحتاج لربط الحلقة التي هي ذاتنا بالسلسلة التي لا نعرف أين بدأت وأين ستنتهي يوما.

لنسمي هذا المستوى من الذاكرة المرؤية والمكتوبة ذاكرة الآباء والأجداد وفي صورة الشجرة ذاكرة الغصن الوارف الحامل لأوراق أيام الربيع.

**

ذاكرة الجذع المهيب

يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقياً نظرات مستغربة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارضا يخافون مني، وحكيما يخفون عليّ.

المهمّ الفرصة الثمينة وأنا أستطيع على هلمش اجتماع بوصف بالهامّ وحتى بالقمّة، أن أزور هذا المكان لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي عن أقدم طبقات ذكرتنا الجماعية.

لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المتقطعة للتركيز على ما يقوله السيد المدير. اللعنة، نسيبُ أنه لا يجوز رفض استعمال المصعد في مدينة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

على طول حائط أكبر قاعة المتحف خزائن حديدية كلتي تُخبأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها لا يقدر بثمن وهي تحتوي على رميم أوائل أوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوماً على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريقٍ ستتابع عليه أجيال الجدات والأجداد.

يقطع عليّ تفكيري صوت مبالغ للتهديب والاحترام.

- سيدي، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان. يواصل الرجل المهذب:

كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته فأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأظن الظن أنه وجد أكثر من محطة لانطلاق الطريق.

ثمة اليوم كمّ متعظم من الأفلام والفيديوهاث عن انطلاق الملحمة العظمى التي كان أوائل الأوائل لأبطالها. ربما لو وضعت أمامهم تصوراتنا هذه لانفجروا بالضحك.

أية قصة تخصني سأنتقي داخل القصة الكبرى التي تقول أنهم انطلقوا من هذه الربوع قبل مائة ألف سنة (والرقم يتغير باستمرار) وتوزعوا على القارات الخمس ركضاً وراء الطرائد وهرباً من أنيّل الكواسر لينتهي بهم الأمر سادة العالم أو هكذا يتوهمون.

بديهي أنه كان من الممكن والأوائل في بداية الطريق أن تقضي عليهم كم من أوبئة مجهولة، كم من انفجارات براكين وكم من فترات جليد وجفاف تطول أكثر من طاقتهم على التألم. بديهي أيضاً أنه كان أمامهم ألف تقاطع طريق لو أخذ البعض منهم هذا التقاطع بدل ذلك لما وجدت أصلاً أو لما وجدت على الحالة التي أنا عليها اليوم.

لماذا أحرّم نفسي من متعة لا خطر منها وهي حلم يقظان يعرف أنه حلم يقظان؟

آه هذا جدُّ من سلسلة الأجداد كل يعرف بين أفراد قبيلة تضم عشرة أشخاص بالليث الهصور. أين في الناس جدُّ مثل جدي هذا وهو لصيد الذي قاتل الفهود وأربع الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جدّه وهو رليض وراء أكمة، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة. آه هذه لثى وجلة تقترب بحذر من غدير تريض التماسيح على ضفته وفي وجهها قسما تندر يقرب بروز ربع ابتسامه على وجه هديء وقور.

ترى ما الخصائص المبهمة التي أخذتها عن كل هؤلاء الأوائل دون علم مني وإن منهم ولا زالت تفعل في فعلها الخفي منذ أكثر من مائة ألف سنة؟ عبر أي قنوات انتقلت من جبل لجبل حتى تصل ذاكرتي لتتحكم في طريقة عيشي وتصوري للعالم ولذاتي؟ هل ثمة ذاكرة أعمق من ذاكرة اللغة تسيرنا لا يختلف وعينا بها عن وعينا بموجات الجاذبية؟ أسئلة أخرى تضاف إلى القائمة الطويلة من الأسئلة التي نخرج من هذه الدنيا ولا لجابة مفقعة عنها. هل قدر ذاكرة التاريخ أن تبقى إلى الأبد مثل شبكة الصياد فيها من الفراغات ما فيها من خيوط بها؟

يخرجنني من تلاطم الأفكار صوت السيد المدير:

ويسعدني أيضا أن أقول لك أن لنا علماء من قارتنا وخاصة من اثيوبيا يشاركون أكثر فأكثر في أهم الاكتشافات العلمية بخصوص نشأة البشرية.

الاكتشافات العلمية! كم من اكتشافات ستقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر متانة عن الأوائل وتغيرها المتواصل مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فك هناك.. ما أغرب أن تكون أهم المعطيات عن هذا الماضي السحيق مضمّنة في المستقبل المجهول.. لا يبق علي إلا شكر لسيد المدير وتهنئته على دعم كل الأبحاث التي سترمم ذاكرة جماعية نحن بلّس الحاجة إليها وذاكرتنا الشخصية ليست إلا آخر حلقة منها.

لاستحضار هذه الذاكرة الجماعية يتجدد اليوم الباحثون الذين يتقنون عن ماضيها في رمال الصحاري، في صخور الجبل، في طحالب أعماق المحيط، في الهواء المحبوس داخل جليد العصور الماضية، في رميم حيوانات منقرضة وبقايا للكائنات شبه الأدمية التي فتحت لنا الطريق. لماذا كل هذا الجهد؟ لفهم ذاتنا نحن بحاجة لمعرفة قصص الأقارب التي أثرت فينا بصفة مباشرة واضحة كما تروينا الأمهات والجدات. لنفس السبب نحن بحاجة لمعرفة قصص الآباء والأجداد كما يروينا المؤرخون وكما تحفظ اللغة بصفة لا واعية أهم علاماتها. أخيرا لا أخرا نحن بحاجة لمعرفة قصة الجنس البشري بأكمله كما يحاول الباحثون تركيب فصولها لأن هذه الدوائر الثلاث هي التي تصنع في الأخير القصة التي يعيشها كل واحد منا وعينا بالأمر أم لم نعي.

لنسمي هنا المستوى من الذات ذاكرة نحن جميعا في صورة الشجرة ذاكرة الجذع الذي تفرعت عنه كل الأغصان وكل الأوراق.*

ذاكرة الجنور العميقة

تلك الليلة التي لا تنسى، داهمتني فجأة من الاتجاه المعكس سيلة كأن صاحبها فقد كل سيطرة عليها. وبينما الأنا مسليم بنهاية الرحلة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرتُ به يُلمي على العضلات المثنسجة أوامره فتندافع إلى عمل سريع، فغل، منسق، نلج، منفذة بقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

هكذا انصاعت السيارة كما لو أصبحت هي الأخرى جزءاً لا يتجزأ من هذه العضلات لثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، لتستعيد التوازن في المكان الذي لو تجوزته بشرة لانظبت رأساً على عقب ثم للتوقف بالضبط حيث يجب للتوقف.

تلك الليلة تراجع الموت كالنسر انقض على شحور لكنه لم يلمسه إلا بجناح. في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة من حديد كادت أن تكون لي كفناً، استعاد الأنا وعيه، لترتعد الفرائص بخوف مقلج لم يعد له ميزر... ليتجدد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجب.

كم من تجارب حتى ولو لم تكن بمثل هذه الخطورة تثبت أن هناك شيئاً بداخلي يعرف كل ما أجهله ويلخذ القرارات المصيرية دون أخذ رأيي أو الاهتمام بما أقول أو أفعل! في ملف من الماضي القريب عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرب لذة دوار خصر هذه المرة ولا لذة تصحبه.

تميد الغرفة بي وقد أصبحت بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي تمنع كل تحرك. تأتيني أوامر مبهمة من قوة غلمضة بالكفت عن التدخل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرف.

شيئاً فشيئاً ودون تدخل أي طب أتى اليوم الذي استطعت أن أقف فيه مجدداً على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنحاً لأتعلم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن "شيئاً" ما داخلي شحص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحاً ما أفسده عطب غبي.

ليس الأمر دوماً بمثل هذه النهاية السعيدة.

وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كريمة الزائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفت عن السيلان. تلك الليلة جاعنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحاً لأي غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيده. ومما بقي محفوراً في الذاكرة أنها كانت تتكلم معه بلحترام شديد، أنها كانت

تأتمر بكل ما يقول، أن الغريب عيس وقطب الجبين وهي تعطيه ما حسبه كثيرا من المال، أنها اعتذرت بفقرها، أنني كرهت الرجل لما أحدثه في "ما" من خرج وأني أحببت تلك اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تنفق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال أنه خرج مني أكثر من مرة ثم توقف دون حجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفق ولماذا لا يتخثر في الأوعية، وكيف يرتبك لشيء المجهول أحيانا فلا يكف عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات للمصاب، أصحنت السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حوالتي انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

أعود إلى الصراخ العقيم لمشاكسة العبقري الصلمت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم وأنا أحصل على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعتل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فنتقاسم العبقرية كشر يكين نزيهين.

"قد كان يدور دوما في خلدي (عمر الخيام)

ان اخرق درخ الفلك النوار

حتى هففت العقل بأن قد جمعت

في نفسك كل هذه الأسرار"

لا يزيد صمت المجهول الكامن في أعماقي إلا في اصراحي أن أعرف أو على أقل إن يكون لي تصور معقول لهذا الذي يعلم داخلي علما عجبيا ويمنع علمه هذا من الوصول إلى فكري الواعي.

ربما لا داعي للإلحاح والشكوى... من حاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها كل يوم على ظهره لمجرد التمتع بالعودة أي لحظة لما فيها من معلومات قد يحتاجها لإشباع فضوله... هل يكون جهلنا الذي نشككي منه هو خيار هذا العلم اللاواعي الذي فينا والهدف تسهيل حياتنا؟! ألا نحب ترك مشاكل الاعتناء بالبيت والمكتب للمنظفة وصغار الموظفين لتتفرغ للمشاكل الكبرى؟

الثابت أننا أمام معرفة لا تجد دوما الإجابة الفعالة لإيقاف نزيه أو صد هجوم فيروس قاتل أو صنع مولود جديد ليس به أي تشوه. ومع هذا ... يا للمعرفة الغربية الهائلة.

من ينتبه لغرابة ظاهرة أنه لا أحد علمنا كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والاستمالة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائيا وبكل سهولة كما لو كنا أظم المخترعين وأذكي المهندسين وأمهر التقنيين!

ما نتعلمه من المرض الحقير الذي يسمى مرض الزهايمر أن النماغ في حالته الطبيعية لا يحافظ على ذاكرتنا نحن وإنما يحافظ على ذاكرته هو، هذه الذاكرة التي تمكنه من تشغيل مكونات ما زال تعييدها المريع بتحدى قدرتنا على الفهم. والآن تصور أن الكبد نسي هو الآخر كيف يقوم بوظيفته. فالأعضاء مثل الأنسجة التي تكونها والخلايا التي تكون هذه الأنسجة -وذلك أيا كانت الأجساد والأجناس الحية- هي حصيلة ملايين السنين من التجريب والتحسين والتأقلم والتطوير. لاشيء من كل هذا ممكن دون ذاكرة تحافظ على منجزات الماضي وتخزن لمواصلة التحسين تجارب وتحديات الحاضر.

نكر كل متحذلق ينشد "يا من تدعي في العلم معرفة.. إلخ" بعمق المعرفة الهائلة التي يختزنها وكيف أن أكبر جاهل فينا يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف ينمو تدريجياً، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهاباً في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيماً لا مترنحاً كالسكران.

لذلك لا يجب أن نحمل على محمل الجد مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئاً" لا لشيء إلا لأن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بأكثر مما يتصور من الأشياء بفضل ذاكرة لها من العمر ملايين السنين هي التي تجعل كل طبقات الذاكرة الأخرى موجودة. لنسقي هذا المستوى الأعمق من الذات ذاكرة " الحياة لا غير" وفي استعمال صورة للشجرة، ذاكرة الجذور.

لكن أليس للجذور بالضرورة تربة ما تنغرس فيها وتعيش بما تضخه فيها هذه التربة من ماء وغذاء وطاقة ؟

ما هذه الطبقة للقصى لذاكرة استكشافها بدهاء كالغوص في بئر بلا قاع ؟

"لما رميت جانباً هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنا

أصبحت كل العالم الشاسع

**

الكتاب السادس الملحمة

لا تشيخوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في
الفوضى ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج
النشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب السادس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد

حقًا إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة. الدليل أنني مدعوّ إلى أضخم حفلة نظمتها الأدميون في تاريخهم للازاحر بتنظيم المآتم والأعراس. كم غريب أن تكون مخصصة للاحتفاء بليلة من الرحلة شاءت الصدفة أن ترمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين إلى دخول ألفية جديدة -مستيقين الحدث بسنة كاملة- إلى دخول قرن جديد.

على شاشة تلفزيون صغير، يفتتح مراسم الترحيب ملك مغفور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" متقنما بأولى مظاهر التبرّج.

ثم ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيف تسلّله غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئا فشيئا. تتصاعد الهتافات من مكان يدعى موسكو.

في مدينة اسمها روما يخرج إلى الشرفة المطلّة على جماهير الأدميين عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتنخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمواسم الليلة المشهودة.

تشتمل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهارا. يتدفع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتقجير مخزون الفرح الذي بدخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجّبا وإعجابا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

تصل الأفقية الجديدة إلى مشرف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار وصخب الشماريخ تحيل الليل نهارا.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سبورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور ترسم ألواحا مبهرة.. كل نقطة ملحمة كائن حي. هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقا، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بلسرعة التي ظهرت بها. أي أهمية للأمر يكفيني شرفا أنني للحياة وكنت جزءا من العرض.

بداية قرّر أهل هذه المدينة الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفي لمن نظموا هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال سنوات آخر حرب عرفت خيرة في إسقاط كل مغير؟ هل ثمة الآن من مغير غير هذا الزمان الذي يدّعي التجديد؟

تعبير الألفية الشواطئ الغربية دون أن تسقط في المحيط. خيبة أمل أم تنفس الصعداء؟ تستقبلها في ساحة اسمها تليزم سكارا نفس الحشود الألفية بنفس الفرح. أخيرا ينتهي الزمان الجديد ببسط ظلاله على البشرية جمعاء وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسي. على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا شلخصا بين الفينة والأخرى إلى السماء كآثني سألرى الألفية الجديدة على شكل ضباب خفيف يمر فوق رأسي.

تصمت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمته من الأزل فرشاة القنان الأعظم.

قرن محمل بكل الأخطار التي يتحدثون عنها في الجرائد ويهلل له هؤلاء الأغبياء! لكن لماذا أحمله أكثر مما يستأهل؟ فهل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

يجب أن أداهنه، عله يكون أقل فضاضة من القرن الذي ولى الأديار لا هو متأسف على فراقنا ولا نحن أسفون على فراقه. أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيرا العسل والمسلاوة والفرح والسلام والحربة للبشر كلهم وحتى لبني حربة وآل ثبات.

للأسف سيقف المحتفلون بالألفية الغزبية بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر.

المسكين! يظمنون أنفسهم بهذه الطقوس السحرية أملا في مستقبل لا يكون دورانا في حلقة مفرغة.

بعد السلام الحرب (برنارد فرير بتصرف)

بعد الحرب السلام

بعد المركزية لامركزية

بعد اللامركزية المركزية

بعد المدن، القرى

بعد القرى، المدن

بعد البرلمان، الحكم الفردي

بعد الحكم الفردي البرلمان

بعد الهدوء، الانفجار

بعد الانفجار، الهدوء

بعد الفوضى، انضباط الاستبداد

بعد انضباط الاستبداد، الفوضى

بعد الطغاة، الحكماء

بعد الحكماء، الطغاة

على فرض قدرة الطريق على كسر هذه الحلقة المفرغة، إلى أين سيمضي بنا؟

ألا يقول الممثل افريقي "لا مجال لمعرفة إلى أين أنت ذاهب طالما تجهل من أين أنت
قادم " هل من المعقول القبول بتواصل الرحلة ونحن نجهل إلى أين نحن ذاهبون ومن أين
نحن قانمون؟
طبعاً لا، لكن ما الحل؟

**

لماذا هم بهذه الأعداد المهولة ؟

يصل الطريق يوما إلى أرض سيناء. أتوجه بمنتهى الأدب لأحد المارة.
- سيدي ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا، طمّني أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهر؟ أنا مجرد زائر ولا أريد نفسي محشورا في صراعات طائفية أو سياسية.
يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهر، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافر و يوم عادي، ماذا لو جئت في الأعياد؟

تعود بي الذاكرة لدهشة طفل في الخامسة أو السادسة ذلك اليوم المشهود الذي أخذه فيه "با" في أول زيارة للمدينة الكبرى. يوما ألقى نفس السؤال على أبيه دون الظفر بردّ .
نعم هل ثمة سؤال أهم من هذا السؤال أيا كان زمان ومكان طرحه : ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا وهو السؤال الذي ينتهي بنا طبل الزمان أو قصر إلى السؤال سيد الأسئلة ماذا نفعل كلنا في هذا العالم ؟

هذا الصباح، المزاج ليس على أحسن ما يرام ومن ثمة ردود ليست الأحسن للمغذويات.
كانني أسمع في فضاء خيالي موظفي مركز شحن سماوي ما يصرخان في بعضهم البعض:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟
- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي أد3100-2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد تضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.
تقول يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو منطلق قصة القصص؟
ليكن. الحوار " الحقيقي " إذن بين موظفين فاسدين:

- تُرى كم من رشاي وتدخلات وتراخيص زائفة في هذه لشحنة؟
- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي أد3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

سواءً ثوه طوعا أو كرها، الثابت أن عدد الداخلين هذا العالم بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الأميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبعانين بآرهابهم ومظاهراتهم وثوراتهم الفاشلة .
لهذا نشرث منذ مدة على موقعي في فضاء الصّفّر والواحد، إنذارا صادقا وإنّ بتوقيع مزيف.

“نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فنل العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار وذلك إلى لجل غير مسمى”.

أسلط النظر على امرأة تدفع أملمها بيطنها المنتفخ، تهذد بمولود جديد عالمًا شبع من المواليد الجدد ناهيك عن الكثرة المقرفة للموليد القدامى.

أتوجه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرا الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربما ستجح القوى المحبولة في تخيل عالم أقل خطرا وفضاعة، أما هذا! .. ثم هل فكرت في ضرورة ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشيخ متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالمتهور يهز كتفيه. يجب ألا أحبط وأن أوصل تحمّل مسؤولياتي تجاه مستقبل الجنس البشري. يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهر للسكن... ماذا تقول؟ علي أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحست أنني أريد بذريتها شرا. قل الأمك أن تهما. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حبيبته وأن عليها أن تطلب بوليس النجدة. يا غبي، لا أريد بك إلا خيرا... وأنت لا تريد بي إلا شرا! أه منكم يا أولاد حواء.

قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا نلس، لنجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدريين لا غير: النساء وأمّهاتهن.

أقولها ولمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأذى أسنّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حلّ ظهور بوادر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخور بما اقترفت المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

المهمّ. فرضيتن بخصوص كثرتهم أرفض الخيار بينهما داهمتني موجة من الحين. الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين تشغيل هذا العلم: الرهان على الأعداد الكبرى. كما لا بدّ من مئات ملايين النجوم لتشكلّ حفنة من الكواكب القادرة على توفير الشروط الحقيقية لظهور الحياة، كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلو غرام من التبر كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة... كذلك لا منا ص من عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ وشاعر اسمه إيسا وأمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي أو الحلاج. بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا شيء إلا لأنني لسدت متأكدا في أية خانة يصنّفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.

الفرضية الثانية التي سادف عنها لأنها في صالحه وصالح كل قراني والبشر أجمعين هي القائلة بأن المهمة التي كُلف بها الأمي من قبل قوة مجهولة (أو كُلف بها نفسه مفتعلا أن هناك قوة مستقلة عنه كلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهد بها آدمي واحد. لذلك كن من الضروري أن يخلق بأعداء كبيرة في كل الجيل وأن تتابع الأجيل كما تتجدد أفواج عمل المنلجم، ولقدامى يحالون إلى التقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق.

طيب، لكن ما هذه المهمة التي تحتاج لجهد كل هذه الأجيل؟ ما قصة هؤلاء البشر التي لا مجال لفهم قصتي نون معرفتها.

لا جدوى من اعتراض طريق أحد من المارة لتسأله عن سبب وجوده في هذا العالم وماذا يفعل فيه. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبعك في وجهه تذكره أن عندنا كبار الإخصائين ينطقون كل المتسترين على الأسرار التي تهمننا جميعا.

قد يطلب بوليس النجدة أو سيرة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل الحالات هو كيفية المارة لا يعرف فعلا لماذا هو موجود وماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكن السرّ على كل الأسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الأميمين -الاناث تحديدا كما يدعي الذكور -استحالة حفاظهم طويلا على أي سرّ.

أوف، خرجت من الزحمة المرعبة. يمكنني التوقف لمسح عريقي. أعتنم الفرصة ورجل واقف بخدوي ينظر مبثما إلى هذا الأجنبي التائه.

- عفوا، يا سيدي هل تسمح لي بسؤال؟ في بلانا نحبي الأخر عن بعد ملوحين بيدينا لئيبين له أننا لا نحمل سلاحا. عن قرب نصافحه نوكد ونناكد أنه ليس بين الأصابع الخمسة خنجر صغير... ثم نُقرئه السلام. إلام ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "تماستي"؟

- معناها نحبي المقدس الذي فيك.

يضمّ الرجل راحتيه اتسعت ابتمته ثم يختفي داخل الزحمة.

المقدس الذي في... أنا !!! ؟

**

أولماذا نحن بأمس الحاجة لتجديد خارطة الطريق؟

ذات يوم يتغير منهج البحث بصفة جذرية.

لماذا لا أريد بنفسى على كل هذه الأسئلة التي وصفها دستوفيسكي بالعينة والتي تورقني منذ زمن بعيد؟

لماذا لا أختار لها الأجوبة التي تطمئنني وتساعدني على إنهاء الرحلة على خير؟

ليس هذا ما فعل البشر دوماً؟ نعم لماذا لا أخلق لي أسطورة لاستعمالي الشخصي البحث

تغنييني عن القيل والقال لأخرين لا يقلون عني حبرة وضياعاً؟

قبل الشروع في العملية لماذا لا أستأمن برأي خبير كبير في بناء الأساطير المؤسسة

خاصة وأن الطريق أوصلني لأرضه؟

السؤال هل سيعبرني بانى أسطورة سكنتها أمة بأكملها اهتمامه وقد انسحب من العالم

الحسى غير مبال حتى بفيلق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين

والمخريين؟

داخل فضاء خيالي وقد استنفرت كل طاقاته، ينتبه فالميكى لوجودي. بيدارني بانزعاج لا

يخفيه:

- ماذا تريد؟

أواه يا سيّتا، برّب عشق طفل تهجّى في حيك أجمل روايات القصة المقدّسة، تدخلى، أريد

نصائحه ولم لا بركاته!

يتبلور الشبح الذي صنعته الذات لتتفحص عبر فكره وخياله ما يتبلور بصعوبة داخل

فكرها وخيالها. أهمس له بين رجاء واستحياء بهدف الزيارة.

- كما النّات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسى يوفّر للجسد الأمان والراحة هي بحاجة

إلى بيت في الفضاء الفكرى -الخيالى يوفر للنفس الأمل والسلوى... لذلك خلقت الأسمية

المهندسين المعماريين في الفضاء الحسى لتلبية حاجياتها المادية الحسية من بناءات

مادية...هي خلقت أيضا مهندسين معماريين في الفضاء الفكرى الخيالى لتلبية حاجياتها

الروحية وهم من بنوا لها الأساطير والأديان والظسفات وأنت من أكبرهم ...جنتك لأخذ

نصائحك بخصوص مشروع بناء بيت روحى لاستعمالي الشخصى لا غير؟

- ولماذا اخترتني من بين كل الصناع المشهورينالمشهود لهم بجودة أعمالهم ؟

- لأنك لا تخفي أمرا يحاول الآخرون التسترّ عليه وهو أن كل ما نبني من فسفات وأديان

ليست إلا تصورات من بنات أفكارنا تتقدم وتبلى ويجب استبدالها.

يأتيني همس فيه فيه مزيج من الاستغراب والمرح .

- ثمة بنيات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان فلماذا لا تكفي بها؟

جلّ ما يوجد في الفضاء الفكري-الخيالي من رؤى لتفسير وجودنا وتبرير معاناتنا لا يقبل به عقلي ولا يرضى به فؤادي لا لشيء إلا للشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصنّفها.

- انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أدلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالقضاة والجادين. حتى التي لا تحتاج لأي عنف لبقائها أعجز من أن تتحدى أنياب الزمن. فكما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقّف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا طاقة للأدمي على سكن نفس البناءات وإن حسبت أعمارها بالقرون، بما لتغيّر النوق العامّ أو لارتفاع مقاييس الجودة عند المستعملين.

- وما مقاييس هذه الجودة في ما تبحث عنه من بنائيت روحية جديدة؟

- المقياس الأول لمهندسيها ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

- والمقياس الثاني؟

- أحسنّ الأساطير المؤسّسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة، التي لا تخلق شعوبا مختارة يحق لها قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم، التي لا تقسم البشر إلى مؤمنين وكفار، التي لا تخلق منبوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة، التي لا تخلق مستبدا في السماء يشرّع للمستبذ الذي على الأرض، التي تسهل الحياة والموت للجميع، خاصة التي لا تتعدى لُدا على كرامة خالق أو مخلوق.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتهم الطبيعة صدفة أو دُمى خلقتها آلهة لا لشيء إلا ليعبدوها!...عجبي من تشبّثهم بقصص تغيرهم بأصولهم...تسقم رحلتهم بعقدة ذنب لم يرتكبوها... تجعلهم يعبرون العالم على مخاوف لا سند لها ولا داعي... ناهيك عن التي تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية تبرر ما يتعرضون له من ظلم فظيع في هذه الحياة... طبعاً لن تكون رحلة الأدمي في رؤياي سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات البئسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع العبرة، من النجاجات النادرة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الآلام العبيثية، ومن النهليات المحزنة.

يعود الهامس الخيالي لتحتسّس مكان من الضعف والقوة في محاوره.

- أتبحث أنت أيضاً عن رؤيا تتجسد فيها الحقيقة المطلقة؟

- لا وجود لشيء مثل هذا. الحقيقة في الدين ما تعتدّه طائفة دون بقية الطوائف من المؤمنين ومن ثم هي نسبية. هي في العلم ما تعتبرها طائفة من الباحثين أحسن إجابة عن مشكل ما بانتظار تطور الأبحاث ومن ثم هي مؤقتة.

- ما الذي تريده مني إذن وقرارك ملخوذ؟

- بركاتك وتمنياتك لي بالتوفيق.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟
مداعبة بمداعبة.

- من أمي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوماً وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكى بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم ترتسم على شاشة الذهن ابتسامة عريضة.

- أخلق لك القصة التي تريد إن لم تجد ما يرضيك من قصص الأوانل.

القصة التي أريد! طبعاً الأجل، الأغرب، الأخطر... والأكثر احتراما للبشر، للشجر
للحيوان ولكل ما ينطلق عليه العالم من روائع ومن معجزات.

**

الرواية المزيدة والمنقحة لانطلاق قصة القصص

أجمل ما في أساطير الماضي أنها معالجة العقل الجماعي لمفاهيم بالغة التعقيد توضع في قالب شعري مجازي ليسهل وصولها إلى كل العقول والقلوب... وأيضا احتوائها على مواد ثمينة يمكن استغلالها.

لننكر هنا أن البشر لا يستولون فقط على نساء وماشية وبتترول وأراضي الآخرين وإنما أيضا على أساطيرهم، يكيفونها على هواهم بتغيير بعض مقاطعها ثم يدعون بأن قوى غيبية اصطفقتهم دون غيرهم من بني جلدتهم لئلا يشرها في العالم. في نفس السياق تراهم وهم منتصرون يسرفون أحجار معابد أعدائهم لبناء معابدهم هم. لماذا أتورع عن المشي في نفس الطريق وأنا آدمي كامل الأوصاف؟

لا أسهل للانطلاق في مشروع الخصاص من استغلال الأساطير التي نشأت عليها وأولها أسطورة آدم وحواء.

أجمل لخارج لها هذه القصيدة.

“وقلها كاتا في جنة عدن (أندرية شنيد)

فضاء أنقده الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعُد بلا خطر

فجأة طُرِدَا من الحديقة؟

قف. طُرِدَا من الحديقة!! ؟

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة للأسطورة حيث تقول إن ثعبانا خبيثا زَيْن لآدم وحواء أكل تفاحة من شجرة في الجنة فعقبيهما الله بالطرد من حديقته هذه لأنه لا يحب أن يقطف ثمار أشجاره دون رخصة منه.

بصرحة كنت أفضّل أن رواة هذه القصة وجدوا سببا أحسن لهذا الطرد المشين. مثلا التدخين في المراحيض. من لا يتفهم شرعية العقوبة والتدخين بغض النظر عن اضراره بصحة الشقيين كان قادرا على اضرار حريق في الجنة وهو أمر غير مرغوب فيه.

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين-الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روجي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول لهم أنهم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم.

أولا السردية تعدّ صارخ على كرامة الخالق وهي تصوره كمستبد بخيل حقوق ظلم بكل بمخزوقاته بسبب معصية تافهة. هل ثمة ما أكثر ظلما من طردنا من الجنة بسبب نفلحة لا تسوى أكثر من قرش وربما حتى أقل بسعر التفاح هذه الأيام. السردية أيضا تعدّ على كرامة آدم عندما تجعل منه كائنا بانسا قبل بالركل في المؤخرة والطرد والنفي ولم يردّ الفعل مثلا باقتلاع الشجرة في لحظة غضب ورميها في وجه صاحب الحديقة وهو ما كنت سأفعله بالتأكيد لو كنت مكانه. أخيرا وليس آخرا هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفي لمرتكبي المخالفات حتى البسيطة منها.

لكن لماذا نلومهم؟ ربما لهم أعمار. هم لم يكونوا أقل نكاء منا ونوايا طيبة لتسهيل رحلة بني سفر. إذن لماذا ارتكبوا خطأ مهنيا يمثل هذه الخطورة؟
ليسمح لي القارئ هنا بفرضية بخصوص نشأة هذه السردية.
المعروف أن وراء الكثير من الأساطير أحداث صحيحة وقع تغليفها بما تيسر من الخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان ثم سُوّقت للأجيال المتتالية على أنها حقائق لا يأتيها الباطل من خلفها ومن امامها.
هل من باب الصدفة أننا نجد نفس اسطورة الطرد والعقاب عند قبائل "البوشمان" في أقصى غرب جنوب القارة الأفريقية وهم يبعدون عن قبائل السلميين في أقصى جنوب غرب القارة الآسيوية أخذت عنهم قبائل العالم أجمع هذه الرواية.
أية أحداث حقيقية قد تكون ولدت سردية طرد آدم من الجنة؟
أجل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمري للعودة إليها دوريا إن لم يكن بالجسد فيالخيال والحنين.

كانت "اما" تبغضها بغضا شديدا لا فقط لأنها نفيت فيها مدة بغير ارادتها وإنما خاصة لأنها كانت تفقد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد بخضرتها طوال السنة ومياهها العذبة التي تستخرج من آبار سهلة الحفر.
ما كانت تجهله المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت يوما ما أرضا خصبة تشقها أنهار جبارة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت ترحم الغزلان والزرافات والفيلة. ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الى ارتخاء ومن ارتخاء إلى قبض أي من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف منمر والسبب تغير المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول أهل الاختصاص.
لنتخيل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة- كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم يتنقلون بكامل الحرية داخل ارض غنية بكل أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء الزلال تحت الطلب أينما امتدّ البصر.
ها قد أصبحت تدريجيا مراعيهم الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة.

ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق جلودهم والعطش يلصق الألسنة بالحلق ولا شيء يؤكل إلا بعض الجردان الممتلئة هي الأخرى جوعا وعطشا.

لتصورهم حول نار باهتة والمعنويات كتلك التي نعيش أيام الحداد. ينطلق شبيخ القبيلة واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات تنبأ أنقى وأناقة وجمالا. مؤكداً أنه كان هناك في آخر الحلقة طفل كان أذكى الأطفال وأكثرهم فضولا وأسئلة مرهفة لكل من حوله... وأنه كان أكثر الأطفال انتباهاً لكلام الشيخ.

كأنني به يتساءل: ما الذي حدث وسبب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لا شك أن الأوائل اغضبوا أقوى الآلهة فسلب عليهم أفضع عقاب ألا وهو طردهم من أراضي الخضرة والوفرة والمياه العذبة لينفيهم في هذه الغيافي الموحشة.

لتتابع تفكير طفلنا العبقري الذي سيصبح نبيا مع كل المخاطر المرتبطة بهذه الصفة. ترى ما الجريمة التي ارتكبها الأوائل؟ أه لا بد أنهم سرقوا شيئاً لرب الأرباب والربات؟ لكن ماذا؟ أشهى ما في حدائقه؟ التفاح! التفاح! التفاح!

ها هو يصل بصفة تلقائية للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين والعلم: كيف يمكن استرضاء رب الأرباب والربات حتى لا يواصل غضبه علينا ونعود إلى الجنة التي طردنا منها؟

قد لا تكون الأمور حدثت هكذا في التفاصيل، لكن اغلب ما نعيش عليه من أساطير دينية وعلمانية لم تفكر إلا بهذه المنهجية: حبة من الحقيقة تبنى فوقها قبة من الخيال.

أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضاً في المستقبل. السنأ في هذا العصر على حافة كارثة مناخية أخرى؟

تصوّروا حفيداننا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشبيخة القبيلة في ركن من أركان مدينة مهجورة تحدثهن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجيدات.

أه يا بناتي حقا كانت عصورا ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشبيخة وهي في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) ولطباء أسنان (الشبيخة لا تنام إلا بضمير ضرس العقل تفقدها عقلا) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم (الشبيخة قلقة من تقطع أخبار كنيية المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام الموجود وراء بقايا الطريق السيارة)

تتساءل طفلة وسط الحلقة وهي أذكى البنات وأكثرهن فضولا: ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الجدات لتنهار العصور الذهبية؟ أي خطيئة ستختلقها النبوة ستريثوفسكابا لتفسير خروج البشرية من جنة العصر المخيل (ربما ستكون أكل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها) وشكل الديانة التي ستؤسسها وستغزو العالم طيلة آلاف السنين.

المهم: بما أنه من الثابت أن آدم وحواء خرجا من الجنة لسكنى هذا العالم -والدليل القاطع وجودنا جميعا- فلا بد من سبب لهذا الخروج.

هنا يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه المتعلقين بالصياغة المهينة: كلا ثم كلا، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما فرّا منها.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عائشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالجمان وتقول لي إنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارادتهما في هذا العالم التعيس! هل نسيت أننا لا نلحم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت، هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردّي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم مني بطول باع الأميمين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من حماقات.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملانكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلا ليس من لسهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شك أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء أخطر الكمبرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين غير القانونيين.

لا بدّ أنه كان لأدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهما، ربما بليقاف تشغيل الكمبرات لحظة الهرب أو بتوفير الجبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مفنّع لم ترصده القصة؟

من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تُخدع بيقية وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد لمئات روايتي أن النصير المجهول كان صاحب الحديقة أي الربّ لا غير.

صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك.

إن في النسخة المزينة والمنقحة للأسطورة الشهيرة، أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة.

ذات ليلة صارخ حواء بالفكرة، فمطّنت شفتيها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّد أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن وأنها أحجّت لحظة أمام الثمن الباهظ لكنها لم تلبث أن أعادت حساباتها. في آخر المطاف... لم لا؟

إفي طبيعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الربّ بالفكرة وأنها هي التي فنّعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهبته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضخ وحواء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجزّب الجماع مع إبليس أو الثعبان.]

أيا كلن صاحب الفكرة وبعد شجار مقرّف ككل شجارات الأزواج يخس الأمر لصالح الفرار.

هكذا اشتعلت شاشات المراقبة -المكلفة بقراءة الأفكار- رسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسري جدا". وعرض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الرب بل وتفنن الصعداء مناجيا نفسه أخيرا، أخيرا قرّ قرار هذين الغيبين، من يري؟ ربما همارهاتي الناجح هذه المرة.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا الرب ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم وحواء. أولا لأن المجالس بالأمنات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية - نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية. بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

“سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعتقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجلد

يواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضغيفته

مسك بيد حواء متجها إلى الامام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنه كون يتلعثم بأولى كلماته

علم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي

علم تحت مطرقة الزمان

يجب تعلم الموت فيه

علم غير مفهوم

بتنبيره الرائع والمرّوع

معا سينمكته لا سلاح غير الهشاشة والإصرار

معا سيدان أدمية الشرّ والجنل.

تعبر الفضاء والقرون.

ومن خلال ضباب الزمان

تابعهما الصدى بالأمر"

الصدى!؟

تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة الأدميين.

- "يا، بماذا أمر الصدى آدم وحواء وهما يقرآن؟

- خذا معكما ابليس لا مناص من اصطحابه.

ربما واصل هامسا لنفسه: وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشر، ما المسؤولية في غياب الحرية وما الحرية في غياب الجبر والقهر؟

**

وقال لهم الصدى رُمي النرد فُتتمخَصُ هذه التجربة الجديدة عن كل ما تَعِدُ به من مفجآت

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أمامهما. تدير حواء بصورها في الفضاء لشلسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللب أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار... كثبان من ناعم الرمل... جبال مكللة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الريح فيها على الموج... غابات تعانق أشجارها للسحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...

يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟ صبرا قليلا يا نافد صبر لم يبدأ بعد.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت الا تستطيع تحديده بما أن الساعة لم تُخترع بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.

ينتبه بظننا إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العلم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدير شؤون الوافدين فسؤوليتهم هم لا غير.

كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابه! ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمّ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعول إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكل... وأنا أكل الجميع.

هل أخطأ التقدير؟ يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاة حيث لا جوع ولا جري مُضن وراء فطور الصباح.

تتجاهل المرأة رجُلا ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.

ثم تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء والخضراء كسبح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه الرياضة. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوها من الحُفر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري الذي سيرسم صورتها في لوحة "مونا ليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفذ صبر حواء يوما والقشمة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك! لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع. هذا فعل يلقى بابن أبيه ولا يلقى بابن أمه. وأنت هاويل، اغسل رجليك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقت ذرعا بقلّة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضب، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:
- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن
أذهب إلى أي مدرسة.

هذه المرّة، لن تأخذه "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقلّ نموعه. لا مناص من الحزم
حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب العوالم.
يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص.
ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي تفرقوا في كل
مستويات الزمان ولا مكان ولا ترجعوا إلا وقد أكملت المهمة التي خرجنا من الجنة
لإتمامها.

يصرخ أحدنا: لننتجّه إلى حيث تشرق الشمس، نحتمي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة
طازجة.

يصرخ لخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا نغيب،
ننهى وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جئنا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والتلج.
يصرخ لجين أو أغل أطفال حواء: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه
المعكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابلت الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف
تلك الجبال الشاهقة.

“الأرض لكم (حبران خليل حبران)

تبتّهج بلامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلّة تتوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق”

أي شاعر عبقري مبصر أو أعشى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة تتعّي بكل هؤلاء
المغمربين الأفاقين، المشردين المستكثفين، الخجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ
غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء
والأرض ولا حتى عفاريت الظلام!؟

ها نحن ولمنلت الألاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدّ بحدود،
نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به
الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن تكسر لها ذراعاً ومن الغيل قبل تمزيقه إربا
إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نوكل ونقاتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير
أخطر الوحوش.

أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العارية ويطونهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنيرة هم الأبطال الذين تخجل أمام جسارتهم كل ما ندعي من بطولات؟
توقف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئا بخصوص من خطوا أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمستئين الذين تجاوزوا الثلاثين.

ماذا تقول وأنت تحرك بك أمام أنفك؟ أه الروائح لاتي تنبعث منهم.

حقا من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجداننا جميعا، وحتى أجداد ملكة إنجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها. هي توقفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من مصلحتها التوقف لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج النتنين.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبه إليها. لا أحد منهم يجز حقيبة تُصدر صريرا مزعجا. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، وبإلحاح الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئن بما زاد على الزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ ولجداهم الشبان خائفون ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلايب.

إنه عالم لم يُخلق للجنباء. إنه عالم صارم القوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة وكل الباقي خشو وتقاصيل.

يأتي يوم ين فيه أحدا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم تكف عن المشي منذ أجيل ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم تساعه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاه؟

أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس!

وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي تبتت في فك الجليد والتلج!

وآخر: يا للرب الذي تبهت فينا كل هذه الكواسر نهرا وهي تتعقنا بأظفر وأنياب لا طققة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الذئاب التي يمنعا عويلها ليلا من النوم نزتجف بردا وخوفا داخل مغارات مظلمة نتقاسمها مع هذه الجرذان الطائرة المقرزة!
تولول أنثى فلق رعبها كل حدود.

انتبهوا لهذه الطيور المشؤومة التي ترفرف فوقاً تنتظر من يسقط منا لتنهش لحمه حتى ولو ما زال يتنفس!

يصل الأئين ذروته عند العبي الذي لم يأخذ بنصحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار فإق عنده أيضاً العثيان والدوران كل قدرة التحمل.

من أين لنا الطاقة لتحمل كل هذه المحن، كل هذه الامتحانات؟

تحمل! ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمل الحر والقر، غير تحمل الجفاف والظوفان، غير تحمل الضجيج والصمت، غير تحمل الأعداء والأصقفاء، غير تحمل

صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟ ليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟

لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق الأهمم والتوجه للوحيد القادر على إغاثتهم.

صلاة الأدمي: يا من رفضنا جزيل عطاءه لنهرب إلى هذا العالم المبهير المرعب. حئن علينا قلب الأرض والبحر. ضعنا في حماية الشمس والقر. حفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمنا لها شراباً حلالاً. وفر لجوعنا اللحم والشحم. فجر لعطشنا عيون الماء الزلال. يتر أمامنا الصعب والوعر. ضمّد جراخنا. جدد فينا كل فجر شجاعة الأبطال.

الصدى: يا أحلام أحلامي، يا ألام ألامي، يا أمل أملّي، يا أفكاري وخيالي، يا لحمي تقطّعه أنيابي، صبرا جميلاً ستقهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إاقسوتي على نفسي.

قد لا تكون انتبهت لأهم ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نبرة الصوت. هي حقا مُعممة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كلّ وراء القول المسكوت عنه: ستستنون كل الأكمم وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحقّقون لي

المهمة التي شرفتمك بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل لتصديق، هل لنا خيار آخر؟

رغم تطمينات السلطات العليا تواصل المعنويات انهيارها أمام تفاقم الصعوبات خطوة بعد خطوة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشيت قدامي من المشي، عُصت إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من الحمل، تشققت بداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق

اللعيّن طريقه دوني. لن أتقدم خطوة لأخرى.

أهمس في أذن تقاحه أفيقي، لقد توقف الأوائل عن المشي ودخلوا في أول اضراب عام.

تفتح البنت عينيها وفيهما بريق التصميم كأن شيئاً داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تقشل حتى قبل أن تبدأ فعلياً. تستيقظ تقيحه بدورها جاءها الوعي بحرج

اللحظة.

- يا! ماذا يجب أن نفعل؟

- الأوائل في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيدَي لفعلي للركض والصراخ والرقص.

يستيقظ الرواد في الغد وبهم جذل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا ولحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا ضاحكا ومغنيا أن أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: «هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغير حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلاً فلا ترتجف 'أما' من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا. تصرخ تفاحة: أنت الباكية والبائسة، أما أنا فلا أبكي أبدا.

ثم تنفجر باكياً لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلاً.

- 'أيا'، إنها تنكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

- هذه قصة يرويها أكثر من راي. تكلمي. ماذا فعل الأنيبي المسكين لكي يبقا ويبعد أنياب النئاب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفضلة عنده كما يعلم الجميع- إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفاحة إلا أن صلت لله لبيعته بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها 'أيا' وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشتعل المدفأة.

- يا غبية، وكيف استطاع 'أيا' من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليست لديك قصة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع 'أيا' لتدله على مغارة اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميقا جدا جدا لا يمكن الدخول إليها إلا زحفا على البطن. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع 'أيا' أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبية، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النار.

لا مناص من بعض العنّ الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالتراشق بصواريخ الغواصات الذرية.

من كان يتصور أن اكتشاف النار حتى في هذا النص سيكون يمثل هذه الصعوبة؟

البتنان صامتنان ثواني متابعة. فرصة للاستيلاء على الكلمة.

- أنا الذي أفود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن الليل الذي أصاب جمرة نقاعة وقيلت أختها الاعذار وتصلحنا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج أمم، سلخنا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجهها لوجه مع علية كبريت بحجم بيت وجانبها سيجار فاخر من نوع هلقنا بطول شجرة سيكرويا.

تصرخ البتنان

- "يا"، لا تعش!

بجد؛ ليس لدي أدنى فكرة جديدة وطريقة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحول الأول في الملحمة العظمى. ألا يقل إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود القارة التي كانت مهد الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدب للصبر على ما لا يُحتمل من البرد.

كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة التي لولاها لربما توقفت الرحلة في أولى مراحلها!

ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة. ثمة قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالألمي فتصدى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرر من تلقاء نفسه مده بسر النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء... وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجهت إلى المصدر الذي تناسته القصص والنار لخر ما ينقصه جهنم نفسها. لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الألمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي توهمه للاستقرار النهائي في جهنم هذه. أما أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفر بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المتقنين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصل الأوائل على النار أو من أين سرقها. لماذا أتكلف كل الجهد وحدي والقصة، قصة الجميع؟

المهم أن الأدمية مجتمعة الآن حول الألب المقدس وكل حواسنها مستنفة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قنوم الليل ناهيك عن نهاية مشقة مضغ اللحم النيئة وهضمها.

تترب نقاعة من النار وبها رهبة وانهبان لثوكتي مُدبرة تُرتمي في أحضان "با" فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجددا من النار. ترفض تفيحه أن تكون أقل شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجانب نقاعة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب.

تصرخان بالفرح وقد أحسنا أن النار تنفع عن الأصابع المتجمدة ألما مستديما، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليأتها نام حفنة من الأدميين لأول مرة ملء الجفون، أبعدا لبضع ساعات الخوف والجوع، والمسكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصد لهم في كل منعطف منه.

تهزني تفجحه من كتفي: "يا" استيقظ، نريد بقية القصة!!
القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون هناك عقدة. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة.
نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟

كل هذا كان متوقفا إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها. ماذا إذن؟

**

وقال لهم الصدى لا مجال للتجربة إلا بتكامل وتصارع الأضداد فتحمّلوا

لنفكر مليًا ودون أحكام مسبقة.

لا بد أن يكون سبب الهروب وضع لا يُطاق أو طمع في شيء لا توفّره حتى الجنة.

من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بثئه وضع لا يُطاق.

لم يبق إذن إلا شره الأدمي لكل ما هو غير متوفّر أو بالكيفية المطلوبة.

ما الشيء الوحيد الذي لا توفّره الجنة؟ طبعاً الموت بما أنها المكان الذي ألغى فيه وبصفة نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.

أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هذا النص على وشك وضعه جانباً والانصراف لما أهم بدلاً من إضاعة وقته الثمين في قراءة كلام بدأ يتحول هذياناً صرفاً.

كم أتفهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانباً والانصراف لما أهم بدلاً من إضاعة وقتي في كتابة كلام بدأ يتحول هذياناً صرفاً.

فعلاً هل ثمة شيء يخافه ويكرهه الأدميون قدر الموت مع كل ما يصحبه من حالات نفاق جميعاً على كرهها وفعل كل الممكن لتجنبها مثل الخوف والقلق والألم... وأدعي رغم

ذلك أن آدم وحواء هربا من الجنة بحثاً عن أمر كهذا؟

لا تعجل عليّ يا قارئ الكريم فالمنطق وحده هو الذي يفرض هذه الفكرة العجيبة.

لتواصل التفكير في هذا الاتجاه ربما سنجد أفكاراً أخرى توضح أعجب خيار قام به الأدمي منذ خلق.

إذن هرب آدم وحواء هرباً من الجنة بحثاً عن الموت.

أين يكتسب هذا الموت صبغته الدرامية المثيرة حتى لا نقول المسرحية؟ طبعاً فيما يسمى ساحة الوعى أو الشرف أو سمها كما تشاء.

كأنني بك تهزّ كنتفك وتقول هذا الرجل حقاً يستأهل كل ما فعله به الأصدقاء والأعداء.

تقول من الطبيعي أن توجد الحرب في عالم منفي يقضّي فيه الأدمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة وقد اكتشف الرب أخيراً كم هو شَرير وخطير، لكن أن توجد بكل أهوالها

في عالم بريء يفرّ إليه طوعاً أمي بريء فكلام لا يقبله عقل.

طبعاً، كلام جميل وكلام معقول لكن من أين لك أن تنكر أن الظاهرة صاحبت البشر ولا تزال مصاحبة الظلّ للماشي في عزّ الظهيرة.

أعدّد لك حروب الأدميين؟ أصف لك حروبهم للدفاع عن العرض، عن الأرض وعن لُف سبب وسبب؟

انظر أيضاً كم يعتنون بها يهيّدون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلاً بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم باكراً، يحشون عقولهم بِلتاريخ الكانب منذ نعومة أظفارهم حول أمجاد أجدادهم، يفتّحون كل الذنن لا يشبهونهم، يزينون القتل والاستشهاد من أجل الزعيم الأوحد والوطن المفقود والدين الحنيف.

أضف إلى هذا حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعليم القتل على أوسع نطاق يسمونها أكاديميت عسكرية يترّبون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة والاختباء كالحرباء والزحف كالثعابين والاقتراس كالكواسر.

كم يحتون أيضاً إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يومها خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتلعب الأف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم اللعب.

حقاً ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأمامية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشائسة البيضاء.

إنها دوماً نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البني والأخضر البليد. كلّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدعي التقدم على القرون الماضية، متخلّف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص بالمقارنة مع ريش التسور تيجانا وجلود النمر والتماسيح أزياء أوائلنا؟

لحسن الحظّ أنقذ مخرج المشهد سمعته لدى كل نواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول ثيقة وأيسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزوّدهم برماح زرقاء.

كل كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بلطواير الطويلة للمدرعت المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرفاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكان النكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

إنه نفس المشهد في أماكن أخرى وتواريخ أخرى، وكل الشعوب تحبّ استعراض قوتها لإثارة الإعجاب أو الخوف أو الغيرة عند الصديق والعدوّ على حدّ السواء.

أختّم يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبّة على متن عربية مصفّحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قرباناً لآلهة الحرب، يبادلونها تحيتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كلّ على رؤوسهم الطير... ولا أحد واعيا أنّذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر

مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بمهما قربانا للبيع الذي تعبّدت له ذلك اليوم.

يا لخبية أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار السياسي سيخفّف من عنف السياسة وسيقلّ من حروب لا يعشقها إلا الذكور الواقعين تحت سطوة هرمونات التستسترون و قروح السكرى تحت سطوة الخمر.

ورغم ان انتاج النساء من هرمون التستسترون جدّ متواضع، فإننا لم نرى تحسّنا في عنف الصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلن لأعلى مراكز القرار. هذا ما يدعم رأي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقّة والظظة كما هو الحال بالنسبة للشجاعة والجن، العقلانية واللاعقلانية، الذبل والنذالة، الأثنية والاثرة-موزعة بصفة عادلة بين الرجال والنساء. الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحى وأن بطون الرجال عندما تنتفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان الشمال.

ثمة من قرّائي من سيعودون لاتهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناثا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة أشعلها.

حقا؟ لو كان هنا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أدنى جدوى لكانت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر واختفائها كليا في عصرنا هذا... وهذا لم ولن يحدث.

والآن وبعد " المفتحت " الطبق الرئيسي وإن شئت صورة أكثر جذية بقية النص بعد المقدمة الجميلة.

وحيث أن لظاهرة الحرب أكثر من بعد فإننا سنختزل تعقيدها في بعض اللوحات الحية والأمل تقع القارئ بجذية فرضيتنا.

لنبدأ بما يقع بعد انتهاء استعراض العضلات ومراسم الترهيب.

اصطفوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراعيهم، وراعيهم أهل السيف والدرع، وراعيهم أهل البنادق والمدافع، وراعيهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرات وراعيهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سويّ وإنما عقل آدمي. قلت تنظموا. إلى الوراء أيها المتسلّل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك.

كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرتشّش فالمعركة لم تبدأ بعد.

والآن لتتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وبنادقها لتعجير الكواكب والشموس والمجرات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليود في ممثليهم: " أكشّين !"

ينقضّ الأدميون على بعضهم بعضا بسكاكين المطبخ، بقباب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدّين العاريتين وبالأظافر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، برجمات

لصواريخ، بحملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق. تتصاعد الهتافات تحيا أمتنا العظيمة، يحيا وطننا المفضي، يحيا ديننا الحنيف بل وتسمع أحدهم يصرخ يحيا الموت.

يتعالى من مكان قصي من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، سأبلرزم بعقب لسيجار ثم أموت صارخا: يحيا الملك. يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "لنسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغني لا يعرف أن الدماء سواء كانت ظاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب اللشمانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوفوليوبسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوفورود تيركا ويحثا عن حمايتها، فتتهمر بالدموع عيناها. يقال إن بكاءها أقام الدنيا وأقدها، أن الضبل لفت المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربين، فالعذراء لم تنزف الدموع لتمكين هذا من النصر وذلك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات موته الفظيعة على الصليب عبثا والشرّ دوما هو المنتصر.

تفاجأ دوما بما يقدر عليه الاميين من هذه الفظاعات. تجد على القائمة سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وقبح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي قرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات.

في سجل الفظاعات أيضا ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية. اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "ايشا".

أخيرا لا أخرا إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى "الكتار" وملا فعل برفاتهم أعدائهم من عتاة المؤمنين. كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر ومازلت حيا أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مسكينين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه! كم من فظاعات أفلت منها أنا الذي لا أكف عن الشكوى من سوء طالع.

فعل الأفعال! طبعاً قائل، قتل الآخرين وقتل نفسه... بكل الوسائل التي تتبارى وتترابد على بعضها البعض في الغزاة والوحشية... فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أقطعها في فنون القتل.

اللوحه الثانيه

جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقال انه لو وضعت الولادة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر. تمعن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وخطارين وعاقرة جراحة تجميلية وموضه عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للادميين... وانظر النتيجة! أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين وعلماء وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين ما بداخل الأدميين... وانظر النتيجة! يتسلق إبليس -الذي أصر الصدى على أن يصاحب الفارين قمة جبل الأجساد المتراكمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكم والشماتة: أرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خربوا حديثه.

نعم ، كل هذا صحيح ومع هذا ...

الوثيقة الأولى للمطالبة بالتخفيف من الحكم على الأدميين مشهد الامبراطور آشوكا الذي قتل تسعة وتسعين أخوا للوصول إلى السلطة ودمر ما لا يحصى من الممالك متجولا بين تلال الأجساد الهامدة بعد انتهاء المعركة التي حسمت مصير مملكة كلينجا وأم منكب على جسد ابنها تصرخ فيه "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي".

مما تقوله القصة أن آشوكا صدم بما رأى، أنه استنطق ما أتاه من قتل وهو أمام تلال من الجثث، أن صرخة الأم مزقت قلبه وأنه قرّر أن يعتنق ديانة تبنّي العنف حتى الذي تتعرض له الحيوانات وأنه قضى بقية عمره رسولا للسلام وعدوا للحرب.

الوثيقة الثانية مقطع من إحدى أشهر الأساطير المقدسة للجنس البشري.

يصفر كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقى السيف في الغمد.

يحتج البطل أرجونا على رب لم يجد إلا ساحة معركة للتجني: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهارى وأقربائي كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبدا ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين".

يفتأب كريشنا جبينه باغته الموقف. هل بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

يتوجه إلى عبده ملاطفاً:

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنت المخجل".

ثم يبرّ للتهديد.

- "إن لم تقا تل فستكون خائنا يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبيل أفضع من الموت".

كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عبّره الرب بالخوف أم لم يعيّر.

- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومئة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهير شترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموقبة".

الرب مجزّباً الوعود البراقة.

- "إن متّ سنخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض".

يتمسك أرجونا برفضه يواصل محاججة الرب.

- "أأن تكون خسارة لا تعوّض. أأن نمر سلالتنا، وبتمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"

كأن يكرشنا يهزّ كتفيه.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر".

وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضته. إن كان سيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحية والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

يواصل الرب التحريض مستعملاً أساليب أقل ما توصف به أنها في منتهى الخساسة:

- "تعتّم لمن لا يستأهلون الغم؟"

ثم يلتجئ إلى الجمال الرنانة.

- "إنه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".

يتكفّف صمت أرجونا ثم... يستسلم.

يدخل المعركة متجهماً (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ناهياً لتقديم العزاء.

مما يتضح من هذه اللوحة أن للرب أسباب قاهرة تبرر وتفسر بل وتشرع للحرب، وأن الأدمي مضطرّ للانخراط في المشروع المجهول للرب أحبّ ذلك أم كره.

طيب ، لكن ما هذا المشروع وكيف تخدّمه هذه الحرب؟
لمواصلّة التّمعن في إشكالية بمثل هذه الخطورة يجب مرحليا وضع المشاعر جانبا والتّفكير كما يفعل حسوب لا زال بعيدا عن اكتساب مشاعر البشر.
عودة للمعركة. تأمل كل هذه الحيوية والأدميون يتقصّون على بعضهم البعض.
استمع للصراخ المتعالي من المتقاتلين وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بتفجّار الصواريخ بهتافات الأبطال.
بربك أليس انتهاء الرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائها على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضيقها مصليح باهتة يبيلك العرق وتخفق روائح الأوبية؟
ببني وبيّنك، هل ثمة أقدّر من الحرب على اعتصار أعماق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟
ببني وبيّنك دوما، هل ثمة حالة يدرك فيها الأدمي كم هي ثمينة حياته أعماق من التي يجربها وهو بين المخالب والأنياب؟

من الفيلسوف القائل: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.
تقول هذا ما تعنى به العسكريون الاستقراطيون على مرّ العصور يمجّون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة.
معلك ألف حق، أنا أيضا أكره الأبطال. أقصد هذا النوع المزركش بالأوسمة ومقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعهد الحياة، أن البطلات هنّ النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهنّ على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خروجهم إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخانق وإلى المحيط المرعب.

إذا كان دفع تجربة الوجود هذه لذروتها من منافع الحرب على الصعيد الفردي فما نفعها على الصعيد الجماعي؟

كل التاريخ المعروف منذ انطلاق الملحمة قبل ثلاثمائة ألف سنة هو عن جماعات قليلة متفرقة تائهة في فضاء يبدو لا متناهايا، عن استقرار قبل حوالي عشرة آلاف سنة في مخيمات مؤقتة حول كبرى الأنهر أصبحت قري من القش والطين، عن تحول هذه القرى إلى مدن صغيرة من الأجر والحجر عن بسط هذه المدن سلطتها على الأرياف المحيطة عن تحولها إلى إمارات وتحول هذه الإمارات إلى ممالك ثم تحول الممالك إلى امبراطوريات... والحرب دوما المحرك.

هل يمكن تصوّر الحضارات البشرية دون الحروب وهي التي بنتها ودمرتها؟
ألم تفتح بالقوة الطرق التي وحدت بين قبائل وشعوب فرقّت بينها المسافات الشاسعة برا وبحرا ليتسارع تبادل الأفكار والبضائع والجينات.
ألم تكن أداة خلق دول ما كلن لها أن توجد لولاها؟

أليس صحيحا أن المدن التي تتمرها الحرب أجمل بعد إعادة اعمارها مما كانت عليه قبل خرابها؟

نعم، مما لا شك فيه أن الأسلحة التي تطورها البشرية باستمرار هي أدوات دمار هائل. لكن أليس صحيحا أن تطور الكم والكيف في الأسلحة مهّد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري؟ آخر مثال الانترنت الذي ينسى ملايين البشر المسالمين من مستعمليه أنه اختراع العسكر في بحثهم الدائم عن سلاح يتفوقون عن عدو لا يفعل هو الآخر سوى البحث عن سلاح أقوى.

بديهى أن الدمار هو الحافز الأساسي للتجديد والتحسين والتطوير في كل المجالات. توقف عند الفكرة. إذا اعتبرنا أن الدمار شرط من شروط الاعمار فإيه من المسموح لنا أن نقول إن الحرب ليست الهدف وإنما وسيلة في خدمة مهمة تتطلب وتستهلك كل التضحيات.

ملاحظة هامة أخرى: أنت لا تدمر شيئا غير موجود. مما يعني أن الاعمار يسبق دوما الدمار. إنها الأسبقية التي قد تغيب عنك وأنت تنتظر لتتابعهما على امتداد فيخيل لك أنهما مثل حبات المسبحة لا مجال للقول أي حبة تسبق الأخرى.

معنى هذا أن الاعمار هو الأساس والمنطلق والحرب بما هي الوجه الأوضح لقوى الممار لم توجد إلا لتكون في خدمته ... بينما العكس ليس صحيحا. إذن كل كبريشتنا يعلم ما يجعله أو يرفضه أرجونا: الحرب شرّ لا بدّ منه لتعهد عالم ممنوع عليه الثبات على حل وقوى الاعمار التي تتحتّه هي الأولى أما قوى الدمار فمجرد آليات لصقل ما هو متواصل النحت .

**

وقال لهم الصدى ما زال أمامكم كم هائل من المحن والامتحانات تنتظركم
فلا تهنوا ولا تحزنوا.

تأتي من مذياع السيرة المرهقة بعدد السنين آخر الأخبار عن الحروب العديدة الجارية
رحاها في العالم، عن الحرب الكبرى الهائلة العواقب التي بدأت الاستعدادات الحثيثة لها،
عن آخر الأوبئة، عن آخر الجرائم في هذا المجتمع أو ذلك.
لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيرة.
سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنين الشرسيتين تحديا عسيرا لأعصاب لا ينقصها
التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد.
كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المتفرجين أو بتصاعد تناؤهم.
يتعالى الصراخ نذيرا بأن المعركة مرت من الترائق بالكلمات إلى العنّ وجذب الشعر.
يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكنزة من
أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم مرة أن تنظر من نافذتها. لكنها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد
نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنها تدبر ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا
النظر من نافذتي.

بريك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدث عنها مذياع السيرة وتلفزيون البيت كل ليلة
نتيجة أن الرئيس ريدا غضب من الملك عمرو فجّهز الجيوش وبعث بحملة الطائرات
وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مدنه عقابا له لأنه نظر
من نافذته بدل الاهتمام بتنظيف الزجاج القذر لنوافذه هو؟
أصرخ بأمر اعرف وقعه الحقيقي أي لا شيء.

- انظرا فقط أملكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستقزاز والتحدّي والعدوان
المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيارة أجد تفاحة واضعة ذراعها
على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفجحه ورائها تخرج لها لسانها.
تعود البنّتان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصالون تصرخ
بالكف عن الصراخ.

أخيرا الليل. آخر واجب اليوم.

تصرخ البنتان وهم يتفقران على السيرير: القصة، القصة، القصة، البقية، البقية!
- قصة؟ بعد كل ما أظهرت ما طيلة اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفححه مواصلة قصة الليلة الفارطة شريطة أن تكفت عن الرقص على السيرير.
تصرخ تفاحة وهي تضاعف من حيوية القفز.
- تفححه لا تعرف شيئا، "يا"، أنت من يقود... ونريد قصة جديدة.
أي قصة أختار لهذه السهرة تماشى مع مزاجي؟
لم لا قصة مستمدة من هذه الأساطير التي أجمعها من كل مصدر وفيها لمن يجيد قراءتها كم من حقائق مغلفة بقدر كبير من الذكاء وقدر أكبر من السخرية الذاتية؟
مثلا قصة الطوفان!
تصرخ تفاحة من أولى الجمل:
-إنها قصة نوح...

تصرخ تفاحة وأنا أيضا أعرف أنها قصة نوح ...
ما لا تعرفه البنتان ولا أي من الاميين الساميين والهندوس الذين اخترعوا هذه الأسطورة حقيقة ما جرى. وحده من خبر كواليس السلطة وكيف تؤخذ القرارات المصيرية قادر على رواية القصة كما وقعت.
بعد قراءة متمعنة لمحاضر جلسات المشاركين في المؤامرة الكبرى وبعد مكافحة تقارير كل عيوني الموثوقة في أهم أركان الفضاء الخيالي الذي تتحرك فيه البشرية، يمكنني أن أكشف لقراء الرحلة تفاصيل ما حدث وراء الستار.
"ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان"³
قف، عن أي آلهة يتحدث صلحبت التقرير ثم لماذا عزمت هذه الآلهة على تدمير العالم ولماذا بالطوفان؟

التفاصيل حسب مصدرى الموثوق بها.
يومها افتتح الجلسة المهيبة أمون -رع بنفسه.
-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قنونا، اجتماعنا الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأهمية. حتى الصدى يبدو أنه انتبه للغلطة التي ارتكبها. هو مثلنا جميعا مصدوم من هذه الكائنات. أخيرا فهم أن آدم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكة لا مملوكه.
يتدخل زوس بقوة:

- حقا لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الأهمية العبيدة بالحقيقة المقدسة. هل رأيت السرعة التي انتشر بها في كل أصقاع العالم والحال

³ نص شهير منقوش على حفرية من البحرين عمرها بضعة آلاف من السنين (الناشر)

أنهم كانوا مبرمجين لقطعة محددة من الفضاء ومن المناخ كما هو الحال بالنسبة لكل الأجناس الحية؟!، هل رأيتم تكاثرهم المهور؟ هل رأيتم هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظها العثر أن يضعها على طر يقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروبهم وما تفتقت عنه عقولهم المريضة من أصناف التتكيل ببعضهم لبعض. فلنتها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: يجب إيقاف هذه التجربة حالا، يكفي ما كلفت.

يغتمم بوسيدون الفرصة ليتدخل بقوة:

-هل رأيتم ماذا فعلوا ببحاري. حولوها لقمادات سائلة بما يكسون فيها من بلاستيك وقاذورات أخرى... هل رأيتم ما فعلوه بالحوث أجمل وأعظم المخلوقات... هل تقدرون أنهم بصدد افراغ محيطاتي من كل كائن حي؟ هل
ينفجر بعلى ضاحكا:

- أه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فانتبه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجزرت على رؤوسهم بركان "توبا". للأسف قدرة هؤلاء الملعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعلى:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كما هائلا من الأجناس البرينة! أما وحقي لا يوجد رب ثانوي أغبي منك.

يصرخ لمون رع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويأمر الإلهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة.

يستطيع أخيرا كريشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالعون في التجني على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصلاب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللات والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قرة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم.

يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- فلنتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان.

يقاطعه ووطنان بالعنف المعروف للإلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرقهم جميعا لا نترك فرصة لمختبي في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحل يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسماك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرة.

وحدها ايزيس المنهمكة في ارضاع ابنها حورس عنها غير متحمسة لقرار تصفية الأدمية. لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأي.

من حسن الحظّ أو من سوء الطالع أن يتدخل في نسق القصة إله يبدو أنه ما زال على قدر كبير من السذاجة فيما يخص نوليا الصدى وطبيعة الكائنات التي أطلقها على العالم... إذ كما تقول الأسطورة:

“أراد الإله إينكي إتقلا الأدمية”

من إينكي هذا؟

كل ما نعرف عنه أنه هو الذي حمانا من الانقراض وأنا ندين له كلنا بوجودنا ومع هذا لا اسطورة تخترع له ولادة رائعة، لا ملحمة تتغنى ببطولاته وأمجاده، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير مخصص له. ألم أقل لكم دوما أنني لم أتجنّ على الحقيقة بخصوص لؤم الأدميين وأن أهم خصائصهم الجحود ونكران للجميل.

طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته.

[تلخيص المرافعة القيمة]

“أيها الآلهة أيّتها الآلات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي نمرها الأدمي، للعدد المريع للحيوانات التي أذلّ واسترق وأباد. نعم الأدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبرى. لا تنسوا كم كن ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصنته بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تجرير البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تلة بالجفاف وأخرى بالفيضان.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القذوني ونعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسنل الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تلخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس مثل بقية الأجناس الحية الأخرى الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية ختاماً أو ذكركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير. هو لم يعط أمراً بإيقافها خلافاً لما يدعي بعض الزملاء والزميلات. أما ادعاء بعض المناشير المغرصة أنه ندم على خلق الأدمية فمحض افتراء.

يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض يتواصل البشرية، وهو ما قد يجلبهم إلى التقاعد المبكر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس المؤقت. لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت. لا يحصل إينكي إلا على صوته وصوت ايزيس فيخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع. على كلٍ هو قزّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تتجح خطة زملائه غير الأعزّاء. كيف وماذا فعل إينكي؟ تواصل الأسطورة:

"فأختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحصى حياة الإنسان"
وتقييم في أرض العبور

أرض تلمون حيث تشرق الشمس".

ينهر إينكي آدم صارخا فيه أن يجعل بالعمل وأن يكف عن لشجار مع أنثاه قبلًا بكل ما تريد حمله من غش حتى وهو يعلم فعلا إنه غير ضروري. يصبح آدم جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من آثام الأدميين. يغمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقا كل ما تحمل على سطحها من بني حرية وآل نبات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة آخر في هاوية تبدو بلا قاع. تفكّر حواء في الانتحار، عاقت الغتبان والدوار ومكّلت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم وغدا مع ذريته المشرسة. تندفع الأفكار السوداوية في ذهنها المرهق: شكرا لك يا إينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طائشة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعني في اليمّ أو أن يجزّب خلق حواء أخرى من عظم السق أو من أي ظلع يشاء.

ككلّ انتحار أنثوي لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر حواء قبل اتخاذ قرار رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم أن تخترق أشعة القمر السحاب ليراها آدم وهي تفتح ذراعها مودعة الحياة في حركة مسرحية فيحث الخطي لمنعها بوابل القبل من القفز في الماء وهو من يعلم أن معرفتها بالسباحة ليست أحسن من معرفتها بالطبخ. أصرخ فيها: هيا خلصينا، اففزي.

ترمقني أم الأمهات بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّنتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البيتان بصوت واحد متناقل: "ب"، لا تحبّك إذا واصلت هكذا.

يمكّنتني أن أوصل القصة لنفسى غير متيقن إلى أين سأصل بها وستصل بي.

إذن تنفس "إينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار في آخر لحظة وبقاء البلخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الرّبّان.

كل الأمور على ما يرام؟ المسكين غير واع بما يراك في الخفاء وقد دعا خصومه من الآلهة إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد وإحلالته على المحاكمة ومواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسزت به كالي في أنن أفروبيت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين إينكي، لا شك أنه يحلم هذه اللحظة بحملة تطير من السفينة بحثا عن الأرض الصلبة التي ستصلها للسفينة. أه لو يعرف ماذا أعدنا له؟

هم أعتوا جبلا من جليد يخرج من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة أرادها إينكي النجاة لكنها الآن التلبوت والمحيط المظلم هو المقبرة.

تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة.

- هذه قصة التيتانيك، شاهدت فيديو جميل عنها.

تهمس تفيحة لنفسها:

- أنا أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.

نعم إنها قصة التيتانيك نطعم بها قصة نوح لاعتصار مزيد من المعاني.

يمسك أدم بشعر حواء يجزها إلى الخشبة التي نجح في امتطائها صارخا كالمجنون:

البتن، البتنان؟

ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟

تفاحة الآن تسبح بهوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟

يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدى، أصر، تمسك، تشبث بالحياة؟

تنضرع حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إينكي لادته لا غير: أعطنا فرصة أخرى. سننجز المهمة هذه المرة وسنعود لك بهذا الذي بعثنا نبحث عنه.

إينكي الآن على زورقه مجتفا ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والأن ترفق في جذبها وغطها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس دميّتها إيتي وإلا سترفض الصعود. ثم تتوجه إليّ:

- "يا"، انظر لقد جعلت زورق الإنقاذ يصل في الوقت ويتشل الجميع؟ لست رائعة؟

هل يجب أن نفرح بمثل هذه النهاية لانتصار الحياة على الفناء أم أن نزداد همتا لتواصل محنة الالامية ومحنة العلم؟... هل نغبط الغرقى ونبكي سوء حظ الناجين أم نبكي سوء حظ الغرقى ونهنئ الناجين؟

جل أنت أروع من رائعة يا حبيوتي. أنت الحياة لا شيء آخر. براهوك وللرب اينكي.
كلُّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تنقضاته المفصوحة.
مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والألمية منذ انبثاقها مقسّمة
بين حنين جارف للعدم وإغراء لا يقاوم للوجود.

**

وقال لهم الصدى لكن كم من واحات أعددت لكم لتسترجعوا فيها أنفاسكم وتواصلوا مهمتكم إلى نهايتها

تستيقظ تقيحة باكية، ترتجف بردا. تتقلب على جنبها تفرك عينها باحثة بعصبية عن دميتها ابتي. تسارع تفاحة تحكم حولها العطاء.
- "يا"، حلمت حلما مرعبا... ظلام ومياه سوداء، دثرتي.
تكف طفلة الخمس سنوات عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمئينة وهي بين الأحضان الدافئة.
- لا أحب قصتك، لا أحبها.
- أنا أيضا يا حيويتي لا أحبها، لكن ما حيلتي. هي التي ترويني، لست إلا النقل.
- لا، لا، إنها غلطتك، أنت لا تعرف كيف تقود القصة.
تتدخل تفاحة بحزم:

- من هنا فصاعدا لن يكون في قصتنا إلا "كثيييييير" من اللعب والفرح والأشياء الحلوة.
أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربت بالقصة إلى غرفتي.
إذن وبعد النجاة من الطوفان أرسيت لسفينة المحملة بالناجين من الغرق على شاطئ جزيرة "جميبييلة" جدا جدا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب والعصفير وغابات لم يكن فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل. هكذا كان يوسع الطفلين اللعب فيها دون أن يخافا أو أن يخاف عليهما أبواهما.
تقيحة هامسة في أذن أختها: لا تنسي الفراشات والجدول الصغير حيث أستطيع المشي دون أن أنزلق على أحجاره الملساء.

تفاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "ما": "إذن خذا "ب" معكما فهو سيزعجني إن بقي يتقرج في إعدادي كعكة الغد وسيزعجني أكثر إن حاول إعائتي. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ
تقيحة: ما هي إلا دقائق معدودة حتى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "ب" رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذر الجدول الرقراق متكئا على جذع شجرة "ب" ... "ب"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا داعي لسحب الكلمة مني. نحن في الحالة المباركة التي يتخذها العالم دوريا وكل القصص إياتها لا هم فيها ولا غم.
كم منها في ملفاتي تعود إليها الذاكرة تتفحصها بمتعة لا تنبث أبدا.

كل المواضيع عن جيرانٍ وُصلوا متأخرين عن مواعيدهم ... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّت بيوت أطارت لريح غسيلهن فجاء الجيران به اليهن... عن الزواج الذي تأخر أكثر من مرّة لعدم توفّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّر القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أصابتها يومًا قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.

إنّها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة. كم من مواضيع أخرى ستشّد المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما ظفرة الحبور والمرح. وسط سلحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العصات والحالات الشكوى الضلحكة (الرجال! الله وكيلك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار الحيّ (همسا) عما يقال حول حبّ فلان لفلان وكيف أن الخطبة تمّت سرا وأن العرس قد يحصل حل عودة الخطيب من بلدان المهجر محملاً بالهدايا.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، لا خشية من توقّف توافد المرتلين وكل الأخبار التي وصلتهم قبل الاحرام تؤكد أنه لا خوف من تجربة الوجود. يجمع الحبّ كثنيتين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعر كعادة هو الشاهد على الليلة القتسية.

في ليالي كتمت سرّ الهوى
ملى نجم الكأس فيها وهوى
بالدجى لولا شمس الغرر (ابن الخطيب)
مستقيم السير سعد الأثر
وطرّ ما فيه من عيب سوى
أنه مرّ كلفح البصر

يتكوّر بطن حواء شيئا فشيئا فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقّات القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة لكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه ينتجج دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق. ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، قمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذالقتها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلّق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

في هذا العالم جبل قل طوال حالته المباركة يصل الطفل الموعود في الإبان دون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تنتفح الوردة لإطلاق أريجها. ها قد أصبح حضرا بين يدي أمه وأبيه بكل خصائصه وبكل امكانياته المضمنة داخله. هو لم يعد احتمالا ووعدا وإنما كاننا موجودا في هذا العالم. لكن ما معنى هذا المصطلح الذي يستعمله الكل ولا أحد يفهم بالضبط عما يتحدث؟

المهم أن الطفل الآن مصدر فرح لأم فخورة وأب متهيّب من مسؤولية لم يكن يتصور حجمها ناهيك عن فرح كم من أعمام ولخوال، من عمات وخالات ... كيف لا والرسالة التي يحملها المولود الجديد: وصل المدد لمواصلة الطريق إلى أبعد نقطة .

كم من ذكريات عن طفل هائج طول الوقت لا يعرف كيف يصرف كل الحيوية التي تسكنه وهو في خصام مرح لا يتوقف مع صبية يدفعون بعضهم بشدة مفتغلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبّون شيئا قدر شدّ شعر النبات.

ها هو يبحث عن أعداء تضحك كل من حوله؛ والله يا "ما" لست أنا! يكذبون علي. آه يا أنني. تؤنبه الأم الأزلية والآن كفت عن الركض أصبّتي بالدوار وليك أن تجذب مرة لخرى شعر أختك.

أنا قلت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشد أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي تشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. نعم لكنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تم الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الاقتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجيدات والخالات والعمات - خاصة المسجلات في القانمات الانتخابية-والله تقدّمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بوسعني إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما يتولنا علي أكثر من مرة. أما بخصوص الأطفال فلنا على قناعة على الأقل هذه اللحظة أنه لا يعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكن وجه طفل.

كيف لا والحل أنه لا أسهل من توليد الفرح في هذا العمر أيا كانت الأسباب القادرة على توليد الشعور المبارك من بين كل المشاعر.

يتب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في منخل الزقاق. يتدافع أطفال الحي لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذه. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما

وراء التي أصابها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكياس نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من العتس. ثم ينفجر الفرح دلخله ودخل الرابحين والخاسرين على حد سواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هانجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقتع وغير مقتع من طرف الجيران.

الفرح أثنى ما يكفئك به العالم على طول صبرك على محنه... الحالة التي تمر بها الذات وقد توقف الزمن عند حاضر مكتمل لا حاجة لها بذكريات ماض جميل مصنوع من الخيال ولا بمستقبل مشرق مصنوع من الوهم. ها قد أصبح الطفل أبا وهو المكلف الآن بالسهر على تغذية الفرح لكي لا يتوقف العالم بين أزمة وكارثة عن اتخاذ حلته المباركة هذه حتى ولو لأقصر زمن. تهرّني تفاحة من كنتفي بقوة:

- "يا" كفى نوما، وعدتنا بجولة طويلة في الغابة الصغيرة التي فوق الأكمة. سنذهب ثلاثتنا على الأقدام لنجمع زهورا جميلة لـ "ما" ثم نعود بعد الظهر لأكل الكعكة اللذيذة. لم لا شريطة أن أغتتم كل فرصة للاستلقاء على العشب لا أفعل شيئا باستثناء التمتع بروية تقيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كأننا ما زالت لا تعرف له اسما في يتحرك على غير عجلة من امره.

رويدا رويدا (بيسا)

تسلى جيل الفوجي

أيها الخزون.

من جديد تفاحة وازعاجها اللطيف الذي لا يتوقف لحظة:

- "ما"، ارفع شخريك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتقيحه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليل.

هل من خيار آخر غير النهوض متناقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعتل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتقيحه ولية عهدها.

تصرخ تقيحه فجأة وهي في قمة الجنل لقدم زائر غير متوقع:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أعني تحت المطر..."

- تغنيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلقط تقيحه عُود خشب ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكل مشغول بلشمسية دفاعا عنها وافتككا.

تنثبه تقيحه لممرور الساعات وأن علينا العودة بسرعة إلى البيت.

- "ما"، تنتظرنا. عَجَلًا.

لكن تفاحة مشغلة بأمر آخر قد تترتب عنه عواقب مزعجة. ترفع إصبع التحذير:
 -"يا"، انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من الاحتكاك بالعشب،
 ستخاصمك؟"م، يجب أن أجد حلاً لكيلا نتقطن.
 تضع البنث إصبعها بين أسناتها مستغرقة في التفكير لإخراج إبيها من ورطة صغيرة.
 - سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظفه.
 الحلف الأزلي بين البنث وأبيها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلفت لا
 يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضد الذكر الآخر ولو كان أباً وزوجاً.
 حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!
 كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنه البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره
 ينفذ من طول هذا الفاصل. هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مواء القطر. ربما لا
 يفعل سوى رد الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الأدمي الممعن في
 وداعته، لا يفعل سوى استعادة قواه للانقضاض عليه مجدداً؟
 المهم أن تدوم اللحظة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول
 تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد
 امتحانه، أو تزويجه فما بالك بمحاولة التخلص منه.
 أتوجه إليه: انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن
 على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.
 تعود إلى العالم ابتمسلمته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.
 نعم إنها لحظات لا تقدر بثمن وهي التي يكشف الوجود وجهه المضيء وأنه ليس فقط
 صراعاً مريراً من أجل البقاء.
 تتدافع ثلاثتنا نحو الباب لتواجه منعاً صارماً بدخول بيت تُظف لئوه ونحن بكل هذا البلب
 والوحد ملء أحذيتنا. تصرخ الزوجة المزممة والأم الأزلية:
 - لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم - وخاصة سيادة الأب -
 مسؤولية الزكام وما ينجر عنه من مشاكل لا ندخل لي فيها. شكراً على الباقة يا حبيبتي
 إنها جد جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغير شيئاً بخصوص الأحذية. نزع
 كلهما في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.
 تراوغ تفاحة كسبا للوقت.
 - أعدك "م" أنني سأنزع حذائي وسأغير ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي
 ليست لذينة إذا بردت.
 - الدلال مع "ب" فقط، فقلت الآن.
 لا شيء في نيرة حواء يدل على أنها تبحث عن تجدد الخصام، ومع ذلك لا شك في جدية
 الأمر واستحالة تجاهله.

أخيرا وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زَ هوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.
تحتج ضاحكة: كفى قُبلا بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنكم تخفقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال الثلاثة.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، هناك أماكن مثل الحدائق العمومية توفر لك متعة هادئة وأنت تبتسم لرضيع تدفع عربته الصغيرة أم جميلة ثم تجلس لاستراحة طويلة بالقرب من بركة صغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنضف إلى المشهد العجوز التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبعج والكائنات تتدافع إليها لتأخذ نصيبها من الخب ومن الخُب. هناك أيضا المقهى للصغير على الضفة الأخرى للبركة الذي يسعد فيه الكل بتناول المرطبات واحتساء القهوة لساخنة وتبادل آخر الأخبار ولا مكان بين الجالسين لمتجمهم، كلهم استبنوا نصيحة الشاعر:

قال البشاشة ليس تسعد كأننا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)
قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فانك بعد لن تنبسا

إنه مقهى المفضل لكنني أفضل عليه الجلوس على الأرض أتنفس ملء رتتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوه والظهر مسنود إلى "جوناس" للشجرة العملاقة التي أتبرك بها كلما عبرت هذه الحديقة.

وفي هذا العالم، أو قل طوال حالته المباركة هذه ثمة أكثر من مكن آخر يستخرج أحاسيس ومشاعر بالغة الرهافة والرقّة تجعل من تجربة الوجود النعمة لا النعمة التي نعاني منها في لوجه المظلم للعالم.

الأسواق نموذجاً.

كم أحبّ الوانها وروانها! كم أحب صراخ باعة مرحين يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر! كم أحبّ المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي مشدّة أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي! كم أحبّ رويتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. ! كم أحبّ التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار والتوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي ما لحتاج لألذّ طبق يساهم في الحفاظ على صحتي ومعنوياتي!

على ذكر الأسواق وما نعود منها بأشياء تطمئننا على أننا محميين من آفة اسمها الجوع صلاحيات الجنس البشري على مرّ القرون ولا زالت النعمة المسلطة على كم من مرتحل.

تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبى حذر مفاجئ:
- أنقذت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.
- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحت المسكين أمام الجميع بانتسامة مشقة.
- أحسن من هذا....
- لا وجود لأحسن من هذا.
- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقنا الأرجنتينية. هيا اتركني أعمل.
- الآن؟ في منتصف الليل.
- الإعداد الأولي قبط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمل غدا.
- كم من مرة رأيتها تخلط الزبدة والسكر والشوكولاتة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلي صلاة الجنازة والمطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة من الخارج وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها.
- دوما نفس الفشل لخلل في نسب المواد أو في درجة حرارة الفرن أو في مدة الطهي...
- والنتيجة كعكة جافة كلياً لا شيء يسيل منها شيء عند القضم أو سائلة كلها تؤكل أشلاؤها بالملعقة.
- هذه المرة يبدو أن النجاح المبين على قاب قوسين أو أدنى.
- في الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصب نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.
- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟
- تظنني غيباً؟
- فسّر.
- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول لبوزون" هيگز، فإن...
- لا تكن سمجاً. سيصبح سائل الكعكة يابساً بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابساً هو الآخر.
- هذا بالضبط ما فهمت وسأهني نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. على كل حل، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.
- تنتهده" ح"، بدهة غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.
- أتساءل أحياناً ما الذي حبّيني فيك؟
- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقصن مضجعي... متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟
- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟
- لا.
- إذن تفضّل على برّه.

- كما قال لا أدري من: نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.
- انتبه ، لا تضطرنني لاستعمال العنف ...
- اياك ، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.
تهاجمني” ح” بين ضحك مكثوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنطلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ موصده الباب ورالي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح” ح” الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بلمشوكولاتة الساخنة للسائلة.
“الحياة اليومية (راسبو)
بأعمالها المتواضعة السهلة
مهمة بامتياز
كم تتطلب من الحب”

هل من الممكن أن نجعل من المطبخ صرة العالم وهو في حالته المباركة هذه والمطبخون على رأس قائمة البشر الذين منهم كل نعمة ؟ لم لا ؟
كل الأفعال التي تمارس فيه لا غبار عليها قنونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخصُ بالذكر منها أفعال أكل ، تذوق ، مضغ ، التهام ، شبع... أفعال تستمد قيمتها من عالم غيره أغلب المسفرين وفعلُ جاع أكثر الأفعال تصريفاً.
خذ الآن بقية الكلمات التي ترنُ في أرجائه مثل كسكي بالقلوس، بريك بالبن، طاقين جين، بسيسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بريك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الأدمية النهمه تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسيلة والمعرونة بفواكه البحر والسوشي والكزّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيوبين؟
أي قيمة للنسبية الواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنمو وبقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!
والآن بخصوص الطباخين ومكانتهم الحقيقية في سلم التفاضل البشري. .
ألا تتعامل وصفاتهم مع أشياء موجودة بكيفية لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والباذنجان والبصل والثوم والبقدونس...أشياء ثابتة الوجود بينما نضيع الوقت والجهد في الجري وراء أو هام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشريعة السمحاء والجدلية المذبية والوطن المفدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الغاضلة والماضي المجيد.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

ليس صحيحا أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟
أخيرا لا أخرا، في الحالة المنكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حلة تسمم، أو تعزل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون لا مجال للتخلص منها إلا بحرب لا تبيح ولا تنز؟

تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف رجال الدين والسياسة كما يتصرف الطباخون. بديهي أنهم لو فعلوا لما عرفنا عشر الأهوال التي نقاسي منها جيلا بعد جيل.
أضف لكل هذا الأفضال فضل الطباخين والطبخ والمطبخ على تقدم العلوم التي أعطتنا ما نعرف من رقي وتقدم .

الليس المطبخ أول مختبر تمغن فيه الادمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه معارفنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخنها ونتمتع في نتائجها؟ من يجادل في كون المطبخ المكان الذي انطلقت منه لسلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستتساخ.

حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على النجاح والأراب كان غاية في الأناقة أو اللطف، هنا لا يفوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّرنا مع بالغ الأسف-إلى التهلها وعلى رأسها النجاح لكل ما عرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبرا زلة لسان لا تُعقّر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمرّ كما ينبغي دجاجة ماتت عينا.

أعتمد الفرصة هنا للتقدّم أيضا بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتولّبلها مظهره كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا النمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال.

تقول، نسيب الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزر تسبب في آلاف قتلاها سلحته وتمثاله ويعفّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة.

بريك من أعان البشرية أكثر وسهل رحلة الملايين: مشاهير أباطرة الدين والسياسة والعلم والفقن أم الذين لا ينكر لتاريخ لهم اسما لكنهم هم الذين زرعوا وحصدوا لكيلا نموت جوعا؟

هل من باب الصدفة أن تكون كلمة النعمة في اللهجة المحلية تعني أيضا... الصمّح؟

من الذين يجب أن نضع على رأس قائمة الذي منه كل نعمة: الذين اخترعوا وصنعوا وطهروا البقلاوة والمقروض والغريبة والشبكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية... أم اسكندر المقونني ويوليوس قيصر ونبوليون وأبو عبيدة الجراح؟

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه لم يعد لنا حلجة لمثل هؤلاء الأبطال المزعومين وسلحة المعركة تتحول من عرض المسرحيات التراجيدية الى عرض مسرحية كوميدية والبطل هذه المرة... الدجاج المحمّر. يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناوب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للتذكير أن طقوس المعركة في تلك العصور كانت تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كعوج من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي! الذي يرافقه في حله وترحاله. ربما قرّر الأمر ليعبث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مُضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه منگرا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ للتجبر على دجاجة ميتة.

عبثا. أحر استعطاف: بما أنه قُدر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شعبانا، أيامر لي أمير المؤمنين بجاجة محضرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثقتا في قراره نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله. يأمر الخدم بالمطلوب والجند يرمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى سلحة “الوغي”.

من الطرف الأخر للسلحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستل فارس التحدي سيفه ويهزم حصانه صارخا يشعل أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابك سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمله. ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهراً... نجاجة محضرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شينا يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟ ا

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدالك لم تُصفت بعد؟

- لا والله.

-هل هتكتُّ لك عرضاً؟

-لا والله.

- هل قتلْتُ لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمْتُك يوماً؟

- لا والله.

- هل سرقتُ منك شيئاً؟

- لا والله.

- هل جاءك وئس بكلام قبيح يدّعي أنني قتلته فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العنّ الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعاً مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أُنشر، الدجاجة لا تزال سلخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا نجاجة بشهية واضحة ويدرشان كأخوين فرّقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفاخر بجبته حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسماً وروحاً.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه تتحول ساحة المعركة في هذا المشهد إلى ساحة لعب بين أخوة لم يعد لأحد قدرة رميهم في أعناق بعضهم البعض.

يغتتم جنود حرب عالمية يصفونها بالأولى فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفراناً. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضاً يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصيئون سخطهم على أكل لا أبشع منه إلا ضباطهم

الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة قدم فيندفع كهول استعداداً طفولتهم لمباراة ستبقى في ذاكرة الأجيال. يتعالى صراخ المرح والضرباثة البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين المرمى المهم الجري وراءها ودفغها في كل اتجاه. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السموات واحد. ثم يعودون بقلبا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية ويقول فل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع ضباطهم المجانين المسدسات على صدغ

المتحررين من الحقد والغيباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل
البنادق مصوية نحو النجوم.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات:
السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حزوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع
علمه الخفاق في وجهي. أرددش معه ولما في قصة الحماس والجدل، أليس يوما رائعا؟
حتى الطقس يريد السلام هل تتصور أنها أول مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل
شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها
نحن وكما لم يتوقعوها. لكن عن أي فرح نتحدث والحرب ستقع حتما. ثمة الفرحة بأننا
أكثر مما نتصور وأنا كلنا متضامنون متحدون ضد نوبة الدمار المقبلة... قد نستيق
الأحداث نتصور فرحنا يوم تنتهي هذه الحرب الملعونة نخرج للشوارع للاحتفال بنهايتها
ويخرج الأغبياء للاحتفال بالنصر.

في الملف الذي يبلغ فيه الفرحة ذروته لا فرق بين لاعب ومتفوّج، يشجعني جاري على
رفع صوت بدا له محتشما ومحزجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في
هكذا مواكب. تناهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط
الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودت على وجودهم أمامي بدروعهم الشفافة وخوذاتهم
الحديدية وهرواتهم الموجهة.

إنه حفل آخر تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر
والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع".
بداية ثمة في العملية سخريّة من الحرب والناس يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص
والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم
الفوارق التي تسّم حياة الأدميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفس
الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجدلى وإن بأزياء مختلفة وبطيول تفرع أنغاما مختلفة تنزع شوارع
أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو أورليز، نوتينج هيل، لورورو، نتريف، كيبك،
بازل، ساو فسننت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرحة الجماعي.

لا زال الفرحة سيد الموقف كل ما يتغير طرق التعبير عنه.

في هذا العالم أو قل طيلة حالته المباركة هذه، يترعب الفنان الموهوب على كرسية
المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكرديون ينحني ملك الزولو بمنزرة
الأحمر وطافية جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل ترقصينني فقبل
بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليديورا على أنغام "فلس"

الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجله خشب الركح. تتقدم الراقصة البلينية لتنتهي على الأنغام. تفرح الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تنكّر الليالي الأولى فيتدافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرت اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

في فضاء خيالي توصل المذبةعة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريز ماء السواقي: من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف العبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال ولدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سلمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطف غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا لدخل المحطات. ويتقصي الموضوع صرح لنا سواق القطارات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قررت الخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين واقتروشوا الأرض وفتحوا علب السندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة زرع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل أي خلل حاصل هنا وهناك. والآن نمز للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقورية البشرية من اختراعات تليها حصاة الشعراء الثبيان.

ثمة مكان يمكن أن ينافس المطبخ كصرة العلم : الملعب.

تقول الملعب! ليس المكان الذي أريقت فيه دماء القربين البشرية والحيوانية على مرّ العصور، المكان الذي تنتهي فيه كل المباريات بهزيمة هذا وانتصار ذاك، المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب، الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة، الذي تنظم فيه مسابقات الغرور، الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى، المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتتجرب ما بداخلها من

عنف مكتوم، المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهزول نحو باب الخروج
فتتساقط الأجساد عقسا بالأقدام!

نعم إنه ملعب الوجه المظلم للعالم ، أهدئك يا صلحبي عن ملعب العالم وهو في حالته
المباركة على ندرتها.

يصل بي الطريق إلى آخر وافخم طراز وهو مكتظ الليلة بعشرات الآلاف وصراخ
الفرح والحملس في أوجه.

لاسقف مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي
تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الممار والموت التي تزمجر
حولها وداخلها.

كيف لا يتفجر هذا الفرخ عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة
أخيرا تحت السيطرة!

الآن وهنا، أخيرا ولو لزمن قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة
الوجود. لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة للصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه
للإيذاء. على المدارج لا أثم ولا فسوق. على السلحة التي أمامهم لعبة قواعد واضحة لا
مكان فيها للغيث والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مؤوض من قبل الرب
المخفي يعاقب فورا وعدلا كل من يتناول عليها.

فجأة يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئا فشيئا يتبين أنه عمود
طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهبيا كأنه ذراع مرفوع بقبضة مفتوحة وفي راحتها
مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها
كرة القدم فتطلق فجأة الشمرايح ويرتفع إلى عنان السماء دوي جمهور صلاب جذلان
وسعيد.

هم يخرجونه كل أربع سنوات في موكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر
الحفلات التي يعرفها البشر.

يُسحب الصنم بعيدا إذ لا يجوز ابقاؤه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فؤولى خصائص
المقدس التوارخي بعيدا عن الأنظار ليبقى محفوظا بالغرابة ولسرّ.

ينتصب أحد النظارة والقفا. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان
إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعبد.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي طبقة أعمق من الرسائل
والمعاني.

إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه
جل سكان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب 'كاسلعالم'.

ثمة إذن داخل فرح الآدميين بالتواجد جنباً لجنباً لا وجهاً لوجه، فرح آخر بأن هذا المخفي دوماً عن الأتظار موجود فعلاً بل يسعنا تأمل شكل له لا يهيم أنه شكل من وحي تعطشنا لأي شكل يتخذه المقدس.

كم تغيرت أنواع الطعم وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير. كم عيد البشر من أوثان قدت من الحجر، من الشجر أو من أجمل للصور وأروع الأفكار وكم سيعبدون! أه لو قيض لي رؤية آلهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة آلاف سنة المقبلة!

تواصل الطقوس والمؤمنون يتابعون الآن بشوق صراعا لا يراق فيه الدم وإنما العرق بين فريقين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض. فجأة يتعالى صراخ الجدل وقد استطاع ممثلونا على سلحة الملعب تسجيل هذه الأهداف التي نشقى لتسجيلها في صراعنا مع عالم نادر ما نصيب شباكه. نعم، ظاهرياً نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في حفل ديني مكتمل الصفات في معبد نحتمي فيه بأننا ما زلنا أحياء وبخير على الأقل في هذا الفاصل بين معركتين من أجل البقاء .

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تنهار في فضاء الخيال جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون ان ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقتل لمعرفة اي القوارير أحتق بملكية المحيط. ها قد تشققت جدران كل الاديرة فرغت من رهبن وراهبات توشحوا بالأسود او بالأصفر فهموا أخيراً انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العالم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر دخل زنتا زنتاتهم *خلت في القفر أنى أصبحت وحدي / فانا الناس كلهم في ثيابي (إيليا ابو ماضي)* هم فهموا انه لا معنى للانعزال في ركن من بلخرة تواجه أشرس العواصف وعلى شك الغرق في اي لحظة وتصور ان هذا سبيل نجاة النفس والآخرين. هم فهموا ان ادارة الظهر لمأسي الانسان بحثاً عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في الاخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في الأم وأمال البشر.

أجمل بركات هذه الحالة التي يمر بها العالم دورياً أنه لا أحد يدين أحداً والله نفسه لم يعد يعاباً بخطأ أو خطيئة.

شاهدت بجناة شيخاً ثملاً (عمر الخيلم)

*قد غطّ لنومه بلا إحساس
أصغيت له يقول في سكرته*

الله لطيف بجميع الناس
ما أروع كل هذه الحالات التي نكتشف فيها نعم الوجود ، هذه النعم التي لا تستمد قيمتها
إلا من ندرتها وبالمقارنة مع نعش أغلب الوقت من محن وامتحانات !
نعم كما يقول الشاعر
"ثمّة شيء محبّب (شيكي)
في هذا العالم
الذي جنّاه للموت"
جنّاه للموت فقط... أم للمهمة الغمضة التي لا نستريح من أهوالها في لحات الروح
والجسد إلا لنعود لطريق المسامير والشوك نجري وراء هدف غير محدّد؟

**

وقال لهم الصدى واصلوا مفاجأتي وابهاري بما تخلقون، رهاتي عليكم كان وسيبقى صانبا.

على أقصى طيف الأماكن التي تتجلى فيها قدرات الادميين على النمار ساحة المعركة
وما يتعالى منها من صراخ وأهات وحشرجة...على أقصى الطرف الآخر هذه القاعة
الغارقة في صمت مهيب التي ستشهد الاحتفاء بلُروح ما يقدر عليه الادميون في مجال
الخلق والابداع.

يا للفارق الهائل بين بشر ساحة المعركة وبشر هذه القاعة رغم أن لهم نفس الأجساد
ونفس العقول والظوب !

هم الآن وهنا جالسون جنباً لجنب لا أصوات مرتفعة ولا حتى ثرثرة هلمسة يحاذرون
من السعال والعطس. أهم شيء أن أيديهم خالية من كل سلاح تركوا معها خارج جدران
القاعة حروبهم وخصوصاتهم التي لا تنتهي. كلهم انتباه، انتظر، تشوق إلى ما سيحرك
داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجربونه إلا نادراً.

أمامهم بشر آخرون منهمكون في تجربة آلاتهم للتأكد من جودة الأصوات التي
سيستخرجونها منها عندما يبدأ العزف.

يتوقف البصر مطولا عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن
تعزس أظافرها في عنق زميلتها لأنها منقسمة شرسة، أنه لا عزفت كمنجة واحد
سيضرب عزفاً آخر مدعياً أنه يشوش على عزفه ويسرق منه الأضواء وأن عزاف
التشيلو لن يخرج غاضبا بعد رمي آتته على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد
الأوركسترا.

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفوقون، متعاونون هؤلاء البشر الذين
سينغمسون في لنفخ والنقر وذبج أوتار الكمان!

تأمل الآن الادمي الوقف مديرا ظهره للمستمعين وجها لوجه من سينلقون أوامره
لالصامته.

لن ينهض أحد من الجوق ليفتك عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط
الجمهور أنه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعه أمامه.

هو مُطاع لأنه لا يستبدّ بقرار عندما يأمر هنا بالنطق وذاك بالصمت وأخر برفع الصوت
ورابعا بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده هُمة الوحيد،
إبراز المواهب والتنسيق بينها.

إنه السيد الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم لماذا لا يكون هذا
الآدمي الذي تُنفذ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفا ولا يهتد أحدا نموذج كل من يحكم؟

نحن إذن أمام مجموعة توزعت بينها السلطة بكيفية عادلة جمّدت صراع النرجسيات ووجدت الجهود لتأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل.
أين ترى شيئا كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضا خارج تنظيم الأوركسترا
السيمفوني؟

الموعد الليلة مع رائعة من روائع عملاق من عمالقة الموسيقى العالمية.
يتصاعد صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما ليذكروا بما تصدره الآلات من
أصوات مُنكرة عندما لا يفرض عليها الأدميون ارادتهم.
يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من القاعة أول لقاء له مع إحدى أشهر أعمال
الرجل.

تهمس الأم في أذن طفل أصبح مراهاقا.
- يا بُني إنك تصمّ أذنان الجميع والجيران يتنمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها
ليلا نهارا؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.
ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تقاكي ابنها نصف
عاري، متصببا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب
الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.
- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقًا بدأت أخشى أنك مصاب ب.
لوثة من الجنون؟ كلا وإنما بموجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع
أنغام ترفع من يذبت إليها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.
ذات يوم تعبر المراهق فكرة مثيرة السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة
ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سدسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا
تتكرر... لكن ماذا لو!

ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة
الاسبانية العجوز.

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟
- أسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي.
- من؟ لا أريد إلا بتهوفن.
- انتظر، أنت محظوظ. أظن أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.
تمدّ إليّ العجوز كنزا من أغني كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة
تبغ. تتسع ابتسامتها لا أدري لليوم تعلّفا أم تهكما ثم تقول لي ضلحكة:
- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المعني ليس بتهوفن.
تتكرر المعجزة. يجشو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روح الصلاة، لكن إلى من يتوجّه
بالابتهايل والحمد والشكر؟ ربما جزء من الشكر لامرأة زحلت منذ زمن بعيد ورفضت أن

تُصَدِّقُ أن صبيبا بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حبًا بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأه المختار للفرار مما يزخر به العلم من شرٍّ ومن قبح. فجأة بصمت النشاز المفتعل لتتصاعد أولى نوتات السمفونية العظمى. يدوي قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لافي السماء. تتحرك أعمق المشاعر بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى أعلى درجات الفرح. انطلقني يا ذاتي إلى الأعلى، حلقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترفعي، توهجي، أضيني لي ما بقي من الطريق. هل ثمة شيء يبزر وجود الأهمية ويغفر لها موبقاتها غير قدرتها على اختراع الفن لإعدة بناء العالم أو لخلق عالم موازي أجمل من العالم الأصل؟ مع بيكاسو، يدبر الأنمي ظهره للمشهد المألوف للعالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلق له من أشكال لم توجد من قبل. يأتي الشعر ليصف جمال العالم كما ترصده الحواس لكن أيضا لكي يعيد تصنيعه وقد أصبحت الطيور "تثدو" على قبر الشاعر التسيبم فوقه "يهمس" والفصول "تمشي" حولها كما كن في غضارة لمس" (الشاببي)

تسمع فالسات شوبان وسوناتات شوبرت فيشئف الأذان التناسق والنظام، لأن الموسيقى، وإن ابتعدت عن تقليد صوت العصفور ما زالت تقلد عالما من قوانينه النسق والنغم والجمال. ولما تنطلق عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع، تعطيك موسيقى ستوكهولوزن لعالم ليس فيه إلا النشاز والفوضى. يا للمهندس الفنان الألمعي الذي جمع هذه السهرة أصواتا لا متعة فيها متفرقة متروكة للصدف أو للأبادي الجاهلة ليستخرج منها أقصى ما يزخر به العالم من جمال! هذه السمفونية التاسعة هي معلم بناء الأدمي بتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور لاوتسو وابن عربي وإيسا من ممكن الصنع الذي تزخر به الكلمات أروع الفصلد... مثلما بلور أكبر المهندسين المعماريين من المادة الصماء كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محل. لكن يا للثمن الباهظ!

من يستطيع استحضار ما عاناه بتهوفن من آلام قبل وأثناء تجميعه الأنغام التي سحرت الملايين؟ أي أزمت نفسية رهيبه دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ كيف واجه فقدان السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسمع ما يؤلف من أنغام؟ وقيل بتهوفن من يستطيع تخيل عذابات شبروت وموزارت كم من عمالقة الفن والفكر الذين صنعوا معالم العالم اللامادي الذي نعيش فيه... أضف عنابات ملايين النكرات الذين بنوا بأيديهم العاراية سور الصين الأعظم ومعابد تيكال وأنكجور وكل ما يحفل به الفضاء الحسي من روائع الاعمار. ثمة إذن ثمن رهيب للإعمار أيا كان فضاء إعادة التصنيع يضاف لثمن النمار.

ومع هذا... ألا يستأهل إعادة خلق العالم كل التضحيات وما ورائها إن تطلب الأمر.
أيا كانت الوسائط الحسية، كلُّ لسان حال الأدمي يقول للفتان الأعظم: انظر ما الذي أنا
أيضا قادر عليه أنا أيضا.
لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحداد وأن الفرح عاد سيّد العالم، تصالحنا أخيرا
مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته، راض عن
أدائنا وفخور.
تتعالى الحاجر بالنشيد الرسمي للبشرية انتهى لصراع بين الكلمة والنعمة تظفرت
الطفتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل
موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنعمة.

"تقدّموا (شيلبر)

تسارعوا

بزغت الشمس

وهذه قبلة باسم الأرض كلها

تأتيكم من وراء القبة السماوية

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غلمر الفرّح

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه. ابحثوا عنه... ابحثوا عنه... ابحثوا عنه".

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان 'إني بين ضلوعكم تقلبني الأفلس جنباً إلى جنب'⁴

للبحث عنه شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس وقدماء الإغريق إلى لفت وقدماء
البريطانيين إلى ستونهنج-درنتون وقبلهم شدّ الأوائل الرحال إلى كم من غابة وغار
وبركان وهضبة مربعة وسط صحراء بلون الدم.

هم يشنون في عصرنا هذا الرحال إلى مدن اسمها شافين، كوياسن، كوبكابانا، بيت
لحم، روما، فالطيم، سانميشال، طوس، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهسا،
شيكوطو، بور ويودور، القدس، سلن جاك.

بحثاً عنه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.

على فراش المرض الذي سيرحل بها تنتهد 'ما':

- كم أنا سعيدة أنك... ظفرت بما كنت أتمناه لك دوماً.

لي فقط؟ كان الحج حلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت التوح به حياة من أن يُعتبر
طلباً وتكليفاً.. كم ركدت لنفسى أنا جدّ مشغول هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة.

نعم، السنة التي تليها فما زال أملنا متسع من الوقت، هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرة.

- فات الأوان يا بني، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهون عليها والسرطان ينهش جسدها وعلّي والشعور بالذنب ينهش روعي.

تفهم 'ما' كعادتها دون حاجة لشرح مطول ما الذي يختلج في صدري.

- هون عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيراً كل تفاصيل حجك...

لست مستعجلاً، أليس كذلك؟

نعم، لست مستعجلاً هذه المرة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تمّ اختيارك لتشرّف على البعثة الطبية المراقبة

لحجاج هذه السنة. الموعد غداً فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تُعرف

الإدارة وكيفية عملها. على كل حل هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

مؤكد أنني سأعوض زميلاً تتخل له كل كبار القوم ليكون هو على رأس البعثة وأصابته

والحمد لله مصيبة طارئة فتحت لي باب فرصة لا تعوض. اللهم إلا إذا عيّوني للمهمة

لا تتسكّ فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشتهم، أو أملاً أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء

فيرتاحوا مني نهلياً.

⁴ ابن عربي - من ديوان ترجمان الأشواق (الناشر)

- بعد الثَّرَ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تقاديت دوما أسناتني عن حَكِّك ولم تقم بمراسم التَّيريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟ حدثني عن كل تفاصيل السفرة المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف ما حدث أم أتأقئ أنا أيضا؟

فيما نسويه الواقع يبدأ الزحيل بالوقوف ساعات مضنية في ظبور تسوده القوضى لإجراءات البوليس وتسجيل حقائب ملأنة بالثياب وبما أعدته زوجه كأنها تخشى علي من الموت جوعا. يواصل الشيطان المكلف بلسخرية من بأحلامي العيث بأحلامي بحشري في طائرة مكتظة بل وفي مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها. عند وصول بوابة الأراضي المقدسة التفتيش من قبل شرطي علبس يبحث في جيوبي وفي حقيبتي عن الكتب الممنوعة، ثم التذافع لشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى مدينتي الحج.

أي حل غير الاستجارة بفضاء الخيال لتناسي الضجيج والحرّ وروائح البنزين والعرق. كم حلمت بهذا المرحلة من الرحلة... حُطاي في حُطاي أجدل كان حَجهم إلى الأراضي المقدسة مغامرة العمر... السفر على ظهر نقعة بيضاء غلقت في عنقها الأجراس والتمائم.. النوم بالنهار والسعي ليلا تحت القبة المرصعة بلنجوم.. المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى لمواجهة الأخطار الكامنة في كل منعرج.. فجأة يدوي زعيق الغرامل وصراخ الركاب:

- حقيبة سقطت من سقف الحافلة!

يتوجه إلي السائق بلطف: أسف، يا سيدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن أغراضك لم تتبعثر. صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد الدين والقوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتي. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة حلمت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سقّل راجعا. لم أكن يوما ضيفا تقبلا على بشر أو إله.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها إلى حقيبة رايضة تنتظرنني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجرة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركز ورائي والقمر يهقهه وبحرّض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تقجر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدق في مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهم أنك وصلت بيت الله سالما.

- الطريق بالنسبة إلى أمثالي أهم من... إنفل إن للطريق أهمية كبيرة.

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشرّ لأقصر الطرق المؤدية إليه.

أخيرا صراخ سائق الحافلة: يا الله، كلّمك على برةّ بدهوء، لا تتدافعوا لا تمشوا على رؤوس بعضكم البعض.

حل وصول المدينة التي توصف بالمنورة آخر ساعات الليل رميتُ بالحقبة اللعينة على فراش النزول. هرعت إلى المسجد أترجّح من التعب وبني أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي أخزهم.

زحمة مخيفة. تدافع فظ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.

حملني تيار الأمواج الائمة إلى قبر المصطفى حيث تشرّب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط للشيء المخصص لحثّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأئمة بكثرة العقوبات إذلالا.

ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأئمة.

لا شك أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظما ليبنوا حولها في أراضيهم قبلا وزوايا يضعون داخلها ما نهبوا للبهار واستغلال إيمان البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!

ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة للقسيسين والمسلمين المزيفة لصليب المسيح.

بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.

حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقترب ما أمكنتي من مثوى هذا الذي كانت "ما" تهتم باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي مَنْ تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعته... هذا الذي تسمى باسمه الملايين عبر العصور. النبي الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعتنا لغة الاضاد ووطننا.

يصرخ فيّ أحدهم: تحرك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيننا. يدفعني آخر بمنتهى العظمة: تقدم مالك؟

لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة داهمني كل التهيب، كل الخشوع، كل الحبّ الذي يفيض من قلوب الجماهير المتدافعة لهذا النبي الذي قال إنه لم يأت ليعلّمنا العبادات والطقوس وإنما ليتمم مكارم الأخلاق.

أجبل البصر مطولا بين مئواه الأخير ومثوى الصيّق الراقد جنبه، وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء.

يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحركون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به.

تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إلي...

- تواصلت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر السأخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي.
قلوا وقد حان وقت الصلاة في مستوصف البيعة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبيعة ولم أعد إلى تعلم طقوس نسيت قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرثَل في الأثناء. كان حقًا موقفًا مرجحًا للغاية. النجدة يا كل من يهّمه أمري!

تسّع ربيع ابتسامة "ما" وتعود لها بعض من حيويتها.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجًا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- من استجاب لندائي؟ "الغوثة"، "المحجوب" مدعوما ب "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدوية. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ الصبح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرض يكسو الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفًا متينًا. تتحدث بوقار ثم توجّهت إلى مساعدتي قائلًا: لا فضل هنا لطبيب على ممرض إلا بالقوى ثم من شيمنا بتجيل أكبرنا سنًا، فليتقدّم فلان يوم بنا هو الصلاة.

لا تقوى "ما" على التماسك فتتفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...

- إنها غلظة يا؟ لَمَا فرض عليّ الصلاة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوة آخر بين طاعية يأمر وينهى لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بلاسليقة لا يزيد التجيز إلا عنادا على عناد. ولَمَا ابتلعه المجهول من جديد فسخت كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.

تصمت المرأة المحتضرة وهي الآن طفلة تخاف أن يحرمها هجوم النوم الأبدي من سماع بقية قصة مشنوقة يرويها لها ابن عاد من أعرب رحلة كم كانت تؤدّ أنها رافقته فيها.

- أريد تفصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالة ولا تنس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يفي بحقه أو يستنفده وصف؟

تعود "ما" لهمس متقطع:

- حدّثني... حدّثني عنها...

- أكثر من مرة حاولت الاقتراب منها. لم أبصرها إلا من آخر الصفوف وظهري للباب من شدة الاكتظاظ.. ومع هذا يا له مشهد يا أمّاه ليس كمثل مشهد في كامل عالم الادميين.

مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء لعشرات الألاف من الرجال والنساء تطفو عليها أخشاب الشيوخ والمرضى طافية والمرفأ مكعب أسود تحاصره وتدور حوله هذا الأمواج لا تتوقف لحظة... لا غرابة والدائرة أكمل شكل هندسي... طواف البشر حول بيت ربهم كطواف الكواكب حول الشمس، كطواف القمر حول الأرض، كطواف الشوارد حول نواة الذرة.. من المخرج العبقري الذي وضع لوحة يمثل هذا الجمال والجلال؟

هذا عالم تناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض، أصف الوجه الآخر للعالم أم التزم الصمت الحذر؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبب الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أخطر في الطقس وأنا أمام أقدم وسائل علاج الذات مما يلحق بها من امراض نتيجة طول الاحتكاك ببشر أجزم أنهم هم من علموا الشيطان مهنته. يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت.

لكن المراهق النائم بالعين الأخرى على مزاج جد مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أن المسكين طوئ بالشيء ويعكسه، وكأن بيمتجنه نية مسيئة إسقطه في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. تصور ورطة المسكين فلو عصى أمر الله بلسجود آدم لأذنب لأنه لا يعصى لله أمر ولو أطاعه ساجدا لغيره لكان الذنب أعظم! ماذا الآن عن تحميل المظلوم الأكبر مسؤولية الشر الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقًا لما سمح لموظف عنده أن يغويهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حب الشر لما أغواهم غاوا! تتوجه أفكار المراهق الساخر للكهل المتزايد حرجا: من تلعن أول معارض وقف في وجه أول قوة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لست أداة أو بوقا؟ أليس هو جد كل الثوار الذين تدعي أنك واحد منهم؟

ثمة أكثر من أدمي توصل لنفس الاستنتاج وإن بطريقة ولأسباب مختلفة.

"رباه لو أن في طول انتظار غد جدوى لما أسمعك الريح شكوانا (السياب)

وما كان حتما علينا أن يعذبنا طاع وأن يشهد الرحمان بلوانا

النار أشهى فهايت النار تصيرنا يوم الحساب ومثعنا بديننا

إن كان لا يدخل الجنات داخلها إلا شقيا على الأولى وغرثانا

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا فاحفظ عيبك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه؟ لو كان بريئا. إنه لوسواس الخناس هذا ما علمني سيدي الشيخ وما كتبته على لوحى في الكتاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل ساذج. لكن ما رأي الكهل؟

كل ما أستطيعه في هذا الموضوع من النص مصارحة الأدميين بالحقيفة التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعتكم فيها كل الحسنة مفهوم مشحص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدر فيكم، أزلي، متجدد، لا يجتته عنف أو إفسد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه: الشيطان الذي وضعتكم فيه كل الموبقات مفهوم مشحص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشر متجدر فيكم، أزلي، متجدد لا يجتته فن أو علم أو دين.

ألتفت حوالي وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. تحسبا لكل الإمكانيات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من كبر السالطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لثتم أنفسنا والتخلص مما بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكل مشغول بتصفية حساباته مع كيش الفداء. يفتر حماسي بلسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى بز الأمان انطلق وأولوية الأولويات الآن لكل شخص الخروج حيا من الزحمة المرعبة.

كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت وهو الطريق الوحيد إليها.

ها أنا لجزب المشي لأول مرة في حياتي بأقدام غيري وعضلات صدري تدفع بما تقدر عليه من قوة الأجسم الضاغطة على جسدي بحثا عن نفس قد يكون الأخير؟! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطن والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتصقا بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن بحمل الملتصق بي على يساري سقي اليسرى معه إلى جاوا.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفي المرعب للأدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك القلب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتى إن لم تكن أنتي يشتهونها. ينهضون بتأدب جم تاركين لأول عجوز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك ميتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصنع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيوننا متجهمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدة للمشي فوق خذك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي يصد الغرق والمحل التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أي مكان هذا تجتمع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال ليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

مشكلتي الأخرى المريضة التي فشلت في اقعائها بتأدية أخطر طفوس الحجّ والتي أحاول حمايتها بما أقدر عليه.

تنهار المرأة البدينة أملمي معشياً عليها بين أقدامـجل قل بين حوافرـقطعان بشرية لا هدف لها غير البقاء على قيد الحياة ولو بموت كل من يقف في طريق النجاة. تُرى ما الذي شعرت به المسكينة هي سجيئة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثاً لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟ كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يختنق ويسحق تحت ثقل الحشود المتدافعة فوق جسده؟ من أين للغة مصطلحلت الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ترنّ صرخة استغاثتها إلى اليوم في أنني وهي تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بالوداع لعالم غير مكترث. كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه شيطان ضالحك ليس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من اللين تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسلر ع إلى نجاتها ليقول لي اللعين: الزم مكثك وإلا الدور عليك كلكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.

- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذب نفسك دوماً؟ لست مسؤولاً عن موت هذه المرأة.

تنظر إليّ مطوّلاً وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بد أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصلّيت بين جدرانها.

تنصب قفاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهِش وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "يا"، ماذا قالت جدّتي لما قلت لها....

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنه إذا بخل تجلوز حدود البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف تلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامسا في أدنّي: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟
باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدداً بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أملمه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد يكاد لا يصدق. إنها دهشة من يكتشف البحر يتخّر منه ماءه فالساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فراغة باستثناء بعض رجال الشرطة!
- ما الخبر؟

- إنه يوم غسل الكعبة والملك بنفسه من يقوم بالعملية. بهذه المناسبة لا يدخل الحرم إلا نخبة من المدعوين تدبرت أمرى لتكون بينهم.
يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكّد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر لسود لا أصدق أنني ألتئم الحجر الأسود.
يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عجلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلاله الملك خالد في الطريق.
يفغر الطفل-المراهق الكهل فمه يكاد لا يصدق ما يرى.
في معابد الأدميين الأخرى، يعتبرون عن انبهارهم بالمقدس وخشيتهم منه بتشديد أعلى المباني لا يتراجعون تزلّفاً ومبالغة عن تكديس كل ما يقدرون عليه من الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء. لا بخور تخنق الأنفاس. أقصى للتجرّد. الفراغ. فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة اللغة على تسميته، للعلم على فهمه وللحق على تصوّره؟ طبعاً "هو" ليس لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر وإنما وظيفة كل الأمكنة التي نقول إنه فيها تحريك اللاوعي ورفع الانتباه إلى أقصاه لتشعر بحضوره الصامت حولنا وداخلنا... لتحدث المعجزة التي أسميها اللقاء.
تنهار فجأة كل الحواجز كالسدّ أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل، الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التنين والكرم. الحمد لك والشكر على الموسيقى على الحب. الحمد لك والشكر على هنيئتي الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقه مزمجا: الحمد على الجراد، الحمد على البعوض، على السل، على الطاعون، على الحساد، على الأعداء، على الأغبياء، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه التهيّب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلب منه شيئا!

خاصية فائزة في الأدميين. تراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلّمت أن هناك خراج الذات قوة مُحية تستجيب لكلّ طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدي بسماجه، هو الذي وهبنا عالما بأسره لتعبه سدة لا متسولين! كم تشمّنت دوما في هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف أدبياتهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها! كم روضت نفسي لاكون من غير طينتهم أرفض أن أتكف بشرا أو إليها الأنفة أمام البشر والحياء أمام الله!

يواصل الطفل صراخه داخلي وكأنه لن يغفر للغبني الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهده.

- هل من كبرياء أملمه "هو!! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوج إلى الإعلنة مئي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جنورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، إنتي يا نس إنتي يا نس، إنتي تائه، ماذا أفعل في هنا العالم وما الذي يجب أن أفعله، كلني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. يرفع الحاجب من نبرة همسه الصراخ: يا الله برة، برة، أسرعا، وصل جلالة الملك.

إنه "هو" لا غير الذي يطردني وكل القضاء يعيق بامتعااض فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسلان حل الصمت يقول: حتى أنت تستجديني! حتى أنت لم تفهم!

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يتبجح، يا من أغدق عطايها لا يهيمه حمد أو شكر، يا من أوضح وفسر وبين كل شيء ونحن نصر على عدم الفهم.

*

حانت لحظة الوداع. ينفرط العقد ليركض كل واحد في اتجاهه.

ماذا لو كانت الوظيفة الحقيقية لكل مكان يحجّ له الأناميون لم تشمل دوريا لعائلة تاة أفرادها عن بعضهم البعض لا يحذون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقتهم جمعهم ولو مرة واحدة في هذه الحياة؟

تتحرك الشرطة بحثا عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة الربوع.

فان غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)
وليس غرامي بالأماكن والتراب

تستعجل، ما بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.

-أرجو أن الإياب كان أقل تعباً من الذهاب.

نعم كان رجوعاً رائعا لكن كالعادة في الفضاء الذي أنا سيده الذي لا يعصى له فيه أمر.

أخيرا مدينة السلام للسلام على روح الذي تعلمت منه ما يجب على كل مرتحل

تعلّمه... مازة يتغامزون: درويش من أراضي المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن

أثار ذلك الزنديق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق سافره إلى ساحة الذبح...

هنا جلنوه ألف سوط وهو يرتد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى... هنا

صلبوه العنر الدين والسبب السياسة... هنا انتظروا ودمه ينزف إذن الخليفة بضر

عنقه... هنا علقوا رأسه... هنا حرقوا جسده لتلحق ذاته بالذات القدوس... ورائي في

المسجد يهيمس في أحد المصلين: يقول لك الشيخ هون عليك حتى لا يتنقل كل هذا الألم

ثم يخفي قبل أن أفيق من ذهولي... والآن مباشرة إلى بلادي التي جارت علي وما

زلت أفتح نفسي أن فيها ما يستأهل مواصلة حبها... قافلتني محتملة بقرب ماء زمزم،

بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضرموت، يعطور سقطرى ويكل ما جمعت من

نفثس المخطوطات... لا بد من البحث عن قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد مكان عبور

القافلة لأعطيهم مما تنن بحمله الإبل... عند وصول واحة الأباء والأجداد توزيع ما بقي

من حمولتها وإطلاق سراحها لتتعم هي الأخرى بالحرية... أنا الآن داعية الشيخين

أواصل تعليمهما في كل البلدان... أمامي السلاطين وقهاء السلاطين في صفوف

متراسة والشور يتطابرون عيونهم.. الفرار! إلى أين والدهما أخطر سلاح السلاطين

الفاستين في كل مكان؟ الثبات، الثبات لمواصلة رسالتكما وإلا أي جدوى لحياتي!

تلمس 'ما' ككفي برفق لأواصل حديثا هو كل ما يشدها الآن للحياة.

- سهوت مرة أخرى. أعد كيف كان الرجوع، أنا متأكد أنك نسيت بعض التفاصيل

المضحكة؟

- أه يا أماه! كانت سنة أجهزة الفيديو الرخيصة خلافا لمواسم الذهب في السنوات

السابقة. اغتموا كلهم فرصة الحج لشراؤها لبيوتهم وأيضا للبيع والترج. "حج وحاجة"

متلما يقولون. كادت الطائرة ألا تقع بنا لزيادة حمولتها عن المسموح به لسفرة آمنة.

- أنت أيضا يا بني عدت بفيديو.

- فإنا! أنا ابن أينقلس عدت بفيديو مثل بقية العالمة! وكشنتي عون الجمارك الوحيد الذي

لا يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزفر من الغيظ لأنني الوحيد الذي دفع الغرامة!

وكنت أعتز في جد أبوه الكلب هذا الفيديو اللعين وأنا أجره مع حقيبة ملانة بالثياب

الفترة، ودفعني لأحدهم بغلظة ليركب قبلي آخر تاكسي موجود في المطار ... من أسمعك هذه الاقتراءات؟

- أنت ... هل نسيت أيضا الفيلم الذي جئت به خصيصا ل...
- تقصدين شخصا يشبهني جاءك ليشوّه سمعتي عند الكائن الوحيد في هذا البلد التعيس الذي لا يصدق اقتراءات الناس عليّ؟
لا نجزب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما نقهقه وقد أمدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.
دُسّلط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لأخر التعليمات.
- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس، عدني فقط أن تُصالح والنك.
ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارمٌ بأن أطمئنها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقتها عقودا وُضعت أخيرا أوزارها.

يجب تغيير وجهة الحوار حتى لا تبكي لا هي ولا أنا.
على فكرة، أتذكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتى ملفات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسم كان يَدّعي دوما أنه بغير حلجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تقبّر الضحك في عينيها.
- يا بني حرام عليك. أبوك صلىّ الخمس في أوقاتها منذ رجوعه.
- شريطة أن يوجد أحد يصلّي أملمه، بل فولي من يمثل أمامه ولو كان القطر.
- يا ولد، أنت لا تغتلب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.
من الثيرة والقسمات، الأمر ليس الكفت عن اغتيال الرجل وإنما مواصلته. حتىّ "ما" تعرف الخبث! تكشف يوما أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتىّ وهم على فراش الموت.

من كانت حقا "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفيحه؟ وأنت التي قاسمتني الفرائش سنين، أي كائن كنتُ أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أبيها الرجل الذي تقدمت إليّ دوما تحت اسم "با"؟

لا أحبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.
- تظنين أنني أغتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّ دوما: كن أسدا وكُلني؟
- واصل، لا أريدك أن تسكت.
- أتذكرين قصة وصول "أينفلس" الأراضي المقدسة كما رواها هو نفسه...
- يا ولد!

- مما صرح به "با" أنه لما وصل الأراضي المقدسة نزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتىّ لا يضطرّ إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمه

غيره برعاع القازات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض القاموس العالمي للظت هاجمته في أن واحد. تُنكرين كم مرة أتى إلى البيت معلنا أنه دخل النزاع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة وهو أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئًا نتفاسمه.

تواصل "ما" منع ربيع إبّسلمتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- آه يا بني من أمراض أبيك!

- ما ألقى تلك الأيام. كاني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم.

كانت ذاتي هي التي تستعيد عقبيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثّل اللحظة التي يرهيبها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمتعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

أه لو كان مرضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجلبك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجددا، فيم تفكر؟

- في الملل الذي عناه ابن حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف؟

تنتهد "ما":

- لم تتغيّر رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرة كنت المخطئ وهو المصيب.

- آه تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

- وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تحلّف إلا الرماد! النار لا تحلّف إلا الرماد!

- وأيضا كان يرّدّ لي وأحيانا لنفسه أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجد... أم الجملة من اختراعك؟

- يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظالما لوالدك!

مؤكّد أن الرجل ظلّ بقدر ما ظلّم ولربما أكثر. ظلّمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل كما هو الحال دوما مع الأميمين-لنتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلّمه أيضا ابنّ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إنرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات.

إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الأباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الأباء الشريرين؟ ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الأباء والأمهات وأنه نفس الحبّ عند الكلّ حتى وإن أخفق الأباء في التعبير عنه؟ أليكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدور الأجل هو نتيجة استنثارهنّ بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الأباء المساكين يموتون إرهاباً بحثاً عن لقمة العيش لإطعم عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تقوّ مكرهنّ على خشونة الذكور وجهاً لهم بقواعد العلاقات العامة. هل نجحهنّ في تسويق صورتهم على حساب الذكور المغفلين أكبر عملية غسل للماغ عرفتها البشرية!؟

كرجل وكاب، وتحملاً لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركاً لكل ما سبق من مظالم لجّقت بالرجل علمة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبوعية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، بل وسنجد عيد الأباء نكالية في الحركات النسوية يدوم ثلاثة أيام كاملة لا يوماً واحداً وخالصة الأجر بالطبع. لكن أيضاً في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قراء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إضاءة معاهدة سلام تتصّن على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعداً عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع أبنائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقيل المرور للبوغية سنبتال الخطب تحت لتصفيق الحارّ لمدعوين بغالبون نموهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همهم تنفيذ الاتفاق، علماً وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر. نفس المشهد المؤثر عن معاهدة مماثلة بين البنات وامهاتهن علماً وأن مالها ملّ معاهدة الأبناء والآباء، لكن هذا شغلهم وليس شغلي.

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريباً آخر قبلة على جبين الرجل الذي أثرت قصة حياته في قصة حياتي كما لم تؤثر فيها أي قصة أخرى، أن دمعة حارقة ستسيل على خدّ سكرته إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

يحضرني كم كان معجباً بشاعر جَل من قصائده الكلام المقدّس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل. لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القوة والمثال؟ هل لتعريفه في الأمها على الألام التي عبّته طوال حياته؟ هل كانت نزوة مأساة هذا الأدمي المعروف تحت اسم المتنبي وُقوفه اضطراراً على أبواب الملوك يستجدي من يحقّهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه باليمن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقدير بها عليه؟

ألهده الأسباب وجد " يا " نفسه مع كم من الآخرين في مأساة هذا الشاعر الذي لم تعد جعجعته الفارغة تثير في إلا هزّ الكتفين .

تصورت أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية لما وصلت للقمة التي استعصت عليه لكنه هو الذي انتصر عليّ بالضربة القاضية وأنا لم أجر طوال حياتي إلا وراء طموحه هو ليكون السيد الذي يقف بين يديه الشعراء .

أي والله، لم يكن لي طوال رحلتي غيره خصما ومنقسا. كلُّ من لاعبوني الدور أحياء وأموات لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة.

نعم، لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خلطت من الرجال وأشباه الرجال. كانوا يظنونني أسخر منه وأنا اسميه السيد أَيْقَاسُ وأنا أقصد كل كلمة. أي والله، أين في الناس أب مثل أبي!

كم سُبُخِيبَ الرجل ظني ذلك اليوم الذي وضع فيه رحله نهائيا أنا الذي أمنتُ دوما أنه قادر على لي ذراع أيّ عدوّ فإِذا بعزرائيل بطرحه أرضا يجزّده من وسامته وأنفقته وفصلحته وهو لأول مرة لا يُقاوم ولا ينتصر.

لا بدّ أن ترحل "ما" دون هذا الحمل الذي نغص جزءا كبيرا من حياتها.

- اطمنّتي، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاعلي مع عصا أثقل من عصاه ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.

تمسح المحتضرة نموعها وابتسامه كاملة كالبرد ليلة اكتماله نضيه وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لأخر مرة.

- أتُعرف لماذا فُذِر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضى لا أكثر... بالليل وبالنهاري بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم ومن جهد، بالقليل من التقاني الذي أخذته عنك.

- هل كان يريد منك شيئا آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عبادته، اطمنن، هو راض عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وأخرة. سر محروسا على بركة الله لا تهرب شيئا ولا تخش أحدا.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت نمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.

ها هي "ما" تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح عينها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى

لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فلجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل لسحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟

يتوقف بصرها على وجهين يحدقان فيها بعيون دامعة. تلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضد قر أو حر. يجثو الطبيب طفلاً الآخر على الأرض الوجه بين البيدين تارة، وتارة أخرى يقتعل زيادة سرعة تنفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئاً لذاتها وإنما تدعو فيها للباقيين على قيد الحياة. ترفع الأم الأزلية ببطء وصعوبة ينها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن كلنا نأتي هذا العالم حجاجاً.

تنلقى "الباشماما"⁵ رفقت "الماما" والدفن فيها كالعائد بعد طول الفراق إلى حضن أمه. هيبات أن تخفف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

"ولو حفروا في درة ما رضيتها
ولو أودعوك الجوّ حفنا مصيفه
فيا قبر واه من ترابك، لينا
عليه واه من جنالك الخشن"⁶

آخر حفنة من الثرى ثم صوت المرتل: اللهم تقبلها بواسع رحمك ومحبك، فتردد روجي: آمين.

حولي كلهم يرددون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله وإنا إليه راجعون!

من إنا هذا؟! ... من هذا الذي نحن منه والذي إليه نحن راجعون!؟

**

⁵ الباشماما اسم الأرض الأم في لغة الشعوب الأصلية لأمريكا الجنوبية
⁶ الجدول: الحجارة (الفاشر)

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص"
بريهادارانياكا - اوبانيشاد

مقدمة الكتاب السابع

هذا عشاء عائلي أحر انتهى بسلام. إنها فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أي من البنّين.

- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتبُ الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحة وعاجلة بترقيته؟
تبتسم تفيحه:

- أصوتُ لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟

أسلطُ نظرة حنرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:

- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.

ثم تستعدّ للهبوط وهي دوماً مثل والدها، وقبله الذي كان أباً لأبيهافي عجلة من أمرها. تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نغير باب خروج المطعم الصغير.

- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.

- تقصدين!

- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جُداً.

أنا زين الشباب ينادي له يا جدي! يا بنت استحي.

يا إلهي، أبهذه السرعة مرت كل هذه السنين، كل هذه العقود وأنا لا انتبه لتركضها!
كم صدق أحد الشيوخ الأجلء الذين تعلمت عنه مهنتي عندما قال لي: لا تنتبه لعمر طلبتك لأنك ما زلت شاباً، ذات يوم ستفجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة أذاك ستعي أنك أصبحت شيخاً. ايه والله كم صدق الرجل! ها قد أصبحت لا أدخل المدرج المكتظ إلا وأفاجأ بوجوه رضع ثبّنت على أجسام عاقلة فأرد لنفسني فعلاً كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم.
ثقلت مني جملة طائشة.

- آه، إذن هنا عالم عيبي كما ترددين في لحظات التفلسف الفرج، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدعي الغضب. تقتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم.
تتدخل تفيحه:

- كفي يا أطفال من الضوضاء على قارعة الطريق.

تمرّر تفيحه بدها أمام وجهي:

- "يا"، عُذِّبْنَا.

أتوجه إلى طفلي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.

- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتأريخ مسيو فيدل وقومه شهر... الموافق في تأريخ "م" وقومها ل... الوصول تقريبا في...
تضحك تفيحة:

- اترك هذه الحسابات للأطباء. المهم أن تغتمت للشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.

تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:

- كنت الأميرة دوما مليئة بالفصول وبلجراة، لا تخشى إنسا أو جئا وكانت تحق كل ما عزم عليه.

تعود تفيحه إلى هويتها القديمة في افتكالك الكلمة، لتقود قصة لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة للصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.

- اعترفا أنها كانت قصصا مسلية وأني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي قد تساعدكما على مصاعب الحياة.

تقاطعني تفاحه:

- لسنا ضد مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغتن بريء تبيعه بضاعة قديمة.

- خشية في غير محلها. أعدكما بقصة لم تُرو من قبل لطفل وفيها أعظم بطل وأعظم مغامرة وأكثر العقد تشويقا...إنها روايتي الخاصة لقصة القصص أولها منذ عقود وأسميها أحباينا لرؤيا...رؤيتي للعالم، لقصتي فيه، لقصته في.

تقاطعني تفيحه وهي تتأملني كما كانت تراني لأول مرة:

- كان يا ما كان، طفل همّه الأوح الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوح الآخر ألا يكتشف شيئا تبقى الأسرار أسراراً.

- أخيرا ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أقطع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاق التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقاً استأهل كل هنا البحث لكن ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟ والأن كفى تهريا من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعزل عليكما بخصوص الشهادة... وأريد تسبقه.

يمدّ الدليل يده للبتشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السانحين في أدغال هذه المحمية الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تغلّد الشكر المبلغ فيه.

تطبع تقيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبيلة، اعبري كل فضاءات العالم. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركنتني وباركت في نرتيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنقلي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلفين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبّوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحواء وقد قبلا لنا بأنبل المهام.

تهمس تفاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهرتي:

- "يا"، إذا كان المولود بنتا سألسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

نعم الحرية مع المسؤولية أئمن هدايا تجربة الوجود، مرحبا بحرة في عالم الرفع والانبهار ولتتحمل مسؤوليتها هي أيضا في إخراجها من كل هذا الوهل الذي يتخط فيه.

أي طريق أطول للعودة إلى البيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟

لست في عجلة للرجوع و "ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها وكل جسدها خريطة أمراض.

مسكين هذا الجسد الذي كنت أولع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم.. هذا الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتني أستلّ منها ألقى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنان صبغها التبخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض بلحنا عن بداية سرطان.

أنا الآخر لست بأحسن حال وقد وصلت إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنت أسنقرّ به طلبتي: "وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير". إنه العمر الذي تكفّت فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت. كأنّ هذه الحياة إبحار على محيط تُسلمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجساننا كقوارب كسّر الدهر صواربيها وتدافع الماء من ثوب حفرنا الكثير منها بأظفرنا.

إنها مشارف نهاية الرحلة ... المرحلة الصعبة بامتياز... المرحلة الصعبة! ... هل كانت الطفولة مرحلة سهلة، هل كانت المراهقة مرحلة سهلة، هل كانت الكهولة مرحلة سهلة؟! ... ثم بيبي وبينك، ما الذي كنت ستشعر به أمام عالم يعاملك كطفل مريض مثل لا يجنك أهلا لرفع تحدياته ؟!

فجأة أجد نفسي أتمم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

“المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل”

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طوييييييل. ومع هذا ...

لا تتضح حقيقة المشاعر إلا والحبيب فُقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.
آخر فرصة لأستجمع شجاعتي المزعومة. سأخذ "ح" بين ذراعي أضرم حطام جسد إلى
حطام جسد لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطوع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها
ولنفسى عن حياء غبي: أحبك.

على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها الجسد الأدمي، على فراش الولادة قريبا
نسخة جديدة له.. كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول.. تواصل مشروع لا
فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة
التي لا يعصى لها أمر.

أخيرا البحيرة التي أتتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديان الشاهقة.
لم لا التوقف بعض الوقت والمقعد العام الذي أفضله شاعر يدعوني للتكريم بالجلوس؟
أخرج هاتفي النقال من جيبي وعذر وجوده استعماله أساسا للكتابة وسماع الموسيقى.
أين توقفت كل هذه السنين عن تأليف روايتي لقصة القصص؟

أه تنكرت. خرج دم من الجنة بمحض ارادته لمهمة بقيت غامضة طوال رحلته... أفارق
في عالم عجيب مبهر مربع.. ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلا بعد جيل
يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب... مثل وأخرج كل أدوار البنوة والأبوة والحب
والصداقة والعداوة مجريا من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدر عليه الذات الأدمية من
أحاسيس ومشاعر وأفكار وأفعال... بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من
ذاته ومن أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة.. يشده الحنين دوريا لهذا للمبهم الذي
خرج منه فيصطفي من الأرض لمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه.

ما الذي بقي لإكمال البنية؟ أهم اللينات التي كانت صعوبة صقلها سبب توقف العمل.
لا يكفي أن أقول في طرفة من الأنفة والذفاق عن كرامة الأدمية أن آدم وحواء هربا من
الجنة ولم يطردا منها. أي حجج يقبلها العقل ويرضى بها الفؤاد لا علاقة بها بمشاعر
منتمرد بالسليقة على كل أصناف سوء استخدام السلطة ولو كانت لسلطة الإلهية؟ لن
يكون الأمر سهلا إذ يجب أن أجد سببا لإدارة الظهور للجنة وسببا آخر لدخول هذا العالم
والسبيل وإن دفعا لنفس الهدف ليسا بالضرورة من نفس المنبع.

ثمة أيضا مسألة هوية آدم . من هو آدم حقا؟ توقفت في الحفر في ذاكرته عند أعرق
الطبقات التي يمكن للفكر والخيال ان يصل إليها، لكن دون البت في موضوع.

نعم، يجب استئناف العمل على الرويا من الآن حتى وإن كان أمامي بضعة سنوات قبل
أن تطالب بها حرة. من يدري، قد تجد فيها ما يعينها على مصاعب الطريق؟ لكن لم لا
يجد فيها أيضا آخرون نفس المنفعة؟ حقا هي بيتي الذي ابنه لتجد فيه الذات الراحة
والسلوى وتجدد قواها لمواصله الطريق، لكنه بيت مفتوح على الرحب والسعة لكل
الزوار والضيوف.

تدافع الأفكار ويتسارع النقر.

أنا الآن كالقنّان الذي يخطُّ بقلم الرصاص على الورق الرسوم التجريبية الأولى للوحة
المنشودة، أو كالمهندس المعماري يوضح لنفسه تعليمات إتمام المشروع الذي يرجو
عبره البقاء في ذاكرة الأجيال.

"بنيثُ على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيثُ على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على نخان المدفئة

سُئني."

**

**[سرديّة الفرار من الجنة حجر الزاوية في الرواية ... تفحص
الحجج المنطقيّة التي تدعمها وتبعات التخلي عن أمل روجت
له أكثر الأساطير انتشارا]**

في فيلم "زاردوز" -وُصِّفَ من من أفلام الخيال العلمي - يذهب المخرج جون بورمان إلى أبعد من سرديتي فآدم وحواء لا يكتفيان بإبادة الظهر للجنة وإنما يغدرانها بعد إخراجها نهائيا من الخيمة.

السيناريو .

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوفّر كلّ المطلوب من الملذات الحسية وغير الحسية إضافة للخلود... طبعا ليس للجميع وإنما لأقلية محظوظة تحصّنت وراء أسوار شاهقة والنعيم الأبدى الذي بداخلها وقفت عليها وحدها. أما قدر الأدميين خارج هذه الأسوار فكان صراع البقاء في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى إلى جحيم على الأرض.

لا شيء كان يثير حفيظة هؤلاء المهمشين قدر استعصاء المحمية المتكبرة عليهم رغم تعدّد محاولات غزوها قرونا بعد قرون.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصنفة -أو هكذا حُيِّل إليه مَنفذا للقلعة المحاصرة، فيدخلها هو ومحاربوه على قناعة مطلقة أن ساعة الثأر قد حانت.

لكن أين الجنود المدججين بالسلاح لقتالهم والانتصار عليهم؟

المشهد الأول

بدل أشرس المحاربين، يشاهد الصياد الهمجي عجوزا يتقدم نحوه باسم ممدود البدين. شيخ! ألا تؤكد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبدا!

يصرخ في العجوز:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُنذّب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه بطلنا رثة الحزن في كلام الشيخ. يجب أن يُحذّر هذا الكائن المقرّر على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعة استعصت على أشجع وأنكى الأجداد.

لا حاجة لتهديد فالرجل وقد أصبح بجواره يكاد يحضنه لا يريد إلا افراغ ما في صدره. قال الشيخ: اسمع مئي القصة الحزينة أيها المنفذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري إذ لم يعد للزمان في هذا المكان أي وجود. كنا نشعر أن الجشع والغياء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما جُلبناها المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيلونها في السماء بعد الموت... ذلك المكان الذي كان يسمونه الجنة.

دقيقة صمت، تنهد، ثم استئناف القصة:

- وضعتنا كل التعليمات لإدارة شؤون المحمية في الزمردة السوداء. هي التي تسيّر وتتحكم في كل شاردة وواردة. هي حارسة خلوننا. لا قدرة لشيء أو أحد على التصدي للتعليمات المضمنة فيها ومنها أن يعاقب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت كل من يخرج عليها أو يهددها. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أفضع ميتة.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصيد الهمجي محادثاً نفسه:

إذن الزمردة مقتلهم! لحظة أدمرها سيتهوى الجدار الشفّاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث ياربة القبيلة. كأنّ الربة المعنّية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه - هكذا دائما بمجرد الصنفة-فناة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بأروع المجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ! لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا ربة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوت الساحر: تعال فرغ الصبر من طول انتظارك كل هذه القرون. اتبعني، سأكون دليلك في هذه الدهاليز. استعدّ. ستعترضنا صعوبت هائلة. لكنني واثقة أنك ستنتج. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا.

تنطلق الفناة تقود المحارب الهمجي في الدهاليز الغريبة ووراءها نكور وإنث يرفلون في الحلي والطل، لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توجسا قلعا.

فجأة أحسن زاردوز بالأم لا يطاق ينهش لحمه. إنها بداية المعركة، لكن أي معركة؟ من أين له أن يقاتل بلسيف والنصل عنوا يواجهه من خلف ألف ستار بأسلحة لا يتصوّر ها عظه.

- قولي لي على الأقل من أحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاح هو ومرافقه أكثر من مرّة. وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدة آلام فظيعة لم يجزّ بها من قبل. كانت تضمّه إلى صدرها تُعطيّه بشعرها، تواسيه وتداعيه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. سنصل وننجح وأنداك أصبح لك زوجة.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبّعهما من بعيد ثم تنفّرج أساريرها: من هنا، قربنا من معقل الزمردة.

حتى في الجنة مؤامرت ومآسرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يملكون حين تختلط عليها الطرق؟

وعند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشقى من عدوٍ ستنتقم منه ألدَّ انتقام.
قالت له بعد أن قطعاً شوطاً طويلاً: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعلك في شيء. هناك خرم
الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحداً واحداً ممنوعون من دخوله. انخل وحكك فهي لا
تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق برحلتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي
مأسأتنا.

الزمردة السوداء في قبضته أخيراً.

علم الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه السلطة
لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من
الحيوانات... وم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء ال....

يطبق براحته على الزمردة السوداء فتتطفئ كل الأنوار. تنهاوى الأسوار ليقتمح مجرى
الزمن المحمية كما يقتمح الماء مجرى النهر بعد انهيار السد.

المشهد الرئيسي

فجأة يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يشده منظر الخالدين وهم يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا!
اقتلني أنا الأول!

إنه تعجب من يرى غزالاً يركض صوب الأسد أو خملاً يرتمي في أحضان الذئب.

الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد!
الغانيات يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف
يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب
ضحك سمعه آدمي يوماً!

يتقدم الشيخ للمحارب الهمجي الذاهل لمام أغرب لوحة حية يمكن مشاهدتها.

- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- سنتكلم قبل ذلك. من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سر كل هذا؟

- هذا أقل ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سادين لك بعد لحظات بلراحة الأبدية.

اسمع مني أغرب قصص الأسمية المجنونة.

كانت المحمية التي سميناها تهكماً لجنة مكرّر مكاناً مؤثراً في البداية. عرفنا من كل
أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضاً لذة العقل والروح. شبعنا جنساً وعلماً وصلاة

ثم أصابنا الشبع... فالتخمة... فالعرف... ولا شيء أملنا غير تكرار التكرار إلى ما لا نهاية... هذه الجنة لم تكن إلا الشكل المنمق أو الاسم الآخر للعلم.
كنت أول من قل يجب إنهاء هذه الموقفة. كدنيا أذانبهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا اسمع الموسيقى أكثر وتعبد أكثر وتمتع بكل ما قبل من شعر. لكن أي حاجة في مكان كالجنة للشعر وقد انطفأت كل الآلام والأمال والمشرايع التي كانت دوما وراء خلقه والتمتع به. قالوا تأمل أكثر، تعبد أكثر وتلاشى في الحب. فعلت كل ذلك، لكن الممل الذي تسلل إلى روعي في البداية ببطء شديد تغافم إلى درجة لا تطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بنهول محاولين التغلب على بِلادة متزايدة العمق وأنا لا أكفت عن الصراخ في أذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أقطع عقاب لرفضا أولي قوانين العالم السوي؟

عن أي قوانين يتحدث هذا المنتبه؟... طبعاً عن قانون لا وتسو الذي يقضي أنه لا وجود لشيء إلا بوجود النقيض... ما الجمال إن لم يصدمننا الفبح، ما الفرح إن لم نجرب الحزن يوماً، ما الخير في غياب الشر، هل يمكن تصور الذكر دون وجود الأنثى؟ ... كيف لا تنتفي السعادة في جنة المحكوم عليهم بالخلود وقد فقنت أول شرط لوجودها أي وجود لشقاء؟... أضف القانون الثاني الذي سنه هيراقليطس: لا ثبات على شكل أو حالة لشيء أو أحد إذ لا مجال لإيقاف سيل الزمان... ليس الخلود في الجنة بالثبات على متعة أزلية إيقاف لسيل الزمان؟... يرتكب الفكر نفس الخطأ في صياغة مفهوم جهنم وهو يلغى فيه أيضاً وجود النقيض ويثبت الزمان في وضع لا يتغير أبداً... لا شيء يمكنه للتطع للقوانين السرمدية التي تسيّر الموجود ولا بدّ لنهر الأمازون من مواصلة تدفقه وضعت أمامه كومة من القش لم تم تضع.

يمسح الشيخ دمعة حارقة ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأنميين مذ وجدوا. حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوباً في قوانيننا وكنت أول مذب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روعي فترة، لكن الألم المؤبد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا يحتمل.

تدرجياً نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوماً أننا أصبحنا سجناء زنزانية لن يحررنا منها إلا رجوع الموت. كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعلّمت التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

بصفتي أول متمرّد عهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاة منقذ لا تعرفه الزمردة السوداء وبالضرورة من خارج المحمية. كنت قبل هذا القرار نزعاًم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كنت نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظم السيلسي أو ذاك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نفيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحت أملنا الوحيد. قلت يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاة أكثرهم جرأة ونكاه وحقدا وتصميماً على تدميرنا ثم نخله القطعة

وندله على مَكمن الداء. كنتَ يا زاردوز آخر حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. بوركت، بوركت أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُعلمر صنديد.

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دام كم من أبدية:

والآن اغمس نصلك في صدري، عاد الموت حقا بعد أن كان دوما الواجب. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو يتفجر أخيرا خرا طليقا من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنا لزجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملا نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة. قالت مقاطعة الشيخ وهي تنظر إليه برقة ويدها على ذراع المنقذ: أنا التي قُدته داخل الهيكل. نصله لي قبل أي آدمي في هذه المحمية اللعينة.

يتجاهل زاردوز الطلب واهتملمه منصّب على الشيخ يغرس سيفه في صدره والرجلان الصامتان يتبادلان الابتسام.

نقطة نظلم. ليسمح لي هنا بالتعبير عن امتعاضي من خاتمة السيناريو. أولا كرجل محب للسلام لا أجد كثيرا أن تنتهي القصة بحفلة دموية كهذه. وأيضا كنت أمل-كصاحب نوق رفيع وبكل التواضع الذي أختته عن "با" -أن يعالج ملف بخطورة ملف الجنة بتفضيل همس على الضجيج والبسطة على التعقيد وغير المكلف (من الممثلين والأزياء المضحكة وعصير الطماطم) على المكلف من كل هذا. الأهم من هذا كله أن أسطورة الجنة من أقدم تراثنا الفكري والعقلاء لا يرمون في المزبلة أقدم الأثر وإنما يضعونها في أرقى المتاحف يحرصون عليها أشد الحرص لتبقى علامة مضيئة على الطريق الصعب الطويل الذي استكشفه العقل الجماعي.

لكل هذه الأسباب متفرقة ومجمعة أستسمح السيد بورمان إعادة كتابة المشهد الأخير كالتالي:

قل الشيخ: بصفتي أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حل. كنت قد اصبت بالإحباط من تعدد المحاولات المتعددة الفاشلة لخلق قائد من بقايا أنمية تعيسة انتهت في كل الأحوال بالانقراض. قلت في نفسي لم يبق لي إلا أن أجد المنقذ داخلنا. لا أدري متى سمعت صدى صوت بداخلي يهمس وهو كذلك. ثم اعترضتني يا آدم بعد حادثه التفاحة وأجزم أن ذلك لم يكن صدفة. عرفت من أول وهلة وأنا أستمع لكلامك وأنظر في عينيك أنك لست من نوع الذي يترك لها أو تعبنا يقرر له ما يأكل وما لا يأكل وأنك لا تختلف في تقييمك للورطة التي نتخبط فيها عن تقييمي. كنت أرى في نظراتك قرار الفرار قبل أن يجعلوا منك العجوز الأبدى الثاني. قلت لا بدّ أن الصدى سيسهل هربك، لكن كان من الضروري أجد أنثى تجمع الجراة والحيلة لتخرج معك لولاة بشرية لا ترتكب الحماقات التي ارتكبتها البشرية المنقرضة ومنها الحلم بهذه الجنة الفظيعة وتحقيقتها.

أه كم كنت أودّ وقد أكملت مهمتي المتمتع براحة الموت. لكن الصدى كان واضحا: لا بدّ أن تصحب آدم وحواء إذ من أين للقصة أن تكون فيها أي اثارة بدونك يا إبليس.

بريك أليست هذه الصيغة أكثر اناقة وأقل تكلفة من سيناريو صاحب مكلف وينتهي بمذبحة؟

يبقى أن المهم ليس هذا وإنما اتفاق السرديتين أن آدم وحواء لم يطردا من الجنة، وإنما خرجا منها طوعا.

نغلق هذا القوس لنعود لسباق القصة:

وبعد استماعه لاعتراف ابليس وأنه ضلع في المؤامرة ولا مناص للتخلص منه، التفت آدم إلى حواء ليأخذ بيدها وتخطي العتبة التي تفصل بين جنة بصدق التلاشي وعالم مبهم ما زال غارقا في الضباب.

تحك حواء رأسها داهمها تركد مفاجئ. نعم كان من الضروري تدمير المسخ الذي تورطت فيه لا تدري كم من أبدية لكن ما هذا العالم الجديد الذي يجب النزول إليه؟ هل شعرت بلن ذريتها لن تحلم بشيء قدر حلمها بالعيش في هذا الذي تترك ورائها بلا حسرة أو ندم وكره أولادها وبناتها الموت لا يقل عن كرها للخلود؟

[ما جدوى محاولة الرؤيا إصليّة الأدمي بالرعب من الخلود الذي يداويه بالجري وراء الموت إن لم تخلصه من رعب الموت الذي يداويه بالجري وراء هذا الخلود؟]

في أشهر أعمال المسرحي يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر ألقاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني"

لا أحد قادر على الرد رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمسك بأظافرك بهذه الحياة إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خط الحدود. تنكّر أنك ستتخلص من هموم الدنيا."

ها هو يناجي نفسه وهو يجاهد للبقاء واعيا: هموم الدنيا! لا أحب لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! لا أحلى من تناليلها. علي أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلدني به العالم لأتسلق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغيبية؟ علي أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كئيب الرمل! أه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تملّكها الأتي تملّك سايب وفارقتها الماضي فرائق سليلب (المتنبى)

ما الفائدة من تخلص الأدمي من رعب الخلود إن لم نخلصه من رعب الموت الذي يجيب له هذا الخلود؟

ثم من أين لهذا الأدمي المسكين أن يرحل مطمئنا وقد سكن طول حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة.

جعلت هذه الأساطير من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي غشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية.

لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقرر قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا
وجدت قرار إعدامي
ولم أرَ باب محكمتي
ولم أرَ وجه حكلي"

(نزار القباني)

لنجرب للتصدي المباشر لمثل هذه التصورات، مثلا بإقناع الأدمي أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الخيال فترعرعت لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنرد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائننا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل يصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا، "يقطف" به أرواحنا.

أضف مواصلا حجج المنطق أن فكرة الموت تلعب عند المتبهيين الدور الذي يلعبه صوت لسوط في هرولة دابة كسولة إذ لم يهاجمني التبلد يوما إلا وسارعت إلى استحضارها، فيعود لكل قضية حجمها.

كأنني أصرخ في أذني أطرش قزّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع ولسان الحال يقول: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا".

لنجرب التوجه إلى عقل هذا الكائن الخائف من قرب فنائه. لنقول له: حبر على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجددة. لن نتقذى كتابة كلمة م.ح.د.و.د...مما يعني أن الموت ليس حلة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة.

كيف يكون جزء من طبيعة الشيء عدوا أو نقيضه وهو لا يكون إلا به؟

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحذب لحدبته! طبعاً للعقل الحق في رفض فكرة مكن لإشباع كل لشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان. طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبداً مناقضة لأهم خصائص هذا العلم أي التغيير المستمر وعدم الثبات على حال.

لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقّه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع تُدفع إليها دفعا؟

أي شيء جعل إذن آدم وحواء يقبلان بدخول عالم فيه الموت ولعن ما فيه حجم الألام التي تمهد له وتصحبه إلى آخر نفس؟

[التّعني بشجاعة قرار النزول وقبول الألفية بالثمن الباهظ للمهمة المقدسة التي قبلت بها]

ليسمح لي هنا بلفت انتباه القارئ لكون آدم وحواء اتخذوا قرارا غير ديمقراطي عندما عزموا على الفرار من الجنة.

ألم يكن خريا بهما أن يواجهوا المرتطلين عبر الأجيال بما ينتظرهم: أنت، نعم أنت، هل تقبل بقضاء جل أعوام الرحلة في منجم ملح أو في معمل رخام أوفي حقل أرز أو في حقل قطن أو على الرصيف بقرب محطات القطر لتعتصب ويمرر إليك فيروس قاتل؟ وأنت هل تقبل قضاء جل عمرك في مخيم لاجئين؟ وأنت العبي الأخر، أترضى برحلة تنتهي وضع سطرأ أحمر تحت الخبارجريا في سلحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالتمخمة، بالجوع، في سربك عالما في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟... وأنت الذي يحاول الاختفاء وراء الظهور؟! لا فائدة من المحاولة، اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المتر وبعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطر في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخطّ "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعتمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشائمون والجميع -ومنهم كاتب هذه السطور- يستمطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين. أه نسييت أن أقول إن عمالا في قمة التقرّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعاد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيعطى أسبوع إجازة وسُجّل على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسوّاق المسكين ضحايا أمثالك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قبيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك وأنت كالدابة تجرّ الحجر والملح والرخام، السوط بكوي ظهرك، الجوع يمزّق أمعائك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعصن... وكل ما تصلي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة، أه لو نبه آدم هابيل أن بإمكانية طاوله القمار أن تسحب له حياة المشرّد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلد، الجع، المريض، المجنون، المشوّه، المعاق، الثائر الفاشل.

تصوروا لو طرح آدم وحواء على ذريتهما في إطل استفتاء نزيه وشفاف خيار الخروج من العالم لدخول العالم ما من شك لدي أن خيار لا ثم لا ثم لا كان سيحصل على نسبة الانتخاب العربية و بدون أدنى عث.

كيف لا نتفهم مثل هذه النتيجة؟ أي مؤرخ موسوعي قادر على جرد كل ما تكلفته رحلة البشر من دماء، من دموع ومن عرق على امتداد مئات آلاف السنين؟ داخل ملفات انطلاق الرحلة ذكريات بالغة الوضوح عن طول انتظار في أروقة مستشفى ومخاوف مبهمة ونفاد صبر وصرخات صلمتة تنوي داخل الذات : هيا يا بنت لخرجي من هذا الرحم، يكفي من الدلال واللعب بأعصلي.

هل رأي القادم الجديد نفسه تائها في فضاء أخرق الاتساع، يرعبه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين؟ هل رأي نفسه جالسا القرفصاء يبكي حبيبا خائنه قواه مجبرا على تركه حيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا ... لآلاف السنين طريفة تركض خائفة هربا من صياد جائع ... صيادا جائعا يجري وراء طريفة خائفة؟

هل رأي نفسه طفلا يتما سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعصى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسول المنظم... طفلا قربانا يساق عبر مسارب جبل مرعبة، خراسه يهزجون بكلام غير مفهوم وعذ قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربنا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... طفلة مكروهة قال والداها أمام الشرطة لتبرير موتها-إنها سقطت من السلم وكلّ الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر ضرب مبرح؟

هل رأي نفسه لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أشع...جنديا سيقتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار...عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة تنتنة... مجذوما يساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم... مهووسا ماشيا بين تلال الجثث وراء قافلة من المهوسين بضربون صدورهم، أفقدهم حجم كارثة الطاعون كلّ صواب... بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفا من أن يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الطعام والماء ... جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية أخرى وأطفال جياح يقشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما ..مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يقبر بطنه مقتنسا عن بطيخه وسط أمعائه الدامية؟

هل رأي نفسه جارية تذبح في ليلة ليلاء مع مئات الجوارى لأن إمبراطورا مجنونا صدق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين... قهرمانه سجينة إلى آخر العمر في حريم بشرية تطلّ كل صباح على شواطئ محرمة عليها إلى الأبد.....فتاة توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا تطول رقة

الإعدام ... عجوزا تتسول قطعة خبز على باب ككنة والجنود يطردونها لا يعملون أنها كانت في شبابها بانعة هوى مر على جسدها كل ما في الككنة من نكور لنام؟ هل رأى نفسه يوم جُدع أنفه ليجمعه حاكمٌ مجنون عبيرة لمن يعصي له أبسط أمر... يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تخبطه... يوم جُر إلى أعماق الأرض ورثناه تحترقان ليستخرج لهم معدنهم الثمينة وكأنه ليس هو أئمن معدن.. يوم دُفع لمواجهة الكواسر يضحك علياء القوم من رعبه وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين.. يوم فُطعت يده بلسكين بحجة أنه سارق سارقي قوت أطفاله... يوم أوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا من الرعب أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة... يوم عذبه رهباُن مجانيين يتهمونه بالتمسّر على دينه الممنوع.. يوم كُأسوا الحطب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخفقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظن أنه عرف كل الممكن من العذاب؟

هل رأى نفسه شاعرا صوفيا معلقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون... قبلة كل الأنظار والحشود تشبث بجلبابه قبل تعليقه على خشبة وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه... شحذا على باب أم معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء؟ هل رأى نفسه تائها في تصورات تحسب على المرض العقلي إن جاهر بها فرد وتحسب دينيا وفلسفة إن جاهر ت بها الجماهير؟

هل رأى نفسه صيدا للجرائيم ابان الحياة وعند الموت وليمة للود؟ كاتي بكل امرأة حيلي في هذا العالم تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحسانها فجأة يتوقّف نهائيا.

**[لم يعد هناك مجال لمزيد من المناورة ... عتي الآن كشف
أهم لبنات الرويا ومواجهة الجمهور المتعطش لمعرفة
طبيعة المهمة المقدسة التي استأهلت الكم الهائل من
تضحيات الأجيال المتتابعة من الأدمين...]**

في روايتي لقصة القصص يهمس الصدى لنفسه وهو أملم مشهد المحرم وقد داهمه خوف مفاجئ مما ينتظره على طريق الحج الكبير:

لأفاجئ هذا المتردد عما ينتظره في رحلته ... لأعرض على انتباهه صور البحار والبراري والجبل والصحراء ليلا ... والآن إلى النقر على وتر اللد الأحاسيس : طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبللة بالمطر والعنب .. خفيف الأشجار ، خرير الماء، همس التسييم، صفير الريح، زقزقة العصفور، نغاء الماعز...

كل هذا بداية بلا تأثير على منسوب التردد. مؤكداً أن المحرم جَرَب مثل هذه الأحاسيس والمشاعر وأحسن منها في الجنة. يواصل الصدى لعب بقية أوراقه.

لأدفع بصورة طفل يُضحك كلَّ من حوله، يبشئ راقصاً أو يرقص مشياً بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال... أو هو مسافر في الرابعة من العمر أتفه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرًا أشجار نخيل خصَّبت هلماتها حمرة الشفق... والألوان لأحرك فيه مشاعر الأب العطوف، الأم الحنون، الصديق الوفي، الحبيب المحب، الإنسان المصحح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كبيرة، الرقيق بأضعف الكائنات، مشدِّد معابد الخير والحق والجمال...

دوماً نفس التردد. مؤكداً أن المحرم المتزايد تردداً يسمع أيضاً الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتغذية ومن ساحات الحروب... أن قلبه ينظر وهو يسمع بكاء ضحايا الاغتصاب نساء ورجالاً وأطفالاً...

لم يبق في جعبة الصدى إلا ورقة واحدة: الموسيقى. أي كائن حي غير الأدمي يثري العالم بشيء مثل الموسيقى؟ لا تقل لي أنه كان يوسعه تذوق كل أصنافها في الجنة فلموسيقى لا تتبعث إلا من أعماق الآلام والأمل وهي محرمة و بلا معنى في الجنة. يقرر الصدى: لثأهم وعي هذا الرأس الناشئ قوالي الصوفيين ومووائل العرب وأنغام الأفارقة والآسيويين والأوروبيين وشعوب الأمريكتين وكل جزر العالم ولينتهي الاستعراض بالفلسات شتراوس خاصة تلك التي عنوانها الدانوب الأزرق الجميل. تعود الطمأنينة لكل أدمية جيلي وهي تكاد تقسم أن الجنين الذي بأحشائها عاد للحياة وأنه... يرقص.

أه ارتفعت أصوات الاحتجاج كما كنت أخشى.

ثمة من يصرخ: يا رجل تدعي النزاهة، لكنك تغتتم كونك صاحب النص لفرض ذوقك وخياراتك على البشرية جمعاء. كل مصائب الوجود للتمتع بخلق وسماح الموسيقى التي يحرمها الدين!

كأنني أسمع فن فوق يصرخ هو الآخر من قبر: أدين بشدة هذا الخيار للمهمة المقدسة أما بخصوصي أنا فقد جنت هذا العالم لمهمة واحدة: الرسم؟

إنها فرصة لكل من لم تعجبهم هذه "التخریجة" للتعبير عن بالغ الاحتجاج بكل الطرق المهذبة وغير المهذبة ومنهم من يضحك علي الجميع وهو يصرخ أما أنا فلم أتني هذا العالم إلا لجمع طوايع اليريد.

[نعم، نعم، قلنا نعم... للنية سيئة الصميم بل وتفصح
تخبوية مقبلة... أضف إلى ذلك أنها تتناقض مع محاولة
الرؤيا جعل كل النوات تؤدي المهمة المقدسة خارج وفوق]

**تثنيات الجمال والقيح، الخير والشر، النجاح والفشل، القيم
والذي لا قيمة له... يجب إعادة صياغة هذه اللبنة
المركزية... لكن كيف؟ [**

لتفكر بهدوء. سواء كان الصدى قد أَسْرَ في عمق اللاوعي لأدم بالمهمة التي يأمره بالخروج من الجنة لتنفيذها، أو سواء كان القرار لأدم وحده فلا بد لهذه المهمة أن تكون تنفيذاً لأمر ولا بد أن يكون هذا الأمر فعلاً تنجر عنه سلسلة الأفعال القادرة على تحقيق المهمة المقدسة. إنه الفعل الجذر الذي يبحث عنه النص من البداية وقد رأينا عبث الخلط بينه وبين أفعال ثانوية مثل خلق الموسيقى أو رسم العالم أو جمع طوابع البريد وهذا الخلط هو الذي قاندا إلى أطروحات تجمع الخطأ والخطيئة مثل القول إننا جننا هذا العالم لنكفر عن ذنوب ارتكابها في حياة سابقة أو أنه لا يوجد أي سبب لوجودنا فيه.

لكن كيف نبلور هذا الفعل الأساس من بين رزمة الأفعال الثنوية وهي بعشرات الآلاف؟ للتفريق يجب أن تكون لنا مقاييس صارمة تمكننا من فرز جدي.

من أهم هذه المقاييس أنه يجب أن تنفّرع عن الفعل الأول كل الأفعال التي يأتيها الأدمي مثل رأى وسمى فكر وتخيل وهندس وعمل وبنى ودمر وأعاد البناء بالحرب وبلقن.

يجب أن يكون هذا الفعل الأول مانعاً لظهورها جميعاً في حال غيابه.

خاصةً، يجب أن يكون متقدماً عليها جميعاً تقدم البذرة على الجذور والجذع والأغصان وكل ما تحمل من أوراق.

لتحديده بلكثر دقة يجب العودة لأولى أفعال الذات عند الإفاقة.

إنها التي تأتيها الحواس الأدمية الخمس عندما تبلور من مبهم أصلي أحسيس البرد والحرّ، الجوع والشبع، صوت الأم، رائحتها، طعم الحليب الساخن... كل الأحاسيس والمشاعر التي ستتضح أكثر فأكثر لتصل ذروة الوعي عند الشاعر وذاته تسيح بجمال الصحاري وجمال الجبل وخرير السواقي وهدير البحر وما يتضوع من طيب الأزارهار والأرض بثلّها المطر.

تأتي في مرحلة ثانية قائمة أفعال الذات وهي تسمي وتصنّف وتضفي المعنى والوظائف على ما ترصده الحواس الخمس من مظاهر وتجارب حسية.

كل هذه المواد الخام للأفعال التي ستسمي وتبلور المفاهيم فالتصورات فالأساطير فالديانت فالعلوم بمختلف أنواعها.

أضف الآن أفعال السواعد وهي تبني من أولى الأهرامات البدائية إلى المحطة الدولية الفضائية مروراً بكل كدس المهندسون على مر العصور من إنجازات ترسم ملامح العالم الذي راكمته أعمال الأجيال.

بحكم هذه المراكمة الخاصة الأساسية لهذا العالم أنه ورشة لا تغلق أبوابها أبداً.

والآن ما الخاصية الأساسية لهذا العالم الذي تبلوره حواسنا الأدمية وتتفاعل معه بجسدنا ونعطيهِ المعنى يفكرنا وخيالنا ونصنعه بسواعنا ولا ننفك عن إعدادة تشكيله بالحرب في فضاء الحواس وبالفن في فضاء الفكر والخيال؟
إنه عالم من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من العوالم، لكنه عالم خاص بالأدمي وإن تجلور وتقاطع مع عالم النحلة والنحلة...عالم
ما كان له أن يوجد لولا آدم الذي أوجده.
أوجد؟!!

هل يكون هذا الفعل هو لبّ المهمة التي خرج آدم وحواء من أجلها؟
مبدئياً يمكن القول إن فعل أوجد يستوفي الشروط التي وضعناها للتعرف على الفعل الأسلس أو الفعل الأول أو فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص منذ بداية التدوين.
لنتعمق فيه أكثر، لعلنا نقرب أكثر من النواة الصلبة للمهمة التي بدلت تتضح بعض معالمها.

ما الذي تقوله للغة عن هذا الفعل الواعد بإنهاء حيرتنا الأزلية؟
يقال أُوْجِدُ فلاناً أي أغناه...ويقال أُوْجِدُ فلاناً بَعْدَ ضعف أي قواه...ويقال أُوْجِدُ على الأمر أي أكرهه وألجأه...ويقال أُوْجِدُ الشيء أي جعله يَجِدُه وَيُظْفِرُ به...ويقال أُوْجِدُ مطلوبه أي أظفره به...ويقال أُوْجِدُ على المعصية أي أكرهه عليها... ويقال أُوْجِدُ الله الشيء أي أنشأه من غير سبق مثال.

لمزيد من التدقيق ما الأفعال المرادفة لفعل أوجد؟
بسؤال المعاجم اللغوية نجد: أَيْدَعُ، أَيْزَأُ، أَخَذْتُ، أَفْضَيْتُ إِلَى، أَنْتَجِ، اخْتَرَعَ الخَلْقُ، اسْتَخَذْتُ، اسْتَنْبَطْتُ، اِخْتَشَفْتُ، اخْتَرَعَ، خَلَقَ، سَبَّبَ، سَوَّى، صَوَّرَ، كَوَّنَ، وَأَلَدَ.
أي فعل داخل هذه القائمة يستوعب أهم معاني أوجد ويختزل كل ما في المرادفات من تفاصيل ثانوية: طبعاً فعل خلق.

ما الغاية أن يغامر آدم بالخروج من راحة العدم وأن يقبل بكل التضحيات والمهمة خلق عالم لم يوجد قبله ولن يوجد بعده؟

يطرح هذا التصور على هندسة الرويا تحدّ شبيهه بالذي يتعرض له مهندس في الفضاء الحسي مطالب باعتماد لبنة جافة وسائلة في نفس الوقت.

عندما نقول عن الأدمي أنه يوجد علماً مصنوع من حواسه وخياله وأفكره (منها وجود قوى غيبية لها أسماء وصفات كثيرة خلقت هذا العالم) فالاستنتاج أن الأدمي خالق؟
لكن من أين للأدمي إبداع العلم إن لم يوجد هو؟ يتطلب المنطق وجود موجود متقدم عليه-سمّه ما شئت- هو الذي أوجده ليوحد عالمه هذا. الاستنتاج إذن أن الأدمي مخلوق.
أوجب أن نعرّف الأدمي بمفارقة أخرى تضاف لكل ما عرفنا له من مفارقات...أم هل هذه فرصتنا الذهبية للتخلص من الثنائية التي كبّلت الفكر البشري كما لم تكبله ثنائية أخرى؟

**[هوية الأدمية بيت القصيد في كل
الرؤى...للهندسة بمنتهى الحذر نظرا لحساسية
الادميين المفرطة تجاه هذا الموضوع أيا كان
مستوى طرحه]**

عودة لمنهجية إعادة استعمال أسلطينا، في قضية الحال هذه الأسطورة الإغريقية.
يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أفتحة كل الأدوار
التي أخرج ومثل.

ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.
تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت...فتأثا، فربعا، فخامسا، فسادسا، ف.
تتراكم عند قدميك الأفتحة والوجه المخفي للذات الأخرى يتباعد تباعد الأفق عن
الراكض.

أخر قناع بقي على الوجه.
ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.
تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف... وجهك أنت.
لأنتيت من الأمر.

ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأفتحة التي يخفون وراءها ...
لاكتشف كل مرة وجهي.
ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون
دوما... وجههم لا غير.

لأجلهم يقضون على بعضهم البعض. النتيجة دوما نفسها.
هذا التصور للأسطورة الإغريقية حول هويتنا من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة
وفي كل العصور.

أجمل إخراج له الذي تجده عند المتصوفين وكبار الشعراء.

"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا قشعبيا"

إنه حدس موغل في القدم ثبت العلم صدقه. فالأدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة"
تحتمل ألف صفحة من كتاب يسمى برنامج المورثات.

الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتمل أكثر من صفحة بتيمة، أما ال
999 صفحة البقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.

طبعا هذه الفوارق البسيطة ليست علامات للتمييز كما يعتقد الأغبياء وإنما علامات
للتمييز حتى لا تكون نسخ طبق الأصل لنموذج يتيم وحتى يكون لنا دوما مجال للتصرف
الحز.

انتبه هنا للتغيير الجذري-أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبستمولوجية" مع تصورات الروى غير المتقنة للذات.

جعلت هذه التصورات من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت.

في التصور العلمي الجديد بالتركيز على تشابه ال 999 صفحة بدلا من تضخيم الاختلافات التي لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، يجب أن ترى نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأثيق.. في كل آدمي مهما تباعد شكله ومظهره عنك.

أنا، أنت، هو، هي، نحن... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة.. ياله من تحول جذري حتى بالنسبة لكل العقائد التي تدعو لاعتبار الآخر في أحسن الأحوال.. أها!

يبقى أن القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق.

ماذا لو كان كل هذا الوجه هو نفسه قناع؟ يصبح السؤال على من أو ماذا هو موضوع؟ يجب مواصلة جذب خيط كبة الغزل.

الدرة الثانية التي ساستعملها بكل حرية لتشكيل هوية آدم هي أسطورة فيشنو-الاله الثالث للديانة الهندوسية.

تقول الأسطورة أن هذا الاله قُبل بالنزول إلى عالمنا الحسي متجسدا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... وهو مبرمج لتجسد عاشر عند نهاية العالم.

المفهوم المركزي في هذه الأسطورة هو الذي يشار إليه بكلمة الأفاتار **अवतार**.

تُحيل الكلمة في اللغة السنسكريتية أولا إلى عملية تجسد الخالق في المخلوق وثانيا إلى ما تتكلفه العملية من صعوبة ووجع لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، للأ محدود في المحدود، الأزلي في الفاني... مثلما ليس من السهل بالنسبة إلى المخلوق وهو النقص أن يحتوي الكامل، وهو المحدود أن يحتوي اللامحدود وهو الفاني أن يحتوي الأزلي.

لتوقف عند أهم الاستنتاجات التي يفرضها التصور: كل الكائنات التي يتجسد فيها فيشنو أقارب تتقاسم نفس الهوية كما يتقاسم الأطفال نفس الهوية وهم أطفال نفس الأب والأم... كل الكائنات التي يتجسد فيها ويتجسد فيها فيشنو متساوية القداسة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى الالهي.

إن لم يكن الرجل أمام محطة يومياتي يستهزئ بي وهو بضّم راحتيه يسلم عليّ كأنه يصليّ أمامي. هل كان يعرف ما كنتُ أجهله أو كان يتذكّر ما أتأساه باستمرار؟

لتواصل اعتصار كل ما يمكن اعتصاره من هذا المفهوم. إذا كان الأدمي أفكار من بين أفكار لـ فيشنو، فهل من الممكن أن يكون فيشنو هو نفسه أفكار لشيء آخر؟

عودة لما تعلمناه من فيلسوف اسمه دولوز Deleuze بخصوص المفاهيم وكيف أنها تجسيد لأفكار بالغة العمق والتعقيد تُختصر في رموز تُوقر على العول البسيطة مصاعب التنظير. نموذجاً عزرائيل كمفهوم مجسد للموت، إبليس كمفهوم مجسد للشّر، افرويد كمفهوم مجسد للجمل، الخ.

ما المفهوم الذي يجسده فيشنو؟

أي قوّة قادرة على أن تسكن وأن تتشكل وأن تدوم ولو لزم من محدد في كائنات جدّ متباينة شكلاً وحجماً مثل الأدمي والسّمكة والسّلحفاة والخزير البري وأن تتوزع في كل هذه الأشكال بتمامها وكمالها.

الإجابة الوحيدة: الحياة.

هي نفسها وراء غلاف كل الأجساد.

هي نفسها في الجرثومة والفيل، في الورد وفي الزيتون،

هي لا تقترّ على أحد ولا تميّزه بشيء وإن اختارت في هذا وفي ذلك تجربة هذه الاستراتيجية أو تلك.

هي لا تتوزع على كل الكائنات الحية كما تتوزع تركبة محدودة على كمّ هائل من الورثة. هي التركيبة التي يقسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فنكون ولو قسمت ملايين المرات كاملة من نصيب كل وريث.

هي مشروع متواصل حيث ستتجسد في أشكال لا قبل لنا بتصورها.

من هذا المنظور يمكننا القول بأن الأدمي شكل من الأشكال التي تتخذها الحياة لأنه يحتل جزءاً محددًا من الفضاء وله "جغرافيا" ترسمها تركيبة جسده وله حدود هي التي تفصل بينه وبين الأجساد الأخرى.

هو شكل متميز لا فقط عن الأشكال الأخرى التي تتجسد فيها الحياة مثل السّلحفاة والخزير وإنما حتى عن الأشكال المشابهة لبني جنسه وذلك عبر تفاصيل داخل التفاصيل مثل الاختلاف في اللون والقامة الخ.

هذا الشكل ليس صورة على شاشة. هو كائن في حالة معينة هي الحياة وعن هذه الحالة الأساسية تتفرع كل الحالات الثانوية أي كل الأفعال وكل التفاعلات التي يأتيها هذا الكائن طالما هو على قيد الحياة.

الخاصية الأخيرة أن هذا الكائن لا يحتل فقط جزءاً ضئيلاً من الفضاء وإنما جزءاً ضئيلاً من الزمان. إذا شبهنا هذا الزمان بحريق متواصل منذ بداية الكون فإن الكائن الحي بمثابة شرارة لا تظهر فجأة إلا لتختفي بنفس السرعة. إجمالاً يمكننا أن نعرف الألمي بأنه شكل حلة لحظة من فيشنو بلغة الأسطورة الدينية ومن الحياة بلغة الأسطورة العلمانية.

نحن الآن مثل من وصل منتصف كبة الغزل وعليه مواصلة جنب الخيط. لتتابع لعبة خلع الأقعة منطلقين من فكرة أن الحياة نفسها ظاهرة تغطي على ظاهرة أعمق.

المشكلة أنه لم يعد لنا ما نكشف والفكر في مواجهة المجهول المطلق.

"الاسم الذي نستطيع نطقه ليس الاسم الخالد (لا وتسو)

أصل السماء والأرض واللاموجود

وهذا لا اسم له"

ورغم التحذير نرى كبير فلاسفة الشعر أو كبير شعراء الفلسفة هو نفسه يصف الكلمات لتصور ما يقول إنه لا يمكن لا تسميه ولا وصفه:

"مظلم وبلا قاع

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن"

إنها حقاً لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهام وجود مسمى خارج المسي، من جهة أخرى لا بد من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا يبطل محدّد الهوية. كل ما يمكننا قوله بخصوص هذا المجهول المطلق ان اللغة عاجزة عن اعطائه اسماً لان اللغة لا تسمي الا ما نرصد بحواسنا المحدودة ويفكرنا المتحور طول الوقت... ان المخيلة لا تذهب بعيداً في تصويره وهي لا تفعل عبر الاساطير سوى اضافة صفت مضخمة لكنها صفات البشر... ان العلم يمنع من تحميله نوايا واهداف هي دوماً من نوايا واهداف البشر.

المخرَج الأمثل هو الذي وجدته الخوارزمي أي تسمية المجهول المطلق الذي لا بد من وجوده ليكون للحسب معنى وخاصة حلّ: "لشيء".

لننكر أن الحياة ذاكرة وليست فقط قوة خلاقة مبدعة... أن هذه الذاكرة لا تتواصل إلا لأنها تستند على ذاكرة كل الذرات والجزيئات المعروفة والمجهولة التي تتشكل منها الكائنات الحية والكائنات اللاحية وكل الأشكال المتواجدة على حدود الحي واللاحي. معنى هذا أن الحياة نفسها شكل من أشكال "لشيء" وحالة من حالاته ولحظة من زمانه الطويل.

إذا كانت الحياة شكل -حالة لحظة من "لشيء"؟ وإذا كان كل كائن حي شكل حالة - لحظة من الحياة، فمن حقنا أن نعتبر أن آدم شكل حالة - لحظة من "لشيء" بنفس

الطريقة التي نعتبر فيها أبعاد ورقة على أبعاد غصن فوق أعلى جذع شكل -حالة لحظة من الشجرة.

للذين يبحثون في نسب الآباء والأجداد عن أصول ارسقراطية ليفاخروا بها القاصي والداني : لا أتفه مما تفعلون لأننا كلنا نفس الشرار المتطاير من اللهب المقتس.

[واجب كل رؤيا متقنة الصنع ليس إماطة اللثام عن الاسرار ولما تكثيف غرابيتها...]

لم نسمه " الشيء" إلا لأنه مفهوم لا قبل للعقل بتحديدته ولا للخيل بتصوره. هو مثل أفق لا يدركه الماشي أو كمنطقة صمياء لا قدرة لأي نور على اضاءتها. هذا لا يمنع من مواصلة الحديث عنه والبحث فيه كما يفعل الفيزيائي وهو يرصد تحرك الكواكب والذرات بدقة متصاعدة دون فكرة واضحة نهائية عن طبيعة القوى الحقيقية التي وراءها.

يجب إذن إتمام البداية بما نتوفر عليه من أفكار تحافظ على الحد الأقصى من أهم الضوابط التي حدناها لأنفسنا أي مرة أخرى التجاوب مع متطلبات الفؤاد دون الخول في مواجهة مع متطلبات العقل.

لتساءل ماذا يريد "الشيء" من خلق -إيجاد عالمنا الأمني ناهيك عن كل العوالم الأخرى التي انقضت والتي لازالت أحلاما ومشاريعا؟

لكن هل من الممكن الرد على سؤال كهذا؟ من اين للقطرة أن تترك ما المحيط فما بالك أن تعرف ماضيه ومستقبله؟

نعم، لكننا افترضنا أن كل أمي شكل -حالة لحظة من "الشيء" مما يعني أننا نحمل جميعا إ بصماته وإنما لو انتبهنا لها لربما امسكنا ببداية الخيط الذي قد يقودنا خارج المغلرة الخيالية التي حبسنا فيها اقلاطون.

لنتشجع إذن ونعيد طرح السؤال الفخم الضخم لا يرهبنا أنه أكبر تحدي ولجهه وسبواجه العقل البشري: ما معنى وجود هذا العالم وما هدف " الشيء" من كل هذه العوالم التي لا ينفك عن خلقها.

توضيح ضروري عن الهدف والمعنى والمفهومان جد متقاربان.

لا أحد يوزقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناننا حتى لا تصاب بالتسوس. هنا يفرض الهدف المعنى ويستمد المعنى من الهدف معناه. لنتنبه للخيط الرفيع الرابط بين المفهومين. إنه بالطبع نفع الشيء للأدمي.

المشكلة أننا لن نذهب بعيدا بمفهوم النفع إذا أردنا اقامه في موضوع كهذا، في مستوى كهذا.

إن قلت إن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟ نفعه لإله ما؟ ما نفع الإله؟

بداية لا يمكن ربط معنى خلق العوالم بشيء مثل المنفعة.

لمزيد من توضيح عبثية الفكرة. عندما أقول إن هدفي في الحياة أن أخدم قضايا الإنسانية فلأنني مؤمن بأن بقاء الإنسانية أهم من بقائي. لكن هل لخلق -إيجاد العالم هدف أعظم يكون في خدمته؟ طبعاً وهو ذروة الأهداف الذي سيعطي لكل الأهداف الثانوية وجودها ومعناها.

"الشيء" أكبر من أن يأتي فعلاً ليكون نافعا لشيء أو أحد.

هو فوق هذا وذاك. كما إنه من العبث محاولة حصره في اسم وهو كل الأسماء، في كائن وهو كل الكائنات، في خصائص وهو كل الخصائص، في قصة وهو كل القصص.. من العبث البحث له عن سبب يفسر به وجوده وهو أصل كل الأسباب... عن هدف له وهو كل الأهداف...

بعبارة أخرى لا هدف " للشيء " وهو يخلق ويبدع ما يمر بخياله من عوالم غير خلق وابداع ما يمر بخياله من عوالم.

بالعودة إلى أعماق الذات تتضح بصمات النموذج الأصلي الذي تفرعت عنه كل النماذج. يحضرنني الآن أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثاً عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أو هموني وأوهمت نفسي زمناً طويلاً، إنما للكتابة نفسها لا غير.

هل للجسد من هدف أهم من متعة تحريك أجزائه وللماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزخر به من قدرات في مجالي الفكر والخيال؟

لنتذكر كم هدفنا ركضنا وراءه ليتضح لاحقاً أنه كان طمعاً وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيف الأحاسيس والمشاعر التي نخصرها من الجري وراءه.

ألا نصل هدفنا ركضنا وراءه إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمننا؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، مُنطلق طريق جديد؟

كم من أهداف جربنا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

أخيراً يمكن للرحلة أن تتواصل.

"كالموجة (لاوتسو).

على سطح المحيط

كلريح

بلا وجهة"

**[يمكن الآن إتلمام هندسة لبنة
الموت ليستقيم هيكل البناية]**

اعتبر الورقة التي تذبل وتنفصل عن الشجرة.
هي مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تُضمن لها البقاء حية
ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.
لكن هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق.
هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، يقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها
في كل غصن وفي كل ورقة.
بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة.
هي الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف
ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور.
لكنها أيضا العصارة. هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل
الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائلة. إنها نفس العصارة الموجودة في كل
الذوات الأدمية وغير الأدمية.
كورقة الخريف، تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصاريتها لا تموت
وإنما تواصل ضحى طاقاتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى.
مما يعني أن للذات جزء فاني... وأن لها جزء قديم قدم الحياة وأملمه فسحة من الزمان لا
أحد يعرف مداها.
لقاتل إن يقول، لكن الذات كأنن فريدٌ متميز يُصَيِّع الموتُ طرفته!
طيب، لكن ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الجسد؟
بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.
أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بلن تُعاش؟
انظر الآن كيف تحقق الرؤيا دون التعسف على منطق كل ما تريده الذات: القيلولة
الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف- وقد جفت فيها
العصارة... والتجدد المتواصل عبر كل الأوراق التي تنبت باستمرار.
هنا أشعر بك تهز الكتفين ولسان الحال يقول يا رجل تدعي أن الرؤيا ستخلصني من
خوف الموت وأنت تميّنتي ما لا يحصى ولا يعد من المرات كأن مودة واحدة لا تكفي.

نعم، لكن أتعي بكل ما تريح في رؤياي وأنت مثل نص فرغ من كتابة نفسه ما أن توضع نقطة الختام وإلا وهي العودة إلى السطر لقصة جديدة وهكذا إلى انتهاء " الشيء " من كامل تجربته الأدمية.

آخر لبنة في الرويا إذن خروج الذات من راحة العدم لتجربة جديدة في فن خلق العوالم ... ثم العودة عبر الموت للراحة كالتي تأتينا بالنوم بعد يوم حافل... ثم افقتها في شكل جديد لتجربة أخرى للوجود... وهكذا إلى تحوّل التجربة الأدمية برمتها إلى ملحمت أخرى لا قدرة الآن لخيال على تخيلها.

ليس هذا بالضبط ما عيّر عنه حدس الشاعر!

"أنا في الزمان كموجة في زاهر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي

أو مخرجي منه ولا بمبئدي"

**

وقال لهم الصدى أديتم ولا تزالون المهمة على أحسن وجه، لذلك حق علي أن اكافكم بالنوم ويلموت تصحبكم فيهما بركاتي

لا أحد يتنكر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أبقي لنا أبلغ وصف عن لحظات غر غرة الموت.

هكذا حكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به... هكذا حكم علينا أن ندخل العالم كمن يبرز من خلف ضباب كثيف وأن نخرج منه كمن يتوغل في ضباب أكثر كثافة.

لتعويض البيض في آخر صفحة قصة كل الذين حجّوا قبلنا لهذا العالم، يقدم النص باسمهم جميعا هذه الخاتمة التي لم ينسني لهم الوقت لكتابتها.

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقيل أن يصل بنا الطريق إلى مقترق الوداع الأخير، هَلَا تُشَبِّعْتُ فضولي بالرد على سؤال تابعتني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوما على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقًا كما أردت. في التفاصيل سيره ذاتي وفي الثوابت سيره كل ذات؟ يتصاعد من مكبر الصوت همس رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدّم حالاً إلى بوابة المغادرة.

يتوجه المغادرون إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه قلق لا ينجحون في إخفائه. بعضهم يجرون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثاً، سيصدرها موظفون لا يقبلون رشوة لضرورة بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا ضاعت طرافة كل عالم.

من مقعدي ببهو انتظار المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقيهم مثلي إلى آخر مقفقاته.

كم أودّ أن أسألهم واحداً واحداً: هل أنت مؤمّن يرتعش من الخوف جراء حسبتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم ملحدٌ مطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر للراحة الأبدية والتجنّد الأزلي؟ يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيص يبدو مقصودا وبنيرة تبحّرت منها محاولة الإغراء: لرجاء الآن من السيد غريب التقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أو اصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفعل اللامبالاة محاولاً التركيز على آخر عملية تنظيم ملفات لم تصلها حمى التيوبوب والتنظيم.

يتجدّد النداء بحدة تنم عن توتّر عصبي: المطلوب من المدعو غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو يتسوق في المحلات التجارية المغفلة من الجمارك، أو أن المنبه لم يرنّ في غرفة النزل، أو أنه رنّ فهشمه بقيضة يد نافذة الصبر. ربما لم يكمل بحثه ولم ينته من تدبّير تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّبك أيّ تقرير جدّي يمكنك كتابته وهذا عالمٌ تعبّره وأنت كمن يزور مدينةً سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... أو كقاعة سينما تدخلها لتشاهد فيلماً بدأ قبل وصولك بكثير ويطلب منا الخروج قبل نهايته حتى قبل أن تجد الوقت الكافي لاكتشاف أحسن مقعد ووضع للجلوس.

يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدم
لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حائلًا فسترى ماذا سنفعل بك.
كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخا هستيريا: آخر
إنذار...

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنتُ أتوقع؟ ظهور ذلك الورم
اللعين؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج أغلب أمراضى بالتجاهل، لكن ذلك النوع اليبليد من
الأمراض لم يتبخر لمجرد اعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة.
تفتّ فؤادك الأيام قفا وتحت جسمك الساعات نحنا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أننا
يصرخ الآن في المصدق كُكُر يبدو أنه أخذ الملفت على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلعت
روحنا، الله يطلع روحك.

يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص من يصدّق أن هذا اليبليد صدّع الرؤوس
بلشكوى من العالم ولم يفوت فرصة لثتمه وها هو الآن يماطل ويسوف ويؤخر لحظة
الرحيل عنه.

كم مرّة يجب أن أرند لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلاحية الرؤيا، ربما
لإعادة بنائها على دعامات مختلفة، فيهزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكبر
الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمك طلعت روحنا.

مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا مع العجلة
في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع.. نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة
أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكتونة لم أتمكن من فهمها ربما
لأنني لم أحتجهم بما فيه الكفاية.

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطبا من يسمع:
أنه من قوم حاول نبيهم أن يُعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن
صالحينا أكل كثيرا ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنبياه وأظافره بخشب
الطاولة.

حقا أغادر الوليمة جائعا؟ كلاً، بلثُ من الحياة كلُّ ما تقدر عليه من عطاء.
"طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوبات الأقرى
طلبتُ العلم

فأعطاني مشاكل للحلّ

طلبتُ الرضاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبتُ قدرة الطيران

فأعطاني عَقَبَات تُسَلِّقُهَا

طلبت الحبّ فأعطاني كانتات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصّلت على كل ما أحتاج " .

جميل لكن عليّ الإسراع بإتمام وصيتي والتأكد من خلّوها من الأغلاط.
وصيّة؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم
الذي تغادر!

يتواصل الشّدّ والجذب داخلي حتى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوما طيلة الحياة.

ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعي تعليم من لم تعلمه الرحلة أهم ما يجب ان يعلم؟

طبعاً ن العالم مُغامرة لم تَقَرَّر بعدُ مسازها ومرفأها لا مُعْطَى حُدُوت له خصائص ومهام
منذ الأزل ... أنه لا قدرة لبين، لفلسفة، لعلم، على استفاد ثرائه الفاحش وحراكه
المتفجّر... أنه يجب استكشاف ما تيسر منه، القلب مقسوح على مصراعيه وكذلك
العقل... أن أكبر خطر يتهددنا فيه تُلْد مزمن يُطْفئ فيه جنوة الاعجب والعجب... أن
الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: قائمة الأرباح على عود، على
العمود المقابل قائمة الخسائر... أن الفشل ليس ألا تنجح في تحقيق أحلامك وإنما أن
تتخلى عنها... أنه لا النجاح هدف الرحلة ولا أي فشل مهمما كان فشلها... أن النجاح والفشل
حالتان -أداتان- فرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا
أكثر من هذا ولا أقلّ..

صراخ متفانم الحذة وبداية تجمّع حولي. من هذا الغبي المنتصب ألامي؟ الغبيّ المعني
بلشّيمة، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربيت به على كتفي: يا الله، ألامي يا
فخامة الدكتور الأستاذ الحاج الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوّة.

تقول صارخاً أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث
النوايا، لُبنة مشقوفة من بناية متداعية سينة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين.

كيف تريدني أن أخذك على محمل الجدّ؟

ما لكم كلّم ضدي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقاً دوما مع رأيي حتى
أطالب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلط عليك نظرة أتكلّف فيها كل الممكن من البرودة عليها لتثير فيك قشعريرة الرعب:
اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، فك
تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله في
مؤخرته العظمية. أنذاك تنبّر أمرك معه وحاول تكنيبي إن ترك لك الوقت.

الثابت أنه مصرّ على ألا يهتم إلا بي وأنا وكئن له معي ثأر شخصي.

روايتان لما حدث بني وبينه في تلك اللحظة المفصلية.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضتُ من مقعدي خانقا مرتبكا، أنني لُرتُ البصر باحثا عن مهرب، أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عتقي أخذا بخناقي، أنني أفلتُ منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملَّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبي من تحت الأريكة صارخا أه يا ظهري، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصبح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لئُخفي بكاء الغيظ والقهير، أنني وقد جروني جراً من تحت الأريكة قفزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقي وأنا الممسك بخناقه، أن اللعين اكتشف الحنَّ فركض بي نحو الباب الدوار وأني بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شُغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الوصية، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تُفضل فأنت المدعو الشرفي، فتفضلتُ قاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أن المسكين ركض ورائي غير مُصَدِّق أنني لم أعضه كما كان يتوقع، هو الذي صدَّق حنن الكثيرين كلَّ الإشاعات عني، أنني غافلتُه لأصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى فاتحا ذراعي لما سيأتي.

يتوقف الطبيب عن إنعاش عثي محققا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أيبانث لشاعر فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسر أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثره، تتبعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبَرَّر. دمعة حارقة تسيل على خدِّ سيسكنه إلى الأبد الصقيع، تنرفها أصعب بنت على أصعب أب.

تندافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة.. أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لذة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تصومت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل بحبِّ جارف تصاعد من أعماقه وبأبيّ كلام يشيب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتقيحه ولية عيها... كم وقف عند هذا الجبل من زُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خائفة على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسر، ثم انصرفوا لا ينسون بنيت شفة... نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار! ترى ماذا أضافت قصتي إلى قصة العالم؟ أه ما الذي

تضيف القطرة الى المحيط...ما الذي تضيف حبة الرمل إلى الصحراء...؟ لا شيء
تقريبا... لكن هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّنهُ.. هل ثمة صحراء دون حبات
الرمل التي فيها... وهل للعالم قصة غير قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟
يُغمض الرجل عينين لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها
آخر تنكار قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق،
تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة
أصوات النساء. تصل موسيقى آدمي اسمه باخ ذروة الجمال والجلال والألمية تنضرع
إلى الرب بلهجة استعطاف الطفل لأبيه:.. Bleib bei uns.. كائنٌ الصدى نفسه هو الذي
ينفخ بقوة في مندبله هامسا: وهل غادرتكم لحظة لتطلبوني بل أن أبقى معكم!
لم يبق على المرتحل غير تحين لحظة القفز فوق آخر نوطه عائداً لبيته وراء ستار
الموت والمطية أجمل الأنغام.
يمس شبح الجد المهيب: لا تخف، الجسم مهياً للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة
الجماع ليسهل لك العبور.

الغريب العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء
الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت لجة في رحم
الخيال.

تتدافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

أه، أنت من كنت "ما"! مانا؟ أتعتبك كثيراً، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل
أخاطبك بالتأنيب أم بالتذكير وهل للأمر معنى "هنا"، على كل حال برفق، أحبيك
أدراك... من رأى "أين في الناس"؟ أخذ ملقه للمهمة الجيدة غاضبا وشتم كل من سلم
عليه بحرارة واختمنى! يسأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة
العقرب... أه، هذا أنت من لا عيني دور "ح"! لمانا لم ترد أو لم تردني على سؤالي وأنا
أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد... ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك
رأيت في مرآة ذلك أجمل صور ذاتي وأجمل صور الأمي، تقابلنا في حلم، عشنا في
حلم، نفترق في حلم. لم لا يكون لنا لقاءً جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ أه، لا فائدة من
تكرار نفس القصة. خلاص، انهبي أو اذهب في حال سبيلك... رجاء لا تعد إلى التدخين
تردد إنها سيجارتي الأخيرة... أه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ألم تخجل من
تركني وحدي لا أعرف مع من تسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران، غفرت لك أنك كنت
أول من بثّ فيّ هاجس الموت، حظ سعيد في رحلتك المقبلة وحذار من حصباء العوالم
المجهولة... أنت "هنا"! كنت أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ أه كنت
تمثل! طبعاً وأنا أيضاً، كنا كنا نمثل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنت
لاعباً ماهراً وخبيثاً، أجبرتني على أن أسأل من أعلمني كل طفاقتي لمواجهة ضربتك
الموجعة، وأنا أيضاً أوجعتك كثيراً! شكراً على اللقاء... وأنت، من أنت، لا أنتكرك؟ أه،

المسكين الذي عرض عليّ الزميلُ أكلَ كبدك ونحن نشرحك؟ كنتَ تسمعنا! ... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركّك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وحيثُ ظنك كما فررتُ أعالي العثيان! يا خروف سابقاً، أولاً لم يكن معي مالٌ كافٍ لشراكتك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتَ تريدني أن أفعل بكشمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام! ... على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طرفيتك، أن تنتفضَ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضاً وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمراً مفهوماً، لكن ما الذي دهاك لُجُزب شينا بغياء الوجود خروفاً؟ ... ماذا؟ تستغرب أن يصدر مني سؤال بهذا الغباء! ... وكيف أنني لم أفهم أنك لا تفاضل بين عوالمك لا يهمك إلا خلق كل الممكن منها.. لكن لماذا تريد خلق كل الممكن من العوالم؟ . أه فقط لخلق كل الممكن من العوالم.. أفحمتني، لم يعد في جعبة الطفل والكهل سؤال يقض مضجعه.

حانت اللحظة القدسية التي تتفكك فيها النصوص إلى الحروف الأولى، التي تتفكك فيها السمفونيات إلى الأصوات والصمت، اللحظة القدسية التي تُعيد فيها ليد الخفية خلط الأوراق ليتخذ الهباء أشكالاً لم توجد من قبل، لتتنظم الحروف في نصوص تجدد القصص، لتتجمع الأصوات في أصناف من الموسيقى لم تعرف سحرها ذاتاً.

اكتملت الرحلة والذات بلوجود نالت كل شيء. اكتملت لا بفك كل الأسرار وإنما بالنوبان فيها.

شينا فسينا تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة. يتوقف عازف البيانو عن النقر. يبهتُ تدريجياً بريق النجوم. تتلاشى ابتسامة خجولة من الأفق. يتعمق صمت الصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج لما يأتيها الأمر من القمر. انتهى العالم من جمع أشيائه وكل أدوات الإغراء.

داخل الذات الراضية المطمئنة للشيخ-الطفل ثقة مطلقة أنه راجع أخيراً إلى مسقط رأسه، إلى الوطن الذي لا غربة فيه، إلى ابن تشوقت ناته دوما للرجوع.

الذات الآن كقطرة عذرت السماء سحباً عرفت وقع السقوط على الأرض، ارتطمت داخل زخم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيق وتتجدد في أوسع ذات، في الذات الأوسع.. في الذات القُدوس.

"نقد الزيت (كبير)

صمت الطيل

استرخى الراقص

انطلقت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

اقتحي باب شساعتك يا عَمَّة، إنني جاهز ويا قوى النمار تَرَفَّقِي بِنَاتِي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعاقب اعطيها شجاعة المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق.
يدخل البخار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة المدّ انتهى جزر الزمن.
ما أن جذبت كفني على عيني (هايكو مهدي من الكاتب للذات الجميلة التي اسمها ليسا)
حتى تصاعد صراخي من ألف حنجرة
وأنا/أنت/نحن كل مولود جديد

**

أو كيف أن كل نهاية بداية وكل بداية نهاية

يتعالى صوتٌ تفلحة من وراء باب غرفة النوم تصرخ بأولمر لأبيها ولابتها لا يعبرها أي منهما أدنى اهتمام.
يا إلهي أبهذه السرعة مرت السنين! هذه الطفلة الجميلة ذات الثماني سنوات هي تلك الرضيعة التي طلبت منها أن تنقر بقبضتيها على مفاتيح الحاسوب لعنّ معجزة تحدث فترسم على الشاشة الأجوبة لكل الأسئلة التي وصفت باللعينة.
أهمس في أذن الطفلة:
- حبيبتي حرة، توقفي عن الصراخ، قد توقظي هناء.
- جُدِّي! هناء شربيرة تأخذ دائما أقلام الملونة و ...

هكذا أبدع من وحي خياله علمنا هذا،
عالم لا مجال فيه للنظام نون الخواء، للحياة نون الموت،
لا حرك فيه إلا وهو صراخ تعاضد الأضداد،
لا سكنون إلا استعدادا للكز والفز،
لكل في أكل وماكول، الكل فريسة وصياد،
عالم مرعب مبهير لا حدود لقسوته، لا نفاذ لعطاياه،
لبناء والهدم من الأزل، الدمار والإعمار إلى الأزل،
على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بالأم النقص والخلل.
على أحسن حال ونواليبه الصامته تعذل كل عيب بدكاء عجيب.
علم على الدوام جديم وسط الجئة، جئة وسط الجديم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والأدمية الفاعل، المفعول بها والفعل،
ينبلور "الشيء" فيها تبلور الفنان في أروع أعماله،
مستكشفًا جيلًا بعد جيل، ذاتا بعد ذات، قصة بعد قصة،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار ومن الأعمال،
ما لم يعيش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده المتعة والألم، النجاح والفشل، الهزيمة والنصر،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكاوبوس تأتي كالحلم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى، كما لو كنت رهاؤه الأخير،
يواصل سبر أغوار خلو ومزّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كلاً شيء لأنه الجزء في الكل،
الإنسان شيء ليس كمثل شيء لأنه الكل في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، لا غاية للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو عن هدف،
الموت تفكيك القديم لتكوين الجديد بنفس اللبانات،
عند هذا المنعطف من طريق لا تعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلاندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك توجت هامتك بإكليل الغار أو الشوك،
كيف ولا وقد أوجدت عالماً بأسره، ارتحلت بين أهواله وروائعه،
وأنت شيء من "الشيء" يمضي على قدمين.*



أستاذ في الطب الاجتماعي بكلية طب سوسة (1982-2000) وباريس (2001-2004)
ترأس منظمات تونسية وعربية وإفريقية للدفاع عن حقوق الإنسان (1987-2011)
رئيس الجمهورية التونسية الأسبق (2011-2014)
كاتب له العديد من المؤلفات في الطب والسياسة والفكر باللغتين العربية والفرنسية
صنّفته مجلة فورين بوليسي الأمريكية من بين المائة المفكرين الكبار في العالم لسنة
2012 وصنّفته مجلة تلجم من بين المائة شخصية الأكثر تأثيراً في العالم لسنة 2013.
حاصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة تسوكوبا اليابانية سنة 2013

الكتاب

‘تأنيبي تدريجياً رغبة التدوين للرحلة بمفهوم المعزي لا بمفهوم ابن بطوطة. ألم أجعل شعاري في الحياة: “على قدر أهل العزم تأتي العزائم” فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق؟ أهرز الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا. من أين للسرور أن يجدد في رواية رحلة الإنسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟ من أين للوصف أن يصف عالماً لا ه وصف؟ من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاماً ذا قيمة في عالم سقه كل ما قيل فيه من أقوال؟“